المركز القومى للترجمة





إدواردو تودا

عبر وادى النيل

ترجمة: السيد محمد واصل

مراجعة: محمود السيد على

1457



لى أن أؤكد بعد أن طفتُ معظم بلاد العالم أنه لا يوجد شعبُ فى الدنيا أعجب ولا أمتع من الشعب المصرى، ففى أرضه يختلط الحاضرُ بالماضى بشكل لا مثيل له، حيث تختلط أحداث اليوم وذكريات الأمس بتراث تليد... على هذه الأرض تواعدت أجناس وازدهرت حضارات بلغت أعالى النيل حاملة ثمار عبقرية المصرى إلى بلاد إثيوبيا والسودان، وعلى هذه الأرض ربط المقدونيون والإغريق والرومان والبيزنطيون والعرب والأتراك تاريخ مصر بتاريخ أكثر شعوب أوربا أهمية، بَيْد أنها اليوم صارت شاهدًا على قدر كبير من التخلف. وإذا كان التدخل الأوربى يبرر اليوم وجوده بأن هدفه تطوير مصر فإنه فى حقيقة الأمريعمل على تدميرها والقضاء على استقلالها.

عبر وادى النيل

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1457
- عبر وادى النيل
- إدواردو تودا
- السيد محمد واصل
- محمود السيد على
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة كتاب:

A Través
DEL EGIPTO
Par: Eduardo Toda Y Güell

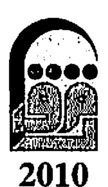
شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. , Opera House, El Gezira, Cairo
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com **Tel:** 27354524 - 27354526 **Fax:** 27354554

عبر وادى النيل

تـأليف : إدواردو تـودا

ترجمة : السيد محمد واصل

مراجعة : محمود السيد على



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

تودا، إدواردو
عبر وادى النيل/ تأليف: إدواردو تودا، ترجمة: السيد محمد واصـــل، مراجعة: محمود السيد على؛
ط ١ – القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٠
٥٧٦ ص، ٢٤ سم
١ – مصر – تاريخ
(أ) واصل، السيد محمد (مُترجم)
(ب) على، محمود السيد (مُراجع)
٢ – العنوان ٩٦٢

رقم الإيداع: ١٧٥٦١ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولى: I.S.B.N - 978 - 977 - 479 - 565 - 1
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافــاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

الفصل الثلاثون:

مقدمة المراجع

ظلت مصر تستأثر باهتمام المؤرخين والكتاب الأجانب منذ عصر هيرودوت حتى العصر الحديث. وشهدت فترة حكم الأسرة العلوية ازدهارًا واضحًا فى هذا المجال نظرًا لانفتاح مصر على العالم بعد فترة عزلة استمرت قرابة ثلاثة قرون من الحكم التركى لمصر. ويعد مؤلف الكتاب واحدًا من عشرات المؤلفين الذين تناولوا جوانب الحياة المصرية بالرصد والتحليل فى مجالات، عدة بحكم شغفهم بالحياة الشرقية التى طالما قرأوا عنها ونسجوا لها صورًا مختلفة فى مخيلاتهم كانت صادقة حينا ومخيِّبة للآمال أحيانًا.

وتكمن أهمية الكتاب الذى نحن بصدده الآن فى أنه يؤرخ لحقبة تاريخية فى غاية الأهمية، إذ يرصد أطماع الدول الأوربية فى مصر وطموحهم للاستيلاء على خيراتها، ويؤرخ للثورة العرابية من وجهة نظر أوروبية، كما يطلعنا على مؤامرات كانت تُحاك سرًا للاستيلاء على منابع النيل، وكانت تمولها دول بعيدة عن مسرح الأحداث – مثل إيطاليا وإسبانيا – لكنها كانت تتحيّن الفرصة للانقضاض على مصر والنيل من خيراتها.

ليس ذلك فحسب، إن الكاتب يطلعنا على حياة الطبقة الحاكمة من الداخل وعلى أدق أسرارها بحكم عمله كدبلوماسى، بدءًا من أسرة محمد على ومرورًا بنوبار باشا وانتهاءً بالوزراء وعلية القوم. وأكثر ما جذب انتباهى فى هذا الكتاب وكان عونًا لى على إتمام ترجمته – رغم صعوبة أسلوبه – كانت تلك اللوحات التى يرسمها الكاتب بأسلوب أدبى جميل للطبيعة البكر وحياة الفلاحين بأدق تفاصيلها، والموالد وما رآه فيها والأعياد والمناسبات الدينية والقومية ومراسمها، مما يعد مرجعًا لا غنى عنه لمن أراد الاطلاع على شرائح المجتمع وعاداته وتقاليده إبان حكم الخديو توفيق لمصر.

وفضلاً عما أسلفنا، فإن الكتاب يعد مرجعًا للمتخصصين فى التاريخ والآثار والمرشدين السياحيين إذ إن الكاتب نوّه بذلك عند قولـــه إن الكتـــاب يعـــد دلـــيلاً للسائحين فى عصره للوصول إلى الآثار منذ ما يربو على قرن من الزمان، ممـــا يساعد على تكوين صورة نابضة بالحياة لكل ما يرونه.

يبقى أن أنوّه على قصد مَن قاموا بهذا العمل إلى تبسيط المعلومات الـــواردة عن طريق اختيار المصطلحات الأكثر تداولاً، وإيضاح ما يمكن أن يسبب التباسًـــا فى الفهم أو يصعب على القارئ غير المتخصص، لأن الغرض من نقـــل الكتـــاب للعربية هو الوصول بوجهة النظر الغربية إلى أكبر عدد ممكن من القراء خاصـــة وأن وجهة النظر تلك إنما كتبت فينا ونحن موضوعها. ونحن بـــذلك إنمـــا نرجـــو التقريب بين الثقافتين – ثقافة الكاتب الغربية وثقافتنا الشرقية – وأن نمد جسرًا من جسور التواصل غاية فى الأهمية لأنه يطلعنا على الآخر وعلى صورتنا فى عينيه، خاصة وأن وجهة النظر الأوروبية فى الشرق حتى الآن إنما وضع لبناتها الأولـــى كاتبنا وأقرانه من المستشرقين الأوائل.

* * *

ولد إدوارد تودا يوم التاسع من يناير لعـــام ١٨٥٥، فـــى مدينـــة "ريـــوس، عاصمة تاررجونا، من أعمال إقليم قطالونيا الإسبانى' حيث أتـــم تعلميـــه الأولـــى والثانوى زميلا للمهندس المعمارى الإسبانى الأشهر أنطونيو جادوى، حيث انـــضم فى الخامسة عشر من عمره لمحررى مجلة "الصدى" الصادرة عن "مركز القراءة".

أما المرحلة الجامعية فقد درس فيها الحقوق وحصل على درجة الليـــسانس فى القانون المدنى من جامعة مدريد عام ١٨٧٣.

التحق فى ذات العام بالسلك الدبلوماسى الإسبانى، ليبعث فى أوائـــل ١٨٧٦، قنصلا لإسبانيا فى الصين، حيث أمضى ست سنوات تنقل فيها بين هونج كـــونج، وكانتون، وشنغهاوى وكتب العديد من المقالات والدراسات مبرهنـــا علـــى ولعـــه بتاريخ وحضارات الشرق الأقصى لاسيما اليابانية والصينية، التى نشر عنها كتابـــا عام ١٨٩٣، بعنوان "تاريخ الصين" كما زار عام ١٨٨٣، إثر انتهاء مهمتـــه فـــى الصين كوريا واليابان وعددا من جزر المحيط الهادى. التحق إثر عودته من مهمته فى الشرق الأقصى – فى سياق اهتماماته الأدبية والثقافيـــة – منتـــدى الـــشعراء والحركة الأدبية الكاتالانية.

بدأ عام ١٨٨٤ – شابًا يناهز التاسعة والعشرين من عمره – رحلتـــه إلـــى مصر قنصلاً عاما لإسبانيا فى القاهرة حتى عام ١٨٨٦، ثم عين فى عـــام ١٨٨٨ قنصلا فى جلاسجو، وبعدها بعامين هلسنكى، كاجليارى – إيطاليا عام ١٨٩١ – ثم كنجستون – جاماكيا – لينتقل إلى القسم التجارى بوزارة الخارجة، فيبعـــث علـــى التوالى إلى جواياكيل – إكوادور – ثـــم بـــاريس، وجبـــل طـــارق، وبروكـــسيل، والجزائر، والولايات المتحدة الأمريكية فيعود منها إلى باريس أمينًا للجنة الإسبانية التى وقعت فى ديسمبر ١٨٩٨، اتفاقية السلام مع الولايات المتحدة الأمريكية التـــى فقدت بمقتضاها إسبانيا آخر معاقل إمبراطوريتها فى أمريكا اللاتينيـــة والفلبيـــــن. عمل إثر ذلك فى هامبروج ثم لندن التى اختتم بها حياته الوظيفيـــة الحافلـــة التـــى أمضاها راحلا أبدا بين مختلف ثقافات العالم.

على مشارف الشيخوخة عاد ليستقر في مسقط رأسه بداره، التي شرفت بزيارتها عام ٢٠٠٥، وتفقدت محتويات مكتبتها العظيمة وذكرياته التي جمعها من مختلف أقطاب الأرض، بيد أنه هجر الدار والمكتبة عام ١٩٣٠، ليرأس لجنة ترميم أحد الأديرة مقيما في دير "ثيستر" حتى وفاته في السادس والعشرين من إبريل عام ١٩٤١ عن عمر يناهز ٨٦ عاما.

أسفر اهتمام إدواردو تودا بمصر وعلم المصريات عن خمسة كتب مهمة ترجمت إلى العديد من اللغات، نذكرها فيما يلي مرتّبة بتاريخ نشرها:

١- سيزوستريس، مدريد، ١٨٨٦.

٢- الموت في مصر القديمة، ١٨٨٧.

٣- سن نجم في طيبة، قائمة بمحتويات ونصوص مقبرة مصرية من الأسرة العشرين، ١٨٨٧.

٤- المومياوات الملكية، ١٨٨٧.

٥- عبر وادي النيل، ١٨٨٩.

يلاحظ القارئ فيما تقدم أن جُل اهتمام تودا، رغم الفترة الزمنية القصيرة نسبيًا التي أمضاها في مصر قنصلاً عامًا لإسبانيا وامتدت قرابة عامين - ١٧ إبريل ١٨٨٤، إبريل ١٨٨٦ - أثمرت الكتب الخمسة سالفة الذكر التي انصبت على دراسته للحضارة المصرية القديمة التي شغف بها حبًا فجعلت منه الرائد والأب الروحي لعلم المصريات في إسبانيا، وأن جهوده واكتشافاته كفلت له أن يحفر اسمه إلى جانب كبار علماء المصريات الغربيين بالمتحف المصري، وأن كتابه هذا "عبر وادي النيل" جاء تتويجا لكل ما سبقه من دراسات في هذا المضمار.

فى السابع عشر من إبريل ١٨٨٤، وصل تودا شابا يناهز التاسعة والعشرين من عمره، ميناء الإسكندرية التى لم تحسن – على حد قوله – استقباله، ورغم ذلك خصص بها أربعة فصول وصف فيها المكونات البشرية والطبقات الاجتماعية التى تعج بها لسكان المدينة من مسلمين وأقباط ويهود وإفرنج، أصولهم والأعمال المفضلة لكل منهم، ومظاهر الحياة فيها وأحيائها السكنية، لينتقل بعد ذلك إلى تمرد عرابى والتدخل الأجنبى فى مصر.

ثم ثنى على ذلك فى الفصل الثانى بالحديث عن التنوع البشرى لسكان مصر وأصولهم القديم منذ الحقبة الفرعونية حتى الفتح العربى، لينتهى بإحصائية عن الأقليات؛ عدد الأجانب الإفرنج طبقًا لإحصاء ١٨٨٢. فى ذات الوقت الذى خصص فيه الفصل الثالث لنشأة مدينة الإسكندرية منذ أن وضع الإسكندر الأكبر حجر أساسها مرورا بالبطالمة والرومان حتى الفتح العربى، ثم أفرد جزءًا كبيرا لآثار الإسكندرية والحركة العلمية والفلسفية فيها.

فى طريقه إلى القاهرة توقف فى جميع المناطق الأثرية بالدلتا التى لم يولها اهتمامًا كبيرا نظرا للحالة المتردية لأطلالها، بيد أنه أقام بعض يوم فى طنطا، حيث عاش احتفالات مولد السيد البدوى وقدم وصفًا تفصيليا دقيقًا لمظاهره الدينية والاجتماعية.

عندما استقر به المقام فى حى الفجالة بالقاهرة وبعد تقديم أوراق اعتماده راح يولى عناية خاصة بآثار المعادى والجيزة، ففى السابع عشر من فبراير ١٨٨٥، توجه بصحبة قافلة من ١٢ مرافقا مسلحا يمتطون الخيل وأربع جمال تحمل المؤن منطلقا من مدينة البدرشين إلى ميت رهينة، حيث أقام بذات الدار التى أنشأها عالم الآثار الفرنسى "أوجست مارييت" خلال فترة بعثته التى اكتشفت خلالها السرابيوم من نفس الدار انطلق تودا لدراسة آثار منفيس، وسقارة، الهرم المدرَّج وآثار الفراعين أوناس، تيتى وبيبى من الأسرتين الخامسة والسادسة، واختتم بعثته الأولى بتفقد آثار دهشور.

أما بعثته الثانية فقد شملت جنوب مصر حتى الشلال الأول، وقد أتاحت لـــه علاقته اللصيقة مع "جاستون ماسبيرو" مرافقته في رحلته التفتيشية الكشفية السنوية بصحبة كبار علماء المصريات من الأجانب، وبدأت من القاهرة في الـــسابع مـــن يناير ١٨٨٦، فزار خلالها أهرام ميدوم، واللشت، كما زار في مصر الوسطى آثار بني حسن، وتل العمارنة، ثم آثار أخميم، وأبيدوس، ومعابد الأقصر. كمـــا شـــارك بتعليمات من ماسبيرو في عمليات كشف وجرد لعدد من المقابر منها مقبـــرة ســـن نجم، التي يعزى اكتشافها لتودا شخصيًا. وفي إطار ذلك نشر نتيجة كشفه وترجمة لنصوصها الهيروغليفية في كتابه "المومياوات الملكية" الصادر عام ١٨٨٧، ويعـــد اليوم وثيقة لا غنى عنها لدارسي هذه المقبرة.

في نهاية الرحلة الاستكشافية، زار آثار أرمنت وإسنا وجبل السلسلة، وكـــوم أمبو وأسوان وكانت زيارة معبد إيزيس في جزيرة فيلة آخر مهامه في رحلته عبر وادي النيل.

رغم أن تودا، على ما ذكرناه آنفا، يعد الأب الروحي ورائد علم المصريات في إسبانيا ورغم أنه كان من الطبيعي أن يخصص الجزء الأكبر من كتابه العمـــدة "عبر وادي النيل" لمادة تخصصه الرئيسة وهي الآثار المصرية فإنه لم يقـــدم لنـــا جديدا في هذا الشأن إلا تسجيلاً وتوصيفًا – لا يخلو من الدقة – لما كانـــت عليـــه الآثار المصرية القديمة التي زارها خلال مدة إقامته، بل أن الجديد فيه ولا غرابـــة في ذلك، أنه لم يستطع الفكاك من سحر مصر والمجتمع المصري الذي خـــصص لهما الجزء الأعظم من مجمل صفحات الكتاب التي بلغت فـــي نـــصها الإســـباني أربعمائة وثمان وخمسين صفحة، قدم فيه صورة حية للمجتمـــع المـــصري الـــذي عاشه من الداخل إنسانًا تعامل وتفاعل مع مختلف طبقاته مـــن الـــدنيا والوســـطى والراقية إلى الطبقة الحاكمة، وتشي بذلك بنية الكتاب ذاته التي نوردها هنا، دلـــيلا للقارئ ودلالة على ما نراه.

أتى هذا الكتاب الذى طبع يوم السادس من يونيو عام ١٨٨٩، فـــى ثلاثـــين فصلاً خص كلاً منها بموضوع أو موقع جغرافى، وفصله على النحو التالى وثيقـــة وشاهد عيان، صورة للمجتمع إبان هذه الفترة:

١- الإسكندرية، ثورة عرابى والاحتلال الإنجليزى.

٢- سكان مصر.

٣- الإسكندرية القديمة: البطلمية، الرومانية، الفتح العربى.

٤- ضواحى الإسكندرية: الرمل، قصر كليوبـــاترا، كليوبـــاترا وعلاقتهـــا بيوليوس قيصر ومارك أنطونيو، معركة أكتيوم.

٥- الدلتا: أطلالها، سكان الدلتا الأوائل، أبو قير، دمياط، تانيس، تل بـــسطا، طنطا، احتفالاتها، مولد السيد البدوى ومواكبه الدينية.

٦- الزراعة فى مصر: السكان، توزيـــع الملكيـــة وقوانينهـــا، الفلاحـــون: حياتهم، أفراحهم، أتراحهم، الزواج، حياة الفلاحة المـــصرية أعمـــالهم، وحرفهم، نوعية المحاصيل الأمراض والأوبئة.

٧- أحياء القاهرة وسكانها: الحى الإفرنجى، الإسماعيلية – العباسية، الحـــى التركى، المدينة العربية، البازارات، خان الخليلـــى، القـــاهرة القديمـــة، ضواحى القاهرة – هليوبوليس – قلعة صلاح الدين – المقطم – مقـــابر السلاطين والخلفاء.

٨- الإسلام، الدعاة، نموذج من خطبة الجمعة، مساجد القاهرة، المحـــراب، المنبر، الوضوء، العاملون بالمسجد، الأئمة والوعاظ، العلماء، الفقـــراء، المؤذنون... إلخ.

٩- مسجد السلطان حسن، الباب، الصحن، المدارس الفقهية، مؤسس المسجد، السلطان حسن والأحداث المهمة التى جرت أثناء حكمه، وفاته، النقوش الموجودة على جدران المسجد.

١٠- الجامع الأزهر: إنشاؤه، أبنيته، أهميته مركزا للتعليم العالى، برنامج الدراسة فى الأزهر، حياة الطلبة، مسجد السلطان قلاوون، المورستان – مسجد عمرو بن العاص: أعمدته، مسجد السلطان طولون، مسجد قايتباى.

١١- القاهرة القديمة: الفسطاط، تاريخ نشأتها، السلاطين، مسجد السلطان الحاكم، حياة الحاكم، أغراضه مع النساء، أفكاره الدينية، بدع إسلامية، وفاة الحاكم، دروز لبنان.

١٢- غزو الأتراك لمصر: الخديو توفيق، الأميرة أمينة هانم، سهرات القصور، عيد الأضحى، قصر عابدين، مسيرة الدبلوماسيين – المجتمع الأوربى فى القاهرة، منتزه شبرا، حدائق الأزبكية.

١٣- المجتمع التركى فى القاهرة: قصور الباشاوات، وزواج الأتراك، الحياة الخاصة فى الحريم، الأميرة نازلى، قصرها فى المحمودية – غراميات ومغامرات مع الجوارى.

١٤- المجتمعات المشرقية فى القاهرة: السوريون – طباعهم – نساؤهم – أخطاء تربيتهم – مثال الفتيات السوريات، الأرمن – تردى الوضع الاجتماعى لفتيات هذه الجنسية، نوبار باشا – حفل زواج "إيرانوى مايريديان" – وصف الحفل.

١٥- المجتمع المصرى فى القاهرة: مراسم الزواج، الأسرة، المرأة، مولد الأبناء، الختان – الوفاة والعزاء – المقابر الإسلامية – الحمامات – الموسيقى العربية، الأغانى الشعبية المصرية – الشائع منها الآن. عادات الطبقات الاجتماعية اللهو الغناء الشعبى نصوص بعض الأغانى، نصوص جداريه دينية وغزلية، ورسائل المحبين.

١٦- الأعياد والاحتفالات الشعبية: رأس السنة الهجرية – طريقة حساب الوقت في مصر، التاريخ الهجرى، عاشوراء – اجتماعات الشيعة في مسجد سيدنا الحسين – الأضحية، المواكب الدينية – شهر رمضان – الحج ، كسوة الكعبة والمَحمل – مولد النبى، اللهو. المحال الدينية.

١٧- تدمير الآثار المصرية، الاتجار في الومياوات قديما، الموميا وات في الطب الإسبانى، آراء الدكتور فيليكس بالاثيوس، متحف بولاق، قاعة المومياوات الملكية، ضريح الآلهة، أفكار مصرية حول السماء والموت، المومياوات، ملابسها، زينتها، توابيتها.

١٨- المقابر المصرية القديمة: البئر، الغرف، زخارف الجدران، الشواهد، القرابين، الأوانى، الطعام، الأثاث، القرين، التماثيل، الصور الإلهية، الأوشبتى أو المجيب، الأحجبة، الحيوانات.

١٩- نهر النيل: الفيضان، أسباب الفيضان، فتح الخليج، الاحتفال في مصر القديمة، آراء غريبة حول أصول النيل، جبل القمر، الصحراء المصرية، عواصف الرمال، الجمل.

٢٠- أهرامات الجيزة: الطريق إليها، الآثار، الأهرام كما رآها عبد اللطيف في القرن الثانى عشر، تدمير سلاطين مصر لها، خرافات، اكتشافات في الجيزة، أبو الهول، معبد الوادى، خصائصه، المصاطب، طريقة إدارة المقابر المصرية القديمة.

٢١- أطلال منف.

٢٢- نظرة عامة للنيل: آثار المنيا، بنى حسن، تل العمارنة، ملّوى، منفلوط، أخميم، أسيوط.

٢٣- الوصول إلى طيبة: تاريخها، تدهورها ودمارها، معبد آمون، التنقيب، اكتشاف تمثال سيزوستريس، الكرنك، وادى الملوك.

٢٤- الضفة الشمالية للنيل فى طيبة: تمثالا ممنون، زيــارة الإمبراطــور أدريان، الرامسيوم، معبد القرنة، دير المدينة.

٢٥- وادى الملوك أو باب الملوك: دفن ملوك مصر، لــصوص المقــابر، مقبرة سيتى الأول، وصفها، مقبرة رمسيس الثالــث، وصــفها، مدينــة هابو.

٢٦- مدينة الموتى فى جبل العين، إسنا ومعبدها الرومانى، إدفو، محــاجر جبل السلسلة، كوم أمبو، المسافة فى النيل من القاهرة إلى أسوان.

٢٧- الوصول إلى أسوان: حالتها الراهنة، محاجر الجرانيت، الــشلالات، جزيرة فيلة، معابدها، الملاذ الأخير للديانة الأوزيرية.

٢٨- الاحتلال الإنجليزى والمسألة السودانية: تمــرد محمــد أحمــد فــى كردفان، الجنرال جوردون، حملاته الأولى فى مصر ١٨٧٤، عودتــه ١٨٨٤، وفاة جوردون، انسحاب الإنجليز إلى الشلال الأول.

٢٩- مشروع ضم بلاد البحر الأحمر وأعــالى النيــل للتــاج الإســبانى، مشروعات الغزو فى القرن الثامن عشر، مذكرات بارتلوميه بانكوربو، الكونت إسنيبال، معلومات تاريخية حول مشروع الضم، فيليب الخامس، ملك إسبانيا يصرح له بتسليح سفينتين، خروجه مــن مينــاء كاديــث، القرصنة فى الرأس الأخضر، نهاية الحملة.

٣٠- قناة السويس: أول قناة فى مصر، وصف هيرودوت لهــا، القنــوات البطلمية، دمارها، إهمال العرب، مشروع نابليون الأول، شركة فردناند دليسبس، وصف القناة، موقف إنجلتــرا، الــسويس، عيــون موســى، الإسماعيلية، بور سعيد، نهاية الرحلة.

*   *   *

لا تتمثل أهمية هذا الكتاب فقط فيما أنشأه صاحبه، بل أيضا فيما تضمنه من اثنتين وثلاثين لوحة توثيقية دقيقة الرسم لآثار فرعونية وإسلامية وشخصيات تمثل مختلف طبقات الشعب المصرى.

هذا كتاب يقدم صورة صادقة توثق فترة من أهم فترات التاريخ المصرى الحديث ليس السياسى فقط، بل الأهم منه، من وجهة نظرنا، أوصاف المصريين الذين يصفهم الكاتب فى الفصل الثانى عشر بأنهم أكثر الشعوب تسامحًا على وجه الأرض.

ولا يسعنى فى نهاية الأمر إلا أن أُثنى على الجهد الكبير الذى بذله مترجم هذا الكتاب، لاسيّما أن النص قد صيغ بلغة إسبانية صعبة ترجع إلى أواخر القرن التاسع عشر وجهده الجلىّ فى إيضاح كثير من اللبس، وتعليقاته المفيدة على بعض المسائل فى هوامش الصفحات.

ونحن – إذ نقدم هذا العمل المهم للمكتبة العربية – نستميحكم عذرًا إذا صادفكم فى جنباته غموض فى الأسلوب أو غرابة فى الموضوعات أو الأسماء التى أوردها الكاتب، ذلك أن أمانة الترجمة تقتضى المحافظة على أسلوب الكاتب قدر المستطاع خاصة إذا كان مقصودا ويخدم السياق بطريقة أو بأخرى.

والله من وراء القصد

محمود السيد على

القاهرة فى ١٥ – ٥– ٢٠٠٩

المقدمة

منذ عدة عقود، وحتى الآن، أخذ الهوس بكل ما هو مصرى فى الازدياد بين المثقفين والجهلاء على السواء. وكلما ذُكر سواء بحاضره أو ماضيه تولّد اهتمام شديد, فسواء بعظمته فى الماضى أو فقره فى الحاضر, وبالصراع السياسى الذى سببته أطماع إنجلترا الأنانية أو الصراع الاقتصادى الذى قد ينشأ عندما تتوقف الملاحة فى قناة السويس لأى سبب من الأسباب, يشكل كل ذلك أسبابًا كافية لجذب الانتباه العام تجاه بلد يبدو أن العناية الإلهية قد اختارته ليلعب دورًا مهمًا فى التاريخ.

وبالإضافة إلى ذلك، تعد مصر القديمة اليوم موضوعًا مفضلاً للدراسة. فالأبحاث العلمية الحديثة كشفت لنا عن مظهر جديد كلية, فهذه الأرض كانت مهدًا لجميع السلالات التى عمّرت الأرض, ومهدًا لكل العلوم والآداب وربما أيضًا المبادئ الأولية لديانتنا.

وتحوز الآثار المنتشرة على ضفتى النيل الإعجاب سواء بقدمها أو عظمتها, وعندما يتأملها الزائر مشدوهًا تبدو له كأنها شهود صامتة على ما أبدعه الإنسان طوال سبعين قرنًا من الزمان.

ولى أن أؤكد بعد أن طفتُ معظم بلاد العالم أنه لا يوجد شعب فى الدنيا أعجب ولا أمتع من الشعب المصرى، ففى أرضه يختلط الحاضر بالماضى بشكل غريب، فأحداث اليوم تموج مع ذكريات الأمس وتقاليد الزمن البعيد وعليها كانت كل الأجناس على موعد، وفيها تطورت كل الحضارات التى صعدت أعالى النيل حاملة ثمار عبقرية المصرى إلى بلاد إثيوبيا والسودان.

وقد ربط المقدونيون والإغريق والرومان والبيزنطيون والعرب والأتراك تاريخ مصر بتاريخ أكثر شعوب أوربا أهمية، بيد أنها اليوم صارت شاهدة على قدر كبير من التخلف. وإذا كان التدخل الأوربى يبرر اليوم وجوده بأن هدفه تطوير مصر فإنه فى حقيقة يعمل على تدميرها والقضاء على استقلالها. وقد يمحو هذه الأمة القديمة من الخرائط الجغرافية.

كان الهدف الرئيسى من هذا الكتاب هو وصف هذه المنطقة الشيقة بكل مظاهرها تمامًا كما رأيتها خلال إقامتى فيها. وأريد تجنب التقسيم إلى حقب تاريخية أو إلى موضوعات, وأرفض كل منهج للتقسيم الموضوعى يجعل هذا الكتاب جافًا. فعندما نحط الرحال فى الإسكندرية أو عندما نصل القاهرة نرى فى شوارعهما حياة العربى الحديث كما نرى المجتمع الأوربى فى الأحياء الفرنسية, فى ذات الوقت نتأمل آثار العصور القديمة فى ضواحيهما. وسنطوف بمدن دلتا النيل كى نشرح ما هى عليه وما كانت عليه, وإلى الحقول لنرى الفلاحين منخرطين فى أعمالهم, وإلى العاصمة لنرى كيف تأسست السلطنة العربية وكيف تكون الحياة فى البلاط وفى مجتمع الأتراك والشرقيين.

وبعد ذلك نركب النيل عبر مسافة تصل إلى ٩٠٠ كم. ونشرح بالتفصيل المبانى الموجودة فى منف وطيبة، ونشاهد أحدث الاكتشافات الأثرية فى الجبانات, ونلاحظ الخُلق الذى يتجلى أمامنا فى هذا البلد، وخصائص البشر الذين يقطنون جنباته. وعندما نصل إلى حدود النوبة بعد أن نزور معابد فيلة الفخمة – التى ظلت عبادة أوزيريس العتيقة قائمة بها حتى عصر جستينان – سنعود إلى البحر المتوسط كى نوَدع مصر من مكان العمل العظيم الذى أبدعته عبقرية عصرنا على أرضها, ألا وهو قناة السويس.

وسوف تكون الرحله مسلِّية، والمشاهد التى نراها متنوعة وطريفة لأقصى ما تتخيلون. سوف أتحرى الإيجاز والاختصار مع الدقة وسهولة الفهم فى الوصف, وأتمنى ألا أُجْهد من يريد اتباعى، وألاَّ أجعل ما من شأنه أن يكون تسلية مفيدة شيئًا مملاً ورتيبًا. وسوف أضع أكثر ما زرته أهمية فى دليل متواضع للسائح, وعندما أتوقف أمام تلك الآثار التى تثير الدهشة بأحجامها وأشكالها والأشياء التى تثير الإعجاب لإبداعها, وأولئك البشر المختلفين تمامًا عن شعوبنا بعيدًا عن الاستغراق فى أبحاث مطولة, وسوف أترك للرسام الذى يرافقنى مهمة رسم أهم ما يعن لناظريْنا بريشته.

وبقدر ما لدى من عزم أكيد، وإرادة حازمة فى هذا العمل، بقدر ما أطلب من قرائى أن يتحلوا بالرفق فى الحكم عليه.



صورة رقم (١)
رأس مومياء من طيبة
متحف الآثار - مدريد

الفصل الأول

الإسكندرية

فى شهر إبريل لعام ١٨٨٤، غادرتُ التانجورى- وهو أحد مراكب أسطول شبه الجزيرة الشرقية الإنجليزى على سواحل مصر- بعد رحلة غاية فى السوء عبر البحر الأدرياتيكى ومجموعة الجزر اليونانية.

طالما تمنيت زيارة أرض الفراعنة التاريخية، ومنذ ساعات الصباح الأولى وعندما لاح لنا الشاطئ قمت بفارغ الصبر بالإجراءات الضرورية لمغادرة المركب بمجرد أن شُدّت أحباله إلى رصيف الشركة، ثم صعدت إلى ظهر المركب وتأملت بالمنظار المشهد الذى أخذ يتضح أمام عينىّ.

أشرقت الشمس فى الأفق البعيد بين ضباب الصحراء الخفيف، فبعثت بأشعتها الذهبية الصافية التى تميز المناطق الإستوائية، والتى نراها أيضًا فى الجنوب الإيطالى وفى الأيام الصافية الهائلة من صيف الأندلس.

ميز خط من الرمال المنخفضة حدود الشاطئ من ناحية البحر، وارتفعت ناحية اليمين بعض الطواحين فوق رواب صغيرة بأجنحتها على هيئة صليب لا يتحرك. وعندما اقتربنا من الشاطئ أكثر لمحنا مبنيين هائلين وهما المكس على يمين السفينة ورأس التين على يسارها. وخمنت أنهما سجنان، لكن قيل لى فيما بعد إنهما قصران. وهما لا يبدوان كذلك لشكلهما المربع ولاستقامة نوافذهما ولبساطة القباب العربية التى تتوّجهما وغرابة منظرها.

عندما اقتربت من الميناء تمكنت من رؤية الجزء القريب من مدينة الإسكندرية. وتشبه هيئة الشاطئ فى هذه المنطقة هيئته فى الجنوب الإيطالى إلى حد كبير، فهى حذاء يتجه نعله ناحية البحر، ولمحت مرسيين مصممين بإتقان؛ أحدهما إلى اليمين وهو الميناء القديم وهو الوحيد الذى يستخدم لسد حاجات التجارة

الحالية. وقد أسماه الإغريق "أونوستوس" أو العود الحميد. وبرغم الصخور التى تحت الماء والتى تصعب عملية الدخول إليه إلا فى النهار فإنه يعد أفضل ميناء طبيعية فى الإسكندرية، ويمكنها استقبال سفن ذات غاطس كبير. ولم تكن هناك غيرها على امتداد الخمسمائة فرسخ التى تفصل تونس عن هذه المدينة، وقال عنها نابليون الأول:

"إن كل أساطيل الدنيا يمكن أن ترسو هناك وتجد ملاذًا آمنًا من الرياح ومن هجمات الأعداء".

وعند افتتاح قناة السويس والحاجة إلى إنشاء ميناء بورسعيد، فقد صح القول السابق إلى حد بعيد، حيث إن المدينة الجديدة الواقعة ما بين بحيرة المنزلة والبحر المتوسط تمثل أيضا ملجأ آمنًا ليس فقط لكل السفن الحربية التى تجوب البحار حاليًا ولكن لكل تلك التى تمر من هناك فى رحلاتها من أوربا إلى الشرق الأقصى أو الهند.

وكنا لم نزل فى عرض البحر عندما اصطحبنا مرشد الميناء العربى من قاربه كى يرشدنا إلى الميناء. تجاوزنا صخور المدخل الغارقة دون صعوبة، وسرعان ما انساب التانجورى بهدوء وعظمة إلى وسط الخليج حتى أسند مقدمته إلى الرصيف.

دار حول المركب حوالى مائة زورق يقودها العرب. وكان المجدفون يلبسون الطرابيش والقمصان البيضاء المربوطة عند الخصر، وسيقانهم عارية وأقدامهم حافية. وكانت بعضها تقل أفرادًا أكثر وقارًا يجلسون على مقدمة المركب، جاءوا ليعرضوا علينا خدماتهم، إنهم الترجمانات أو المترجمون ومندوبو الفنادق والمرشدون السياحيون للمناطق الأثرية، وتجار جميع أنواع البضائع والسماسرة على كل شكل ولون. كان قد صعد قبل الجميع موظف الصحة إلى السفينة وسألنا

بجد: كم منكم مات بالكوليرا. وبدا عليه الهدوء عندما أخبرناه أننا بصحة جيدة، وأمر بـــإنزال الراية الصفراء التى كانت معلّقة على الصارى الأمامى لتعلن أننا موضع شك. ثم... ثم بدء الغزو.

ولسوف أختار فى المرة القادمة إذا عدت إلى مصر أكبر العصى فى حزمة الشمسيات التى عندى، وأعد بكل صدق بأننى سأحطمها على ضلوع أول عربى يعرض علىّ خدماته. فلا يمكن وصف منظر سطح أى سفينة فى خليج الإسكندرية الصغير إذا ما سمح لى بالوصف الحر. ينهال عليك خمسمائة عربى بدون حياء بثيابهم الرثّة لا تعرف من أين أتوك. ويصعدون من كل حدب وصوب عدا من السلالم التى ما زالت معلقة فى مقاعد البحارة. ويتوجهون بثبات ناحية أول راكب يلمحونه وحقائبه معه يتوسلون إليه ويلحون عليه ويدفعونه ويجذبونه ببجاحة لا يمكن تخيلها. وتختفى حقائبك كما لو كانت مسحورة، ويمسك ثلاثة أو أربعة من هؤلاء المتوحشين بأى جوال أو طرد ويتجاذبونه بينهم ويتجادلون مغتاظين حتى يستولى عليه أحدهم، ويمزقونه أثناء صراعهم. إن الهرج الذى يسود المكان لا يمكن وصفه بحال.

لا فائدة من الدفاع عن النفس أو محاولة إنقاذ الأمتعة أمام تلك العصابة الفظة. وبعد ذلك تهاجمك جماعة أخرى من العرب ببطاقات الفنادق والمقاهى والحوانيت والبارات يعلنون صارخين عن أنواع خدماتهم:

- فندق جيد يا سيدى باثنين فرنك يوميًا.
- مقهى جيد يا سيدى، جيد التهوية والخدمة فائقة، يطل على البحر وعلى مناظر بديعة.
- جماعة تثق بهم، ولعبة روليت ليس بها سوى صفرين.
- دليل سياحى يا سيدى إلى عامود السوارى.

- مقابر كوم الشقافة...كليوباترا...

- أنا أحمل لك الشنطة. أخى موظف جمارك، ادفع بقشيشًا ولن يفتشك.

- تعال معى للجوازات، يمكنك سيدى أن تركب سيارتى عند باب الدوقات.

إن تلك الجلبة ليست إلا قطعة من الجحيم، فلا أحد يفهم ما يُقال هناك، وليس أمام الراكب المسكين سوى أن يدافع عن نفسه بركلات قوية ضد تلك الجماعة غير المتحضرة من البشر. ويأتى بعد ذلك رجال الجمارك وهم عرب بؤساء يلاحظ عليهم مظهر الموظف قليل الدخل بزيّه الممزق كالح اللون، يسألك عما إذا كنت تحمل ماسًا أو تبغًا، والإجابة المعتادة هى بعض البيزيتات، فهذه هى الطريقة الوحيدة كى تمنع يديه القذرتين من تحسس جيوب قميصك. وتطلب الشرطة جواز السفر ليتفحصه عربى آخر بشكل رسمى. وتعجب كيف أن الموظف الذى يمثل هذه الهيئة يجهل اللغات الأوربية، فهو عادة ما يأخذ الجواز مقلوبًا ليتفحصة إذا لم يكن به شعار أو خاتم فى أعلاه، لكنه نادرًا ما يخطئ. وأخيرًا تنفض المعركة عندما تؤجر عربة وتحمل الأمتعة عليها لتهرب من هذا اللغط. أما المسافرون الذين لم يتبادلوا تحية الوداع أو كروتهم الشخصية عند دخول الميناء فإنهم بالطبع يودّعون بعضهم البعض على الطريقة الفرنسية حتى يجمعهم الحظ من جديد أو على الأرجح حتى يلتقوا فى وادى جزافات[١] بعد الموت.

وصف شوارع المدينة

ويقع مدخل الإسكندرية عند منطقة الحى الفرنسى القديم. بشوارعه الضيقة القذرة المزدحمة بالمشاة والعربات الكثيرة التى تمر من هناك منذ الصباح الباكر.

---

(١) وادى جزافات هو واد يقع بين أورشليم وجبل الزيتون... وحسب الدين المسيحى سوف يتقابل فيه الأموات يوم القيامة. لاروس ص ١٢٦٥. طبعة لاروس ١٩٨٨ (المترجم).

وبيوته عبارة عن خليط من العمارة العربية والأوربية، فلا هى جميلة ولا متناسقة ولا طريفة. وفى الدور الأرضى منها ترى الحوانيت المليئة بالبضائع والمأكولات من كل نوع يبيعها بقال يونانى، وتجاورها حوانيت أخرى تبيع أنواع العطارة والأقمشة والأسلحة والأقطان وأنواع الدقيق والنبيذ. وعادة ما يُكَـوِّن اليونانيون ثروات سريعًا ببيع البضائع الرخيصة وبيع البضائع السيئة والفاسدة. وبرغم ذلك فإن هؤلاء اللصوص والقتلة العلنيين يهربون من يد العدالة، أو لنقل إنهم لا يهربون ولكنهم يمرحون فى ظلالها إذ إن التساهل فى مصر فى هذا الشأن ليس له حدود.



بائع الخبز الجائل

يجوب الباعة الجائلون الشوارع فى كل وقت، وحين يعلنون عن بضائعهم المختلفة التى يحملونها فى سلال أو أقفاص من الجريد. وترى هناك جميع بائعى القهوة والخياطين وبائعى الخبز وخاصة فى الحوارى الضيقة من المنطقة

المنخفضة من الإسكندرية التى يقطنها العرب. كما ترى هناك أيضا محلاتهم الفقيرة القذرة البائسة غير المجهزة، وهم يعرضون البضائع على مناضد وأرفف مكشوفة أمام أعين المشترى.

من الطبيعى أن تجد فى بلاد يشتد فيها الحر الكثير من مواضع بيع المياه وتعرض النساء المعدمات هذه المياه مقابل أسعار زهيدة جدًا.

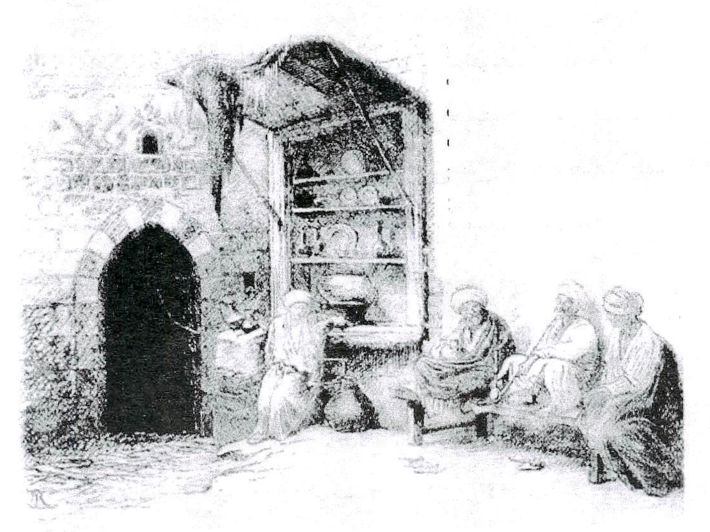
تبدو محلات اليهود أكثر ثراءً. فهم كثيرون فى هذا البلد حتى يبدو لك أن نصف سلالة الأسباط الاثنى عشر قد تواعدوا فيه ليعيشوا بالقرب من حبيبتهم أورشليم. قليل منهم يمارس حرفة الصناعة، ويبيع معظمهم ملابس أوربية صنعت فى النمسا وإيطاليا، ويشتغل السواد الأعظم منهم فى تجارة الصرافة وتغيير العملة وهى أعمال لا تحتاج إلى معدات كثيرة. ففى محالهم المفتوحة على الشارع مباشرة لا ترى إلا خزينة حديدية ومنضدة وبعض الأرائك وليفى أو كوهين يدير العملية البسيطة، ألا وهى خداع السذج كلما أمكن أو التعساء الذين اضطرتهم الحاجة لمراب.

المقاهى

وتصطدم من حين لآخر بجسم حراس درك ممن ينام أفراده فى ظل الجدران على طول الشارع بذلك الكسل المتراخى الذى يميز الشرقيين، أو تجدهم مجتمعين فى المقهى القريب لتناول فنجانًا من القهوة المعدة من بن موكا المغشوش والاستماع إلى حكايات شاعر المقهى. إنّ أمر تلك المقاهى العامة غريب جدًا فهى كثيرة العـــدد. ومن النادر أن ترى شارعًا واحدًا لأى مدينة مصرية إلا ويحتوى على اثنتين منها على الأقل. وهى تخلو بالطبع من أى مظاهر الترف والرفاهية.

ويقتصر أثاث المقهى على منضدة من الحجر موضوعة عند مدخل الباب وفرن صغير من الطين بداخل المنضدة نفسها وعليه المياه تغلى باستمرار فى أوانٍ كبيرة ورف للفناجين. ونادرًا ما تجد مقاعد أو مناضد أو ملاعق أو أكوابًا فى هذه المقاهى. ومن يريد شرب الماء يأخذ "*القلة*" وهى إناء من الفخار الأبيض ويضع شفتيه على حرفها حتى يروى عطشه ثم يمررها لمن بجواره حتى يرشف منها سائلاً طينيًا يوزعه النيل العكر بسخاء على أنحاء مصر ومعه لعاب من سبقه من الشاربين.

ويتعاقد أصحاب المقاهى مع الرواة يسلُّون الحاضرين رغبة منهم فى جذب الزبائن. غير أن ما يقدمه هؤلاء الرواة محدود، فهو يكمن أساسًا فى حكايات أبوزيد والظاهر بيبرس، وألف ليلة وليلة وبطولات عنتر؛ وهو بطل بدوى شهير جدًا يروى أن قصره كان فى كهوف جبانة أسيوط المصرية القديمة. وفى أحد مقاهى القاهرة سمعت ذات مرة حكاية فتْح العرب لإسبانيا.



المقهى المصرى

ويجلس الحضور على المصاطب متخذين أوضاعا غريبة ويأخذون بحامل فنجان القهوة وربما يمسكون بأنبوب نرجيلة أو يدخنون الشيبوك ويستمعون فى صمت وجدية ساعات طوال إلى الراوى، ولا يقاطعونه إلا بآهات الاستحسان عندما يسمعون ذكر حدث غير عادى أو عندما يستحسنون الأحاجى المبتذلة أو الحكايات البذيئة.

وعادة ما يستبدل هؤلاء الرواة بالموسيقيين والمغنين لتنويع العرض. وأحيانًا يمسك اثنان أو ثلاثة مكفوفين بآلاتهم ويشدون بلا كلل ولا ملل لمن يستمع إلى هذه الألحان الطويلة الرتيبة، ويسترسلون فى عزف ربع التون الذى يطبع الموسيقى العربية بطابع الشجن اللذيذ الذى يميزها، لكنه يجعلها ثقيلة وتدعو للنوم أيضًا.

وأحيانًا أخرى ينضم إلى الموسيقيين مغن ينغّم أغانيه الشهوانية المجردة من المشاعر- مائلاً برأسه على كتفه ويده مرفوعه إلى جانب أذنه- كدليل واضح على فقر الخيال الذى تلهمه ربة الشعر والفن فى مصر.

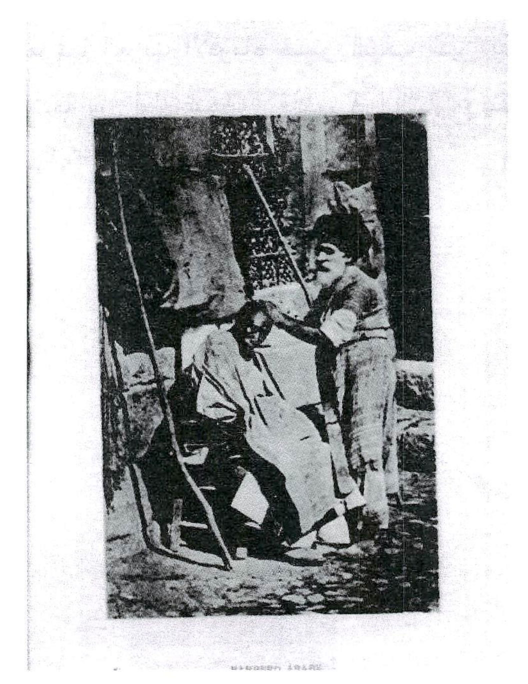
يستقبل الزائر فور وصوله إلى مصر انطباعات الحياة العربية والشرقية التى تجرى فى الهواء الطلق فى الحوارى الضيقة التى تملأ الحى الفرنسى بالإسكندرية. رغم أن هذا الميناء المصرى يعانى من المضايقات المعتادة فى المدن البحرية المزدحمة، فتختلط السلالات وتتداخل وتطمس كل ما هو أصيل فى البلد بغزو العادات الغربية.

أحياء الإسكندرية

ويبدو الحى الفرنسى السكندرى كأنه حى يونانى، وتشكل شوارع شريف ورشيد والمناطق المجاورة مع ميدان محمد على حيًا أوربيًا صرفًا، وتبقى البيوت العربية منفية إلى أسوأ الأماكن، فقيرة وبائسة ومجردة من طابعها القومى

وخصائص سلالتها. إن النفوذ الأجنبى يكاد يطمس هوية سكان البلاد الأصليين. أما القاهرة فتحتفظ بالعادات العربية أكثر، وسوف نتناولها بالبحث والدراسة كما يروق لنا.

ولا تحسب رغم ذلك أن النفوذ الأوربى قد طمس العناصر القومية فى الإسكندرية بالكامل، بل تسود هناك مظاهر الحياة المصرية، إذ إن ثلثى السكان البالغين ٢٠٠ ألف نسمة من العرب. وأغلب هؤلاء السكندريين ليسوا إلا تجارًا صغارًا أو أصحابًا لصناعات محدودة، يحتكرون حرفًا معينة فى الأحياء العربية قليلة الشأن وفى ضواحى المدينة يمارسها كثير منهم فى الهواء الطلق، كما ذكرت آنفًا.



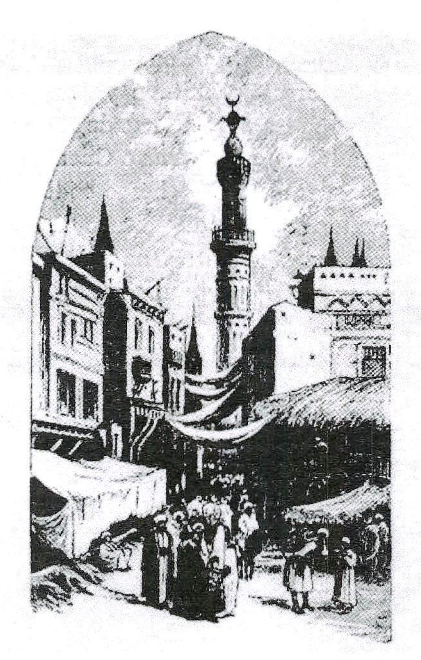
حلاق مصرى

تعد الحلاقة إحدى هذه الحرف التقليدية فى هذه الطبقة، التى توصى بها السنة الإسلامية كى تظل رؤوس المؤمنين حليقة دائمًا ومستعدة للوضوء اليومى الذى يفرضه الإسلام. ويكفى الحلاق العربى أى ركن يستعمله دكاناً، وغنى عن القول إن اختيار المكان لا يهم زبائنه فى شىء.

وأكثر ما أحزننى فى الإسكندرية وكل المدن المصرية- وأستطيع أن أقول الشرقية أيضًا- هو التسول الذى أصبح داء مستوطنًا بشكل كبير. وأول ما يؤذى مسامع الأوربى عند حلوله بهذه الأماكن هو سماع كلمة "بقشيش" أو حسنة، فالجميع يتقنها ولا يتورع عن النطق بها، فالطفل يعرفها ربما قبل أن يعرف اسم أمه، ويعرفها الضرير والفقير ونساء الطبقات الدنيا اللواتى يمشين حاسرات الرأس فى الشوارع، كما يعرفها العرب الأقوياء حسنو الثياب الذين يذهبون لأعمالهم ولا يعتقدون أن طلب صدقة من أول شخص يقابلهم فى الشارع ينقص من شأنهم شيئًا وخاصة إذا كان أجنبيًا.



شحَّــــاذة



أحد شوارع الإسكندرية

والمتسول المصرى لا يثير الاشمئزاز والنفور كما هو فى بلاد الشرق الأخرى كالصين مثلاً. فهو لا يظهر فرحة مبالغًا فيها. لا يبدو معدمًا فى فقره، ولا يتطلع إلى إحداث الرعب والنفور بقدر ما يرنو إلى استجداء التعاطف والشفقة عليه. وقليلاً ما يلح فى طلبه، إذ إن الحياة سهلة فى مصر. وإذا قلت له: "*اللـه يسهّل لك*" فإنه لا يكرر الطلب إطلاقًا. وأكثر ما يثير الدهشة هو رؤية تلك النساء اللاتى يمددن أيديهن طلبا لبعض السنتات أو البارات وتتلألأ فى أصابعهن خواتم التركواز ويتفاخرن بأذرعهن العارية يزينها العديد من الأساور من الألماظ المقلد.

ويشغل الحى الفرنسى أحسن مناطق المدينة، فقد كانت المدينة كالمدن الأوربية تمامًا قبل أن يضيّع معالمها تمامًا الدمار الذى أحدثه قصف الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢، والحرائق التى تبعته. ويقدر عدد المسيحيين الذى يقطنون

الإسكندرية بأكثر من٥٠ ألف نسمة، ولا يعيشون على الطريقة الأوربية. فمن الطبيعى أن يمتد الحى الذى يقطنونه أكثر من الحى العربى بكثير ببيوته الصغيرة وحواريه الملتوية. ويشبه الحى الشمالى الغربى للمدينة والواقع بين باب محرم بك والعطارين وإبراهيم بك والبحر فى مظهره أى حى بحرى أجنبى.

ويرجع ذلك إلى أن الإسكندرية مدينة تعيش أساسا على تجارتها الخارجية المرتبطة بأوربا، ويتردد أكثر من مائتى سفينة ذات شأن على مينائها سنويًا، تقارب حصيلة الاستيراد والتصدير عليها خمسمائة مليون بيزيتة. وبرغم أهمية هذه التجارة الواضحة فإن الأسطول البحرى المصرى ليس له سوى أربع سفن سيئة تقوم برحلات قصيرة إلى موانئ اليونان وتركيا. وتمارس التجارة البحرية تحت علم أجنبى. ويحظى العلم الإنجليزى بنصيب الأسد فى ميناء الإسكندرية.

وكان الحى الذى تقطنه الجالية الأوربية شديد البهاء قبل القصف. فى وسطه يُرى ميدان القناصل الجميل تزينه الأشجار والنافورات وتمثال محمد على الذى أقيم برغم تحريم الإسلام لإقامة التماثيل. وفى الشوارع الفسيحة المجاورة ترتفع بيوت رشيقة على طراز معمارى حديث، جميلة من الخارج ومزينة بسخاء من الداخل. ولم يكن ينقص ذلك الحى من مظاهر الحضارة الأوربية شيئًا من البورصة والبنوك وكنائس الطوائف المسيحية المختلفة إلى المحاكم والقنصليات والحدائق والمتنزهات. لكن كل ذلك أو معظمه اختفى بسبب القلاقل الشعبية التى حدثت منذ خمس سنوات بسبب المجازر التى مورست ضد الأجانب فى الشوارع وبسبب الحرائق والقصف. ولن تمحى ذكرى تلك الأيام الحزينة من ذاكرة السكندريين بسهولة، كما أن آثار الحطام الذى صارت إليه المدينة لن يختفى. إن ثورة الجموع لم تنته إلا بعدما حولت الحى الأوربى إلى رماد وأطلال.

ومن المناسب أن ندوّن هذه الصفحة من التاريخ المعاصر، وأن ندرس – ولو على وجه السرعة – الأسباب التى أدت إلى التمرد الذى هو أصل الكارثة. فقد حلت على شعب مصر بلوى تمثلت فى حاكمها فى السنوات الأخيرة، وهو حاكم جُبِـل على الفكر الأوربى، بمعنى أن ذوقه يوافق ذوقنا، وأنه مغرم بالتقاليع الأوربية، وأنه معجب بتقاليدنا وأنه أيضًا – ولم لا – قد طالته رذائلنا. فقد شغل إسماعيل باشا فترة عشرين عامًا من الحكم الخديو لمصر، وكانت البلاد ضحية خلالها لتعطشه إلى الإصلاحات السريعة التى تسببت فى إفلاس شعوب شرقية أخرى. فتم إنفاق مبالغ هائلة فى بناء أكثر من ستين قصرًا كانت سكنًا لحريم السلطان. وأتى معول الهدم على جزء كبير من عاصمة مصر الأصيلة لتحل محلها شوارع الإسماعيلية والفجالة وشبرا. وشهدت الإسكندرية أيضًا هدم الحى العربى كى يبنى عليه الحى الأوربى، وحلت العمارة الغربية النمطية الرتيبة محل المبانى الرقيقة الرشيقة ذات الطابع الشرقى.

وعلاوة على ذلك، فقد جثمت على مصر جماعة من المقاولين المدرّبين على التلاعب فى البورصة ورجال الصناعة المحتالين والتجار سيئى السمعة ورجال البنوك المرابين. واقترحوا على الخديو ووزرائه إبرام جميع أنواع العقود التى أضرت بمصلحة البلاد. وأجيبت طلبات الجميع لدرجة أن جنون الهدف من أى مشروع كان بمثابة ضمان لكى تتبناه الحكومة. وبذلك تكونت ثروات زادت كالزبد وتلاشت فى المقابل الثروة القومية.

تضاف إلى ذلك الأخبار التى تتداولها الألسنة والتى لا تخلو دائمًا من أساس، وتحكَـى فى مصر قصص فريدة عن كثيرين ممن يتباهون بممتلكاتهم

الجمة ويستمتعون بالرخاء المادى الوفير فى ربوع البلاد. وأقل ما يقال عنهم حكايات من جعل من امرأته وبناته رسولا يحمل طلباته الطموح إلى قصر عابدين، حيث تبذل العطايا بوفرة مقابل نزوات إسماعيل باشا. فيما تخصص آخرون فى صنع عملات تشبه ظاهريًا عملة المملكة، وحتى اليوم تتداول العملات الفضية المزورة فى مصر باسم رجل بنوك يهودى سيئ السمعة يعيش فى القاهرة. ويتسلى آخرون بطباعة صكوك دين حكومى كما لو كانت سندات حقيقة. وأخيرًا فإن أى قانون عقوبات فى أوربا يسمى الجرائم باسمها الحقيقى ولكن فى مصر وصفت بأنها ذكاء يجلب عليهم ثروات طائلة خلال الخمس وعشرين سنة الماضية.

ومن الواضح أنه فى تلك الحالة لا الضرائب الباهظة المفروضة على البلاد ولا موارد قناة السويس ولا السلف التى طلبت من المساهمين فى أكثر من مناسبة كانت كافية لتغطية نفقات حكومة غير منظمة ومبذرة. وسرعان ما ظهرت الحاجة إلى الاستعانة بالقروض، فتم توقيع ارتباطات باهظة، وأخذ الرأسماليون الأجانب يجمعونها بجشع، فهم يعتقدون أن الكنز المصرى إنما هو كنهر باكتولو[1] الثرى الذى لا ينضب معينه. وقد أسيء استخدام القروض حتى صدر فى الواحد وعشرين عامًا الأخيرة كمّ هائل من السندات وصل إلى ما يعادل ٢٣٠٠ مليون بيزيتة، وعندما استحال دفع فوائد ذلك الدين المتنامى حدث ما كان متوقعًا بالنسبة لدولة ضعيفة، وتسبب نفس الذين استفادوا من ذلك التبذير فى التدخل المالى والإدارى المخزى والذى تحول سريعًا إلى تدخل سياسى أجنبى بما يحمله ذلك من الأخطار والمصائب. فتدخلت حكومات لندن وباريس وبرلين وروما بالنصح أولاً ثم بالأوامر ثانيًا، وتم قبول الاثنين بسبب الاسترخاء وغياب الحس العملى الذى يميز الشعوب الشرقية. ففرضت الوصاية على مالية البلاد، وحُجر على ضرائب

---

(١) باكتولو هو نهر فى ليديا بآسيا الصغرى، يحكى أن مياهه كانت تأتى برمال من ذهب. لاروس – طبعة لاروس ١٩٨٨ (المترجم).

خمس محافظات وأموال وموارد الدولة وحتى أملاك العائلة المالكة بما فيها أملاك الخديو نفسه. لكن لم يتحسن رغم ذلك الوضع الاقتصادى الذى أجهد بدفع الرواتب المتزايدة للدخلاء الأجانب المفروضين من قبل القوى الأوربية. وكان النفوذ الخارجى فى يد يهود باريس ولندن وفيينا، الذين سيطروا على مجمل الموارد المصرية، وعندما أحسوا من جديد بأن دفع الدين غير مؤكد أطاحوا بإسماعيل باشا من عرش مصر.

وفى عام ١٨٨١، رُفع توفيق ابن ذلك الخديو إلى المنصب الذى ما زال يمارسه حتى الآن، وخلال الست سنوات التى حكمها تسبب فى أكبر الكوارث التى دمرت بلاده فى العصر الحديث. ولما كانت الدبلوماسية الأوربية هى التى تحافظ على عرشه فقد طلبت منه تضحيات عظيمة لصالح الدائنين، نذكر منها إلغاء مشروعات مدنية كثيرة، وتسريح مئات من ضباط الجيش دون تقاضى رواتب ستة وعشرين شهرًا.

وأدى تنفيذ مخطط الإصلاح غير المدروس إلى حركة فى البلاد موالية لما سمى بالحزب القومى الذى كان على رأسه عرابى باشا الشهير. فكان الانقسام عظيمًا. فمن ناحية ظل بعض المستشارين فقط أوفياء للخديو مثل نوبار باشا وهو أرمينى ذو شخصية ضعيفة، وشريف وهو تركى خاضع للنفوذ اليونانى، ورياض الذى عرف بعناده، ومن ناحية أخرى كان الجيش بأكمله والعلماء وجموع الشعب يتعاطفون مع القضية القومية. هكذا كانت الحركة من الأصل، ومن تابع سير الأحداث فى مصر على البعد ساوره الاعتقاد أن حربًا مقدسة كانت ستشن، وأن حب الوطن والتعصب الدينى سيحققان المعجزات مع هذا الشعب الذى يمكنه تحقيق المعجزات إذا ما أفاق من سباته.

وكانت شخصية عرابى محببة إلى الجميع عدا من يملكون أمر البلاد. وهو كممثل للشعور الوطنى لشعب كان استقلاله مهددًا، فقد كانت شعبيته جارفة،

وفرض نفسه بمقوماته الشخصية التى تناسبت، ولعب دور الزعيم الذى كان يرجوه. فقد كان طويل القامة ذا مظهر مهيب برونزى البشرة كبنى جلدته من العرب، نظرته حادة وملامحه تكشف عن شخصية عنيدة. وكان فصيحًا عندما يلقى خطابًا فى قواته المسلحة، وكان يدعو للمقاومة لا بدافع من تعصب أو لكره عرقى ولكن دفاعًا عن الكرامة الوطنية وحبًا للوطن. ولم يملك الخديو نفسه عند ذلك غير أن يتصالح مع عرابى ومنحه لقب باشا وعينه وزيرًا للحربية.



عرابى باشا

وكان أول إعلان لعرابى إلى قناصل العموم هو أنه لا يوجد أى خطر يهدد الأوربيين المقيمين فى مصر، ولكنه سيقاوم بالقوة كل تدخل أجنبى فى شئون البلاد. وأثناء ذلك طلب الملك مساعدة إنجلترا وفرنسا كى يقضى على نفوذ الحركة القومية، وكنتيجة لتلك المفاوضات عسكر أسطولا البلدين فى ميناء الإسكندرية فى أواخر مايو ١٨٨٢. وسواء أثارت رؤيتهما الغضب الشعبى أم حدث صراع ما داخل المدينة بين الأجانب والسكان، فقد توافق أنه فى يوم ١١من يونيو التالى

اندلعت أحداث شغب هائلة انتهت بصدام بين العرب والأوربيين. وقتل الكثير منهم، ومات بعض من أولئك أيضا عند مهاجمة ميدان القش الذى كان يدافع عنه اليونانيون والإيطاليون. وأعلنت حالة الحرب التى تسببت فى التدخل العسكرى الأجنبى وخلـع الخديو عرابى وهو حبيس قصر الرملة، بينما اتفقت إنجلترا مع فرنسا على طريقة احتلالهما لمصر. ولعدم الوصول إلى اتفاق بين الحكومتين قررت إنجلترا العمل بمفردها، وفى بداية يوليو أرسلت فرقة إلى الإسكندرية تحت قيادة الجنرال سيمور. وتوجه عرابى بدوره على رأس كل قوات القاهرة للدفاع عن المدينة المهددة، لكن العصيان دب فى الصفوف ولم يستطع القائد احتواءه. فلقد خرج بجيش من القاهرة ووصل إلى الإسكندرية بشرذمة من الجنود الثوار.

إن نقطة التدخل الأجنبى وأهميته فى مصر مطروحة للنقاش لكن من الواضح أنه كان مشئومًا ولا بد أن يكون كذلك لأنه وصل متأخرًا وبصورة غير منظمة. وصل سيئًا بسبب الحضور المشئوم المعوق للمستشارين الأوربيين، والحكومات الهشة التى تفتقر العزيمة لاتخاذ القرار الصحيح فقد اجتمع هوس المعارضة ووضع العراقيل أمام الآخرين الذين يعيشون على الشكوك ويبذرون عدم الثقة، ولا يجنون ثمارًا أخرى غير الدموية العقيمة للحروب الحديثة. وبعد سلسلة من التردد وضعف الحكومة رفضت فرنسا التدخل، فأقدمت بريطانيا العظمى بمفردها بعد مضى شهر على أحداث القتل التى جاءت لتنتقم لها.

وعندما لاحت السفن الحربية الإنجليزية خارج خليج الإسكندرية أخذت الثورة العسكرية تتزايد بشدة، وأخذت مجموعات من الجنود تطالب فى الشوارع بصوت عالٍ بعصيان الخديو الذى اعتبروه أداة أو ضحية للأجانب. ولما اغتاظ الثوار بسبب مظاهرة القوة البريطانية استولوا على المدينة وتحصينات الخليج العديدة، وأرادوا أن يواجهوا مطر الحديد والنار الذى قذفته المدرعات الهائلة على البحر يومى ١١ و١٢ يوليو بمدافع سيئة، مما أحدث تلفيات فى المتاريس الدفاعية المصرية، فتفككت فى الحال بطارياتها وتطايرت الطوابى ومخازن البارود فى الهواء. وما زال حصن فاروس مثلاً عجيبا على ما آلت إليه تحصينات الشاطئ.

وأكمل غضب الثوار أعمال الهدم التى بدأها "سيمور"، فعندما رأى الثوار أنهم بحاجه ملحة إلى ترك تحصيناتهم، خطرت ببالهم فكرة شنيعة لسلب المدينة الفرنسية وإشعال النيران فيها وفى الحى الأوربى. وبعد أن تم نهب تلك القصور الرخامية وتلك البيوت الفخمة والمخازن المكتظة رشت بالنفط وأشعلت فيها النيران التى التهمتها بسرعة مذهلة، ولم تترك فى ساعات قليلة سوى كومات من الحطام المشوّهة تطل من فوقها أسوار محطمة ومحترقة من الحجر الأبيض كشهود صامتة على الضلال الإنسانى.

ومنذ حريق الإسكندرية ونزول القوات الإنجليزية تحت قيادة اللورد "ولسلى" لم تطل مقاومة عرابى ولم يكن الكثير من صغار القواد وراء عرابى فوق مستوى الشبهات. وكانت إنجلترا تعرف ذلك، فبعثت برسلها المهرة لإبرام الاتفاقات التى دخل فيها الذهب كعنصر أساسى. ومن ناحية أخرى لم يفق المصرى من سباته، ولم يسفر التشدد الدينى عن أى معجزة. فتوجه جيش عرابى للاختباء فى سهول التل الكبير بمحاذاة خط السكة الحديد القاهرة- السويس، لكن التحصينات الهائلة التى أقامها على مشارف الصحراء لم تنقذه من هزيمة شنيعة له ولجنوده العشرة آلاف والذين هاجمهم ثلاثة آلاف إنجليزى فقط. وقد تجولت أكثر من مرة فى ميدان المعركة وما زالت استحكاماته كما هى، وعندما سألت بعض البدو الذين جاءوا ليبيعوا لى تذكارًا للمعركة عن سبب انتصار الإنجليز السهل كانت الإجابة دائما:

- إن أسد سان جورج هو الذى كسب معركة التل الكبير.

وبالفعل فإن صورة ذلك القديس تبرز على ظهر الطبعة الجديدة للجنيه الإسترلينى.

هرب عرابى عن طريق كوبرى صغير على يسار المحطة، ولم يتوقف حتى وصل القاهرة حيث هتفوا باسمه فى أول الأمر عندما اعتقدوا أنه جاء منتصرًا ثم قبضت شرطة المدينة عليه عند العلم بهزيمته. ومَثُــل أمام مجلس حرب أراد الحكم عليه بالإعدام، غير أن الحكم خُفف إلى نفى لجزيرة سيلان، وقد رأيته هناك فى بيت جميل تحيطه الحدائق بجانب بحيرة كولومبو يعيش مع ثلاثة أو أربعة منفيين، وتدفع إقامتهم الحكومة الإنجليزية. ولا يشك أحد فى أن عرابى كان متواطئًا مع اللورد ولسلى، وأنه خان القضية التى كان الحزب القومى يدافع عنها.

وكما ذكرت آنفًا فإن الحى الذى كان يقطنه الأوربيون فى الإسكندرية صار محطمًا بالكامل، لكن لم تحدث كوارث أخرى لأن الجاليات الأجنبية لجأت إلى السفن الحربية. ولسخرية القدر فقد أسدل ستار النسيان على المذابح الفظيعة التى جرت فى ١١ يونيو. وتم رمى اثنين أو ثلاثة بالرصاص ، ودفنت جثث الضحايا، ولم يسمع من بكاء سوى نحيب الأهالى يبكون فقْد عزيز لديهم. ولكن بعد الحرائق التى تبعت قصف الحادى عشر من يوليو جرت أحداث أخرى. فقد ثار هؤلاء ، وصارت كلمة تعويضات على كل لسان وفرضت نفسها على قصر الخديو وفى القنصليات وفى مقار الحكومات الأوربية. وعينت لجنة أخذت تستمع إلى أكثر الادعاءات غرابة من كل الذين رأوا فى هذه المناسبة وسيلة لتكوين ثروة، وبجسارة من البعض وإيعاز من البعض الآخر وتزوير من الكثيرين وأمانة القليل جدًا منهم وجب على الخزانة العامة المصرية تعويض المتضررين من حريق الإسكندرية بمبلغ مائة مليون بيزيتة.

خُصِم هذا المبلغ من القرض الذى قدمته إنجلترا لمصر بمبلغ ٩ ملايين جنيه، وعندما تم استرضاء السكندريين شرعوا فى إعادة بناء مساكنهم فى الحى

الأوربى. غير أن الأعمال تسير ببطء لأن كثيرًا من ملاك العقارات المهدمة فضلوا استلام المبلغ والعودة به إلى أوربا قبل أن يتعرضوا لثورات محتملة أخرى. وبعد دفع التعويضات بعام لم يُبن سوى منزلين كبيرين فى ميدان القناصل كله، وخصص أحدهما ليكون محكمة رئيسية.

غير أنى لا أعتقد أن الوقت سيمر طويلاً قبل أن تولد إسكندرية جديدة وجميلة فوق الأطلال التى تغطيها تمامًا كمدينة "بنو" التى ذكرت فى أسطورة أوزيريس.

الفصل الثانى

سكان مصر

إن مظهر المدن المصرية كلها لجد عجيب لتنوع البـشر الـذين يجوبـون شوارعها. فأقل الزوار ألمعية يمكنه عند وصوله إلـى الإسـكندرية ملاحظـة أن الأفراد ذوى الأصول المختلفة يختلطون، وأن صفاتهم الأصيلة لم يمحها الزمن ولا كثرة العيش مختلطين فى قومية واحدة. إن الدراسة المتأنية بعض الشيء للعـادات المصرية تكشف عن فروق جوهرية بين تلك الأقليات. ولنقل إن كل سـلالة مـن سلالاتها تختص بشيء معين، وأن لها هدفًا معينًا تسعى إلى تحقيقه، أو أنها تـسير على صراط خطّه لها القدر دون أن تضله لأى سبب كان.

ويمكن أن نقسم سكان مصر إلى أربع مجموعات كبيرة، أولاها: هم السكان الأصليون أو أحفاد سكان البلاد الأقدمين حتى عهد الفتح الإسلامى، وهـى تـضم الفلاحين والأقباط. أما ثانى مجموعة فهم العاملون تحت إمرة المجموعـة الأولـى ونعنى بهم أولئك الذين نعدهم جغرافيًا مصريين حتى نشوب القلاقل فـى الـسنين الأخيرة، ولهم طابعهم الخاص وكانوا يشكلون دائمًا سلالة منفصلة فى الصحراء أو فى أقاليم صعيد مصر، إنهم البدو والسود والبربر. والمجموعة الثالثة تتكون مـن الغزاة الذين احتلوا البلاد بالقوة واستقروا فيها وهم العرب والأتراك. وأخيرًا تتكون المجموعة الرابعة من الأجانب المقيمين فى المدن الرئيـسية، وهـم مـن اليهـود والشرقيين والأوربيين من جنسيات عدة.

ولنبدأ بالحديث عن الفلاح. وهو الاسم الذى يطلق على كل مصرى يعـيش فى الريف ويعمل بالزراعة. ويُعرف بقامته القصيرة وخشونته وعـصبيته وقوتـه وبشرته الزيتونية وشعره القصير وارتفاع عينيه إلى أعلى عند الأطـراف، وهـو بذلك يمثل جنسًا وسطًا بين المنغولى والآرى. أما أنفـه وفمـه فهمـا صـغيران،

وأسنانه منتظمة ناصعة البياض. وتغطى رأسه طاقية من اللبد مصنوعة من وبر الجمال تأخذ شكل الرأس. ويرتدى عباءة بيضاء من القطن يُشَد عليها حزام أو حبل فى الوسط أحيانًا. أما ساقه وقدمه فيهما عاريتان، ويرتدى الحذاء التونسى الضخم فى المناسبات المهمة فقط.

وهذا النوع من الفلاحين لا يتغير فى مصر سواء فى السهول الرطبة الندية من الدلتا أو فى مناطق مصر الوسطى الدافئة أو سهول الشلال الأول البور الشاسعة شديدة الحرارة. وكما أن التغيرات الجغرافية لم تؤثر فيه فلا الزمان ولا الحضارة أثرا فيه على الإطلاق. ونراه فى النقوش على جدران المقابر القديمة مرسومًا بإتقان، وهو نفس العامل الذى نتأمله اليوم عندما نتجول فى ضواحى الإسكندرية.

وسوف أثبت أن الفلاح هو أصل السكان فى مصر بطريقة لا يمكن ردها، فإذا كان تاريخ تلك البلاد المحفور على صفحات الحجر فى كل الآثار لم يذكر لنا أن الفلاح كان غازيًا لحقول الدلتا. وفى إحدى دراساتى عن مصر لاحظت كيف أن التقاليد العريقة المحفوظة من عصر الدولة القديمة تؤكد وجود سلالات سابقة على "مينا"، أى أنها عاشت هنا فى عصر تفصلنا عنه سبعة آلاف عام على الأقل. وهذه السلالات قليلة التحضر كانت فى صراع دائم مع الطبيعة رغم بساطتها الجمة ووفائها لمعيشتها اليومية ولآلهة الحقول، كانوا يدعون سشو حور أو خُدّام حورس. وكان أفرادها يعيشون فى قبائل يزرعون الأرض ويشقون القنوات لتسيير المياه، وكانوا يحرثون الأرض بجهودهم حتى تقيم أودهم رغم تنكر الطبيعة لهم. وهذه الفكرة الشائعة بين شعوب الشرق هى نفسها التى أحيت الهند وأسست الإمبراطورية الصينية مع شاو.

جاءت الهجرات سامية من آسيا عن طريق برزخ السويس واستقرت في مصر واختلطت بتلك القبائل من السكان الأصليين التي ربما كانت سوداء تزرع سهول الشمال الإفريقي. ومنذ تلك الحقبة توالت على البلاد الغزوات الخارجية. وقد أثارت خصوبة الأرض وثروات ملوكها المتراكمة في المعابد وموقع البلاد المهم بين العالم الغربي والشرقي أطماع الآسيويين البرابرة وأيقظت أطماع الإغريق واللاتينيين. وكثيرًا ما نجد ملوك مصر مشغولين بطرد الغزوات الخارجية ومحاربة البلاد المجاورة لتأمين حدودها.

وقد جلبت حالة الحرب هذه بذور السلالات المختلفه إلى البلاد والتي اختلطت بدورها مع السلالات المحلية. وتظهر لنا الآثار التي ترجع للأسر الأولى في أكثر من مناسبة وجوب عقاب الفاوا والهيروشا، وهم بدو الجنوب الذين كانوا يهبطون محاربين إلى السهول الخصبة. وتحدثنا أيضًا عن الليبيين وهم بدو لهم عيون زرقاء وشعر أشقر نزحوا من جزر البحر المتوسط إلى القارة الإفريقية، ونشر غزو الهكسوس أو الرعاة سلالات جديدة في ربوع البلاد المصرية، لم تستأصل شأفتهم بالكامل عندما أعاد أحمس الوحدة للبلاد تحت إمرة عرش طيبة.

كان لفتوحات الملوك الطيبيِّين أثر كبير على تكوين سكان البلاد. فوصلت الإمبراطورية المصرية أثناء حكم الأسرة الثامنة عشرة إلى الحبشة والسودان والنوبة وبلاد ما وراء النهرين والعراق العربي وكردستان وأرمينيا. ثم استطاع أن يربط رمسيس الثاني في عجلته الحربية كل سلالات سواحل آسيا الغربية، وكلما عاد ملك عظيم منتصرًا من حملاته كان يحضر جيوشًا من الأسرى معه ليبنوا تلك الآثار التي ما زلنا نتأمل عظمتها وصلابتها حتى اليوم. وبذلك دخل في تكوين الشعب المصري الخيتيون والرتينو والسشاو والصوماليون والبيداسيون والميسيون والدردينون وشعوب أخرى كثيرة مجهولة التاريخ.

ومما لا شك فيه أن تلك الشعوب ذات الأصول المختلفة والسلالات المتعددة انصهرت فى فلاح الحقل العادى بفضل تأثير الجو فى مصر وبين ذلك حتى فى حيوانات الحقل. فالثيران المصرية لها طابع خاص يميزها عن أقرانها فى بلاد أخرى، وبرغم أن وباء الطاعون قضى عليها جميعًا وتم استيراد سلالات أوربية أخرى مكانها، فإن أربعة أو خمسة أجيال منها كانت كافية لإنتاج الثور المصرى الأصيل من جديد.



الفلاحة

والفلاحون الذين أقصدهم ليسوا إلا مزارعين، ولذا فسوف أرجئ الحديث عنهم لحين وصف الحقول المصرية. ويسكن القليل منهم المدن، ويشتغلون بالأعمال المنزلية ونادرًا ما تجد منهم من يعمل بأى صناعة.

الأقبـــــاط

ويعتبر الأقباط أيضًا أحفاد المصريين القدماء رغم عدم دقة ذلك من وجهة نظرى. ويكفى أن ترى القبطى طويل القامة متين البنيان، بوجهه البرونزى وشعره الطويل وعينيه السوداوين حتى توقن فى الحال أنه لا يشبه الفــلاح فـــى شـــىء. ويمكن أن نرى فيهم بوضوح ملامح أولئك الإغريق الذين سادوا البلاد بعد الفــتح المقدونى لها والذين تحولوا للمسيحية خلال القرون الأولى للكنيــسة. إن ذكــاءهم ومظهرهم وأخلاقهم وحتى عاداتهم تجعل مـــن المـــستحيل الخلـــط بيـــنهم وبـــين الجماعات المندرجة تحت راية الفراعنة أو الذين أوكل إليهم العمل فى المعابد مـــن الأسرى. ولا ننسى أن جموع الشعب فى مصر القديمة كانت تحيا حياة بائسة.

وعندما صدر مرسوم "تيوديسيو" وكان على الشعب المصرى تغيير عبـــادة آمون بديانة المسيح، لوحظ أن الأقباط أعدوا العدة لهجر الكتابة الهيروغليفية والتى كانت رموزها تذكرهم بالأفكار الملحدة، وتبنوا الأبجدية الإغريقية التى كانت سائدة آنذاك فى الإسكندرية. لذا فاللغة القبطية التى ما زلنا نعرفها حتى اليوم هى ببساطة اللغة المصرية المعدة للاستخدامات المسيحية وهى مكتوبة برموز أجنبية. ونـــدين بالفضل للكتابة القبطية فى إمكانية معرفة اللغة المصرية من جديد كما كان يتحدث بها أهل منف وطيبة وكما كانت تكتب على حوائط المعابد.

ويعيش الأقباط غالبًا فى المدن، حيث يعملون فى حرف الصاغة والخياطـــة والساعات والتطريز ومهن أخرى لا تحتاج إلى جهد كبير. ويصل عدد تلك الأقلية إلى ٣٥٠ ألف نسمة، ينتشرون فى ربوع البلاد، وهم يشكلون معظم ســكان قفــط ونقادة، وهم كثيرون فى الأقصر وإسنا ودندرة وطهطا وأسيوط وأخميم. وديـــانتهم الحالية هى المسيحية والتى يشوبها أخطاء "أوتيكيوس" والذى أدانه مجمع خلقـــدونيا فى عام ٤٥١م. وهم يختلفون فكرًا وشعورًا عن الأرثـــوذكس اليونـــانيين. ولهـــم

بطريرك خاص بهم يعيش فى القاهرة يختاره بالانتخاب الرهبان الرواقيون فى خمسة أديرة قبطية، هى سان أنطونيو وسان بابلو وديرا وادى النطرون ودير المحرق.



فتاة قبطية

السلالات فى مصر

ويشتق اسم البدو من البادية، وهم الرحل أو أبناء الصحراء كما يسميهم العرب. وهم طوال القامة ممشوقو القوام، أقوياء البنيان، و لهم رأس عادية ووجه برونزى لامع وذقن خفيفة. وزيهم ظريف جدًا يتكون من طاقية بيضاء يُلف حولها شال من القطن الأبيض على شكل عِمّة، وقميص أبيض وعباءة سوداء أو بنية داكنة يلفون بها رؤوسهم. وتلبس نساؤهم قماشًا أزرق اللون، رؤوسهن حاسرات وشعرهن ممشط وينتهى بضفائر قصيرة تتدلى على الظهر. ويجذبن الانتباه عندما يكن حوامل لما تعوَّدن عليه من ربط الجزء السفلى من البطن بشريط أحمر يلف الملابس من الخارج.

ويسكن البدو حدود الصحراء المتاخمة لوادى النيل من الجانبين. ويقودون قوافل الجمال التى تعبر الصحراء الليبية الشاسعة أو يسوقون قطعان الماعز والأغنام كى ترعى فى الأحراش المتاخمة لنهر النيل. وتعيش بعض أسرهم على شواطئ البحر المتوسط والبحر الأحمر، ولكن لعدم امتلاكهم مراكب ولجهلهم بالصيد فإنهم يعيشون على الرفات التى يقذف بها البحر إليهم أو على الرخويات التى يجدونها ملتصقة بالصخور.

وثمة فرق كبير بين أولئك البدو المتشامخين المستقلين، أولئك الأسياد الذين لا يقهرون والذين يصفهم لنا هيرودوت، وبين تلك القبائل الحالية الموجودة فى مصر. فهم اليوم بؤساء بطريقة لا يمكن تخيلها، ومن النادر أن يمتلكوا مخيمًا فقيرًا من الأكواخ المبنية بالطوب اللبن حيث يحتمون بها من أشعة الشمس، وهم يعسكرون فى خيام صنعت من الأسمال مفتوحة من الأمام ومن الخلف فى اختلاط دائم مع الطيور والكلاب، ولا بد أنهم حلوا مشكلة العيش بدون طعام بالقليل الذى يطعمون به من هذه الحيوانات.

ويربو عدد البدو الخاضعين لمصر على أربعين ألفًا مقسمين إلى عدة قبائل. وهم مسالمون عامة، من حيث إنهم لا يقومون بهجمات مسلحة لكنهم جميعًا لصوص كلما سنحت لحم الفرصة بالاستيلاء على أموال الغير. ودائمًا ما تشتمل عصابات اللصوص التى تظهر أحيانًا فى الأقاليم على بدو، وينسب إليهم حريق الإسكندرية عام ١٨٨٢ م. وفى صعيد مصر والنوبة دائمًا ما يسير البدو مسلحين برمح وخنجر مشدود إلى الساعد الأيسر بحزام من الجلد، ويكوّنون قبائل العبابدة والبشارية الشهيرة، وهم محاربون، ودائمًا ما تنشب بينهم نزاعات ملتهبة.



امرأة بدوية

غير أنهم جبناء عامة كما أنهم قساة، هم يُتعبون من يعبر الصحراء من الأوربيين تحت حمايتهم ويسرقونه، لكنهم لا يختطفونه أو يقتلونه إذا أخذ حذره وأعلم السلطات المصرية بخروجه معهم. وهم قذرون لا يغتسلون أبدًا ويعيشون عيش الزاهدين على قليل من لحم الجمال أو الماعز المشوى على رمال الصحراء. ودينهم الرسمى هو الإسلام رغم أن كثيرًا منهم يعرفون كتب كونفوشيوس كما يعرفون القرآن.

وثمة عنصر مهم من عناصر الحياة اليومية فى مصر وهو البربر. ويسمى كذلك مواليد المناطق النوبية الواقعة بين الشلال الأول عند "الفنتين" والشلال الرابع عند جبل برقل. ويهبط البربر عن طريق النيل إلى مصر للبحث عن سبل الحياة ويشتغلون فى البيوت خدمًا أو بوابين أو خفراء ليل. وهم يحظون بتقدير كبير بما لهم من عادات الاغتسال والنظافة التى يفتقدها باقى سكان البلاد، كما يعتقد أنهم مخلصون وشرفاء، غير أنى أعتقد أن هاتين الصفتين لا تنطبقان عليهم إلا فى خيال القائلين، فقد كانت لى تجربة شخصية معهم ورأيت أنهم لصوص تمامًا كالعرب. كما أنى لم أسمع عن سرقة فى أى بلد إلا وكان متورطًا فيها بواب البيت البربرى.

ورغم أن البربر مسلمون فإنهم يعتقدون فى الخرافات التى تجعلهم متعصبين وغير متسامحين. وهم يحملون دائمًا عدة تمائم لو كان لها بعض الأثر لصاروا أكثر أهل الأرض قوة وثراءً وجمالاً وإغراءً. ولأن البربرى لا يتزوج أبدًا أو نادرًا ما يتزوج فى مصر لكنه ينتظر الساعة الموعودة التى يكون لديه فيها مال حتى يعود لبلده ويقيم هناك مزارعًا أو راعيًا للغنم، فهو يحس برغبة هائلة فى أن يبدو جميلاً أمام المسلمات الأنوفات اللواتى يمررن بالشوارع المصرية أمامه. إنه مغازل يعتقد أنه لا سبيل لمقاومته عندما يلبس سروالاً قديمًا استغنى عنه سيده ويفرغ إناءً من الدهان على رأسه ويزين يديه السمينتين السوداوين بخاتم ضخم من الفضة أو النحاس وبه فص من التركواز المقلد.

إن معظم الحوذيين فى القاهرة والإسكندرية غالبًا ما يكونون من البربر، ولا بد من الاعتراف بمهارتهم الكبيرة فى قيادة العربات فى شوارع الأحياء القديمة الضيقة. وهم أيضًا يعملون فى وظيفة سايس أو تابع ولا يجلس فى مقعد السائق

بجانب الحوذى مثلما يحدث فى أوربا، لكنه يجرى أمام الخيل وبيده عصا طويلة ليبعد الناس ويفسح الطريق.

وزى هؤلاء السُّيَّاس طريف جدًا، ويتكون من طربوش أحمر ملفوف على أطرافه منديل حريرى وشرّابة سوداء طويلة معلقة على الظهر وقميص أبيض ضيق عند الوسط وتغطى جسمه عباءة ثمينة من القماش الأزرق أو الأخضر أو الأحمر مطرزة بالذهب. ساقه عارية وقدمه حافية، ويجرى دون كلل بسرعة الحصان يصيح باستمرار كى يبعد المارة.



عبد أسود

تجارة الرقيق

أما السود الذين يقطنون مصر فأغلبهم يأتى من تجارة الرقيق القديمة. ولا يخفى على أحد أن وسط إفريقيا أمدّ كل البلاد التى بها عبيد الآن بقوافل العبيد السود، رغم المحاذير الصارمة التى تم التوقيع عليها فى اتفاقيات دولية عديدة.

صحيح أن مراكب العبيد لم تعد تذهب إلى سواحل أفريقيا للبحث عن حمولتها من البشر إلى أمريكا، لكن فى أكثر من مناسبة عندما يهدأ الليل- وكثيرًا ما تهدأ الليالى فى البحر الأحمر- يرى المسافر - الذى يذهب إلى الشرق ولا يستطيع النوم فى غرفته، فيصعد ليتجول على سطح السفينة - المراكب الصغيرة ذات الأشرعة العريضة تتسلل بصمت إلى جانبه وتبتعد بسرعة حتى تغيب عن النظر فى الأفق كما لو كانت أشباحًا فى منام. إنها مراكب تجار العبيد تبحث عن حمولتها على السواحل الصومالية ثم تفرغها فى الخليج الفارسى عند موانئ زيمن. وأحيانًا تصطادهم المدافع فيظهرون مع أسيادهم معلقين فى صارى المركب لكن هذا هو الاستثناء، فعادة ما تتم تلك الرحلات بسلام.

ولما كانت تجارة العبيد مباحة كانت قوافل العبيد تساق عبر الصحارى حتى تصل إلى مدينة أسيوط المصرية حيث سوق العبيد التقليدى. ويموت الكثير من أولئك العبيد التعساء فى الطريق، وما زالت عظامهم تتناثر على رمال الصحراء على جانبى الطريق الذى يسلكه المسافرون. وقد منعت حكومة الخديو هذه التجارة عام ١٨٧٠، غير أنها لم تتوقف سوى فى العلن. وما زال نصف العبيد الذين يعيشون فى القاهرة من هؤلاء العبيد، ومعظمهم من النساء اللواتى يعملن فى حريم الأغنياء. وما غالبية جنود الملك النظاميين إلا عبيد، وللحق فهم أكثر الجنود صلابة ونظامًا فى الجيش المصرى كله.

وقد أنشأت منظمة خيرية إنجليزية منذ سنين قليلة مؤسسة فى العباسية- وهو حى خارج أسوار القاهرة - لإيواء الجوارى السود اللواتى استطعن التحرر من أسيادهن لكنها لم تحقق شيئًا، فكل من أتى للمؤسسة منهن إما رفضت العمل أو هربت بعد وقت قصير. وعدن لبيع أنفسهن بأنفسهن إلى سيد جديد. وليس من أهدافى بالطبع الحكم على هذه المؤسسة المكروهة، لكنى أؤكد أن العبيد فى مصر يفضلون البقاء مع أسيادهم على الحرية بدون مأوى فى الشوارع. فالأسر لا تسىء معاملتهم ويحيون حياة مريحة، فالأعمال التى توكل إليهم ليست شاقة ولا مضنية. ولا توجد العبودية من أجل أعمال الحقل فى هذا البلد.

أما العنصر العربى فعدده هائل فى مصر، وليس هذا غريبًا خاصة إذا أعلنا أن الغزاة المسلمين الذين فتحوا البلاد فى عهد عمر استوطنوا فيها ولم يطردوا منها أويضطهدوا. غير أن الفاتحين القدامى فقدوا الكثير مع مرور الزمن ومع الحكم التركى، فتدنت شخصيته بطريقة ملحوظة بحيث إن العربى لا يوجد الآن إلا فى طبقات المجتمع الدنيا. وهو قليلا ما يعمل موظفًا لدى الحكومة ولا تراه أبدًا فى وظيفة ذات شأن. ويشتغل بتجارة العقاقير ومنتجات السودان وهى متوقفة الآن بسبب الثورة المهدية. كما يعمل بائعًا فى البازارات ويبيع خصوصًا الزيوت والروائح والأقمشة والأحذية ومنتجات أخرى رخيصة ذات الاستخدام اليومى. كما يعمل أحيانًا خادمًا، ولا بد من الاعتراف بأنه غاية فى السوء. وخاصة الطباخين منهم، فلا يمكن التعامل معهم إلا بقدر كبير من الصبر. والعربى يعمل أيضًا بالموسيقى، ويكثر فيهم المغنون الجائلون الذين يُشجون الجماهير فى المقاهى.

وأطرف صنعة يقوم بها العربى فى مصر هى حرفة الحمّار. وربما أفقدته السيارات الأوربية بعضًا من أهميته فى المدن الكبرى لكنه ما زال موجودًا فى باقى البلاد حيث إنه يعد حاجة اجتماعية. فإذا ألغى الحمّار فستصبح الحياة شبه مستحيلة.

وفى كل بلاد المملكة، فى الريف وفى المخيمات والمدن الكبرى يوجد دائمًا عدد معين من الحمير مستعدين دائمًا لخدمة الجماهير، باللجام والبرذعة المصنوعة من الجلد والتى تنتهى من الأمام بسنام ضخم. ودائمًا ما يقف بجانبه الحمّار العربى وغالبًا ما يكون شابًا ذا خمسة عشر أو عشرين عامًا، وأحيانًا يكون طفلاً فى العاشرة أو الثانية عشرة. ويجتمع هؤلاء الحمّارة فى المواقف الخاصة بهم التى تعج دائمًا بالحضور ويسودها المرح، وتحكى فيها الأحاجى التى لا تتوقف إلا عند مرور غريب فتسمع:

– إيه، حُمار يا سيدى.

وهم يعرضون الحمار أحيانًا وينعتون المارة أحيانا أخرى بنفس الكلمة بغرض الضحك والتسلية كما يقول الإنجليز: Only for fun.

أما الأتراك فليسوا كثيرين فى مصر رغم أنهم يحكمون البلاد، إذ إن الأسرة الحاكمة الحالية تنحدر من سلالة محمّد علىّ الذى جاء أوائل القرن من روميليا(١). وحتى سنوات قليلة كانت فى أيديهم كل الوظائف المدنية والعسكرية العليا فى البلاد، ولكن بسبب إدارتهم الفاسدة وعاداتهم والسيئة فقد حل محلهم أوربيون وشرقيون. وما زال البعض منهم يحتفظ بمكانته نظرًا لثروته الكبيرة، وهم يسكنون أحياء القاهرة القديمة، ينعمون بملذات الحياة الشرقية بترفها وحريمها، ومنهم من هم أقل حظًا يعيشون فى مدن صغيرة ويمارسون صناعات صغيرة أو يعملون بالتجارة.

أما اليهود فهم الوباء الحقيقى فى مصر الآن. ولن أتحدث الآن عن اليهود الأوربيين الذين استولوا على كل الأملاك الأميرية المحجوز عليها نظير الديون مثل روتشلد، وأصبحوا بذلك مالكين لثلث الأرض الزراعية. لكنى سأتحدث فقط عن أولئك الذين يعيشون فى مصر والذين اتخذوا من مصر مركزًا لأسوأ الاستثمارات وأخسها فوق ما يمكن تخيله من خلال إدارتهم للقروض من البنوك الفاخرة أو صالات القمار الوضيعة حيث يخفون أموالهم من الربا.

وقد استقر اليهود منذ زمن بعيد فى أقاليم النيل الثرية، وليست القدس بعيدة عن هنا، وبالرغم من أن كثيرًا منهم لا يهمهم مصير بنت صهيون الحزينة فإنهم يسعدون بالعيش قريبًا منها وخاصة أنهم وجدوا فى مصر صيدًا سهلاً لأظافرهم الحديدية. ويحكى أنه فى العصر الرومانى كان ثلث سكان الإسكندرية من اليهود. وقد اضطهدهم العرب بقسوة سأشير إليها فى أكثر من موضع. وقد أدى التسامح الدينى والسياسى فى السنين الأخيرة إلى تزايد السلالة بطريقة ملحوظة، واليوم نجد

---

(١) روميليا، مقاطعة تركية توجد الآن داخل حدود بلغاريا وعاصمتها بلوفيدف. لاروس - ص ١٤٥١ طبعة لاروس ١٩٨٨ (المترجم).

اليهود فى كل مكان. منهم من ولد فى مصر ولهم فيها نسب قديم، واستقر البعض الآخر فيها منذ بداية هذا القرن، كما أن الكثير منهم قدم من فالاكيا(١)، وروسيا السفلى، حيث فروا من الاضطهادات الأخيرة. كما توجد بالقاهرة والإسكندرية أقليات صغيرة من اليهود الواضح أنهم من أصل إسبانى، فهم يتحدثون لغتنا ولكن بشكلها القديم. وألقابهم هى خيمنس أو ألقاب أخرى مشابهة تنم عن أصلهم، غير أنهم لم يأتوا من شبه الجزيرة الإسبانية إلى مصر مباشرة لكنهم ينتمون إلى الجماعات التى هاجرت إلى الشرق واستقروا فى القسطنطينية والمحافظات المجاورة لها.

ويفخر هؤلاء اليهود بكونهم إسبان، وهذا ما يدعونا للفخر بقوميتنا إذا لم يكونوا من الأوغاد أو المحتالين بالمعنى الشامل للكلمة. وأذكر أنى فى اليوم التالى لوصولى القاهرة عندما وجدت نفسى وحيدًا ولا أعرف أحدًا ذهبت لأجلس على مقهى تحت أروقة ميدان الأزبكية. وبعد لحظة اقترب منى شخصان يرتديان عباءتين صفراوين طويلتين وطربوشين أحمرين على الرأس. كان أحدهم يحمل سلة تكتظ بجميع أنواع البضائع من الأحذية والعطور والأمشاط وحوافظ النقود.....إلخ، وكان الآخر يحمل كثيرًا من القسائم المرقمة فى حقيبة. وعرضا على اللعب على أى شىء أختاره وعرضا علىّ عشرة أرقام أختارها بنفسى مقابل ريالين فقط وإذا صادفنى اليا نصيب؛ بمعنى أنه إذا ضربت القرعة وجاء رقم من أرقامى فعلى دفع المبلغ وأخذ أى من المبيعات، لكن إذا لم أفز كنت سأخسر ذلك الشىء وأخسر نقودى أيضًا. ولأن أيًا من تلك البضائع لا يساوى نصف بيزيتة رفضت اللعب بالطبع. وكنا نتحدث الفرنسية معًا، وكانا يتعثران بهذه اللغة لمدة عشر دقائق حتى تعبا فقال أحدهما للآخر بالإسبانية:

---

(١) فالاكيا هى إحدى إمارات الدانوب، وكانت تكون مع مولدافيا مملكة رومانيا حتى عام ١٩١٨ ، وهى مقسمه الآن إلى فالاكيا العظمى فى الشرق وفالاكيا الصغرى فى الغرب. لاروس - ص ١٥٢٤ - طبعة لاروس ١٩٨٨ (المترجم).

- هيا بنا، فلن يشترى مِنّــا شيئًا.

- عندئذ سألته: من أين أنتما؟ فقالا:

- نحن إسبانيان.

- من أى محافظة؟

- من برشلونة.

ولم أرد التحدث معهما أكثر فودعتهما. ثم رأيتهما فيما بعــد فـــى ظــروف أخرى فقد ترافعت عن أحدهما فى تهمة نصب.

إن اليوم الذى تلغى فيه الحكومة الإسبانية حمايتها التى توفرها لليهود فـــى الشرق لكونهم مولودين فى الوطن سيشهد مكسبًا للأخلاق، وســوف نتحــرر مــن عبء هؤلاء السفلة الذين يضعوننا فى كل مكان فى مواقف لا نحسد عليها. وتجــد اليهود فى كل الأوساط الاجتماعية فى مصر، وللحق فإنهم ليسوا ظرفــاء فـــى أى منها. فما زالت أسماء كبرائهم وصغرائهم ترتبط دائمًــا بــأى مــن الاســتثمارت الإجرامية، فيرجع إليهم إدخال العملات المزورة التى تغرق البلاد وحتى استنزاف الفلاحين البؤساء بإقراضهم مائة وتحصيل ألف، وهم يــشتركون فـــى ذلــك مــع اليونانيين. ورغم محاولتى تذكر أى استثناء فإننى لم أذكر سوى عــدد لا يتعــدى أصابع اليد الواحدة منهم لا ترجع ثروته إلى الخداع والمراباة.

وأكثر الأعمال شيوعًا بين اليهود هو الصرافة أو الاتجار فى العملة، وترى اليهودى دائمًا على نواصى الشوارع جالسًا على كرسى فى الهواء الطلــق خلــف مكتب صغير مغطى بالزجاج يحفظ فيه العملات المختلفة المتداولــه فـــى الــسوق المصرى مصنفة بنظام، كالجنيــه الإســترلينى والقــروش المــصرية والــشلنات النمساوية والعملات الإسبانية والتركية والعملات النابليونية الفرنــسية. ولا توجــد

عملة بالنسبة له إلا وتخسر عند تغييرها، ويقبض عمولته فى كل عملية يقوم بهـــا، بالإضافة إلى ما يدر عليه إدخال عملات مزورة إلى السوق والتى ينكر معرفته بها إذا ما أعيدت إليه. وقد جمع البعض من هؤلاء الصيارفة ثروات طائلة فى ســنين قليلة. وما زال المجتمع يتحدث عن رجل بنوك إسرائيلى ذى ثراء واسع بدأ حياته على غرار ما ذكرنا.

يشكل الشرقيون جزءًا أصيلا من سكان مصر. ومن المعروف جيدًا أنـــه فى العصور السابقة كانت كل شعوب البحر المتوسط لها علاقات تجاريـــة دائمـــة وقوية مع موانئ القسطنطينية والإسكندرية والموانى الأخرى فى منطقـــة تـــدعى موانئ الشرق. وذهب الكثير من التجار للإقامة بتلـــك المـــوانئ، وأطلـــق علـــيهم الشرقيون تمامًا كما نسمى من عاش فى الولايات الأمريكية لبعض الوقت أمريكيًا. كما تدعوهم الوثائق الإسبانية فى القرن السادس عشر باسم المتمردين. وقـــد قلـــد أبناء الشرقيين الكثير من عادات المصريين، فهم يتحدثون العربيـــة بطلاقـــة كمـــا يتحدثون لغات أخرى أوربية، وهم يجدون وظائف ملائمة لكفاءاتهم فـــى المكاتـــب والمتاجر المملوكة للأجانب.

وعلينا الاعتراف بأن الشرقى أفسد السلالة الأوربية كثيرًا، وهذا دليل آخـــر على قوة الطقس المصرى الكبيرة وقدرته على التغيير. فرغم أن هؤلاء الـــشرقيين يرتدون الملابس الأوربية ويتباهون بأنهم يتصرفون مثلنا ولهم نفس تربيتنا فإنهم لا يستطيعون إخفاء الصفات السيئة التى أكسبتهم إياها المعاملة المستمرة للمـــصريين. فهم منافقون وموسوسون بعض الشىء وطائشون وضعاف الشخصية، لا يقـــدرون على أى أنواع الدراسة سوى دراسة اللغات. ولا يبحث أى منهم عن العيش بالعمل فى الصناعة سوى من صار منهم فى قاع المجتمع. لكن أغلبهم من المُدللين. وليس لهم من طبائعنا سوى الرذائل التى أدخلوها إلى المجتمع الشرقى الذى ولـــدوا فـــى أحضانه.

ومن بين الشرقيين نجد السوريين والأرمن الذين لهم جاليات كبيرة في الإسكندرية والقاهرة ومدن مصرية أخرى، وهم لا يعملون في الصناعات اليدوية ولكنهم يبحثون عن وظائف في المكاتب التجارية لما لهم من موهبة تشبه الأوربيين المولودين هنا في تعلم اللغات، كما أنهم يمدون المكاتب الحكومية بأعداد متزايدة منهم. ويعد الأرمن أكثر ذكاءً من السوريين بكثير.

وختاما للحديث عن الأقليات الأجنبية المقيمة بمصر نذكر تعداد عام ١٨٨٢، وهو آخر تعداد. ويصل فيه عددهم إلى ٨٢ ألف نسمة موزعين كالتالي على الجنسيات المختلفة:

- يونانيون....... ٣٥٠٠٠.
- إيطاليون......... ١٦٠٠٠.
- فرنسيون........ ١٥٠٠٠.
- إنجليز.......... ٥٠٠٠.
- نمساويون...... ٣٠٠٠.
- ألمان............١٠٠٠.

ويصل عدد جاليات البلاد الأوربية الأخرى وأمريكا إلى سبعة آلاف نسمة، وبذلك يكتمل العدد ٨٢ ألفًا، في حين يصل عدد الإسبان في مصر كلها من ٣٥٠ إلى ٤٠٠ شخص.

وأسوأ هذه الجاليات سمعة هم اليونانيون. وهم يستحقون بالطبع ما يقال عنهم. فهم ينافسون اليهود في براعة فائقة للاحتيال على الفلاحين بإقراضهم المال بفوائد هائلة، ولا ترتكب أي جريمة إلا وكان متورطًا فيها يوناني واحد على الأقل. وهم يمتلكون بيوت القمار التي تمتلئ بها المدن المصرية. أما نساؤهم فتشترك مع

الإيطاليات فى بيوت الهوى التى تتزايد بسرعة. وهم عامة منافقون كذابون محتالون حتى إنهم يسخرون من القوانين التى لا تعاقبهم. أهؤلاء هم أحفاد شعب أثينا الذين يمثلون فى مصر مسقط رأس هوميروس وتميستكوليس؟[1].

أما الجاليات الأخرى فهى مختلطة وهى أحسن بكثير من الجالية اليونانية. ويشغل الكثير من أفرادها مناصب عليا فى التجارة والبنوك والإدارة العامة، وهم لا يقلون شأنًا عن أكثر المجتمعات ثقافة فى أوربا. لكن بالرغم من ذلك فإن الزائر لمصر يضيع وقتًا طويلاً كى يجد مكانًا للتسلية أو الاستجمام كتلك الموجودة فى القاهرة والإسكندرية. إنك فى هذا البلد لا بد وأن ترضى بالعيش فى الماضى وأن تترك المدنية من أجل الصحراء وقصور اليوم من أجل آثار الأمس. وصخب العاصمة من أجل هدوء الأطلال. أما الذين لا يستمتعون بذلك فلا يجدر بهم أن يعبروا البحر المتوسط إلى هنا.

---

(١) تميستكوليس هو قائد وسياسى من أثينا (٥٢٥-٤٤٠) ق. م، وبعد الحرب الطيبية تولى رئاسة الحزب الديمقراطى الأثينى. وهزم القوات الفارسية فى موقعه سالمينا البحرية عام ٤٨٠ ق م. نفى من وطنه عام ٤٧١ ق.م. ولجأ إلى بلاط الملك أرتاجرجس الفارسى، حيث مات مسمومًا. لاروس ص ١٤٩٨ - طبعة لاروس ١٩٨٨. (المترجم).

الفصل الثالث

الإسكندرية القديمة

ما من شك أن إنشاء مدينة الإسكندرية حديث نسبيًا مقارنة بمنف أو طيبة ومدن أخرى يرد ذكرها عند الحديث عن مصر القديمة. وعندما كان الإسكندر الأكبر فى أوج مجده سنة ٣٣١ ق. م، وضع حجر الأساس لهذه المدينة التى صارت عاصمة لمصر كلها لفترة كبيرة من الزمن. ولم يكن للقرية التى بنيت مكانها الإسكندرية وتدعى راكوتيس أهمية تذكر قبل ذلك العهد.

وعندما تفككت إمبراطورية الإسكندر – أو لنقُل وزعت بين قواده – نصّب أحدهم وهو بطلميوس سوتير نفسه ملكًا على مصر، وصار الملك يورث فى ذريته حتى عام ٣٠ق م، عندما قضى هزُاء كليوباترا على استقلال المملكة.

عصر البطالمة

وترك البطالمة ذكرى حسنة فى مصر. فلم يتميزوا كمحاربين وفاتحين فقط لكنهم ساعدوا فى ازدهار حضارة البلاد بقسط كبير. فقد كانوا متسامحين، ولم يفرضوا على مصر قوانين اليونان ولا ديانتهم. وحولوا الإسكندرية إلى مركز للحركه الفكرية فى العالم. ويرجع الفضل لأحد ملوكهم فى أن مانيتون كتب كتاب "حوليات مصر". ويرجع لملك آخر الفضل فى ترجمة الكتب المقدسة للعبرانيين إلى اليونانية وتعرف باسم "رواية السبعين". ولا ننسى مكتبة الإسكندرية العظيمة التى حوت أربعمائة ألف مجلد كانت تضم كل الآداب القديمة المصرية الهندية واليونانية والرومانية. كما أسس البطالمة "*الموزيون*" السكندرى الذى كان أول أكاديمية فى العالم، والتى كانت تفوق أكاديمية أثينا بكثير والتى أسسها أفلاطون. كما أنها جذبت كل الفلاسفة والبلغاء وعلماء اللغة المعروفين آنذاك إلى عاصمة المملكة، فوضعوا حجر الأساس لمدرسة الإسكندرية الشهيرة التى أحرزت تقدمًا كبيرًا فى طريق التطور الفكرى.

ولم تسقط مصر تحت النفوذ والسيطرة الرومانية، وحتى فى عصر الجمهورية لم تستطع روما احتلال البلاد بل صارت تحت وصايتها المعترف بها رسميًا فى وصية بطليموس فيلوباتر. وتأسيسًا على ذلك استطاع قيصر أن يبرر موقفه أمام روما عندما وضع كليوباترا على العرش. وفى النزاعات التى سبقت هذا التتويج كان على القائد الرومانى أن يقضى على مقاومة سكان الإسكندرية، وهم المصريون الوحيدون الذين لم يخضعوا أذلاء لنير روما. فقامت انتفاضة فى المدينة ضد اللاتينيين. ولم يستطع قيصر مقاومه اندفاع الثوار، ولجأ للاختباء فى البروكيو وهو حى خارج أسوار المدينة حيث حوصر هناك. ولما ضيق عليه أعداؤه الخناق قام بحرق الأسطول الرومانى قبل أن يستولوا عليه، وامتد الحريق من الترسانة إلى القصر الملكى والتهم المكتبة العظيمة التى كونها البطالمة. ويحكى المؤرخون أن قيصر عندما هُزم قفز فى البحر وأخذ يسبح بيد ويمسك بيده الأخرى مخطوط كتب فيه تعليقاته الشهيرة، وتمكن من الوصول حتى جزيرة فاروس التى احتمى بها جنوده. وعندما وصل المدد إلى القائد الرومانى بقوات أحضرها اليهوديان أنتيباتير وميتريداتس دى بيرجامينيا، عاد إلى الإسكندرية وشن معركه جديدة ضد المصريين وهزمهم، ثم توّج كليوباترا نهائيًا على عرش أخيها الذى مات لتوه غرقًا فى مياه النيل.

عصر الرومان

قسم الرومان المدينة الزاخرة إلى حيين، أحدهما يسمى راكوتيس، حيث يوجد السرابيوم أو معبد أبيس، والحى الآخر يدعى بروكيو والذى يوجد به القصر الملكى وكل المبانى العامة تقريبًا. أما فيما يخص الحكومة والإدارة فى مصر فقد سار الرومان على هدى البطالمة. ولأن هؤلاء اتخذوا السماحة الدينية قاعدة لسلوكهم، فلم يكتفوا باحترام معابد آمون وإيزيس وأوزيريس، لكنهم أقاموا معابد

جديدة. فأتم الحكام الرومان بناء معابد إدفو وإسنا ودندرة وأرمنت العظيمة التى بدأها أولئك البطالمة. وعاشت مصر فى سلام إبان عصر القياصرة، وباستثناء بعض الثورات التى تم قمعها بسهولة والقلاقل التى استمرت قليلاً والتى سببتها النزاعات الدينية، ويمكننا القول إن روما كانت تأخذ حذرها من ولاتها حتى لا يتحولون إلى ملوك للبلاد أكثر من حذرها من المصريين خوفًا من مطالبتهم بالاستقلال.

ولم تهم الحملات العسكرية- التى قام بها الرومان فى داخل الولايات مثل الجزيرة العربية وإثيوبيا- المصريين الذين انتهت حياتهم السياسية بالكامل. وعندما أعلن أحد الولاة الرومان- من أصل يونانى ويدعى أكيليو- نفسه إمبراطورًا، كان على روما أن تبعث إلى مصر جيشًا كبيرًا تحت قيادة قيصر دقلديانوس نفسه، والذى دخل بعد حصار دام ثمانية أشهر الإسكندرية بالدم والنار وأخضعها من جديد لسلطان روما.

عندما قسمت الإمبراطورية اللاتينية صارت الإسكندرية تحت سلطان أباطرة القسطنطينية، وبدأ عندئذ انحدارها. وعندما ظهرت المسيحية بقوة فى الشرق لم تلبث أن دخلت مصر، لكنها لم تعلن كديانة رسمية إلا فى عصر تيودور عندما أصدر مرسومًا بإغلاق وهدم معابد كل الآلهة سواء كانت معابد للديانة المصرية القديمة أم ديانة روما. وحطم بهذه المناسبة حوالى أربعين ألف تمثال، وتفرق العلماء والفلاسفة السكندريون. ولم يبق من تلك الحضارة القديمة التى يرجع تاريخها إلى سبعين قرنًا فى مصر إلا أطلال.

وهنا يظهر وجه جديد للتاريخ فى مصر. فلم يتحقق التحول من الأفكار القديمة إلى الحديثة دون عنف كبير، فقد قض مضجع الإسكندرية على مر سنوات كثيرة تعصب الجماعات الدينية، وكانت شوارعها مسرحًا فى أكثر من مناسبة لاغتيالات وحرائق ومعارك حقيقية بين الملحدين واليهود والمسيحيين. وكانت التضحية بالجميلة "*هيباتيا*" بنت الرياضى "*ثيون*" عندما أخذت جماعة بائسة تجرها فى الشوارع؛ صفحة مشينة من تاريخ هذه الحقبة.

الفتح العربى

وضع سقوط الإمبراطورية البيزنطية بعد الغزو العربى نهاية لفوضى مؤسفة. فقد هز "مُحمّدّ" الشرق بدينه الجديد. وفى عام ٦٤٠م، دخل عمرو نائب الخليفة " *عمر بن الخطاب* " مصر عن طريق فلسطين واحتل بيلوزا ومنف وحاصر الإسكندرية. وهبّ قبطى شديد الثراء ذو أصل طيب يدعى المقوقس بسلاحه راغبًا انتهاز الفرصة ليجعل من الإسكندرية مدينة مستقلة عن سلطان الأباطرة البيزنطيون، لكن عندما أخفق فى المرة الأولى طلب العون من عمرو الذى لبى طلبه فى الحال كما كان متوقعًا. ودام حصار العاصمة أربعة عشر شهرًا دارت خلالها معارك دامية على تخوم المدينة بين العرب وبين الجنود الرومان. ويذكر أن عمرو فقد من رجاله حوالى ٢٥ ألف رجل فى هذا المكان حتى قرر أحد القواد الانضمام إلى صفوف المسلمين.

ونورد هنا نص القائد العربى إلى الخليفة عمر يعلمه بسقوط الإسكندرية، يقول ما معناه(١):

> **"لقد استولينا على مدينة الغرب العظيمة، ومن المستحيل أن أصف لك ثرواتها وعظمتها. يكفى أن أقول لكم إنه يوجد بها ٤٠٠٠ قصر، و٤٠٠٠ حمام، و٤٠٠ مسرح، واثنا عشر ألف حانوت للبقول والفواكه، وأربعين ألف يهودى يدفعون الجزية. لقد فتحنا المدينة عنوة دون معاهدة. وقد نفذ صبر جنودى كى يحصدوا ثمار الانتصار".**

---

(١) ترجمة للنص الإسبانى- (المترجم).

وفى هذا الجزء الأخير كان يطلب الذهب بطريقة غير مباشرة. ولكن عمــر عارض ذلك بشدة ونجت الإسكندرية. وحتى إذا افترضنا أن الحكاية بهــا بعــض المغالاة التى حكاها عمرو عن مجد المدينة وثرواتها، فلا ننسى أن الإسكندرية كان بها ستمائة ألف نسمة حينئذ، وكانت محورًا لكل تجارة الشرق.

وفى العصر العربى فقدت الإسكندرية كثيرًا من أهميتها من جميع الأوجــه. فلم تعد تمر بمينائها السفن الرومانية، وأطفئت آخر مشاعل تلك الثقافة الفكرية التى أضاءت لقرون عديدة. ولم تعد الإسكندرية فى العصرين الوسيط والحديث مركــز الحياة فى مصر. فنازعتها القاهرة وأسيوط ومدن أخرى الأهميــة، خاصــة مــن الناحية السياسية. وانتقص من أهميتها التجارية كثيرًا اكتشاف طريق رأس الرجــاء الصالح. ثم جاء الاستعمار التركى ليقضى عليها كلية. وحتى نهايات القرن الثــامن عشر - عندما أراد بونابرت الإضرار بمصالح إنجلترا، وأن يــضع العقبــات فــى طريقها إلى الهند وفكر فى مشروع جرىء لفتح مصر - لم يكن للإسكندرية ذكــر فى التاريخ. ففى أواخر يونيو عام ١٧٩٨م، وصلت الحملة الفرنسية إلى ســواحل مصر ضاربة بعرض الحائط حراسة الأسطول الإنجليــزى. وانتظمــت صــفوف الحملة على بعد فراسخ من عاصمة البطالمة القديمة، وكانت تــضم كــل رجــال الجمهورية المحنكين وخيرة القواد الذين ظهروا فى أوج الحماسة العسكرية التــى غيرت شكل فرنسا فى هذا العصر. وخرج ثلاثمائة عربى للقاء الحملة ثــم فــروا مذعورين لرؤية أولئك الغزاة الحازمين المحاربين. واستعدت الإســكندرية للــدفاع ولكن دون نظام أو تنسيق، وحدث ما كان متوقعًا، فقد سلّــمت أمــام أول هجــوم للفرنسيين والذى كان شديدًا ولا سبيل لمقاومته. واستسلمت المدينــة لأول هجــوم. ولم يسمح نابليون لجنوده باستخدام حق المنتصر البربرى فى مثل هذه الأحــوال. فعرض على السكندريين التسليم مقابل حمايته ممتلكــاتهم وصــناعاتهم وديــانتهم

وقوانينهم وعاداتهم، وأكد لهم أن فرنسا التى تود الاحتفاظ بعلاقة صداقة مع مصر لن تدخل فى حرب إلا مع المماليك. وعندئذ اجتمع كبار المدينة وجاءوا يتقدمهم الأئمة والقساوسة والنبلاء والشيوخ، وقدموا لبونابرت مفاتيح المدينة. وتقدم الفرنسيون فى الحال فاستولوا على الحصون والنقاط الإستراتيجية فيها. وأعادوا النظام وتحسنت الإدارة المحلية، وفى غضون أيام قليلة قبل أكثر العرب تشددا الأسياد الجدد برضا كبير، وحلفوا يمين الولاء للجمهورية وسط أفراح شعبية. وجذب فتح فرنسا للإسكندرية أنظار أوربا إليها بطريقة ملحوظة، وبدأت مرحلة جديدة فى تاريخ مصر.

مدرسة الإسكندرية الفلسفية

وسوف أتحدث الآن عن الحركة العلمية والفلسفية التى أنعشت عاصمة البطالمة. فقد جعلت الأهمية الفائقة للعادة التى اكتسبتها الإسكندرية خلال القرون الأولى بعد الميلاد من تلك المدينة مركزًا للتجارة فى الشرق، ليس ذلك فحسب بل أيقظت أيضًا الحياة الفكرية فيها بقوة ونشاط لم تعرفهما من قبل. ولم تصل أثينا حتى فى أفضل عصورها إلى منافسة المدينة المصرية. وقد أسهم الموزيون والمكتبة- واللذان بناهما البطالمة- فى إثراء الحضارة الإنسانية أكثر بكثير من الأكاديمية اليونانية.

وتلخيصًا للمظاهر الأساسية لتلك الثقافة نبدأ بذكر ما يهمنا فى هذا الكتاب ولو بطريقة مختصرة، وأقصد مدرسة الإسكندرية أو مجموعة الأفكار الفلسفية التى أرادت بها المدينة العظيمة فى أزهى عصورها أن ترقى بالنفس البشرية بفضل تطورها المطرد. ولم تنشئ

الإسكندرية فى الواقع مدرسة فلسفية جديدة. ففى الأساس لم يضف فيلون[١] وأفلوطين[٢]، الكثير إلى أفكار أفلاطون وفيثاغورس الرائعة أو إلى تلك التى استقرت فى مصر ببطء مع جيل قساوسة طيبة وسايس اللاهوتية.

واقتصر عمل الفلاسفة السكندريين على التوحيد والتوفيق بين كل ما هو نافع حتى ذلك الوقت واستكماله فى مجال البحث عن الحقيقة وكل ما يعمق الروح، وفى نفس الوقت التوفيق أساسا بين الصوفية المسيحية ومتطلبات العقل الموروثة على منهج مدارس اليونان وروما. ولذا سميت الفلسفة السكندرية بالانتقائية، ويمكن القول عن حق إن أفكار المدارس الأخرى دخلت فى تكوينها، فقد حملت لها الأفلاطونية خاصة والشكية والمشّائية والرواقية لب نظرياتها وجوهرها.

وقد أثرت الفلسفة السكندرية فى الثقافة الفكرية العالمية منذ القرن السادس بعد الميلاد. وكان الخلاف الذى هو من طبيعة البشر أهم ما ميزها فى عصورها الزاهية. ورغم مذهب الجمع بين النقيضين السكندرى بمثاليته الأفلاطونية، فإنه نزع إلى المغالاة الصوفية التى خلفت لنا النزاع بين الإيمان والعقل منذ العصور الوسطى وحتى الآن.

---

(١) فيلون (٢٠ ق.م. - ٥٤ م) فيلسوف سكندرى وزعيم مفكرى اليهود فى الإسكندرية، كان معاصرًا للمسيح. تمسك بتعاليم موسى. وفى ذات الوقت استقى ما وافقه من الفلسفة اليونانية لا سيما من تعاليم أفلاطون. وقد سعى لإثبات أن العهد القديم علّمها من قبل. وهكذا جمع بين فكر سيدنا موسى وبين عقائد حكماء اليونان فى فلسفة جديدة. موقع *Holy-Arabic-Bible-Dictionary* (المترجم).

(٢) أفلوطين، فيلسوف من الأفلاطونيين الجدد. ولد فى مصر(٢٠٥-٢٧٠ق.م). أحد تلاميذ مدرسة الإسكندرية الفلسفية ، قام فى روما بتدريس مذهب فلسفى يخلط بين المسيحية والمذاهب الفلسفية القديمة. جمعت محاضراته فى التساعيات، وهى عبارة عن موسوعة فلسفية مؤلفة من ٥٤ كتابا جمعها بورفيريو فى القرن الثالث الميلادى. لاروس ص ١٤٠٩، ١١٤٦ (المترجم).

ومن هنا، تم تصنيف الفلاسفة السكندريين بأنهم أفلوطونيون[١] جدد. وكان الخير المطلق هو أساس نظريتهم وتلك الوحدة الخالصة عند بارمينيدس، والتي كوّن هؤلاء المفكرون بها المبدأ الخالد بفحواها الثابتة لكل مخلوق. ومن هذا المبدأ ينبثق الذكاء الذى تصفه الكلمة. ويفترض الذكاء وجود النفس أو لنقل إنها الروح. ولأن الروح هى محرك كل شيء وهى بطبعها لم تكن ولن تكون قوة خاملة فإن الروح هى العالم، والعالم أبدى دون بداية أو نهاية. ومن علاقة الروح بالعالم - إذا جاز لى التعبير - تنبع النفس البشرية، وبتطور كل الموجودات المادية وغير المادية تبتعد النفس عن نقطة بدايتها لكنها تميل إلى العودة إليها بشكل مطرد.

غير أن السكندريين يضفون على الروح شخصية وحرية. ويرون أن تلك الأرواح التى جبلت على الكسل أو التى استكثرت من الملذات الحسية وابتعدت عن التلذذ الفكرى فسوف تفقد مكانتها وسوف تحيا فى الوجود الحسى الغرائزى الصرف مثل النباتات والحيوانات. وتبقى فقط تلك التى اجتهدت فى التفكر والتدبر لتعيش فى أجسام بشرية وترتقى دومًا ناحية مركز الحياة الكونية حتى تصل إلى الرب وتختلط بذاته.

إن المعارف التى يكتسبها الإنسان بالحواس وبالتفكر هى دائمًا غير كاملة ولا تصل إلى كنه العالم الحقيقى إلا بالإلهام والوحى. ولكى نسمو إليه فلا يكفى الجهد الفكرى الخالص وحده ولكن لا بد من ملكة خاصة لا يمنحها الرب لكل المخلوقات، إلا أن هذه المَلكة تكتسب بالأعمال الصالحة وبعبادة الإله والصلاة والمواظبة على العبادات.

---

(١) نسبة إلى أفلوطين (المترجم).

وكما رأينا فى هذا العرض الموجز، فإن بها أساسا لكل الفلسفات المتناقضة، من المادية الصرفة إلى الروحانية الخالصة، ومن ألوهية الكون الخاصة بمذهب العارفين[١]، إلى الربانية اليهودية والمسيحية. ومن أساتذه تلك المدرسة نذكر أفلوطين فى الميتافيزيقا وبورفيريو فى المنطق، وبروكلو فى علم التصوف. إن اسماء كل الفلاسفة الذين لمعوا فى هذه المدرسة يمكن أن تملأ قائمة طويلة لا تتناسب وهذا البحث البسيط الذى نحن بصدده.

كانت الصراعات التى عاشها السكندريون فى القرون الأولى للمسيحية شاقة وحادة. وكان أثرها حاسما فى روما واليونان على مر سنين طويلة، ويرجع إليها أساسا رد الفعل الذى تشكل خلال القرن الرابع ضد المذاهب الجديدة. وقد لجأ الإمبراطور جوليانو المسمى بالهرطيق إلى هذه النظريات التنسيقية الانتقائية فى محاولته لإعادة إنشاء دين الطبيعة فى أشكال الإلحاد اليونانى البائدة. وقد أدى موت ذلك الأمير إلى حماية السلطات العامة من السكندريين، وانهارت المدرسة الشهيرة عندما بدأ مذهب حب الجدل ممارسة نفوذه المدمر على النفس البشرية، وأنهى كل إبداعات العصور القديمة. ويعد اختفاء الفلسفة فى الحياة الفكرية السكندرية هو نهاية كل أشكال المجد فى مصر.

الموزيون

ولا يليق بى قلب هذه الصفحة من تاريخ الإسكندرية دون الحديث عن الموزيين والذى أسسه بطلميوس سوتير مؤسس المكتبة أيضا. وكلمة موزيون ليس لها فى هذا المقام نفس المعنى الحديث الذى نريد به متحفا، لكنه يعنى أكاديمية

---

(١) العارفين، يطلق عليهم أيضا اسم الغنوسيين أو الأدريين، وهو مذهب فلسفى سكندرى نشأ فى القرن الأول الميلادى. ومعنى غنوسى هو شخص ذو بصيرة لذا سموا بالعارفين. وهو مذهب يخلط بين المسيحية والمذاهب الوثنية. موسوعة ويكيبيديا (المترجم).

أو مكان يجتمع فيه الفلاسفة واللغويون والشعراء حيث يقرأون فيها أعمالهم ويصححون لبعضهم البعض، وحيث كان الكثير منهم يقيّم فيها مع بقية أقرانه. وكانت الدوله تنفق عليه، وقد أثمر أعمالاً مفيدة جدًا لتقدم العلوم. ونذكر فيما يلي بعضًا منها دلالة على أهمية أكاديمية الإسكندرية القصوى مثل إقليدس، مخترع الهندسة العلمية، وأبولونيو الذى أضاف لها، ونيكوماكو الذى أعطى الرياضيات شكلاً منتظمًا وإيراتوستينس الذى أخضع الفلك والجغرافيا للدقة العلمية واستطاع حساب محيط الأرض وحدود زاوية ميل دائرة البروج، وأريستاركو مبتكر منهج سهل لحساب المسافة بين الأرض والشمس وبين الأرض والقمر، وهيباركو الذى يمكن أن نطلق عليه أول فلكى فى العصر القديم بسبب اكتشافاته حول السنة الشمسية ودقة حساب تحول الفصول، وإيراسستراتو وهيروبيلو اللذين اخترعا علم التشريح.

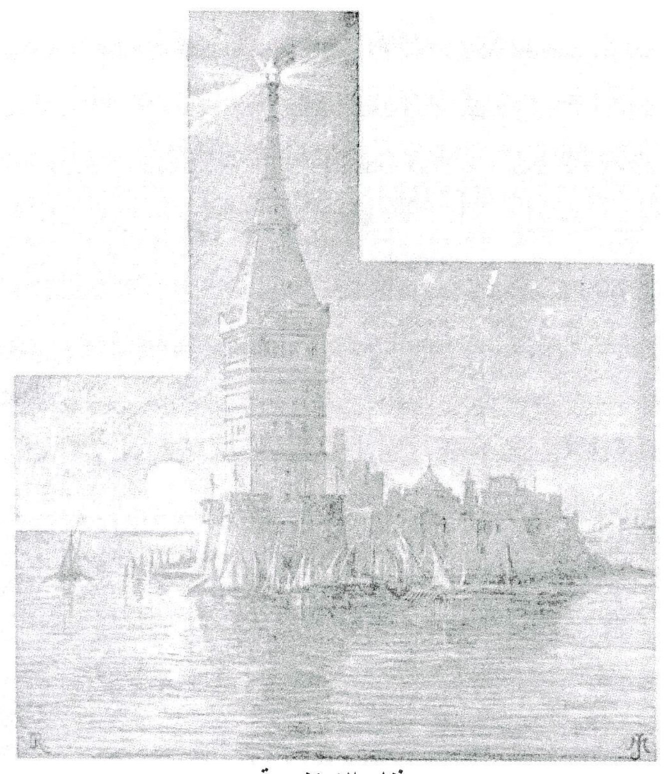
وتخرج فيه أيضًا شعراء مثل ثيوقراط وكاليماخوس وأبولونيوس دى رودس وليكوفرون وآخرون كثيرون فى العصر القديم، ولسنا بحاجة للتذكير بأن علم اللغة والتاريخ والقواعد كما عرفت فى تلك العصور تدين بالكثير لأريستاركوس وابولونيوس وزويلوس وآخرين كثيرين شهروها.

مكتبة الإسكندرية

أما فيما يتعلق بمكتبة الإسكندرية الشهيرة التى أسسها "سوتير" مؤسس الأكاديمية، وكانت تعرف لمدة كبيرة باسم بروكيو على اسم الحى الذى كانت تقع به. ويؤكد المؤرخون القدامى أنها كانت تحتوى على حوالى سبعمائة ألف مجلد، وهو رقم يبدو اليوم مغاليًا فيه كثيرا. وبعد تأسيسها بقليل قسمت المكتبة إلى قسمين، وربما كان ذلك إجراء احتياطًا لتجنب أى حادث يمكن أن يأتى عليها بالكامل. فاستقر القسم الحديث فى معبد أبيس.

وقد احترقت المكتبة القديمة كما أشرت فى معرض الحديث عن دخول يوليوس قيصر إلى الإسكندرية. أما المكتبة الحديثة فقد زادت المجلدات فيها بطريقة ملحوظة خلال العصر الرومانى. وفيها استقرت مجلدات الملك بيرجامو الغنية والتى أهداها أنطونيو إلى كليوباترا. وفى أحد الصراعات الشهيرة التى جرت فى الإسكندرية بين المسيحيين و"الكفار" فى نهايات القرن الرابع تحطمت معظم أجزائها، وبعد ترميمها فى القرن الخامس تحطمت نهائيًا عندما استولى عمرو بن العاص على الإسكندرية. وتحكى القصص: أنه عندما أخذت مشورة الخليفة عمر بشأن مصير تلك الكتب، فأجاب بكلام ذى معنيين الذى هو من خصائص البساطة الساذجة والتعصب الطائفى؛ إذا كانت تلك الكتب تتفق وما جاء فى القرآن فإنها لا تقول جديدًا، لذا فإنها لن تفيد، وإذا كانت تناقض القرآن فإنى أحسبها خطرًا عليه ولذا فدمروها. وهكذا فعلوا. فاستخدمت تلك اللفائف من البردى والتى كانت تحوى علوم خمسين قرنًا وقودًا لتدفئة مياه حمامات الإسكندرية العامة على مدى سبعة أشهر. وينكر البعض صحة هذه الرواية قائلين بأن المكتبة لم يكن لها وجود عندما دخل العرب مصر، وهناك من يتفق معها لكنهم يقولون إن المكتبة كانت فقيرة جدًا حينئذٍ وكان بها بعض اللفائف المكشوطة والمليئة بالصلوات وبحوث لاهوتية مفصلة ومعقدة. والحق أن كلتا الروايتين لا تستند إلى معلومات مؤكدة.

وغنى عن القول إن العرب لم يبدعوا شيئًا فى الإسكندرية. فقد منعت الثورات المدنية التى ضربت البلاد خلال حكمهم تقدم العلوم والفنون والآداب، غير أن ذلك البلد كان يمتلك عناصر عظيمة للسير على خطى العرب الإسبان فى أيام مجد خلافة قرطبة وسلاطين إشبيلية وغرناطة.



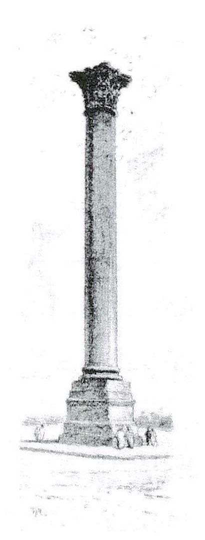
فنار الإسكندرية

فنار الإسكندرية

ولم يبق شيء من الآثار التى جعلت الإسكندرية القديمة مدينة شهيرة. فقد اختفت جميعها تقريبًا ومن بينها الفنار الشهير الواقع عند الطرف الشرقى لجزيرة فاروس والذى كان يعد إحدى عجائب الدنيا السبع. وكان يبلغ ستمائة قدم ارتفاعًا، وكان عبارة عن مبنى من سبعة طوابق، وكان مغطى من الخارج بالرخام الأبيض المزخرف. وقد بنى إبان حكم بطلميوس فيلادلفو، وبناه سوستراتو دى كنيدو الذى أمر بنقش هذه الجملة على قاعدته:

"من سوستراتو دى كنيدو ابن ديكسانيس إلـــى الآلهـــة حماة البحارة".

وما زال المؤرخون العرب يتحدثون عن ذلك الأثر كما كان فى عـــصره. لكن أطلاله لم تكن لها أهمية كبيرة عندما أمر السلطان سليم ١٥١٨، ببناء قــصر ومسجد فوقها(١).



عامود السوارى

عامود السوارى

وبقيت من المبانى الرومانية بعض الآثار. ويعد عامود بومباى أحــد أكثــر الآثار التى تلْفِت انتباه الزوَّار. وقد وضع فوق تل جنوبى المدينة. ويبلغ طوله ٣٢,٥ متر، ويبدو أنه وضع ليحل محل فنار الإسكندرية القديم، إذ إنه يرشد البحارة الــذين يرونه من البحر إلى الشاطئ، كما يرشد القوافل القادمة من الصحراء.

---

(١) يقصد قلعة قايتباى التى أمر ببنائها السلطان فى الإسكندرية، وافتتحها عام ١٤٧٩م/٨٨٤هـــ- العمارة الإسلامية فى مصر -د.كمال الدين سامح- دار نهضة الشرق- سنة ٢٠٠٠م (المترجم).

ونُحت العامود من قطعة واحدة من حجر الجرانيت الأسوانى الأحمر، ولم ينقص الزمن من نعومة مظهره شيئًا. وتتكون قاعدته المربعة من قطع الحجر الجيرى والتى جاءت بدون شك من آثار أخرى، حيث إنها توجد عليها نقوش هيروغليفية غير مقروءة. ويعد تاج العامود من الطراز الكورنثى، ونقش عليه مجموعة من زعف النخيل. ويعتقد أن تمثالاً كبيرًا لدقلديانوس كان ينتصب فوق تاج العامود. ويظهر العامود بهذه الهيئة فى إحدى خرائط المدينة القديمة رغم أن الروايات المحلية تؤكد أن العامود كان يعلوه حصان من البرونز.

وتعد القصة التى تروى عن هذا الأخير قصه عجيبة. فعندما استولى المغتصب أكيليو على الإسكندرية- أرجوانة القياصرة- مناصبًا دقلديانوس العداء توجه الأخير إلى المدينة الثائرة، وحاصرها لمدة ٨ شهور وسد كل قنوات المياه العذبة بها ودخلها آخر الأمر. ولم يشف موت أكيليو غليل الإمبراطور، فأرسل إلى جنوده يأمرهم بقتل السكندريين حتى يصل الدم إلى ركبة الحصان الذى كان يركبه الإمبراطور. وعندما أخذوا ينفذون أوامره تعثر الحصان فى إحدى الجثث وتخضبت ركبته بالدماء. واعتبر دقلديانوس ذلك نذيرًا من السماء له كى يرجع عن أوامره البربرية. ولكى يشكر السكندريون الحصان الذى أنجاهم بوقوعه من موت محقق أقاموا ذلك الأثر.

قصة شيقة لكنها كاذبة ككل قصص الشرق تقريبًا. فهناك نقش يونانى مكتوب على العامود يقول: "أمر بإقامته الوالى الرومانى بومباى لتخليد ذكر دقلديانوس المنتصر حامى الإسكندرية".

وتولى بومباى هذا الولاية عام ٣٠٢م، وربما أمر بإقامة الأثر بعد ذلك بعام أو عامين كى يحيى ذكرى هبة من القمح قدمها الإمبراطور للمدينة خلال فترة جدب عظيمة.

وكان عامود السوارى داخل أسوار بالقرب من معبد سيرابيس فى الإسكندرية القديمة، ولم يبق من المعبد سوى أجزاء من الأعمدة شبه مدفونة فى الرمال. ويتحدث سترابون قليلاً عن هذا السيرابيوم، وهو معروف عنه وصفه المفصل والشيق للآثار التى رآها فى المدينة، وقد أدخل البطالمة عبادة سيرابيس حتى يشترك اليونانيون والمصريون فى ديانة واحدة بدلاً عن دياناتهم المختلفة. ولم يكن للمعبد مثيل فى جماله فى العالم باستثناء الكابيتول الضخم الذى يتكئ على أعمدة رشيقة مكونا أروقة تضمها صالات المعبد التى خصص بعضها للصلوات والأخرى كمكتبة.

جبانة المدينة

وأخيرا، وبالقرب من شاطئ البحر فى نفس الجزء من مدينة الإسكندرية نجد بقايا بعض المقابر المسيحية. وقد بنيت فى نفس مكان الجبانة المصرية التى اختفى جزء منها تحت مياه البحر، بانخفاض التربة الواضح هناك والتخريب الذى أحدثه تجار الجثث فى العصر الحديث مما أدى إلى حالة الدمار التى عليها القباب الآن. ومن الخطر المجازفة بزيارة القليل الذى بقى منها والذى يقتصر على رسومات جدارية غير واضحة ومسودة، والتى يمكن أن يرجع تاريخها إلى الفترة من القرن الرابع إلى السادس الميلادى. ونلاحظ فى أحد النقوش أن المسيح ممثل على هيئة الإله المصرى حورس، مما يثبت أن النفوذ الأوزيرى لم يمح من وجدان أولئك المسيحيين الشرقيين فى عصر جستنيان.

وقد ذكرت أن جزءا من الجبانة السكندرية قد غرق تحت مياه البحر التى تستخرج من أعماقه أحيانا قطعا رائعة جدا. ومنذ فترة قصيرة استُخرج تابوت من الرصاص اتضح أنه من العصر الرومانى، وهو اليوم أحد المعروضات النادرة لهيئته وزينته، ويمكن رؤيته فى متحف القاهرة للآثار.

الفصل الرابع

ضواحى الإسكندرية

تبدو ضواحى الإسكندرية جميلة وبهية، ولا تخلو من فائدة بالنسبة للـزوار نظرًا للآثار والأطلال التى توجد بها والذكريات التى تثيرها تلك الآثار فى الأنفس. ويحد البحر من الشمال الغربى اللسان الضيق الذى يشكل الجزء الشمالى لمصر، وتحده من الشرق بحيرة مريوط. وتقع الرملة وسط المياه، وهى عبارة عن سهل رملى متعرج برشاقة. وتملؤه غابات النخيل التى تهزها نسائم البحر، والتى تدعو إلى ظلالها الأوربيين المساكين الذين حكم عليهم بمعاناة عذاب حر الصيف ومضايقاته كى ينعموا بها.

كم يطيب العيش فى هذا البلد خلال فصل الشتاء. فلا جو بارد ولا مطر على الإطلاق، ولا تهب الرياح، والناموس بها قليل. وجو كهذا يدعو إلى الكسل اللذيذ فى الحياة الشرقية والحلم بالحريم، والجرى بالخيال المجنون خلف إحدى الجوارى ذات العيون السوداوين الرائعتين وهى تستقل عربة تجرى ويحرسها الخصيان الغيورون. ولكن من يستسلم لهذا الهراء فى وسط بلاد يسجل الترمومتر بها ٤٥ درجة فى الظل ابتداءً من شهر مارس. وحيث تطن سحابات من الذباب الجائع من حولك ملتهمًا الأذرع والوجوه وحتى أجزاء الجسم المستورة لا تنجو من هذا الغزو الرهيب.

ويغادر الأجانب البلاد فارين إلى أوربا هاربين من رياح الصحراء الليبية الساخنة التى تهب ابتداء من شهر مارس وحتى شهر نوفمبر. أما الذين يضطرون إلى البقاء فى مصر لأى سبب فإنهم يذهبون إلى الرملة حيث يستمتعون بنسيم البحر ويرطبون أجسامهم فى أمواج المتوسط الصافية.

الرمـــــــــل

ومن أبواب الإسكندرية - حيث كانت ترتفع مسلات كليوباترا مــن قبــل- وحتى منتصف الطريق إلى أبى قير يمتد بمحاذاة البحر صف ضيق مــن البيــوت البديعة تحيطها الحدائق وتظلها أشجار السنط الوارفة وأشــجار النخيــل الــسامقة. وهناك يعيش الأوربيون خلال فصل الصيف الملتهب. وينقلهم قطار الحضر الــذى يأتى كل نصف ساعة إلى الإسكندرية حيث يمكن تحمل الحرارة. ولا تعــدم فـــى الرحلة نفسها الصحبة الطيبة لكن هذه الميزة لا تستمر إلا حتى التاســعة مــساءً. ولعدم وجود الطرق الممهدة والشوارع المضاءة فإنك تضطر إلـــى المــشى علـــى الرمال، لذا لا يخرج أحد من بيته بعد غروب الشمس، كمـــا أن كثــرة البعــوض تجبرك على البحث عن مخبأ خلف ستائر التـُـل التى تحيط بالأسِرّة.

قصر كليوباترا

تمتلئ هذه الشواطئ بالآثار المهمة والتى تجلب إلى الخيال أسماء شهيرة فى التاريخ. وخلال إقامتى الأولى فى الرملة كنت أقطن بيتًا على مرمى حجــر مــن الآثار الوحيدة الباقية من قصر كليوباترا، وهى عبارة عن ثلاثة أجزاء من أعمدة، وبقايا جدار وأطلال أخرى توشك أن تختفى تحت غزو الرمال الساحلية. هذا هــو كل ما تبقى من المسكن الفخم للملكة التى تعد آخر سلالة البطالمة فى مصر.

كنت أذهب مرات عديدة وقت الغروب للتنزه وحيدًا متأملاً، بعيدًا عن رياح الصحراء فى تلك المواضع التى شهدت أحداثًا عظيمة قبــل عــشرين قرنـــا مــن الزمان. سيطرت علىّ مشاعر غريبة عندما وقفت بالقرب من تـــاج عـــامود مـــن الجرانيت الأحمر ملقى على الأرض خائر العزم شارد الفكر عندما تأفل الــشمس

ناحية الغروب، وحيث يتحول النهار سريعًا إلى ليل ويحدث ذلك سريعا فـــى تلـــك البلاد بدون شفق طويل، وكنت أرى نجم النهار يختفى على صفحة مياه البحر بين سحب خفيفة تلوح فى الأفق بشكل مبهر.

وتبدو أحيانًا كما لو كانت أعمدة طويلة تنزل من السماء إلى الأرض ومعابد فخمة تظهر من تحت قبابها الشمس القرمزية. وتختلف درجـــات الألـــوان تمامًـــا كأشكال تلك الرسوم الغريبة، فتتدرج من الأبيض الناصع إلى الأحمر ومنـــه إلـــى الذهبى والبنفسجى والرمادى حتى يتلاشى فى آخر الأمر إلى الأحمر المصفر الذى يلمع فى السماء الشاسعة كبريق نار شريرة تلوح من بعيد، آخذة فى الاختفاء تحت غزو الرمال الساحلية. هذا هو كل ما تبقى من المسكن الفخم للملكة التى تعد آخـــر براعم البطالمة فى مصر.

حينئذٍ تذكرت بارتياح أنه ذات عصر هادئ أيضا كـــساعات العـــصر فـــى صيف مصر عادة امتلأ البحر سريعًا أشرعة عديدة تقترب مـــن الـــشاطئ بـــدت كسرب من طيور النورس تبحث عن الراحة. كان أسطولاً يحمل مصير ملكة وقدر امرأة لن يغيب ذكرها عن العالم إلا إذا خلت الكتب من الأفكار والعقول من الفكر.

كليوباترا وعلاقتها بيوليوس قيصر و مارك أنطونيو

وفى روما عام ٥٦ ق. م، كان مجلس شيوخها يعقد واحدة من تلك الجلسات الصاخبة التى كان رعد البلاغة بها يشق أجواء الفضاء بقوة كالعواصف التى تتلألأ فى السماء. وتحدث قيصرون معربًا عن غضبه على الآلهة والبشر لموافقتهم على السياسة التى اعتبرها ضارة بالمدينة الخالدة. وكان ملك مصر قـــد أُقـــصِىَ عـــن عرشه بعد اضطرابات شعبية فى مدينة الإسكندرية، فعندما سئم سكان المدينة دفـــع الضرائب المتزايدة لحرب قبرص المشئومة ثاروا ضد بطلميوس فيلوباتير، وشقوا

عصا الطاعة على سلطانه وأعلنوا عدم الولاء لشخصه. وهرب الملك المسكين تاركًا مصيره لسفينة متواضعة توجهت إلى سواحل روما فى نفس الوقت الذى حُملت فيه ابنته إلى العرش، وهى "برنيكى" المجنونة المهووسة بالحب والتى كان تغيير الأزواج هو الهواية المفضلة لها مع كل سهرة حمراء.

وصل فيلوباتير إلى روما، وفور وصوله إلى أعتاب مجلس الشيوخ طلب من الأعضاء أن يعيدوا إليه عرشه وذكرهم بإنه صديق لقيصر وبومباى وأن أخاه كان كبير كهنة معبد بافوس، وأنه نفسه كتب على جدران معبد فيلة المكرس لعبادة إيزيس-الزوجة الملكية للإله - والآله العظمى هذه الجملة: "*من أجل بطلميوس الإله، باخوس*[١] *الجديد وأسرته*".

رفض المجلس الاستماع إليه لخوفه دون شك من توسيع حدود الجمهورية حتى أطراف جزيرة العرب، والمواجهة مع القبائل الهمجية التى يصعب السيطرة عليها. ولما أخذ رأى العرّافة أجابت بنبرة واضحة ومؤكدة : "إذا أصاب أى ملك مصرى مكروه ثم جاءكم طالبًا العون فلا تخذلوه ولكن لا تمدوه بجنودكم" وتحدث كاتون[٢]، وكان رأيه الصارم الحماسى ضد الملك المنفى. ولما تآمرت السماء والأرض معًا ضده لم يبق أمام الملك سوى أن يسلك طريق الصحراء، فذهب ليخفى آلامه داخل أسوار معبد إفيسو[٣].

---

(١) باخوس أو ديونيسيو هو إله الخمر ، وهو ابن زيوس من آلهة الإغريق.-لاروس- ص ١٠١٣ (المترجم).

(٢) كاتون الرقيب، هو ماركو بورثيو، سياسى ومؤرخ لاتينى (٢٣٤-١٤٩) ق.م، اشتهر بالصرامة فى مبادئه وعين رقيبا فى عام ١٨٤ق.م، وحاول بكل السبل مقاومة الإسراف الذى كان قد بدأ يفت فى عضد روما. المرجع السابق. ص١٠٧٢ (المترجم).

(٣) مدينة فى قونية تقع على ضفاف نهر ايجة، وكان بها معبد مكرس لعبادة أرتميس، وكان يعد من عجائب الدنيا السبع، وقد حرقه أروستراتو. المرجع السابق ص ١١٤٨ (المترجم).

لكن قيصرون[١] عاد إلى روما بعد ستة عشر شهرًا من الآلام، وبعد أن صال وجال فى المجلس بصوته الجهورى وخصص خطبته الأولى للحديث عن المسألة المصرية. ولم يصل إلينا النص حال كثير من خطب الخطيب العظيم التى فقدت فى القرون التالية. لكن خطبته كانت بليغة لدرجة أن أعداءه أنفسهم لم يردوا عليه، ولم يكن يسمع ولا حتى صوت الآلهة. واتخذ القرار فى الحال باتباع سياسة أخرى مع الأسرة الملكية البطلمية، وأوكل إلى قيصرون نفسه إعطاء التعليمات الضرورية لتنفيذ ذلك.

ومن السذاجة الاعتقاد بأن الخطيب الجماهيرى البليغ تبنى قضية الملك المصرى رغم كون الأخير سليل المحاربين المشهورين الذين حاربوا إلى جانب الإسكندر الأكبر. لقد وضعت شجاعة هؤلاء الرجال أسس عظمة الجمهورية الرومانية. اتبعوا دائمًا السياسة الأكثر ملاءمة لمصالح المدينة. ومن هذا المنطلق كتب قيصرون إلى والى صقلية الرومانى "لينتيلو سبنتر" وأمره دون تأنيب ضمير "أن توجه إلى مصر برًا عندما يصل الملك بحرًا، إن مجلس الشيوخ قرر أن تكون أنت من يعيد إليه عرشه، وإذا وصلت بدون قوات فإن المؤمنين سيرضون. إن موقعكم القريب من مصر يؤهلكم لتقدير ما يجب عمله. وإذا بدا لكم سهولة احتلال المملكة وإعلانها ولاية رومانية فافعل بدون تردد، وإذا قابلتكم صعوبات فتوقفوا عن مواصلة المهمة".

ولم يكن القدر قد كتب بعد أن تؤول مصر إلى روما. وأعلن عن تولى بطلميوس من جديد ملكًا للبلاد بعدما حمله أسطول جابينيو. ودفعت ابنته بيرنيكى وزوجها أرخيلاو رأسهما ثمنًا لطموحها، وقضى أنطونيو- قائد الفرسان الذى أثر لاحقًا على مقدرات مصر وشارك فى القضاء على آخر أسرها الملكية- على آخر فلول الملكين المغتصبيْن للعرش.

---

(١) قيصرون هو ماركو توليو، سياسى ومفكر وخطيب رومانى ولد بالقرب من أربينو (١٠١-٤٣ ق.م) سُمى بأبى الوطن لرفضه مؤامرة كاتيلينا. كان مؤيدًا لبومباى ثم لقيصر بعد ذلك. وكان يهاجم ماركو أنتونيو بشدة. المرجع السابق، ص ١٠٧٧. (المترجم).

مات بطلميوس عام ٥٢ ق.م، بعد أن أضنته الآلام والمآسى التى تسبب فيها لوطنه ولأسرته تاركًا عرش مصر لابن ما زال صبيًا يـدعى ديونيـسيو ولابنتـه كليوباترا التى لا تزال صغيرة وصية على العرش، ولمدينة روما لتنفيـذ رغبتـه الأخيرة كما جاءت فى الوصية. وهكذا تظهر على مسرح الأحداث تلـك المـرأة الشهيرة والتى ينتهى معها وجود المملكة وسلالة البطالسة نفسها.

كانت كليوباترا تنحدر من سلالة أشهر الأسرات التى حكمت مصر لأكثـر من ٣٠٠عام. وخلال طفولتها حلّـق نذير الشؤم أكثر من مرة بجناحيه على هـذه الأسرة الملكية، وعندما فتحت عينيها على الدنيا تأملت قصة والدها التـى كتبـت فصولها فى بلد أجنبى، ورأت أختها تمنح مفاتنها من أجل أهوائها من فوق عـرش مغتصب، وأدركت أن الشعب يلعن الأسرة الملكية التى تحول ملكهـا مـن عبـادة آمون إلى عبادة باخوس رب البؤس والدمار، وعلى خلفية ذلك المشهد الحزين يقف جيش أجنبى أرسل ليفرض سلطان أبيها بالقوة، وأخوها شاهر سيفه فـى وجههـا مهاجمًا إياها دون هوادة، والدم الملكى يراق على أعتاب القصور.

عندما لا تصيب الإنسان خطوب الدهر وتمر الأيام هادئة من حوله فى جـو من السلام، وحين لا يخبر الآلام إلا سماعًا، ولا يجربها هو بنفسه فإنه من الـسهل تهذيب الأحاسيس بكل المشاعر الطيبة وجعلها تميل إلى الحب وتتغذى بكل ألـوان المثل العليا. وحينئذٍ يظهر حتمًا الميل الغريزى إلى الخير والذى يبدأ مع أول دقـة للقلب البشرى، وفكرة الجمال التى تنبع مع أول مراحل تطور العقـل وتـصاحبنا حتى الموت.

لكن.. سمموا الحياة، حياة امرأة فى مقتبل العمر أحيطوها بـالآلام عنـدما تحتاج لمشاعر العطف وعندما تريد النوم فى حضن دافىء عطوف، اجعلـوا مـن مرقدها عشًا للثعابين، وإذا أرادت البكاء فى عزلتها وحيدة، افضحوا أمرها حتـى

تحبس دموع الألم والخجل فى صمت. فلا تداس الحية إلا وتلتف لتلدغ وتدس لعابها المسموم. وإذا استسلمت روح المرأة إلى العذاب لسوء حظها ولأنها أحست بتخلى السماء عنها، فإن العواطف العنيفة تسيطر عليها، وتأسرها روح الشر، ولا تطلقها حتى يأتى وقت الندم. وهى من تشعر فى قلبها بالأحاسيس الطاهرة تعد أيضًا ضحية للحظات الضعف عندما تفقد إيمانها، وعندما تزول سلامة النية التى لم ترد أن تحرم منها أبدًا ويزول الأمل مثل آخر نقطة ماء تجف فى صحراء البؤس الجرداء. فإذا ما أوتيت سلطانًا، وإذا لمع اسمها وسطع جمالها كشعاع براق فى بحر عاصف غرق فيه طموحها وسعادتها، فإن تلك المرأة ستفتح عقلها بسهولة لكل الأفكار، وستغلق قلبها أمام كل المشاعر وأمام عقبات طريق الشر التى تجرها كل يوم ناحية هاوية سحيقة، ستكون طماعة وشريرة وربما مجرمة ضليعة وربما مستهترة لئيمة.

هكذا كانت كليوباترا، تربت فى المحن لكنها منذ نعومة أظفارها تشبعت بأفكار السيطرة وأن تكون القيادة عند قدميها، وأن تكون ملكة فى القصور ومعبودة فى المعابد وحتى تحقق تلك التطلعات المجنونة لم تتوقف أمام الفضيحة ولا أمام الجريمة ولا أمام الخطيئة. وبموت أبيها كان الوقت أمامها ضيقًا كى تتآمر ضد أخيها الذى سيؤول إليه الحكم. فتجرأت على المواجهة المسلحة، لكن عندما هزمت فى أول لقاء هربت إلى سوريا لطلب العون الذى أمدها به القنصل الرومانى قيصر مقابل ملاطفتها له.

وجاءت القوات الرومانية إلى مصر، وبعد معركة ضد القوات الملكية على ضفاف النيل قضى على الملك ديونيسيوس وأغرق فى النيل وأخضعت مدينة الإسكندرية دون جهد كبير. وبعد ذلك بقليل وفى عام ٤٨ ق م، ذهب القنصل إلى روما وهو يحلم بوضع إكليل الإمبراطورية فوق رأسه، وجلست كليوباترا متألقة

على عرش الفراعنة الذى ينخر فيه السوس تتمتع بالعظمة التى سرعان ما زالت وتحلم بأمجاد ستدفع ثمنها كبيرًا يوم تأتى المصائب. ودانت بكل شيء لقيصر، فقد قتل أخاها الأكبر ونصبها ملكة، وسمح أيضًا باغتيال أخيها الأصغر الذى كان من الممكن أن يطالب بعرش البطالمة، وهو أيضًا من جعلها أمًا لابن أطلق عليه قيصرون. وعندما علمت كليوباترا أن حبيبها سوف يحكم العالم فلم يرض ذلك طموحها فذهبت سريعًا إلى روما كى تحارب بجانبه لتشاركه تحقيق حلمه، وكانت تفكر فى توريث ابنها الإمبراطورية القادمة وأن تنال هى شرف التقديس السامى.

لكن قيصر استغنى بالسياسة عن ضعفه الإنسانى وسار بثبات فى طريقه دون تردد أمام نزوة امرأة. ولا بد أن رؤية كليوباترا من جديد كانت تؤثر فيه كثيرًا، وأنه طالما أحب أن يحس بها فى أحضانه وأن يرتشف من شفتيها الحب الذى دعاها إليه من قبل فى سوريا، وأن تثيره أشعة عينيها السوداوين المتوهجة، وأن ينهل من جمالها الغض ومن قوامها الممشوق الذى تعجز العباءة الإغريقية عن إخفاء مفاتنه. لكنه لم يرم مقدرات الجمهورية تحت قدميها ولم يجعل منها فى أية لحظة صاحبة الأمر والنهى فى ملكه. وأقام فى الفورو[1]، معبدًا للإلهة فينوس الخلاقة. وفى نفس المذبح وبجانب تمثالها المعبود وعند مائدة القرابين التى يحرق عندها بخور العذارى وضع تمثال لكليوباترا نحت من مرمر باروس[2]. لكن فى نفس الوقت أعادها قيصر إلى بلدها على أمل أن تجعل من ابنه ملكًا لمصر فى حين أنها كانت تعده ملكًا للملوك. كان سقوطها مدويًا. فعقدت سليلة البطالمة العزم على معاداة روما، وبحثت بسرعة ونشاط كالنحلة خلال القلاقل التالية التى ضربت تلك الدولة عن أحسن الطرق للاستيلاء على عرشها.

---

(١) الفورو، هو ميدان فى روما قديمًا كانت تناقش فيه الأمور العامة. لاروس ص ١١٧٨ (المترجم).

(٢) جزيرة فى البحر المتوسط اشتهرت بأحجار المرمر. المرجع السابق ص ١٣٨٩ (المترجم).

ومرت المدينة الخالدة بلحظة حرجة فى هذه الأثناء. فوجد قيصر مقتولاً بجانب تمثال نده القديم، فى وسط المجلس بين النبلاء وأعضاء المجلس الذين ارتقى على أكتافهم للوصول إلى السلطة، واندلعت حرب أهلية عنيفة فى الولايات الشرقية، وثارت لصالح قتلة قيصر ولايات مقدونيا وسوريا وتركيا واليونان وبلغاريا، ومصر التى كانت ترتجف فى يد المرأة الطموح التى أرادت استغلال نتائج الانهيار حتى تحقق أحلامها بالسيطرة على العالم. على أن كليوباترا تشككت أكثر من مرة وعبَّرت تصرفاتها عن هذا التردد الذى يميز تصرفات أولئك الذين يتقدمون بريئة ناحية المجهول. كانت الملكة المصرية تتوق إلى معرفة أين ستشرق شمس النصر حتى تهب للقائها. فساعدت كاسيوس لفترة والذى كان جيشه يتحرك صوب مصر، ثم تحالفت مع عدوه دولابيلا، ثم وضعت أسطولها فيما بعد بقيادة القائد موركوس تحت أمر روما، وطلبت العون من المسئولة عن تنفيذ وصية أبيها، وأخيرًا أرادت إعلان عدائها لحكومة الثلاثة الرومانية وانضمت إلى المعترضين على تقسيم الدولة الرومانية.

وانتصرت روما على كل أعدائها. فانتصر أحد الحكام الثلاثة وهو ماركو أنطونيو فى معارك سريعة متتابعة وضم فيليبوس وإفسو وفديجيا وكابادوتشيا وصقلية. ومن هذه النقطة الأخيرة ولخوفه من سمعة كليوباترا ومن المشاريع التى تنسب إليها ومن طموحها الذى لم يخف على أحد استدعى الملكة المصرية للمحكمة بلهجة متغطرسة وبشكل عدائى. ولكونها مذنبة فى جرائم ضد المدينة الخالدة فإن تلك المرأة كان عليها أن تطلب العفو عن ذنب لم يؤمن أحدٌ أنها يمكن أن تُعفى منه فى تلك اللحظات الحرجة من تاريخ روما.

يا لتعاسة أنطونيو الذى كان يريد أن يشد ذلك القوام البض لتلك الملكة الجميلة إلى عجلته الحربية بالقوة. كانت كليوبترا حينئذ فى أوج جمالها، وقد نضج قوامها الممشوق واتخذ قدُّها شكل التماثيل المنحوتة، نموذجًا صادقًا للحُسن اليونانى

الخاص بنساء البطالسة من أول "أرسينوى الأولى" حتى "بيرنيكى" الأخيرة. كما أنها كانت تلهبها نيران الطموح وتلتهم كيانها وهى تفكر فى ذويها وفى مصيرهم، وأنها صارت أمًا لابن قيصر، وأنها نفسها كانت منافسة لفينوس العظيمة فى معابد روما. فهل يزول ذلك كله فى يوم نحس؟ لا. فقد عملت على تكذيب كل الاتهامات الموجهة إليها وأن تتفادى سخط حكومة الثلاثة، وأن تحول السحب السوداء المتساقطة على رأسها إلى آفاق وردية. فخرجت من الإسكندرية وركبت أسطولها ولحقت بمعسكر أنطونيو على وجه السرعة.

ولا شك أن كليوباترا كانت بغريزتها تشعر بقصة امرأة إغريقية مثلها، غاوية وغانية والتى عندما اتهمت أمام محكمة الشيوخ بجرائم الفضيحة وانتهاك حرمات المقدسات قامت بفتح عباءتها وكشفت عن صدرها حتى تنتزع من القضاة صيحات الإعجاب والحكم بالبراءة. فكانت مثل "فرينيا" ولكن من سلالة أنبل وأصل عال، وعندما تقدمت كليوبترا أمام حكومة الثلاثة آثرت أن تنسى أنها حفيدة سوتير العظيم واستمعت وهى ترتعش إلى الاتهامات التى وجهها إليها المحارب، وكانت إجابتها الوحيدة هى عينيها تملأهما الدموع تتلألأ بلمعان حزين كما لو كانت كل دمعة حبة ملتهبة لعقد من نار. وجعلتها قوة هذا الاستعراض للضعف الذى لا يقاوم تغزو روما فى لحظة.

ولأن أنطونيو – ذلك القائد الذى بزغ نجمه فى مئات المعارك وزعيم القوات الرومانية الذى لا يقهر البطل الذى يستحق أن يكتب عنه بلوتارخ[1] – سقط فيما بعد لم يستطع أن يقاوم الملكة المصرية التى جثت عند قدميه وعيناها تمتلئ بالدموع صامتة ولكن صمتها كان بليغا، لم تطلب العفو ولا الشفقة لكنها كانت حريصة على أن تبعث بأشعة الحب الملتهبة والشبق الذى تبثه عيناها فى ذلك

(١) بلوتارخ: مؤرخ إغريقى (٥٠– ١٢٥م) اشتهر بكتابة السير الذاتية لمشاهير الإغريق والرومان مثل الإسكندر وقيصر وغيرهم. لاروس ص ١٤٠٩ (المترجم).

البطل كلما رفعت رموشها عنهما، وبعد براعتها خرجـت مـن المعسكر عائـدة لمملكتها. والقوات المنتصرة تخصها بالتشريف الملكى بل والمقدس، وصار أحـد الحكام الثلاثة وهو أنطونيو مدافعًا عنها وعبدًا لها منذ تلك اللحظة.

وأحست كليوباترا نفسها مالكة للقائد الذى وضع مقدرات روما فـى يـدها والتى كانت حينئذ مقدرات العالم كله. ودفعت مفاتنها ثمنًا لطموحهـا، فـأرادت أن تأسر محبوبها الجديد بكنوز المتعة والسعادة، وأن تضمه لركب هذا الجمال الـذى ستحكى عنه الأجيال القادمة الأساطير. وهذا ما حدث، فعند أول نداء نسى أنطونيو واجباته كقائد وزعيم فى أحضان محبوبته. فهب إلى الإسكندرية تاركًا قواتـه فـى معسكراتها والأعداء فى الميدان، ونسى لبعض الوقت الوطن الذى كـان بحاجـة لخدماته، وأسرته نفسها التى كانت تعانى الهجر فى اليونان. ويعد هذان الشخصان اللذان ارتبطا ببعضهما البعض ارتباطًا وثيقًا إلى الأبد مثالاً واضحًا لسلطان تلـك المرأة– التى خضعت لها الجموع– على قلب ذلـك الرجـل. ورأى أنطونيـو ذو الروح النشطة العطوف وذو الشخصية الحادة التائهة فى الحيرة اللذيذة لأسرار حبه الجديد فى كليوباترا ملكة جميلة، لكنة سرعان ما أظهر رغبته فـى امـتلاك هـذه المرأة كلية، هذه المرأة التى جعلت أحاسيس الحنان المجهولة تعربد فـى أعمـاق كيانه وحملت إلى كنف عقلة الخفى الأفكار العابثة لمتع جديدة ومجهولـة. وركـز أنطونيو كل تطلعاته فى أن يمتلكهما وأن يعيش فقط من أجلها. وتبخرت أحلامـه فى السلطة كالدخان، وذبلت أكاليل المجد على أبخرة هـذا الجـو الفاسـد. فجمـد مشروعاته كلها ومثله جميعها وحياته كاملة على حساب عواطفـه، وأراد نـسيان العالم معتقدًا أنه يرى الجنة على الأرض عندما يتطلع إلى ذلك الوجه الذى تعلـوه خصلات الشعر المجعد وتلك العينين التى تحرق نظراتهما روحه وقلبه الذى يبـدو كأنه بركان لكل الأحاسيس الكبرى عندما يدق بجانب قلبها.

على أن أحاسيس الملكة المصرية كانت مختلفة. ربما عانــت أيــضا تلــك المرأة للحظة الذهول الذى يلتهمنا عندما تختلط الذكريات الحلــوة لحــب مــضى بالغموض المحير للعواطف الجديدة لكنها سرعان مــا امتلكــت ناصــية أمرهــا وتوجهت ناحية قيم العظمة التى كانت ترنو إليها. إنها لم تحب أنطونيــو قــط، ولا أحست بعاطفة تجاهه كما أحست ناحية قيصر واحتفظت فى أحــشائها بطموحهــا الهائل وحب الأمومة. أرادت أن تخدعه، وخدعته بكل ما أوتيت المرأة من فن فى إظهار الحب المصطنع لإخفاء برودة المشاعر، ووهْم الحياة الــذى يرنــوا علــى العيون المكفوفة المريضة والتى تتلألأ رغم ذلك ببريق غريب.

ترك أنطونيو فرسانه فى بالميرا[1]، والقوات فى آسيا تحت قيــادة بلانكــو وقوات سوريا فى ساخا، وذهب ليخفى سعادته فى قصر الإسكندرية الــذى وقفــتُ بين أطلاله بعد عشرين قرنًا لأستحضر ذكراهما. وكان المكان قد صــمم لتحقيــق أغراض كليوباترا، فكان القصر يقع على شاطئ البحر، وكان بنــاءً بــديعًا عظــم خياله هذا الضوء الأبيض والوردى لجو هادئ وصاف.

كانت أمواج البحر المتوسط تتكسر من حول القصر وتدفعها النسائم دومًــا حتى ترطب الجو من حوله. وأضف إلى إبداع الطبيعة امرأة ذكية تتنسَّم طموحًــا خالصًا. حولت كليوباترا القصر إلى معبد بدا فيه إلهًا مَن كان مجرد عبد. وزينــت المدخل مسلات رشيقة، وصفوف تماثيل أبى الهول امتدت على جــانبى الطريــق تمامًا مثل معابد هليوبوليس والكرنك. كان القصر فخمًا بأحجاره الضخمة الرشــيقة المنحوتة من الحجر الوردى له أفنية واسعة تربطها مياه النيل تجرى فــى جــداول متقلبة الأطوار وتمتلئ شرفاته بالأشجار والأزهار تنبثق من فوق المياه كمــا لــو كانت حدائق معلقة على المساء.

---

(١) بالميرا، هى اليوم تدمر وهى مدينة النخيل ، قرية أثرية فــى ســوريا- المرجــع الــسابق ص ١٣٨٠ (المترجم).

هناك أمضى الحبيبان شتاء عام ٤١ قبل الميلاد، غارقين فى سهرات حمراء فاضحة. وكانت مائدة ذلك المحارب الذليل وتلك الملكة العاشقة عامرة دائمًا بأنـدر الأطعمة وأغلى المشروبات، باحثين عن متع جديدة ومكلفة، حتى إنهما كانا يذيبان حبات اللؤلؤ فى الخمر ثم يلتهمانها فى تلذذ. وأحس أنطونيو بأن الحب ينمو بداخله كل يوم، وأن سماء حياته وإن كانت بدأت مضيئة كصبح حائر إلا أنها سريعًا مـا صارت أتونًا هائلاً ألقى نفسه فيه ببلاهة. كانت كليوباترا تريـد الـسيطرة عليـه بالكامل وبدخول الربيع بعثته إلى روما واليونان حتـى يفـرض شـروطًا علـى الحاكمين الآخرين وكى يمد فترة حكمه إلى خمس سنين أخرى.

إثر ذلك، قاد أنطونيو حملة أرمينيا. وأسر الملك "أرطاباز" فى نيكوبـوليس وقضى على ملكه وأعلن أتباعه عبيدًا لمصر. وبهذه المناسـبة أرادت الملكـة أن تحتفل بهذه الانتصارات التى أهدتها القوات الرومانية التى لا تقهر إلـى المدينـة الخالدة فى أكثر أيامها مجدًا، ولذا اقترحت أن تستقبل القوات المشتركة فى الحملـة استقبالاً عظيمًا فى الإسكندرية، وظهر الجنود وعلى رؤوسهم الأكاليـل يحيطـون بقوافل الأسرى وعربات الغنائم التى ستوزع على الشعب. واحترامًا لمكافأة الملـك البائس "أرطاباز" بين شعبه فقد تم تكريمه بربطه فى حلقة من الفضة.

اختارت كليوباترا هذه اللحظة كى تحقق أغراضها الطموح الأخرى. وتقدم أنطونيو القوات على ظهر حصانه المخصص للمعارك. وفى وسط هتاف الجنـود المتمردين وصيحات الغوغاء الثائرة تنادى بكليوباترا ملكة للملوك أعطـت ابنهـا قيصرون لقبًا مشابهًا كملك للملوك، ووزعت بين أبنائها الآخرين من آباء عديـدين أراضى قبرص وبرقة وأرمينيا وبلاد الفرات حتى منطقة الهند.

وتطلعت كليوباترا حينئذ لمكانة الآلهة، فأمرت بوضع تمثالها فى المـذابح المقدسة لمعابد إيزيس، وأقامت معبد إرموت حتى تكرس عبادتها ممثلة على شكل إلهة معبد أوزيزيس وكتب على أحد حوائط المعبد النقش التالى:

"ملكة العالم المعتدلة، الإلهة المحبة لأبيها

القوية، أم الخير على الأرض، وريثة الإلة أوزيريس".

وعلى العملات اتخذت كليوباترا لقب الإلهة الجديدة وجعلت من نفسها ابنة للسماء التى بعثت على الأرض لتحقق السعادة لرعاياها. وكانت أيام سعادة ورضا ومتعة للجميع على قلتها. ووجد الشعب المصرى نفسه ندًا لذلك الشعب القوى بقانونه العظيم وبفتوحاته، ذلك الذى يسكن مدينة الروابى السبع بعد أن كان عبدًا لأسياده فى كل العصور يحيا منذ القدم حياة بائسة وسط أعماله العظيمة. وأدخلت الألعاب الشعبية إلى الإسكندرية وحفلات النصر والمصارعات الوحشية للمصارعين المحترفين. وشاركت كل بلاد أعالى النيل فى الاحتفالات، وساد لبعض الوقت الاعتقاد بأن الآلهة الأقدمين عادوا إلى معابد منف والأقصر، وأن الأمجاد سوف تولد معهم من جديد كى تمحو أيام العبودية والذل والغزو.

تنامت العاصفة فى روما ضد مصر. وكاد أوكتافيوس بن قيصر بالتبنى ووريث مخططاته وآماله أن يكون الوريث الوحيد للبلاد لكنه سرعان ما رأى أن كليوباترا وأنطونيو يفسدان مشروعاته. فأراد فى البداية محاربة هذين العدوين، لكن لم يجد من روما ميلاً لمساندة سياساته ولا استعدادًا لأن تنسى جميل الحاكم الشهير الذى حمل اسمها وجيوشها حتى آخر حدود العالم الشرقية. ورغم أن الأخبار الآتية من مصر جعلت من الصراع أمرًا حتميًا فإن شعبية أنطونيو وصدى سلطانه القديم أنقذاه ظاهريًا. وكان قرار إعلان الحرب ضد كليوباترا هو كل ما استطاع نده الحصول عليه من مجلس الشيوخ.

ومن المعروف جيدًا أن السهم كان لا بد وأن يصيب أنطونيو، فلم يشك أحد فى أنه كان سيجعل قضية الملكة المصرية قضيته، وبالفعل لم يتردد لحظة فى أن يعمل بأقصى قوته للدفاع عن معبودته ووطنه، فوقف أمام أعدائه كالأسد الذى يكشر عن أنيابه مدافعًا عن عرينه، وقبل أنطونيو التحدى مندفعًا أمام محبوبته واستجاب بإعلان الحرب.

أما أوكتافيوس فلم يكن الأمر كذلك، كانت الحرب أعظم شأنا ومن ينتصر منهما سيحكم الأرض وسيكون سيدًا لإمبراطورية العالم، ومالكًا لعملاق ضخم تصل رأسه إلى غابات جرمانيا البكر، وتلتهب قدماه فوق رمال النوبة الموحشة.

معركة أكتيوم

دقت طبول الحرب فى كل مكان وهبت شعوب بأكملها لتشارك فى المعركة. وجمع أنطونيو القوات الرومانية مع نظيرتها الشرقية وأصدقائه فى آسيا ومقدونيا وأوربا الشرقية "تراسيا" وليبيا ومصر واليونان وجزر البحر المتوسط. وحصل أوكتافيوس على تأييد روما وإسبانيا وإيطاليا وفرنسا وإفريقيا وسردينيا وصقلية. وكانت فرق الجنود فى الجيشين كثيرة وبدت قلوع مراكب الأساطيل كأنها أسراب من البجع تغطى صفحة البحر.

وماذا عن كليوباترا؟ بروحها الطموح التى أصابها ضعف المرأة وروعها لا بد وأنها فزعت سريعًا من ضخامة المهمة التى ستحدد مصيرها فيما بعد. فتبعت عشيقها بالفعل وأعطته أسطولها وأبحرت بنفسها فى آخر السفن. وفى أكتيوم بالقرب من الجزر اليونانية تقابل الجيشان وهاجم كلاهما الآخر بلا هوادة حتى إن الملكة المصرية تراجعت فى أول فرصة وأعطت أمرًا بالانسحاب لستين زورقًا.

عندما رأى أنطونيو تشتت الأسطول المصرى لم يرد الاستمرار فى المعركة. وفضل ذلك المحارب الذى تحول إلى بهلوان أن يخسر إمبراطورية العالم على أن يفتقد حبه لكليوباترا. وهجر كل أصحابه معطيًا أوامره لسفينته بالتوجه ناحية مصر. وبذلك أصبح النصر لأكتافيوس كاملاً ونهائيًا، إذ تزايدت قواته بانضمام أولئك الجنود الذين كانوا يحاربون من قبل فى صفوف منافسه.

وعندما وصل البائس أنطونيو إلى شواطئ الإسكندرية ظن أن بإمكانه المحافظة على ملك مصر لمحبوبته وأنه سيعيش مستقلاً وعلى صداقة مع روما. لكن كليوباترا خانته. فلما رأت نفسها خاسرة بعثت برسل إلى أوكتافيوس سرًا طالبة عفوه والهدنة معه، وعرضت عليه في مقابل ذلك جمالها وكنوزها وتسليم أنطونيو شخصيًا له. وكان العميل في هذه الفضيحة عبدٌ يدعى "تيرسو". لكن المنتصر لم يلق لتوسلاتها بالاً ولم تغره المداهنة واستمر في حملته.

حاول أنطونيو جمع القوات الموجودة في سوريا والوقوف في وجه إنزال قوات خصمه التي كانت موجودة على سواحل فينيقيا، لكن الرومان أداروا ظهورهم له وأعلن القنصل كورنيلو جالو أنه سيستقبله كعدو. وخططت كليوباترا بدورها للهروب إلى صعيد مصر أو عبور البحر الأحمر واللجوء إلى الجزيرة العربية بأسطولها وكنوزها، لكنها لم تستطع تحقيق ذلك بسبب عدم صلاحية القنوات القديمة التي حفرها ملوك الدولة الحديثة للملاحة.

ولما عاد العاشقان إلى الإسكندرية اقترح أنطونيو على الملكة الهروب إلى سهول مدينة طيبة، لكن كليوباترا التي لم تكن تحبه عندما كان قويًا لم تستطع أن تحبه في أزمته تلك. واختفت في بهو مقبرة قديمة ذات ليلة وأفشت خبر موتها الكاذب.

ولم يستطع مارك أنطونيو معها صبرًا. وأصابه الوهن الذي يصيب الجبناء، وفقد كل أمل، وأغمد في جسده نفس السيف الموصوم بالعار الذي لم يستله في المعارك الأخيرة فأصاب نفسه بسوء. لكنه لم يمت قبل أن يعرف أن كليوباترا كانت لا تزال حية، واستطاع في آخر لحظاته البائسة أن يلعن تلك المرأة الخائنة والملكة اللئيمة.

ولم تعش كليوباترا بعده كثيرًا، إذ دخل أوكتافيوس الإسكندرية منتصرًا يـــوم الخامس والعشرين من أغسطس لعام ٣٠ ق.م. وفتحت كليوباترا صدرها فى نفس اليوم لحية سامة دست السم فى عروقها. وهكذا كانت نهاية البطالمة ونهاية مـــصر المستقلة.

كم هو ساحر ذلك الماضى، فلم يبق شىء من البهرجة وعز السلطان. ولـــم يهتم أوكتافيوس حتى بدفن جثمان كليوباترا. فألقى بذلك الجسد الفاتن الـــذى ســـحر قائدين عظيمين، وطالما حير العالم على كومة من الحطب لحرقه تمامًا كما يُحرق العبيد التعساء الذين ماتوا فى حفلات السيرك السكندرى تكريمًا لمـــارك أنطونيـــو المنتصر.

الفصل الخامس

الدلتا

أطـــلالها

لنلقى نظرة سريعة على الآثار المهمة الموجودة فى منطقة دلتا مصر. فمن نقطة التقاء رافدى النيل الأزرق والأبيض على مشارف الخرطــوم بعــد عبــور المنطقة المجهولة التى يولد عندها النيل تتجمع مياهه فى مجرى وحيد ضيق تحــده سلاسل جبال آسيا وليبيا من الجانبين. لذلك وصفت مصر بشريط أخضر يمتد على الصحراء يصل عرضه إلى أربعة أو خمسة كيلومترات، وطوله إلى ألفى كيلو متر وتضم مساحة الأرض الخصبة بفضل النهر من الشلال الثانى عند وادى حلفا حتى عاصمة المملكة. وعلى مشارف القاهرة عند قليوب ينقسم المجرى إلـــى فــرعين كبيرين يتلاشيان بين القنوات التى لا حصر لها مكونا بذلك منطقة الدلتا على هيئـــة مروحة مفتوحة ناحية البحر المتوسط. وهى واسعة تبلغ أقصى اتـــساع لهـــا عنـــد الساحل، وتصل إلى ٢٠٠كم يخصبها أساســا ثــلاث قنـــوات مهمـــة تـــدعى (sebnnitico bolbitinico) والتى تصفها الأسماء العربية الحديثة بطريقـــة أفـــضل وهى رشيد والبرلس ودمياط.

سكــان الدلتــا الأوائــل

هذا الجزء من مصر تغطيه الأطلال قليلة القيمة بالنسبة للتاريخ حيث هدمها ونهبها أولئك الذين احتلوا مصر فى عصور مختلفة. ومن الخطأ أن نـــصدق مـــا يقوله الكثير من الجغرافيين الأوربيين من أن دلتا مصر كانت مأهولة بسكان مـــن الإغريق فقط بعد الاحتلال المقدونى لها. وينسى أولئك هذا القول ويضيفون، أنـــه

فى عصر الأسرة الثالثة من الدولة القديمة أى منذ أربعة آلاف عام قبل الميلاد[1]، نافست مدينة تيس العاصمة منف السيادة، وأنه بعد ذلك بأربعة عشر قرنا أسست الأسرة التاسعة مقر حكم لها فى مدينة كاربا، وأن الرعامسة أسسوا معبد الشمس وأقاموا المسلات الشهيرة فى هليوبولس، وأخيرًا أن الهكسوس هاجروا إلى صان والخوصين بالقرب من سايس، والعبرانيين إلى قويسنا، والبوباستيين إلى تل بسطة وأن هذا يظهر جليًا من الآثار التى لا تزال باقية حتى اليوم والتى نجت من الإعصار الذى ضرب حضارة مصر القديمة فى السهول الشمالية.

يرجع تاريخ استقرار الساميين الأوائل الذين غزوا مصر فى منطقة الدلتا إلى عصور سحيقة. وهناك انتشرت الأجناس التى أتت مع مينا لتزرع الأرض وتشق قنوات الرى وتبنى البيوت المجمعة حتى حولتها إلى مدن مأهولة، وأعيدت تسميتها من جديد. لكن لتعرضها للحروب المستمرة ولخطر الذين هددوا هذه الشعوب باستمرار اختفت مدنها مع الوقت وغطاها طمى النيل أو غطتها رمال الصحراء التى تحملها العواصف. وفى عصور حديثة نسبيًا ترجع إلى قرون قليلة قبل الميلاد بنى الإغريق على حطامها وأطلالها مدنًا شهيره مثل كانوب وسايس وهبت وتانيس وبوباسطة ونقراطيس وهليوبولس.

وتكتسب آثار تلك المدن أهمية أكبر فى أيامنا الحالية، بسبب أسمائها وليس بسبب ما تحتفظ به من آثار مدنية ودينية. وقد أصبحنا نجهل عن بعضها مواقعها بالتحديد كما هى الحال بالنسبة لنقراطيس التى تم تحديد موقعها منذ عامين فقط مكان بلدة دسوق الحالية التى تقع على الضفة اليمنى لفرع رشيد.

---

(١) حكمت الأسرة الثالثة مصر من (٢٧٨٠- ٢٦٨٠ ق.م)، مصر الفرعونية -أحمد فخرى - القاهرة ٢٠٠٦ (المترجم).

وتعد الرحلة عبر مدن الدلتا المصرية غير ذات أهمية بالنسبة للذين لا يهتمون بدراسة الآثار واكتشافها وحتى بالنسبة لمن يهتمون بذلك فلن يجدوا هناك إشباعا لرغباتهم. ويمكننا أن نجد آثارًا أكثر بكثير من ذلك فى مصر العليا. فحتى الآثار التى تم اكتشافها هنا تم نقلها إلى المتحف المصرى. لذا فإن زيارتنا إلى دلتا مصر ستكون مختصرة جدًا.

أبو قيـــر

ولنخرج من الإسكندرية بمحاذاة شاطئ البحر ناحية الساحل الشرقى. ويربط خط من السكك الحديد المنشأة فى عصر إسماعيل باشا عاصمة البطالمة القديمة، ويمر بالمكان الذى كان قديمًا مدينة كانوب والتى يسميها العرب الآن "أبو قير". ويمتلئ الشاطئ بأكوام الطوب المحترق والأوانى والجرار التى كثيرًا ما يوجد فى طياتها أختام الصناع الإغريق. ولم يبق من كانوب القديمة أى أثر يذكر بل تغطيها الأطلال التى بنيت عليها بيوت الفلاحين البائسة. وخلال إقامتى فى ذلك المكان فى عام ١٨٨٥، عُثر على قطعتين كبيرتين من تمثال ضخم، وبرغم غياب الرأس أعتقد أننى تعرفت منها على صورة ملك طيبى من الأسرة التاسعة عشرة. واشتهرت كانوب بأوانيها ذات الشكل الخاص والتى حملت اسم المدينة، وكانت تخصص لحفظ أحشاء الموتى والتى كان يتم إخراجها أثناء التحنيط، واشتهرت أيضًا بالأوانى المليئة بعسل النحل الوارد من هيمتو[1]، والخمر الجيد الذى كان يأتيها دومًا من الجزر الإغريقية.

---

(١) هو جبل أتيكا جنوبى أثينا ، اشتهر بأجود أنواع العسل ومحاجر المرمر. المرجع السابق ص ١٢٢٨ (المترجم).

وتشكل أبو قير اليوم لسانا ضيقًا من اليابسة يمتد فى عمق البحر. وليس للبلدة الحالية أهمية تذكر ويقطنها بعض الصناع والصيادون. ويرتفع حولها حصنان أو ثلاثة بنيت حديثًا وزودت بمجموعات جيدة من المدافع التى أدخلها الإنجليز. وعندما تتجول فى هذا الجو الموحش حيث لا يقطع صمت الطبيعة سوى صوت تلاطم الأمواج عندما ترتطم بالشاطئ الحجرى، لا تستطيع إلا تخيل مشهد المعارك العظيمة التى شنها جنود بونابرت عامى ١٧٩٨ و ١٧٩٩. ويبدو لك وأنت تتجول فى تلك الأماكن أن المشهد يبعث من جديد وأن الذكريات تتحول إلى حقيقة وأن الأموات المدفونين يبعثون من قبورهم كى يصطفوا من جديد فى المعركة ويسنوا حراب تلك البنادق التى جعلتها جيوش الجمهورية الفرنسية الأولى حرابًا لا تُقهر ولا تقاوم.

أدت أولى تلك المعارك إلى القضاء على الأسطول الفرنسى الذى نقل جنود نابليون إلى مصر. كان نابليون قد رسى فى أبى قير دون مقاومة تذكر، وعندما تمكن من الإسكندرية ولم يعد بحاجة إلى الأسطول أعطى أمرًا لقائده "*برويز*" بالإقلاع والتوجه إلى فرنسا. ولكن قائد الأسطول لم ينفذ الأمر فى الحال وتسبب تأخره فى هجوم أسطول نيلسون عليه وهو ما زال بمرسى أبى قير. وفى غرة أغسطس اندلعت معركة عنيفة بين القوتين مما أحدث خسائر فى الأسطول الإنجليزى والقضاء على الأسطول الفرنسى الذى نجت منه أربع سفن فقط من مجموع ثلاث عشرة سفينة كانت تحت قيادة البحار الشهير فيلينوف وذلك بالهروب من مكان المعركة.

أما معركة أبى قير الثانية، فكانت فى يوليو من العام التالى وقادها نابليون، وانتقم فيها لخسارته فى المعركة الأولى. وكان قد نما إلى علمه أن جيشًا تركيًا عداده ثمانية عشر ألفًا من الجنود رسا فى ذلك الميناء، فانطلق بسرعة البرق لملاقاته على رأس ستة آلاف فرنسى وتم له النصر.

ورغم أن غالبية الجيش التركى كانت من الجنود الانكشارية وأنه كان مزودا بمدفعية جيدة وقواد من الضباط الإنجليز فإن بونابرت استطاع محاصرة تحصيناتهم في أبي قير ورمى بهم فى البحر مما أدى إلى موت حوالى اثنى عشر ألفا منهم غرقا. ولأول مرة فى التاريخ يرى جيش أُبيد عن بكرة أبيه ولم يبق منه جندى واحد، مع الأخذ فى الحسبان أن هذا الجيش بلغ عدده ثلاثة أضعاف جيش نابليون الذى ضم أعظم قواد فرنسا فى ذلك الوقت من أمثال لانس ومورات ودستانج بالإضافة إلى كليير الذى وصل قرب انتهاء المعركة.

وإذا أبحرنا فى فرع رشيد نجد أطلال مدينة سايس القديمة على بعد ٦٠ كم من البحر، وهى إحدى أهم المدن الدينية فى مصر. ودانت شهرتها شهرة مدينة هليوبوليس. وكان معبد الإلهة نيت[١]، قد شيد بها وهى كما تذكرها النصوص الهيروغليفية:

> **"هى العظيمة، الأم المقدسة للآلهة، هى أم إله الشمس،**
> **الأم العذراء، هى التى جاءت للوجود أولاً وهى التى نشأ منها**
> **كل كائن".**

وقد عبد تلك الإلهة سلالة من الكهنة كانوا يدّعون معرفة أسرار العلوم وأصول الأشياء دون غيرهم من البشر.

وأدت شهرة سايس إلى توافد أشهر رجال العصور القديمة عليها عند زيارتهم لمصر. فزارها "*سولون*" لدراسة أسرار الإلهة نيت، ووجد هيرودوت مادة علمية غزيرة لكتابة التاريخ داخل معبدها. كما اتخذ الملوك مثل بوكوريس ويسماتيك بلاطهم بتلك المدينة المقدسة. وزارها آخرون مثل قمبيز بغرض الحج. ورغم ذلك لم يبق من المعابد أو المبانى التى حوتها تلك المدينة شيء يذكر. ولم تسفر الحفائر التى تنفذ بها من حين لآخر عن نتيجة يمكن أن تعوّض صعوبة العمل وتكلفته المادية.

---

(١) هى ربة قديمة عبدت فى صا الحجر، وهى إحدى الربات الأربع التى تحرث التوابيت.وهى تختلف عن نوت ربة السماء وزوجة ب إله الأرض. معجم الحضارة المصرية القديمة-ترجمة أمين سلامة-مكتبة الأسرة.الطبعة الثانية ١٩٩٦، ص (٣٤٢-٣٤٣) (المترجم).

دميـــــــاط

أما دمياط فهى ميناء صغير يقع على الساحل الشرقى لمصر ويطـــل علـــى بحيرة المنزلة. ورغم قلة اهميتها فإنها تستحق الزيارة لطابعها العربى الذى تحتفظ به وللذكريات التى تعود بنا إلى عصر الحملات الصليبية. ودمياط مدينة حديثة إذا ما قورنت بمدن مصرية أخرى. ويرجع تأسيس أغلبها إلى العصر الرومانى. وقــد زود العرب المدينة بتحصينات هائلة بعد الحملات الصليبية الأولى التـــى جـــاءت لتحرير قبر المسيح وتصدت بنجاح للهجوم الذى قاده أمالاريكو على رأس قـــوات الإمبراطور الإغريقى مانويل عام ١١٩٦م. واحتلها الصليبيون عام ١٢١٨م، وتـــم تحويل جميع مساجدها إلى كنائس إلا أنها عادت إلى أيدى المسلمين بعـــد ســـنوات قليلة جزءا من الفدية التى طلبوها للإفراج عن سان لويس ملك فرنسا مـــن ســـجنه بالمنصورة. ولم تكتسب دمياط أهمية تجارية قط بسبب كثرة المستنقعات البور التى تحيط بها ولبعدها عن مركز البلاد لكنها اكتسبت شهرة خاصـــة بـــسبب صـــناعة الجلود وعطور الياسمين. وقد تسبب افتتاح قناة السويس فى الإضرار بالمدينة فـــى عصرنا الحالى بسبب قلة المراكب التى تتردد على مينائها وانخفاض حمولتها.

ويوجد بالقرب منها مكان تميل أرضه للاحمرار ولذلك يطلق عليه العرب اسم بحر الدم معتقدين أن سبب احمرار الأرض هو دم الشهداء المـــسلمين الـــذين بلغوا ثلاثين ألفا والذين سقطوا أثناء الحروب الصليبية. كما يوجد أيضا جبل يعرف باسم تل العظم والذى يعتقد أن قوامه من عظام أولئك الشهداء.

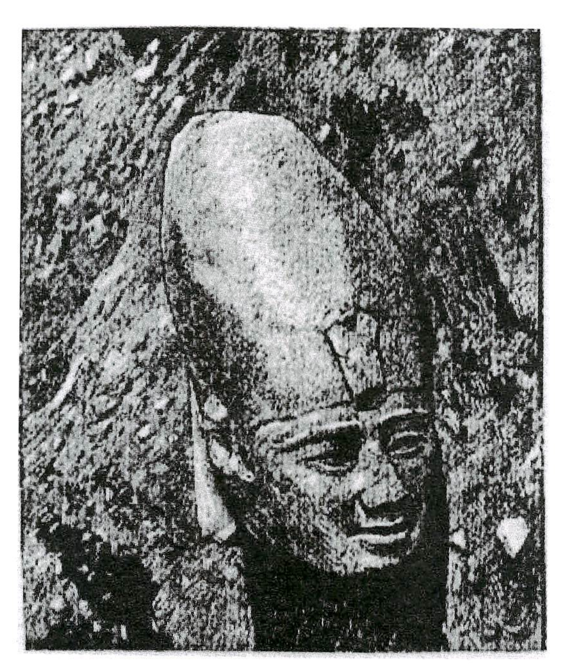
تـانـيـس وتـل بسـطا

وإذا أبحرنا عن طريق فرع دمياط نمر على بقايا مدينتين مهتمين في مصر القديمة، وهي هبيت أو منديس وتانيس أو صان الحجر ولا نرى فيهما سوى القليل بسبب جيوش الغزاة التي مرت بهما والتي أعملت يد الخراب فيهما بشدة. ولن أنسى قط كم المتاعب التي لاقيتها عند زيارتي لتانيس ومشقة عبور بحيرة المنزلة كي أجد جبالاً تغطيها الرمال الناعمة ورؤوسها من الحجر الجيري كتلك التي توجد بالقرب من أهرامات الجيزة. وتوجد بها بعض التماثيل الضخمة الملقاة على الأرض واقتنعت بعد هذه الرحلة بعدم جدوى زيارة آثار مدن دلتا مصر السفلى إلا إذا كانت بغرض الإقامة بها لعمل الحفائر.

ويمكن أن تكون زيارة آثار بوباسطيس أكثر إثارة للرحالة. وهي آثار معزولة ومهجورة تقف شاهقة على بعد ١كم من مدينة الزقازيق الحديثة. وكانت مدينة بيباست قديما عاصمة للمملكة المصرية إبان عصر الأسرة الثانية والعشرين منذ حوالي ٢٩٠٠عام. وقد حازت عن جدارة شهرة واسعة. وزارها هيرودوت بعد تدهورها، ولكنه أدرك معبدها الشهير الذي يقول عنه: "رغم وجود معابد أخرى أكبر وأكثر ثراءً لكن الأكيد أن هذا المعبد هو أجملها". ويصفه ذات المؤرخ في مناسبة أخرى بقوله: "يقع المعبد في قلب المدينة لذا فهو يرى من جميع أرجائها، ورغم ارتفاع مستوى المنازل منذ عصر شباكا فإن المعبد بقي على حاله يحيط به جدار مزدوج يكسوه الحجر فاصلاً معبد الآلهة والأشجار الضخمة من حوله عما يحيطها. ويبلغ طول المعبد ستاداً[1] واحداً وعرضه كذلك. ويربط المعبد شرق المدينة حيث سوقها طريق مرصوف يبلغ طوله ٣ ستادات، وعرضه ٤٠٠ قدم وينتهي عند معبد هرمس. ويحف الطريق حالياً صفان من الأشجار الباسقة"

---

(١) الاستاد هو وحدة قياس إغريقية تعادل ٦٠٠ قدم أو ١٤٧ م لاروس ص ٣٨٠ (المترجم).



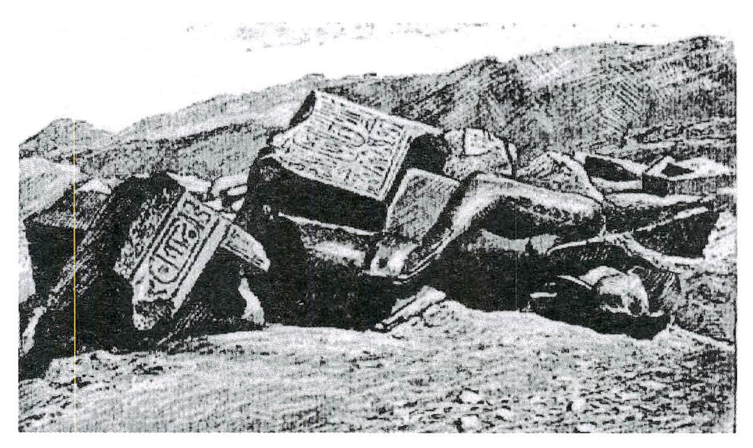
رأس تمثال من تانيس

وكان ذلك المعبد مكرسًا لعبادة الإلهة باستت، وهى امرأة لها رأس قطـة، وكانت تمثل أحيانًا على هيئة الإلهة سخمت التى لها رأس لبؤة. وكانت ربة التناسل وحامية بنات الهوى اللاتى يبدو أنهن كن كثيرات فى مصر. ونبنى حكمنا هذا على أساس كم المؤمنين الكبير بهذه الإلهة وحَجّهم مرة فى العام إلـى معبـدها. وقـد تخطت شهرة الاحتفال بمولدها حدود البلاد المصرية، وكانت الفضائح التى تحدث فى ذلك العيد تشيع الرهبة بين الشعب لدرجة أن أحد أتباع موسـى كـان يقـول: "بيباست، إن أولادك لا بد وأن يهلكوا جميعًا بحد السيف".

ويصف أبو التاريخ الشهير أيضًا عيد الحج هذا بأنه كان يحتفل بـه علـى الأرجح حوالى اليوم السادس عشر من شهر كيهك وهو الموافق للثلث الأخير من شهر ديسمبر فيقول: "عندما يسافر المصريون إلى بوباستس فإنهم يذهبون كما يلى:

يسافر الرجال والنساء معًا فى مراكب تقل كل منها أناسًا من الجنسين. فيحـــدثون ضجيجًا عظيمًا بآلات موسيقية طوال الرحلة، ومن لا يعزف فإنه إمـــا يغنـــى أو يصفق. وعندما يمرون بإحدى المدن فإنهم يتوقفون بها وتنزل النساء من المراكب كى تسب نساء المدينة ويسخرون منهن أو يرقصون ويحدثون الفوضى. ويفعلـــون مثل ذلك بكل موانئ النيل حتى يصلوا إلى بوباستس حيث يبدأ الاحتفال بالأضاحى الكثيرة، وفيه تشرب الخمر أكثر من كل أيام السنة مجتمعة. ويحرص الجميع على الحج إلى بوباستس عدا الأطفال، ويصل عدد الزوار إلى سبعمائة ألـــف شـــخص طبقًا لما يؤكده المصريون".

ويبدو اليوم أن بوباستس المخربة صدقت فيها نبوءة حزقيل فلم يترك غضب الرب عليها أى شىء إلا ودمره حتى الأحجار. فموقع الآثار اليـــوم لا يمكـــن أن يكون أسوأ مما هى عليه الآن، فالترع جافة والشوارع مهجورة والبيوت خربـــة، والرمال الجافة تغطى الحقول التى كانت يومًا حدائق غنَّاء. فلا ترى شـــجرة ولا نباتًا فى أرجاء المكان.



حطام تمثال ضخم تانيس

وتنبئ الآثار الموجودة عن أهمية تلك المدينة قديمًا، فلم تزل أسوار مبانيها قائمة حتى الآن. وترى هناك أجزاء من الفخار والطوب وحطام القـــوارير. ودأب

الفلاحون على النبش فى الحطام ليخرجوا "السباخ" وهو تـراب غنـى بـالأملاح يستخدمونه كسماد للحقول ويلتقطون الأشياء القديمة فى نفس الوقت التى كثيرًا مـا يعثرون عليها ويبيعونها للرحالة.

يرى المنخفض الذى بنى فيه المعبد على يسار تل حقيقى من الآثـار. ولـم تزل جدرانه فى حالة ممتازة، لكن المبانى الداخلية لم يبق منها سوى القليـل، فقـد سرق سكان الزقازيق العرب كل شيء حتى أحجار الجدران. ولم تبق إلا بوابة من الجرانيت الأسوانى الأحمر هى كل ما بقى من ذلك المعبد البـديع، ومـا زالـت أحجارها الملقاة على الأرض تحتفظ بزخارفها المصنوعة من حديد علـى شـكل رماح مكونة الكورنيش العلوى للبوابة، كما تُرى نقوش هيروغليفية محطمة وغير مقروءة.

إن أربع أو خمس ساعات كافية تمامًا لزيارة ما بقى من بوباستس، ويستطيع الزائر بعد ذلك أن يستريح فى مدينة الزقازيق المجاورة وهى من أجمـل المـدن المصرية، بنيت على ضفاف ترعة واسعة تأتى من نهر النيل. وأصبحت المدينـة فى السنوات الأخيرة مركزًا وسوقًا لتجارة القطن المهمـة جـدًا بالنـسبة للقطـر المصرى. وتغريك ضفاف النهر بالتنزه والتمتع بالنسيم فى كنف الأشجار الباسقة. وتتمتع المدينة بشوارع جميلة واسعة وسوق فرنسى يمكنك أن تجد فيـه منتجـات أوربية كثيرة.

وإذا اتجهنا ناحية جنوب الدلتا بالقطار فإننا نجد آثار أتريب، وهـى مدينـة قديمة أعاد بناءها رمسيس الثانى، واكتسبت أهمية عظيمة إبان الحكـم الإغريقـى والرومانى. وليس لآثارها المدمرة بالكامل أهمية تذكر. وقد تم اكتشاف جبانة بهـا منذ عدة سنوات تعود للعصر اليونانى الرومانى وعثر بها على مومياوات فى حالة ممتازة، وعثر عليها داخل توابيت من الخشب المصقول كانت لسوء الحظ خاليـة

من أية نقوش. وتدفعنا التماثيل النصفية والكاملة الكثيرة التى وجدت هنا إلى اليقين بأن تلك المدينة احتفظت بمكانتها حتى أواخر أيام الاحتلال الإغريقى لمصر.

ويمر فرع من النيل بالقرب من أتريب. وعندما نزلتُ علـى شـاطئه كـى أتزود بالمياه شد انتباهى قبر على رمال الصحراء ويحيط بهـا سـياج حديـدى. وعندما اقتربت منه أدركت أنه يضم رفات ضابط إنجليزى شاب كان قد غرق منذ سنتين بالقرب من المكان. يا له من بائس وحيد فى عزلته تلك. لا يقلق أحدًا سـلام وهدوء رقدته الأبدية ولا يذرف دمعة على قبره.

طنطا واحتفالاتها

وباستثناء الإسكندرية فإن أكثر مدن مصر السفلى أهمية هى مدينة طنطـا، وهى عاصمة محافظة الغربية، شيدت بين فرعى النيل اللذين يصبان فـى رشـيد ودمياط. ويبلغ تعداد سكانها فى الأوقات العادية حوالى ٦٠ ألف نسمة. وأشـد مـا يجذب انتباه الرحالة فى مدينة طنطا هو شهرة أعيادها وموالدها التى تعقد سـنويًا على أرضها للاحتفال بولىٍّ مشهور دفن فى مسجدها الرئيسى. وبرغم تكرار تلـك الاحتفالات ثلاث مرات سنويًا فإن أهمها هو احتفال شهر أغسطس، وهـو الوقـت الذى لا يأتى فيه رحالة إلى مصر. ويستطيع المصريون- الذين لا يضيقون بالحر قط- المخاطرة والقيام برحلة فى ذلك القيظ إلى عاصمة الغربيـة حتـى يحظـوا بالسعادة التى تجلبها لهم تلك المشاهد الشيقة.

فى العاشر من أغسطس لعام ١٨٨٥، توجهت من القاهرة إلى طنطا تحدونى الرغبة فى رؤية الأعياد الكبرى للمدينة. كانت أربعة أيام فقط تفـصلنا عـن يـوم الاحتفال الكبير، وبرغم ذلك كانت الحقول المجاورة للمدينة على بعد كيلو متـرين من أسوارها قد تحولت إلى معسكر شاسع من الخيام المزدحمة. وأكدوا لى صـباح

ذلك اليوم أن ستين ألف زائر قد وصلوا من مختلف أنحاء مصر، وأضافوا أن العدد لا يزال ضئيلاً وأنهم يتوقعون ثلاثة أو أربعة أضعافه.

وصدَقت بالفعل توقعاتهم، وكان عجيبًا أن نرى فى الأيام التالية مواكب المؤمنين تتوافد عبر الطرق أو على ضفاف الترع جنوب المدينة. كل قافلة تنتمى إلى بلدة بعينها قل عددها أو كثر، وفيها يمشى الرجال ويركب الأطفال والنساء جزافًا فوق الجمال. ولم تغب راية المسجد عن المشهد أبدًا، فنرى شيخ البلد الذى يمتطى الحصان فى وقار تسبقه فرقة من ثلاثة أو أربعة عازفين. وكانت صفوف البشر لا تنتهى فى جميع أرجاء الأفق، وبدت الطرقات كأنها مجارى سيول تصب البشر لتغرق بهم المدينة.

السيد البدوى – المواكب الدينية

وتداعت إلى رأسى فى الحال ذكرى رحلات الحجاج المصريين إلى مدينة بيباست القريبة، وسرعان ما تأكد لى تمامًا أن هذه الاحتفالات ما هى إلا صدى وذكرى لتلك، فالهدف الرئيسى من الحج إلى طنطا هو الصلاة فى مسجد الشيخ البدوى. وفكرة العرب أنفسهم عن شخصية الشيخ وصفاته تعد مبهمة جدًا فيقولون إن اسمه هو سيدى أحمد وهو كما نقول فى الإسبانية "خوان لوبيز"، فتلك الأسماء توجد فى مصر بكثرة[1].

ولد السيد البدوى فى القرن الثانى عشر فى فاس أو تونس، وعند عودته من الحج إلى مكة أقام فى طنطا واكتسب شهرة عظيمة لتقواه وقوته الجسمانية. ولما اعتبر وليًا فقد دفن عند موته فى أفضل المساجد، ويحضر إلى قبره من يريد الاستعانة بكراماته ومنهم النساء العاقرات اللاتى يردن الإنجاب.

---

(١) يعنى الكاتب أنه اسم مُركّب من اسمين سيد وأحمد (المترجم).

وفى عصرنا الحالى ما زالت توجد فى الشرق معبودات مماثلة، فقد رأيت مثل ذلك فى معابد أومانكوساما باليابان ومعابد كوانين بالصين وهم فى كل الأحوال مجرد حماة لبنات الهوى.

راح النشاط والضجيج يتزايدان شيئًا فشيًا فى شوارع طنطا لدرجة أن التحرك فيها خلال النهار وحتى منتصف الليل كان شبه مستحيلاً. ولاحظت أن الخيام فى المعسكرات كانت تُنصب بطريقة متناسقة تتكئ بعضها على بعض تاركين مساحة مربعة فى الوسط تكون كالميدان فى وسط كل أربع مجموعات. وكان الزائرون يجتمعون فى تلك الساحات بعد العصر لينغمسوا فى حلقات الذكر، وهى ممارسات دينية عبارة عن رقص وإنشاد على نغمات الدفوف. وكان توافد المؤمنين على المسجد عظيمًا حيث يقبع بها أكثرهم تدينًا. ومن المؤكد أن مشاعرهم كانت ستجرح بشدة إذا ما تجرأ أى من غير المسلمين على الدخول إلى المقام. ولم يجرؤ أى أوربى على اجتياز أعتاب الجامع.



مولد السيد البدوى

وكانت المواكب الرائعة ترى بكثرة فى الشوارع، وكانت قد نظمت علـــى شكل قوافل. فمرة تجد شيوخا ذوى لحى بيضاء وعيون بلهاء وطواق مدببة فـــوق الرؤوس وأطواق حول الأعناق وسلاسل فوق أجساد عارية وفـــى أيـــديهم ســـياط يلهبون بها أنفسهم تسبقهم الأعلام والعازفون. وأحيانا أخرى تـــرى أفواجـــا مـــن المؤمنين سكارى من أثر "الحشيش" يصرخون وهم عراة تمامًا ويأتون بإيمـــاءات وهم يمشون أو يركبون الحمير ويهزون أجسادهم بطريقـــة عجيبـــة كالبهلوانـــات. والجميع يتجه إلى قبر الولىّ ليصلون عنده ولم أعرف هل يفعلون ذلك لينالوا الجنة فى السماء أم العفو عن بلاهتهم فى الأرض.

وتمتلئ المقاهى وأماكن اللهو الأخرى التى صنعت خصيصًا بهذه المناســـبة أثناء الليل. وتتوافد الجموع كى تستمتع بقهوة موكا الـــسوداء وتـــدخن الأراجيـــل وتستمع إلى أغانى الصبايا اللاتى يجلسن فى مقصورة صغيرة يبعثن البهجـــة فـــى المكان. وقد رأينا إحدى تلك الفتيات فى الصالون الذى زرته مرة مع أصدقائى من المصريين، وكانت رائعة الجمال وحازت إعجابنا بحق. وكانت من سلالة عربيـــة خالصة لها عينان سوداوان زاد من سوادهما خطوط "الكحل" التى تحيطهما. كانت طويلة القامة رشيقة القد، ترتدى ثياب الأثرياء، بدت كأنها أجمل فتيـــات الحـــريم هربت من قصر سيدها. كان صوتها غريبًا بعض الشىء ضعيفًا ملتاعًا لكنه يمتلئ حنانًا. كان كصوت آلة الهارب تداعبها أصابع حانية تعزف أعذب الألحان. وعندما فرغت من الغناء دعوناها إلى مائدتنا، فجاءت دون تمنُّع وقالت إن اسمها فاطمـــة، وطلبت منا بابتذال ثلاث زجاجات من البيرة السوداء. وكانت خيبة أملى فيها واحدة من قائمة طويلة من تخيلاتى عن الشرق التى خذلت فيها آمالى كثيرًا.

"متعة وفائدة" قالها " *هوراتشيو*". لم يسمع العرب والفلاحون بوجود مؤلـــف كتاب "فن الشعر" العظيم لكنهم يترجمون مفاهيمه إلى الحياة اليومية. فالولى الـــذى يجوب الشوارع لم ينسَ أبدًا أن يمد يده طلبًا للصدقة. يعـــرض صـــاحب المحـــل

بضائعه على منصة كبيرة، ويحضر الفلاح محاصيله إلى المولد، ويجـول باعـة المدينة يبيعون كل شيء من المأكل والملبس والأسـلحة والكتـب والأمـشاط. إن عرض البضائع في طنطا يكتسب أهمية تعادل أهمية الاحتفال الديني. وبعد كل ذلك لا يوجد ما يمنع نقاء العقيدة والصلاة عند قبر الولي والاتجار في نفس الوقت بأي شيء.

ما زلنا لم نتحدث إلا عن العمل الحلال. ولكن ثمة ترعة تجري عند الجزء الشمالي من المدينة أقيمت على ضفافها الخيام التي غطيت جوانبها فقـط بـالخيش القديم. هناك تعيش خادمات المتعة اللطيفات اللواتي يبعن الشرف بسعر رخـيص، وفي تلك الأكواخ السيئة المفتوحة الأبواب يعرضن ما لديهن. وإذا حـق لأحـد أن يخجل فهو الأجنبي الذي يمر من هناك والذي تثير اشـمئزازه رؤيـة "الإباحيـة والفجور" إلى هذا الحد.

ويجذب انتباه الجموع التي تمر بالشوارع باستمرار الكثير من وسائل التسلية النادرة. فالسودانيون السود الذين يحضرون الاحتفال ينظمون أنفسهم في أسـراب من ثلاثين أو أربعين شخصًا وهم في ذلك يشبهون ما يسمى لعبة التحطيـب فـي أعياد قطالونيا الشعبية. فكل واحد منهم يحمل عصا قصيرة غليظة يضربون بهـا على نغمة إحدى الأدوات الموسيقية، ويكونون ويرسمون دوائر متحدة المراكز بفن وخفة مذهلة. ويرقص حجاج الحبشة أيضا عليها رقصة خاصة بهم. وكونوا حلقـة حول طبل وضع فوق سلم عالٍ وأخذوا يسيرون بخطوات رقصة التانجو والعصي الطوال في أيديهم. وداخل الدائرة وقف ثلاث مـن النـسوة الحبـشيات يرقـصن ويحركن أجسامهن حركات عنيفة.

في الساعة العاشرة صباحا من يوم الثالث عشر، وهو آخر أيام الاحتفـال الكبير الذي يختم شعائر المولد بموكب خليفة الإسلام، وهو السلطة الدينية الأعلـى للمسلمين في مصر، منطلقًا من مسجد العش وحتى مسجد الـسيد البـدوي حتـى

ليصلى على قبره. ويستغرق مرور موكبه ثلاث ساعات من المكان الذى كنت فيه. بدا ذلك مهزلة مبالغا فيها، وكأنه مهرجان اخترعه جماعة من الغائبين عن الوعى. وجميعهم يلبسون زيا تنكريًا، فالبعض يلبس طرابيش التائبين الطويلة المدببة والبعض الآخر يرتدى أزياء شاذة بألوان عدة. وأحيان أخرى تجد من يرتدى أزياء شفافة إلى حد يخدش الحياء. غير أن الأقنعة الطبيعية لم تغب عن الحفل فقد رأيت أحدهم يرتدى قناعا عبارة عن بطيخة مفرغة ويغطى جسمه بأوراق الأشجار والفروع الخضراء.

كانت بعض الشخصيات المهمة تسير بين المتنكرين يمتطون الخيل أو يركبون الجمال ويتبعهم عازفون من أهل البلدة وراقصات وفلاحات يرتدين أحجبة سوداء، ورجال كثيرون يحملون على أكتافهم فئوس الخشب الكبيرة. وكانت جماعة من الراقصين الذين يسيرون خلفهم تجذب الانتباه لغرابة ملابسهم، فعلى خصورهم شدت أحزمة ضيقة وباقى أجسامهم عارية وتزين رؤسهم عمائم ضخمة تتدلى منها أشياء عديدة كالقرون وثمار اليقطين والباذنجان.

وتظهر فى آخر الموكب نسوة جادات. ويحمل الشيوخ راكبوا الخيل بيارق مساجدهم وينزلون من حين لآخر عن ركائبهم كى يقبلوا المؤمنين الذين يحضرون العرض باحترام. وبعد ذلك يأتى أصحاب الطرق والجماعات الدينية وهم يرتلون شهادة الإسلام : "لا إله الا الله، محمدّ رسول الله، إلى يوم أن نلقاه". وأخيرًا يظهر خليفة مُحمّد فوق حصانه ممسكا بكلتا يديه خوذته المصنوعة من اللبد الرمادى التى يحاول العديد من الحضور عبثًا أن يخطفوها منه. ويبدو أنه لو تم تجريده من تلك العمامة فإنه يجب أن يترك منصبه إلى من انتزعها منه. ويتكون حرس الشرف الذى يصاحبه من خمسة عشر رجلاً تغطيهم الدروع الثقيلة والخوذ الحديدية. ويختم موكب الحفل كتيبة من الفارسات الجسورات يركبن الخيل ويرتدين زى الرجال. ويتعمدن جذب انتباه الحضور بحركات معيبة، وقد أفلحن فى ذلك حيث سار الرجال خلفهن يتبعون خطاهن.

وفى عصر اليوم ذاته انتهت الاحتفالات وبدأت جموع الزائرين فى التفرق. واختفت الخيام كالسحر من الأماكن التى كانت قد نصبت فيها، وعجت الطرقـات من جديد بقوافل الرجال والجمال التى لا تنتهى، وقضى أولئك القوم الطيبون ثمانية أيام يصيحون ويلهثون ويتدافعون عبر الشوارع والميادين، ليعودوا إلـى بيـوتهم منهكين خاوين الوفاض، لكنهم رغم ذلك عادوا مقتنعين بأنهم بحجهم إلى مقام السيد البدوى فى طنطا قد فعلوا شيئاً يرضى به اللـه عنهم.

الفصل السادس

الزراعة فى مصــر

قبل أن نخوض فى منطقة مصر العليا ونزور عاصمتها ونتبع مجرى النيل يجب علينا أن نتوقف عند تلك المنطقة البهية من الدلتا، حتى يتسنى لنا شرح مساحتها وأنواع الزروع التى توجد فى الحقول المصرية ونظام الرى الذى يخصب بلدًا عزّ فيه المطر، وأعمال الفلاح اليومية وحياة زوجته المثيرة للإعجاب وهى معه فى السراء والضراء.

تكتسب الزراعة فى مصر أهمية كبيرة حتى إن شعبها يعيش على المحاصيل الزراعية فقط. ولا يوجد بها أى نوع من الصناعات. وتقتصر أعمال التصدير على القطن والسكر والحبوب. وتغطى الحكومة نفقاتها بنصيبها من نتاج الأراضى فقط، فضرائب الممتلكات المدنية والأنشطة الصناعية غير معروفة هنا.

غير أن مساحة الأراضى الصالحة للزراعة ليست كبيرة. وطبقًا لحدود مصر الجغرافية الحالية التى تصل حتى الشلال الثانى عند وادى حلفا جنوبًا وحتى البحر المتوسط شمالاً، فتحدها السودان من الجنوب والبحر الأحمر وسوريا والجزيرة العربية من الشرق، والبحر المتوسط كما ذكرنا يحدها من الشمال، وصحراء ليبيا تحدها غربًا. لكن مساحة الأراضى القابلة للزراعة فعلاً لا يمكن حصرها بدقة دون استثناء المساحات الشاسعة من صحارى الشرق والغرب التى تحد وادى النيل من الجانبين والأراضى التى يشغلها دومًا مجرى ذلك النهر والقنوات وشبكات الطرق والسدود وخطوط السكة الحديد والمساحات التى تشغلها المدن والقرى والبحيرات والأراضى الزراعية سوى ستة ملايين فدان أو حوالى ٢٥,٢٠٠ كيلو متر مربع.

السكان

وطبقًا للتعداد الأخير الذى انتهى فى الثالث من مايو لعام ١٨٨٢، فإن عدد سكان مصر وصل إلى ٦,٨٠٦,٣٨١ نسمة، وإذا استثنينا منهم ٩٨,١٩٦ نسمة يعيشون فى خيام بدو رحل فى الصحراء يتبقى عندنا ٦,٧٠٠,٠٠٠ نسمة يعيشون فى مدن صغيرة وكبيرة وفى القرى والنجوع والكفور والعزب، وكلهم يعمل بالزراعة فقط.

توزيع الملكية وقوانينها

ولسوء الحظ فإن الحالة الاجتماعية والإدارة العامة فى هذا القطر على حالة كريهة، وكل المساوئ المتعلقة بذلك تقع على الفلاح الذى فرض عليه زراعة أراض لم ولن يمتلكها قط. وحتى عام ١٨٧٩، كان الخديو وأعضاء الأسرة الملكية الآخرون يمتلكون مربع الأراضى الصالحة للزراعة التى تمثل الأملاك الأميرية للتاج والتى تساوى أكثر من ٢٠٠ مليون شلن إسبانى. وقد تكونت هذه الملكية الشاسعة فى بلد فقير نسبيًا بطرق عديدة لصالح ورثة محمد على منذ بداية القرن الحالى. كان جزء منها إقطاعيات المماليك الذين قضى عليهم والى مصر الأول فى ١٨١١، وجزء آخر من ضم الأملاك الملحقة بالمساجد، وجزء أخير من الأراضى المهجورة التى تسببت الحروب الدائرة منذ ٧٠عامًا فى هجرها. وخلال حكم الخديو إسماعيل تنامت كثيرًا الأملاك الأميرية. فقد درج والد الخديو الحالى على سلب أملاك أولئك الذين كان يعتقد أنهم كونوا ثروات طائلة. وقد انتقلت الأملاك الأميرية فى عام ١٨٧٩، إلى يد إدارة الخاصة الملكية والدوائر على أثر رهنها رسميًا كضمان لقروض أوربية مما نتج عن ذلك أن عائلة روشيلد وعائلتين أو ثلاثًا أخرى يهودية فى باريس هى المالكة لربع ثروة الأطيان الموجودة فى مصر.

وثمة نوع أخر من الأطيان تدعى باسم الأوقاف، وتضم نوعين من الأملاك أولها: الحاسبية وهى التى تخصص لأغراض خيرية لخدمة الهيئات الدينية والثانية: هى الأهلية، وهى عبارة عن الهيئات الخاصة بصيانة المساجد. ولم تمنع القوانين المنظمة للتصرف فى الأموال الموقوفة التى أصدرها محمد على أن تحتفظ المساجد والهيئات الدينية بالأملاك العقارية وأن تضيف إليها، وتقدر اليوم الأملاك الموقوفة على أثر ذلك بأكثر من ١٥ألف فدان من الأراضى الزراعية بإيرادات تخصص لبناء مساجد جديدة وإقامة الشعائر فى المساجد الموجودة بالفعل وترميم تلك التى تهدمت منها.

ولكن إذا رأينا حالة معظم المساجد التى يرثى لها، فإنه يظهر لنا جليًا أن عائد الأوقاف لا بد وأنه يوظف لأغراض تتفق فى غالبيتها ومصالح القائمين عليها الخاصة.

وثمة نوع ثالث من الأطيان الزراعية والتى تدعى بالأبعديات وهى عبارة عن هبات من الأراضى غير المزروعة إلى الأفراد حتى يقوموا باستصلاحها فى غضون ثلاث سنوات. وهم لا يدفعون أموالاً تذكر خلال ذلك الوقت للدولة، وبعد ذلك عليهم أن يدفعوا ١٠٪ من المحاصيل. وهذه الإقطاعيات التى توجد عامة فى أيدى الباشاوات وذوى النفوذ ارتكبت عند تخصيصها مخالفات كثيرة. ولم أستطع أن أتحقق من مساحة تلك الأراضى ولا الأموال التى تدفعها للدولة ولكن الجميع يرى أن معظمها لا يدر أموالاً بسبب إخفائها عن عيون سجلات الخزانة العامة للدولة.

أما الأراضى الباقية فهى قليلة جدًا إذا ما قورنت بعدد الأشخاص الذين يعتمدون عليها فى معيشتهم وهى موزعة على الفلاحين على سبيل الانتفاع طالما يدفعون الضرائب التى تصل إلى ٢٠٪ من المحاصيل للدولة، وكميات أخرى عديدة تدفع للمحميات ولمجالس المحافظات. وطبقًا لتعاليم القرآن فإنه بموت المسلم

تؤول أملاكه العقارية إلى عامة المسلمين وينوب عنهم فى ذلك الحكومة[1]. لكـــن هذا التشريع لا يـــعمل به الآن، وحل محله قانون صدر عام ١٨٥٧، وينص على أن أقرب الأقرباء للمتوفى يمكن أن يطالب بأملاكه وذلك بعد دفع المستحقات التـــى تصل إلى حوالى ٣ بيزيتات عن كل فدان.

أما الأشجار التى يزرعها مالك الأرض أو المنتفع بها وبيـــوت العمـــال أو الحمامات والأسواق وأدوات الرى الأخرى فإنها تؤول إلى من يخلفه شـــرعًا دون دفع أى ضرائب. أما حق الانتفاع وحيازة الأراضى فإنه يؤول من شخص لآخـــر بالبيع أو بالإيجار أو الرهن، لكن فى كل الأحوال يجب تدخل الحكومة فى إبـــرام العقد والموافقة عليه.

كما أن الأراضى المرهونة التى لا يفك رهنها فى غضون خمـــسة عـــشر عامًا تؤول ملكيتها للدائن. وللحكومة الحق فى استغلال كل الأراضى التى تحتاجها لأسباب تخص المنفعة العامة كبناء الطرق وشق القنوات وإقامة الجسور، وإذا مـــا حدث ذلك فإن الدولة تقوم بتعويض المتضررين بإعطائهم أراضى بديلة عن تلـــك التى فقدوها فى ناحية أخرى من الزمام. وتلك باختصار هى القواعد الأساسية التى بنى عليها النظام الزراعى فى مصر.

وتتنوع المحاصيل طبقًا لنوع الأراضى المزروعة. فيجب أن تلاحظ بالطبع الفرق الكبير بين وادى النيل ومنطقة الدلتا. فالوادى تغطيه مياه الفيـــضانات مـــن مارس وحتى سبتمبر، وتزرع أراضية فقط فى فصل الشتاء بينما تزول المياه عـــن الدلتا وتتركها رطبة، ولقربها من البحر فهى سريعة الاستجابة للزراعة فـــى كـــل أوقات السنة.

---

(١) يقصد المتوفى الذى ليس له من يرثه (المترجم).

وفى مصر السفلى يمكن زراعة نفس المحاصيل التى تزرع عندنا فى الأندلس، فحتى الكروم يزرع هناك رغم قلة المساحة وأنواعه الرديئة. وأما الخضروات الخاصة بمناطقنا فتزرع فيها أيضًا، وتوجد كل أنواع البقوليات التى تعوّد الأوربيون على تناولها. كما تكثر أيضًا الأشجار المثمرة، لكن محاصيلها تكاد تخلو من الطعم والرائحة فيما عدا البرتقال الذى تنافس ثماره أفضل أنواع البرتقال الصينى.

وفى مصر العليا وكل سهول النيل يفضلون زراعة القمح. فعندما يخصب الفيضان الحقول وتبقى رطبة ومشبّعة بالطمى الذى تخلفه المياه بعد عودتها لمجراها الطبيعى، فليس على الفلاح سوى حرث الأرض وبذر الحبوب الذهبية كى ينتظر بدون شك محصولاً وفيرًا ذلك العام. وقد تناقص محصول القمح فى مصر منذ الفتح العربى إما بسبب إدخال زراعة محاصيل أخرى إلى البلاد أو بسبب الإهمال وتحطيم أعداء مصر للسدود، مما أدى إلى تحول أجزاء كبيرة من أراضى الدلتا إلى مستنقعات.

كانت مصر تسمى قديمًا صومعة غلال روما، لأن السفن المحملة بالقمح كانت تخرج من الإسكندرية إلى المدينة الخالدة. وعليه حرّم الرومان زيارة أى شريف لمصر دون إذن من مجلس الشيوخ لحرصهم على حماية هذا المورد، وكانت تلك أوامر تم تبريرها بأسباب اقتصادية شرحها تاسيتو[1]، عند حديثه فى حولياته عن رحلة جرمانيكو. ويحكى لنا أن تيبيريوس شكى مر الشكوى وسط المجلس من موقفه: "لأن أغسطس- من بين أسرار أخرى لحكومته - جعل من مصر محافظة مستقلة ومنع أعضاء المجلس والفرسان من زيارتها دون إذن من

---

(١) كورنيليو تاسيتو، مؤرخ رومانى (٥٥-١٢٠م) أستاذ القصة القصيرة، صاحب الحكم والأمثال فى أعماله "حوار الخطباء، جرمانيا، حياة مزارع"، وأخيرًا فى حولياته الشهيرة. لاروس ص ١٤٩٢ (المترجم).

الأمير، وبالفعل فإن من يستولى على مصر فإنه يستطيع أن يقضى علـــى إيطاليـــا بالجوع، ويكفيه حفنة من الرجال يتمركزون فى أماكن حصينة فى البر والبحر كى يحميها من أقوى جيوش الأرض".

وصلت مصر إلى ذلك الازدهار بفضل عبقرية ملوكها فى عصر الأسرات القوية العظيمة. فقد بدأوا إنشاء القنوات فى ربوع البلاد بغـــرض توســـيع رقعـــة الأراضى المزروعة، كما حرصوا على جلب النبات والأشجار التى تعود بالفوائـــد على المملكة من البلاد البعيدة. وثمة مثل لعملية الأقلمة الزراعية تلك التى حـــدثت قبل ٣٦ قرنًا من الزمان، وبذلك تكون الأولى من نوعها فى العالم، وهى موجـــودة على أحد نقوش الحوائط فى معبد الدير البحرى فى طيبة.

فقد بعثت الملكة حتشبسوت، حملة إلى بلاد بونت المعروفة حاليًا باسم ساحل الصومال على شاطئ البحر الأحمر، والتى نالت شهرة كبيـــرة قـــديمًا بـــالروائح وأشجار الصمغ وأشجار العطور والأبانوس والذهب الذى كانت تنتجه.

وطبقًا لماريبت، فإن الحملة كان هدفها جلب كل الثروات التى يمكن جلبهـــا إلى طيبة وعرضها فى معبد آمون. ولم يعترض طريق ذلـــك الجـــيش الـــصغير المبعوث لذلك الغرض إلى سواحل البحر الأحمر أى عقبة تذكر. وصعد على متن الأسطول المصرى الكثير من سكان تلك البلاد طوعًا أو كراهية حتى يقدموا الدليل المادى على خضوعهم عند الملكة المصرية. وتمثل نقوش الدير البحرى المنـــاظر الرئيسية لتلك الحملة والتى يرى من بينها سكان بـــلاد بونـــت يغـــادرون بيـــوتهم المغطاة بالقباب البيضاء حاملين إلى السفن المصرية منتجـــات بلادهـــم الزراعيـــة والصناعية، فهؤلاء يجلبون كميات كبيرة من الصمغ وأولئـــك ينقلـــون الأشـــجار المنزوعة بجذورها ويضعونها فى صناديق يملؤها الطين حتى لا تجـــف وتمـــوت خلال الرحلة. وكان هذا المنظر الملىء بالحياة الزراعية فى ذلك العصر الـــسحيق واحدًا من الأشياء التى جذبت انتباهى خلال رحلاتى التى قمت بها لصعيد مصر.

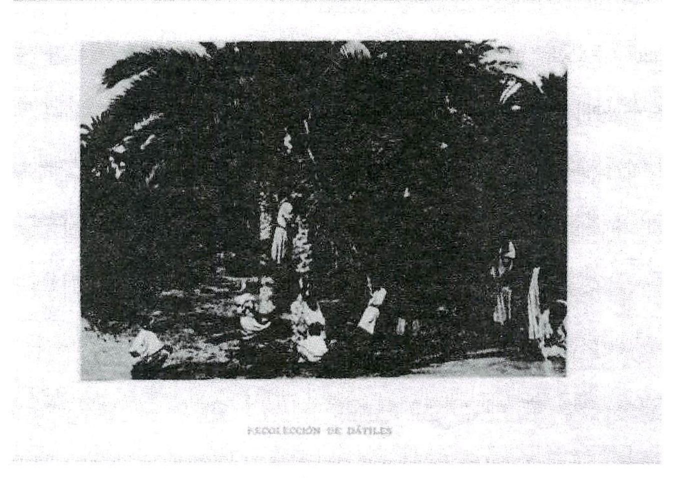
المحاصيل والأشجار

ولم تستمر الجهود المبذولة لصالح المحاصيل المحلية وأقلمة محاصيل البلاد الأخرى خلال العصور التالية. فالحقل المصرى اليوم شديد الرتابة، فنرى فقط أشجار النخيل الخالدة منتشرة بأوراقها المغطاة بالتراب المائل للصفرة، أو برك الطين التى يخلفها الفيضان أو السهول الخضراء المستوية من القمح والبرسيم. وتسهم فى تلك الرتابة عادات الفلاحين بعدم زرع النخيل فى مكان واحد، فيحبون النخلة الوحيدة عالية خالية من الأوراق والفروع عدا حفنة من الجريد عند القمة لا تلقى بأى ظل لها على الأرض. ورأيت فى ثلاثة أو أربعة أماكن فقط أذكر منها الرملة والبدرشين التى أدهشنى فيها وجود غابات النخيل التى تكوِّن لوحة غاية فى الإبداع. وتنمو البراعم بجانب جذوع النخل الضخمة تغطى الأرض بأوراقها الخضراء، ويمتلئ المكان بذلك التباين الجميل بين الضوء والظلال عندما تتخلل أشعة الشمس أشجار النخيل. وعندما يصل المسافر متعبًا من الصحراء أو من الوادى يمكنه أن يتوقف عند تلك الغابات الكثيفة التى تعد بحق واحات تدعو من يمر بها للراحة.

والنخلة الوحيدة ليس فيها جمال أثناء النهار، فيخفى جمالها كمُ الضوء الكبير من حولها وتتلاشى فى الأفق. وعند نهاية اليوم فقط خلال وقت الشفق القصير تقف ممشوقة وتظهر نغمات ألوانها على الأفق خفيف الألوان فى سياج من الجو الصافى شديد النقاء.

ويوجد بمصر عدد هائل من أشجار النخيل فهى تمثل أحد موارد الثروة فى ذلك البلد. ويقدر عائد كل نخلة حوالى ثمانين بيزيتا على كل نخلة. وللحق فإن هذه الشجرة مفيدة بكل ما فيها من الخوص الأخضر أو الزعف واللحاء والليف والجريد وأخيرًا الثمار.

وللقارئ أن يتخيل كميات البلح الوفيرة فى مصر. ويوجد حوالى سبعة وعشرين نوعًا منه تعرض عادة فى أماكن البيع. ويصل أكبرها إلى ثلاث بوصات ويسمى بالبلح الإبريمى ويأتى من النوبة العليا، أما بلح الأمهات ذو اللون الأحمر الداكن فهو أفضل الأنواع التى تؤكل طازجة بسبب رائحته الذكية وقلة حموضته. أما أنواع البلح الأخرى فتؤكل بعد حصادها بعدة أيام عندما تتخمر وتكتسب لونًا داكنًا ولامعًا وتصبح طرية كالذبيب وحلوة بطبيعتها.



RECOLECCIÓN DE DÁTILES

حصاد البلح

ويكون حصاد البلح فى فصل الصيف. وتحضر النخلة فى مارس وإبريل، وتنضج ثمارها فى أغسطس وسبتمبر. ولا يخصص كل الإنتاج للاستهلاك المباشر ولكن يستخدم أيضًا لصناعة مشروب العرق واستخراج الكحول. ويكتسب هذا المحصول أهمية خاصة، فيصدر منه للخارج ما تربو قيمته على مليون بيزيت سنويًا.

واكتسب محصولان آخران رقعة كبيرة من الأرض فى السنوات الأخيرة وأقصد بهما السكر والقطن. ويزرع الأول فى صعيد مصر فى الأراضى المرهونة للخديو التى تديرها الدوائر. ولى العذر فى أن أضيف أن هذه الإدارة شديدة الإسراف. فهى تشرف على أراض ذات جودة عالية تروى جيدًا بقنوات عديدة

وبها مصانع ضخمة ومعامل لاستخراج السكر ورغم ذلك فهى تخسر فى التجارة كل عام. وتدفع الحكومة الفرق دون أن تكترث بذلك لأن نتائج ذلك الإهمال وذلك الخطأ تقع أخيرًا على كاهل الفلاح المسكين.

أما القطن فقد أدخلت زراعته في مصر واردًا من الهند عام ١٨٢١، لكنه لم يزرع على نطاق واسع إلا فى عام ١٨٦٣، وهى حقبة الغلاء الكبرى التى سببتها حرب الاستقلال الأمريكية. ومنذ ذلك الحين خصصت مناطق شاسعة فى مصر السفلى لإنتاج ذلك المحصول، وسوقه الرئيسى فى الزقازيق. وتستورد إسبانيا كل عام عددًا لا بأس به من بالات القطن وهو أغلى من القطن الأمريكى ويفوقه فى الجودة.

ولا تنقص شوارع القاهرة ولا ضواحى الإسكندرية أشجار الظل، وتكثر بهما أنواع السنط والجميز. ولا يكثرت المصريون بتزيين الريف والشوارع ولا يزرعون الأشجار غير المثمرة ولا يهتمون بها. ولهذا لا تكثر بالبلاد أنواع الأخشاب ولا يوجد وقود غير الذى يستورد من اليونان وتركيا. ويستخدم الفلاحون نوعًا من الأقراص المعجونة من روث البهائم أو الجمال ومن القش لأغراض الطهو.

لا يجهل المصريون زراعة الزهور. بيد أنها غير متعددة الأنواع فى الحدائق كما هى فى أوربا وإن كانت جودة المنتج تفوق ما عندنا. تكتسب زهور الإسكندرية وجارتها حلب شهرة عالمية بسبب ألوانها الزاهية وطيب رائحتها وتستخرج منها العطور التى تروق لسيداتنا كثيرًا. غير أنه من الصعب وجودها نقية فى البازارات المصرية أو محلات العطور الأوربية، وعليه فإن سعر عطر الزهور الجيد غالٍ ويقتصر على الحريم.

لن تكتمل لوحة المنظومة الزراعية المصرية وحالة الريف والمحاصيل الرئيسة دون الحديث إجمالاً عن حياة الأسرة العاملة أو الفلاح ورفيقته البائسة الفلاحة. فمنذ القدم والفلاح فقير دائمًا، ولد مكرسًا للحقل خادمًا للأرض، وفرض عليه أن يموت دون حتى أن يلمح أفقًا للرفاهية أو للتحسن فى طريق حياته البائس. فالنظام الاجتماعى يحرمه من أن يكون ثريًا، والسياسة تتجاهله، أما الاقتصاد والإدارة فينبذانه. وفى هذه الظروف فإنه محكوم عليه باليأس فقد تربى فى الحقل يعمل كلما استطاع، ويلقى على أكتاف رفيقته الضعيفة دائمًا أعمال مهنته الأكثر مشقة. والفلاح بطبعه جاهل ويعتقد فى الخرافات ومتعصب، جُبِل على سرعة التصديق، فيقبل وبكل سهولة كل حكايات الخرافة والسحر ويقوم بعمل الرقية ويقتنع بأن التعويذة إذا ما كانت فى وقتها تمنع اليسروع[1]، من النماء فى أرضه. ويقوم بالوضوء خمس مرات كما أمر نبيه أكثر من مسلمى المدن، ويؤدى صلواته على حصيرة فى وسط الحقل متجهًا إلى الشرق بالخشوع الذى يلهمه إياه ذلك المعبد الكبير الذى سقفه السماء وأروقته سعف النخيل الأخضر. وهناك يحس بوجود ربه أكثر من أروقة المساجد المتسخة التى توجد فى بلدته.

وبيت الفلاح فقير يتكون من أربعة جدران صغيرة من الطوب اللبن، ويتكئ سقفه المكون من سعف النخيل أو الحصير أو الأسمال على اثنين من جذوع النخل ويغطيه الطين. ولأن السماء لا تمطر هناك أبدًا فإن عليه الاحتماء فقط من الحر والشمس. أما فى الداخل فتوجد الحصائر وجلد الماعز وسلال من الخوص وقدور من النحاس وبعض الآنية والدلاء الخشبية. وليس لذلك الخص من تهوية غير فتحة الباب الذى يبنى أمامه صاحب الدار حظيرة صغيرة شبه دائرية يحيطها سور من الطين حيث يربى الطيور المنزلية.

---

(١) نبات يضر الزرع (المترجم).

لا يمكن أن تكون حياة هؤلاء القوم أكثر زهدًا. فالخبز هو أساس غذائهم، ويصنع على شكل فطائر مستديرة رقيقة جدًا من القمح المطحون فى رحىً حجرية صغيرة. ومائدته عامرة بالفول الأخضر والبصل وبعض الخضروات الشائعة، لكنها تفتقد إلى اللحم والسمك والنبيذ دائمًا. وتستهوى الفلاح الحلويات والعجائن الدهنية التى يستخدمها لعمل أنواع من الصلصة التى يغمس فيها الخبز أو يقدمها مع البقوليات. وهو لا يستخدم الأطباق ولا الأكواب أو الملاعق أو الشوك، ويعتقد أن الأيدى تكفى لتناول الطعام، فيلتقط الأطعمة من القدر إلى فمه بأصابعه فقط.

الفلاّحة المصرية

ولنتحدث الآن عن الفلاحة التى لا تخلو حياتها من طرافة. وربما يصدق القول بأنها ولدت عند جذع نخلة، ولذا اتخذت شكلها. ويكفينا رؤيتها طويلة، ممشوقة، مرنة وخفيفة الظل لنفهم ما قيل عن أرض أفريقيا التى لا تنبت سوى اثنتين من الثمار الطيبة وهى البلح والفلاحة.

وعلى كل حال فإن حياتها تنأى كثيرًا عن أن تكون حياة مريحة ولا يمكن أن تكون سعيدة، فعليها أن تعمل كالرجال، وتعد ظروفها هى الأكثر بؤسًا إذا ما تحدثنا عن ظلم القدر للمرأة. فقد رأيتها ترضع صغارها فى المدن والوديان تحت خيام الخيش أو ترعى القطيع بجوار كوخها الطينى. وهى فى كل الأحول تحمل على جبينها طابع الهم الذى يضفى الكدر على الوجوه.

وهى لا تخرج من المكان الذى ولدت فيه. والأرض التى تمشى عليها، هى التى رأتها منذ نعومة أظافرها وهى التى ستؤوى رفاتها ورفات أبنائها. فلا النيل عندما يخرج عن مجراه ولا الصحراء التى تبعث بعواصفها الرملية ولا الباشا الذى يحصل فروض الولاء ولا المدير الذى يضاعف الرسوم، يستطيعون أن

ينتزعوا أسرة الفلاح من المكان الذى ولدت وتربت فيه وتعيش به فى بـؤس، وإذا اجتمعت الأرض والسماء فلن تجلى تلك المخلوقات عن مسقط رأسها. وتعد سنوات الطفولة للفلاحة المسكينة سنين حزينة. فالفلاح تلهبه المشاعر الدينية والوطنية لكنه لا يكنُ فى قلبه ذرة من عطف على أسرته. فقد اتخذها زوجة لأنها أرخـص مـن الحصان وأذكى، ويمكن أن يستخدمها فى فلاحة الأرض ورعايته هو، ويجعلها أداة يوظفها لجميع أغراض حياته.

أما عن الحب، فلم يعرف المصرى أبدا من هى المعبودة التى تحل فى معبده ولا البخور الذى يحترق عند أعتابه. فقد يرى الفلاح يومًا ما فلاحة فـى الحقـل، يغطى وجهها حجاب أبيض وتنفرج عباءتها عن صدرها، وساقيها عاريتين لطخهما الطين. فهل يتحدث عندئذٍ بصوت حانٍ؟ هل أيقظ خصرها النحيل فيه رغبـة ولـو بسيطة؟ هل رمقها وأشعل بريق تلك العينين السوداوين الأشواق فى نفسه؟ لا أحـد يعرف، حتى هو لا يعرف. إنه رجل عديم الذكاء تحوطه المحرمات وتملأ روحـه الخرافات. كل ما يفعله هو البحث عن بيت تلك الشابة ليمتلكها بالاتفاق الذى يسميه العرف استهزاءً المهر، ويحملها إلى عشه وهو كوخ بائس حيث يقدم لهـا سـريرًا من القش الجاف كمخدع لليلة العرس.



فلاحة مصرية تحمل ابنتها

هناك ولدت الفلاحة فى مهد واسع فسيح شكلته أرض الكوخ ووحل الحقـول المجاورة الذى تتمرغ فيه بكل متعة. وتعتنى بها والدتها ما يكفى حتـى لا تمـوت جوعًا، فترضعها عندما تسمح لها ظروف العمل بالحقل، بينما ينظـر الـزوج إلـى زوجته بدون إحساس والأرجيلة فى فمه، يرمقها كأنثى أكثر منها أمًّا لأولاده وتقـوم هى بواجباته الزوجية عندما لا تعمل بالحقول التى تغمرهـا ميـاه فيـضان النيـل لتخصبها.

وعندما يشتد ساعدها وتقف على قدميها يبدأ عقلها فى اسـتيعاب الأفكـار الأولى والآلام أيضًا. وتغطى جسدها النحيل- إن لم تكن عارية- خرقة بالية كانت ثوبًا لجيلين أو ثلاثة أجيال سابقة من الأطفال. أما غذاؤها اليومى فهو الخبز اليابس الأسود وأوراق خضراء وبلح سيئ. وهى لا تستحم قط، وعيناها وشـفتاها عـش

ملوث للذباب الذى يحط عليها دون أن تقوى هذه المخلوقة الضعيفة على أن تهشه. والأسوأ من ذلك هو أن النموذج الأمثل للأمهات هو أن يرين أبنـــاءهن متـسخين تأكلهم القاذورات، على صورة مقززة تثير الاشمئزاز حتـــى لا يأخـــذهم المـــوت فينضمون إلى الملائكة فى جنة الرسول محمد. ويردن رؤيتهم قذرين بشعين حتـــى يبعدوا عنهم الموت.

ودائمًا ما تتبع الطفلة والدتها كظلها، تشاركها عملها بالمنزل حينما تسمح لها قوتها الجسمانية. فتبدأ يومها بعجن أقراص الروث بيديها الحانيتين كى تـستخدمها للوقود ثم تسقى الأرض بمياه القنوات، ثم ترعى قطيع الماعز كى تأكل عند شاطئ النهر. ومجمل القول إنها تبدأ فى تعلم واجباتها التى ستحول حياتها بالكامـــل إلـــى عبودية فظيعة.

إذا كانت هذه حالها حتى مرحلة البلوغ، وهى المرحله التى تتحـــول فيهـــا الطفلة سريعًا إلى امراة بسبب حر مصر الشديد. فكم مـــن المخلوقـــات يمكـــن أن تجتاز هذا البؤس بسلام؟ وكم تسلبها الأمراض بعض وسائل الحياة الرئيسية وتحكم عليها بمواجهة كل المخاطر منزوعة السلاح فى هذه الحياة المليئة بالعمل والمحن.

إن هذا العالم القاسى لا يأبه بأعداد الضحايا البؤساء الذين يفوقون الحـــصر والتى تسببها كل عام أمراض الرمد والجدرى والتيفود فى هذه البلاد. إن التنـــاقض الدائم بين الطبيعة المادية والحياة الواقعية تنتج عنه حالة بشرية بائسة، فحيث تكون الطبيعة خلابة والمنظر رائع الجمال والحدائق غنّاء والسماء صافية والهواء نقيًـــا تجد النفوس البشرية الفاسدة الوضيعة المقززة المليئة بكل العيوب والرذائل وبكـــل أنواع التعصب.

وتدين الفلاحة المسكينة بحياتها إذا وصلت مرحلة البلوغ إلى بنيانها القـــوى وتعد محظوظة إذا نجت عيناها من سُحب الذباب التى تعشش فوق جفونهـــا. فـــلا عناية بها، حيث إن ميلادها نفسه كان بمثابة كارثة للأسرة. فقول رســـول القـــرآن

يوضح أنه حتى اللـــه لا يريد إناثًا[1]. وسريعًا ما تخبـــو ذكـــرى البنـــات اللاتـــى يدركهن الموت كسنبلة خضراء لم تنضج بعد. والمار بـــشوارع أى مدينـــة مـــصرية ينكسر قلبه لرؤية أطفال انطفأ نور أعينهم وعاشوا فى الظلمات بسبب غياب النظافة.

ولنترك تلك اللوحة لنبحث عن الفلاحة عندما تصبح امرأة. فطريقة حياتهـــا تتغير وترتدى أقل الثياب وإذا لم تغطِ جسدها كله فهى تغطى الوجه. وجرت العادة على عدم خروجها من بيتها دون ارتداء الحجاب الأسود على الرأس وتترك عينيها فقط دون غطاء، كما ترتدى عباءة زرقاء بخطوط بيضاء تلف بها جسدها النحيـــل. وإذا كان لارتداء هذا الملبس علاقة بالحشمة والتواضع أو إعلان عام عن الرغبـــة فى إيجاد زوج لها سريعًا، فليذهب أولئك الذين يزدهـــون بفهـــم نونيـــات المـــرأة ليتحققوا من ذلك.

وفى كل مكان عشت فيه بمصر كانت نزهتى المفضلة هى الذهاب ســـاعات العصر إلى ضفاف النيل أو إلى شواطئ القنوات، وهناك حيـــث تـــرى الفلاحـــات يصلن فى جماعات كسُحب من الطير المغرد تنعش أوقـــات الوحـــدة. طـــويلات ممشوقات القوام يحملن البلاص الذى يميل على الرأس. وكن أهلاً لإعجابى الجـــم بسبب مشيتهن الرشيقة وحركتهن الخفيفة، وأجسادهن النـــضرة. ترتفـــع ذراعاهـــا لتسند بهما الجرة فوق رأسها لتكون بذلك نموذجًا يدخل السعادة على قلب مثـــال لتناسُب هيئتها وجمال قوامها، غير أنها لن تروق الكثير مـــن الأوربيـــين الـــذين يتخيلون المرأة العربية كما رسمتها روايات الشرق الأسطورية. ولن يعجبهم بدون شك رؤية ملابسهن المخططة من قماش التنجيد ذى اللـــون البنـــى أو البرونـــزى، لكنهم سيوقنون أنه قد انتهت على الأقل فى مـــصر ســـلالة العـــوالم والحوريـــات والمحظيات اللواتى يثنى عليهن الشعراء ليسُلوا بهن السُذج.

---

(١) أساء المؤلف فهم آيات مثل "ألكم الذكر وله الأنثى.تلك إذا قسمة ضيزى" الآيتان (٢١، ٢٢) من سورة النجم. و"أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين.وإذا بُشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسودًا وهو كظيم" الآيتان (١٦،١٧) من سورة الزخرف (المترجم).

تتدلل الفلاحات على طريقتهن ويعتنين بأنفسهن طالما لم يتحقق الحلم الذهبى لكل شابة منهن ألا وهو الزواج. وتجعل الحنة التى يرسمن بها أيديهن وأظافرهن ملونة ولامعة، كما يقمن بعمل الوشم أحيانًا أو يرسمن بعض الخطوط الزرقاء تحت الشفاه وعلى الأذرع، كما يكحلن أعينهن ببودرة الأنتيمونيا التى تضفى عليها جمالاً وتزيد لمعتها. وإذا أماطت المصادفة الحجاب عن رأسهن بفعل الرياح أو بسبب السهو فتظهر ضفيرتان من الشعر الأسود الحريرى مربوطتان على الظهر.

وتُفتن الفلاحة بالحلى الفضية. ومن دواعى سرورها أن تزين معصمها وكعبها بالأساور والخلاخيل كما تلبس القرط الذى يمكن أن يقطع أذنيها لثقل وزنه. وتهيم أيضًا بحجر التركواز من بين كل الأحجار الكريمة تضعه فى خواتم ضخمة لها بريق فى أصابعها.

وهذه المرحلة هى الأفضل فى حياتها بدون شك لأنها ما زالت لا تعانى من فقدان الطموح وموت الآمال. ولكن هذه الحالة سرعان ما تزول. فتذهب الفلاحة فى سن صغيرة جدًا إلى عش الزوجية، وعندما تصبح امرأة فى منزلها تبدأ فى معاناة ألوان من العذاب تسببها لها احتياجات الحياة. وتثقل كاهلها كل أعباء العمل فى المنزل. أما الزوج فيمارس نظرية أن الراحة هى أكبر سعادة على الأرض كأى شرقى أصيل، ولا يساعد امرأته ولا يخفف عنها أعمال الحقل الشاقة ولا أعمال المنزل.

وهكذا تمضى الحياة بالفلاحة، فتبدو كهلة وهى ما زالت فى العشرين لأن المشقة أحنت ظهرها كما تحنى السموم أشجار الموز، ومنحتها الأمومة كل الآلام دون أن تهبها متعة واحدة. وعندما تدلف تلك المرأة إلى كوخها عند الغروب وقد أنهكها العمل طوال اليوم، وتعد الطعام لأسرتها، وتلوث الهواء بدخان وقودها كريه الرائحة ثم تؤوى أولادها إلى الفراش، وأخير ترقد على الأرض الخشنة بين الحمار والدجاج والزوج فتستسلم بالفطرة وبدون إحساس لواجبها كزوجة.

وفى كل مرة تحس بجزء من حياتها يتناثر من كيانها وتنزع من أحشائها مولودًا جديدًا تسأل فيها السماء بذهول عما فعلت، إنها لم تحب ولم يحبها أحد حتى تستقبل آخر نتائج الحب والتى تسمى بالأمومة.

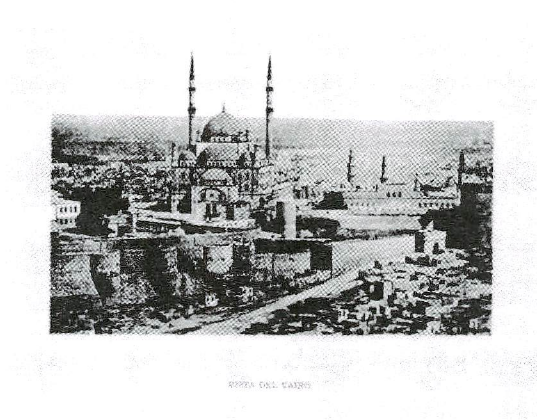
يا لها من مسكينة تلك المرأة. إن كل شىء فى الشرق يتآمر عليها، فالدين يعتبرها ناقصة، وينظر المجتمع إليها ككائن أدنى، أما الرجل فيستغلها ويقلل من شأنها. وفى الطبقات العليا هى أمة فى الحريم، وفى الطبقات الدنيا هى ضحية العمل وكأن نجمة شريرة سيطرت على مصائر العالم عندما خلقت المرأة.

الفصل السابع

القـــــاهرة

أذكر أننى دخلت القاهرة أول مرة فى العاشرة مساءً. واستقبلتنى عند محطة السكة الحديد عربة خيل يجرها حصانان وحملتنى عبر شوارع جميلة تحفها الأشجار وتضاء جيدًا بمصابيح الغاز الكثيرة إلى بهو فندق أوربى من الدرجة الثانية. وتساءلت بذهول.. هل هذه هى العاصمة المصرية؟ إن المدينة الشرقية التى فى خيالى ذات شوارع ضيقة ومنحنية ومآذن عالية ترى بها جماعات العرب فى الشوارع ونساءها معصومات خلف المشربيات، فهل غيرت مكانها بالمصادفة؟ أم هل أقلنى مركب شارد وأخطأت الطريق ونزلت بإحدى عواصم أوربا الهائلة وأعتقدت خطأً أنى بأرض مصر؟

لا... إنها القاهرة، إنها المدينة العربية التى غيرها النفوذ الأوربى، بشوارعها الواسعة المستقلة ومنازلها ذات الطابع الإنجليزى وبخدمات الإضاءة والمياه والشرطة بها. حتى الجنود الموجودين فى ثكناتها العسكرية ينتمون إلى التاج البريطانى. وقد عشت فى القاهرة أكثر من أى مكان آخر فى مصر، وحدث لى فى تلك المدينة ما يحدث عادة لدبلوماسى موفد إلى لندن، فبعد شهر من وصولى لتلك العاصمة اعتقدت أن عندى مادة كافية لكتابة كتاب كامل، لكن بمضى العام لم أقوَ على كتابة خطاب. فلتذهبوا إلى القاهرة ولتقيموا بها شهرًا أو شهرين فى الشتاء. والهوا بكل وسائل الطبيعة الموجودة عادة فى كل بلد متحضر على درجة من الأهمية، وعند عودتكم لأوربا ستحلفون أنه لا فرق بين تلك العاصمة وأى من مدن قارتنا. يصل تعدادها لمائة ألف نسمة. لكنكم ستكونون مخطئين تمامًا لأنكم لن تكونوا قد عرفتم القاهرة كما يجب.



مدينة القاهرة

من المستحيل أن تحصى كل ما تضمه العاصمة المصرية أو تدون تنوع العناصر المكونة لها دون قضاء عدة شهور فيها. فهى مقسمة إلى ثلاث جماعات كبيرة تعيش فى الحى الفرنسى والتركى والعربى، والحياة فى كل حى من هذه الأحياء مختلفة تمامًا. ربما تعتقد أن نزوة شريرة جمعت ضاحية من باريس مع أخرى من القسطنطينية وثالثة إفريقية. وهى مع ذلك تفرض على سكانها احترام كل الصفات الخاصة بقوميتها.

الحى الإفرنجى

ولنرى الحى الفرنسى الذى كان يضم شارعًا وحيدًا هو شارع الموسكى حتى وقت قريب ثم هجره الأوربيون ليقيموا حيًّا آخر بالقرب من الأزبكية يدعى الإسماعيلية. وكانت الأرض التى أنشئ عليها صحراء رملية يقام عليها احتفال بربرى، وفى أحد منخفضات المكان كانت هناك بركة تغذيها المياه الجوفية الآتية من النيل. أما اليوم وبفضل الأموال الجمة التى خصصها إسماعيل باشا ببذخ على أصدقائه الأوربيين، ترتفع فوق تلك الرمال قصور فخمة متراصة فى شوارع ظليلة

فسيحة، وأصبحت البركة القديمة حديقة الأزبكية الغناء، التى تعرض الكثير من وسائل التسلية لإمتاع الأجانب بمقاهيها وموسيقاها ومسارحها فى الهواء الطلق.

ولا يضم الحى الفرنسى حاليًا حى الإسماعيلية فقط لكنه يمتد باتجاه الشمال ناحية محطة قطار الإسكندرية التى نجد فيها المحال الرئيسية، وعددًا كبيرًا من الحانات لشرب البيرة تقدمها فتيات نمساويات ورومانيات. كما تكثر فيها المقاهى التى تقوم بالعزف فيها العديد من الفرق الموسيقية من المجريات لتسلية روادها. كما توجد أماكن للهو حيث لعبة الروليت وبها القليل من المال ويقف عليها اثنان من اليونانيين وظيفتهما إفلاس أى ساذج يذهب هناك ليجرّب حظه.

العباسية

وعلى أطراف ذلك الحى عند ميدان العتبة الخضراء[١] يمتد ناحية الشرق شارع يمثل أيضًا جزءًا من الحى الفرنسى ويدعى شارع الفجالة، والذى تعيش فيه الأسر المنتمية لأوربا الشرقية خاصة. ثم يتبع ذلك شارع آخر هو شارع العباسية الذى بنيت على جانبيه منازل جميلة جدًا خلال السنوات الماضية.

وفى ناحية الغرب نجد حيًا كبيرًا تحت التشييد حاليًا لم يشيد فيه حتى الآن سوى منزلين وتخطط به الشوارع حتى وقت خروجى من مصر منذ أشهر قليلة، ويدعى التوفيقية لتخليد اسم خديو مصر الحالى.

الحى التركى

أما الحى التركى فيمتد ناحية الجنوب من القاهرة، ولا يوجد أكثر بؤسًا من شوارعه المهجورة فى الغالب، ودَوره كبيرة ومهدمة لا تتبع أسلوبًا هندسيًا معينًا،

---

(١) ذكر المؤلف هذا الميدان باسم الطرف المستدير، لكن الموضع الذى يذكره يرجح أنه ميدان العتبة الخضراء. كما أنه لم يعثر فى المصادر على ميدان بهذا الاسم (المترجم).

فترى منها جدارًا عاليًا وبابًا يحرسه الخدم الساهرون، وصفًا من الفتحات تسدها شبابيك خشبية كثيفة. ولا توجد محلات فى هذا الحى ولا ترى سوى مداخل البيوت وأماكن تخزين العربات "العربخانات". وثمة أجزاء كبيرة من الشوارع تحدها أسوار القصر الذى يعيش فيه أحد السادة الأتراك. وتكسر هذه الرتابة أحيانًا فى تلك الأماكن جلسات السمر التى يعقدها الخصيان الجالسون بجانب بوابات القصور أو ظهور إحدى العربات يجرها حصانان باهران تحمل على متنها سيدات من الحريم. وتتخلل نظرات الغريب الحاسدة داخل العربة لترى الوجه الحسن لإحدى المسلمات، لكنها تستطيع فقط رؤية عينين سوداوين تنظران إليه بفضول لا يخلو من مكر.

المدينة العربية – البازارات

ويفوق ذلك الجزء الذى يسكنه العرب الحى التركى أهمية، لأنه ما زال يحتفظ بالملامح المميزة لتلك السلالة. فترى الآثار والمساجد والبازارات فى هذا الحى، وتسود شوارعه دائمًا الجلبة والضجيج، وتجد الفلاح مع العربى والنوبى مع الشرقى مكونين بذلك لوحة حية من الحياة الشرقية بمفهومها الأصيل.

وشوارع القاهرة ضيقه ومتعرجة ولا تصل الشمس أبدًا إلى أرصفتها، لأن المظلات العريضة من الخشب أو الخيش المعلقة على ارتفاع معين تحميها. والدور منخفضة وصغيرة وقذرة وتوجد بها المحلات المناسبة لها حيث يعمل الصانع أو يبيع التاجر بضاعته التى يعرضها على طاولات العرض. والمشترى ليس بحاجة إلى دخول الدكان فهو يختار البضاعة ويشتريها من الشارع.

وكعادة الشعوب الشرقية ينقسم العرب إلى طوائف من الصناع، فكل طائفة تعيش سويًا فى ناحية من المدينة، وهو نظام مريح إلى حد كبير بالنسبة للمشترى.

فالإسكافيون لهم سوقهم، وغير مجد أن تدخل شارعهم إذا لم تكن تنوى شراء زوج من الأحذية، ويعيش النحاسون الذين يستخدم العرب منتجاتهم بكثرة فى شارع مستقل أيضًا، وكذلك الجواهرجية والخياطون والعطارون وبائعو التبغ وكل الصناع جملة. وتكتسب بعض الأسواق فى القاهرة شهرة كبيرة، لكن سأخص بالذكر خان الخليلى.



أحد شوارع القاهرة

خان الخليلى

كان الهدف الأساسى من هذا السوق بيع السجاد العربى والآثار، لكن بسبب زيارة الأجانب الذين يقدمون إلى القاهرة له، فقد السوق خاصيته المحلية الأصيلة التى كان يتمتع بها من قبل، وسقط فى أيدى اليهود والفرس. ويتكون من شارعين طويلين والمحلات يمينًا ويسارًا. ويعرض فى الأول السجاد بصفة رئيسية، ويوجد

به أكبر المحلات الذى كان ملكًا لصديقى عبد اللــه. وكان أول دكان على اليمين وكان ببساطة يتكون من فناء يحتوى على عدد هائل من السجاد يتراص أكوامًا تصل إلى شبابيك الدور الأول للبيت.

وما يميز هذا المحل هو الجدية التى كان يبيع بها عبد اللــه بضاعته. فكان رجلاً فريدًا من نوعه.. عربى مخلط بعرق أسود، دائمًا ما يرتدى ثوبًا أخضر وأصفر، سبحته فى يده وفنجان القهوة على شفتيه. كانت عنده سجاجيد جيدة لكنه لم يكن يظهرها كثيرًا وكان يفضل بيعها لحريم الأتراك. وكان يحتفظ فى فنائه بأسوأ السجاجيد صنع إزمير، والتى كان يدعى أنها قديمة لأنها ممزقة، وكان يطلب فى كل واحدة منها مبلغًا هائلاً من الجنيهات الإسترلينية. وكان مبلغ المئة شلن هو السعر المفضل لديه يطلبه فى قطعة سجاد سيئة لا تساوى خمسة شلنات. وبالطبع فإن الزوار السذج الذين كانوا يبتاعون منه إحدى سجاجيده بنصف السعر المطلوب كانوا يخرجون راضين معتقدين أنهم قد اشتروا بسعر جيد، ويحمد عبد اللــه بدوره ربه أنه استطاع ببضاعته التى لا يمكن كشف عيوبها أن يخدع كل هؤلاء الأوربيين.

وقد اختفى عبد اللــه الآن، أقصد أنه أفلس. وقد أدهشنى الخبر عندما سمعته لأنى كنت أظنه غنيًا جدًا لكثرة ما كان يكسبه، لكنى علمت بعد ذلك أن تجارته كانت رابحة فى محله لكنها خاسرة فى بيته. فقد كان مغرمًا بالجنس اللطيف، وكان يوفر لحريمه معيشة بذخ حتى أفنت النساء كل ما يملك.

أما فى الشارع الثانى المدعو بالموسكى، فتباع أشياء قديمة بمعنى أنه كان يباع فيه كل ما هو قديم ومتسخ ومكسور وما لا فائدة منه. وفى أوائل المحلات بالشارع يوجد محل يهودى يدعى أنه إسبانى كتب فى أعلى المحل على لوحه كبيرة تقول إنه مكان موثوق به. كم هو طيب الصديق كوهين!! ذهبت عدة مرات إلى بيته ليرينى آثارًا مصرية ولم أجد قط عنده أكثر من أشياء مقلدة صنعها عرب الأقصر.

وتعرض المحلات الفارسية عادة أسلحة جيدة لكن أصحابها يطلبون فيها أسعارًا لا تصدق. ويبيعون شيباك الصيد والخوذات بأسعار أرخص لكن من الواضح أنها تقليد متقن إلى حد ما للأسلحة الفارسية القديمة. وباختصار.. فإن أفضل ما يفعله الزائر في خان الخليلي وفي كل أسواق القاهرة هو زيارتها دون شراء أي شيء إذا ما أراد أن يجنب نفسه الضيق عندما يعرف أنه تعرض لعملية نصب.

القاهرة القديمة وضواحيها

وتبدو عاصمة مصر بهية تحت ضوء القمر ليلاً. وفي شوارع القاهرة المتشابكة الضيقة في الأحياء العربية نرى أغرب تضاد بين النور والظل، فتكبر الأشياء التي تبدو على شكل أشباح، فتغطي مآذن المساجد ظلها الداكن وسط أضواء النجوم الخافتة التي تضيء لامعة في جو هذه المنطقة الصافي. وفي ليالي اكتمال البدر يستهوي الأجانب القاطنين بالقاهرة بشدة تنظيم المغامرات التي ينضم إليها كثير من السيدات، ويركب كل منهم حمارًا ويجولون بأكثر الأماكن بُعدًا عن المدينة فيعكرون صفو الشوارع الهادئة. وهي مغامرة عجيبة ومسلية.

وتلحق بالقاهرة بعض الأحياء التي تبدو بلادًا منفصلة عنها رغم قربها منها. أحد هذه الأحياء وأهمها هو بولاق الذي يقع على شاطئ النيل خلف التوفيقية. ويسكنه ٦٠ ألف نسمة، وهو عبارة عن مجموعة من البيوت العربية شيدت بكل إتقان المدن الشرقية. ولم تدخله بعد الحضارة الأوربية. بيوته صغيرة وغير نظيفة ومتصدعة في شوارع ضيقة ومتعرجة تملؤها الكلاب دائمًا والقاذورات، لكن سكانه يتكاثرون ويتحركون باجتهاد ليؤدوا أعمالهم اليومية. ويقف صانع القهوة الجائل على النواصي ينصب الدكك الخشبية وأكواب النحاس التي يغلي فيها السائل

الأسود. وتشير الجدران المدهونة بأشرطة حمراء وبيضاء إلى أماكن المساجد التى ترتفع مآذنها الداكنة كما لو كانت حـرّاسًا على البيوت. وتكفينا رؤية بولاق كى نتعرف على الحياة العربية فى أجلى مظاهرها.



بائـع الــزيت

غير أن هذا الحى فقد كثيرًا من أهميته منذ الثورة السودانية الأخيرة والتى قضت على التجارة عبر مجرى النيل. فكانت كل منتجات أفريقيا الوسطى التى تستهلكها أوربا كالصمغ والعاج والأخشاب الملونة والعديد من الراتينجات والنباتات تتمتع بطرق سهلة للتصدير بإشراف التجار السودانيين والنوبيين الذين كانوا يهبطون مجرى النهر الإفريقى العظيم حتى يرسوا فى بولاق. وكانت المحلات الكبرى تستقبل تلك المنتجات التى كان تجار اليهود أو التجار الشرقيون يقبلون على شرائها حتى يخرجوها بسرعة إلى موانئ البحر المتوسط. واكتسب الحى القاهرى بهذه الحركة فوائد جمة، فنشأت على ضفاف النيل ورش مهمة لتحزيم البضائع وصناعات أخرى مساعدة، كما اعتمد عليه أصحاب المراكب والحمالون والعمال الآخرون الذين ينشطون فى الموانئ البحرية.

أما اليوم؛ فتبدو ضفاف النيل للأسف فى هدوء قاتل فى تلك المنطقة. وترى بالكاد بعض الدهبيات التى تسبح فى مياهه والتى يؤجرها المسافرون ليذهبوا بها إلى صعيد مصر فى الشتاء وبعض مراكب البضائع التى تنقل الحبوب إلى أسيوط، وقليل من المراكب المؤجرة لحمل التموين لقوات الحملة الإنجليزية الغازية. وتعانى بولاق من آثار الثورة المهدية. وليس من السهل التنبؤ بموعد انتهاء حالة البؤس الحالية، فمن ناحية لن تنتهى الحرب الدائرة فى السودان سريعًا، ومن جانب آخر إذا وجدت بضائع تلك المنطقة طريقًا لها للخروج عبر موانئ البحر الأحمر فلن تعود بعد ذلك لتسلك طريق النيل التجارى.

الفســـــطاط

وثمة حى آخر خارج العاصمة المصرية وهو الفسطاط، والمعروف أكثر باسم مصر العتيقة. ويمتد جنوبى الحى التركى خلف الترعة الصغيرة المسماه بالخليج والتى كانت تغذى المدينة بالمياه. ويتكون من مجموعة بيوت صغيرة بائسة تندثر بين التراب والرمال التى تغطى المنطقة بأكملها. وترجع أهميته للاعتقاد بأنه يشغل مكان حصن رومانى قديم يدعى حصن بابليون، والذى أمر ببنائه الولاة الرومان حتى يؤمّنوا طرق الاتصال عبر النيل، كما أنه كان الملاذ للمسيحيين الأقباط فى عصور الخطر إبان الاضطهاد العربى لهم[1]. ولا يزال مكانه محاطًا بالأسوار وتحصنه البوابات الخشبية المرصعة بالمسامير الحديدية، ويحوى كنيسة عتيقة ترجع بدون شك للقرون الأولى للمسيحية. وهى مكرسة للسيدة العذراء التى رسمت صورتها على الطراز البيزنطى وترى عند المذبح مع أيقونات أخرى لقديسين. والبهو فسيح تزينه أعمدة جميلة من المرمر الإيطالى أخذت غالبًا من أعمدة مبنى رومانى قديم.

---

(١) من الثابت تاريخيًا أن الحصن كان ملاذًا للسيدة مريم والسيد المسيح فى عصور الاضطهاد الرومانى للمسيحيين وليس الاضطهاد العربى لهم (المترجم).

وتحت عقود الكنيسة التى تعلو جدران المذبح الرئيسى توجد مغارتان مملوءتان بالتعاليم المسيحية، كما حكى لى قبطى قذر يفرض نفسه كمرشد للزوار فى هذه الكنيسة. وتحتوى تلك المغارات على ثلاث مقاصير تشبه أفران الخبز يقول القبطى أنها كانت ملاذًا للمسيح والعذراء والقديس يوسف، عندما هربوا من غضب مضطهديهم. إن الخبر مدهش لغرابته ولرخصه أيضًا، فليس عليك إلا دفع ريال حلوانًا لدليل السيَّاح الشهير.

هليوبوليس

وعلى بعد أربعة كيلومترات شمال القاهرة نجد آثار هليوبوليس. فلم يبق الكثير من مدينة أون القديمة التى اكتسبت فيها عبادة الشمس أهمية عظيمة بفضل تقدم مدرسة الكهنة التى أقيمت بمعبدها الشهير، والذى لم يبق منه سوى أسوار من الطوب اللبن كانت تحيط به والمسلة المشهورة التى ترجع لعصر سنوسرت، وهى أقدم المسلات الموجودة بمصر. يرجع تاريخ تلك المسلة إلى الأسرة الثانية عشرة التى حكمت قبل المسيح بحوالى ثمانية عشر قرنًا ويوجد على وجوهها الأربعة المصقولة بإتقان نقش غائر يعد نموذجًا فى أسلوبه وكتابته يقول:

"خبر كارع (سنوسرت الأول) ملك مصر العليا والسفلى

صاحب التاجين وابن الشمس، الذى تعبده أرواح أون المقدسة

سيد تلك المسلة فى العام الأول لأعياد ست".

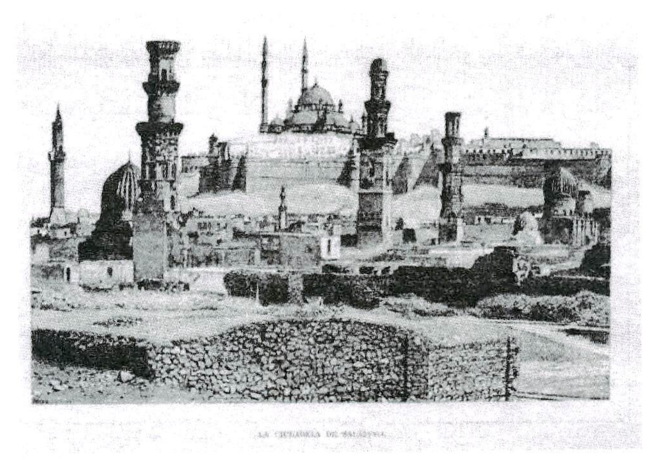
وتمتلئ الأماكن المجاورة لهليوبوليس بالآثار القديمة التى ترجع إلى العصر المسيحى، والتى نجت من اندثار الأفكار المسيحية عندما فتح المسلمون البلاد. وعلى مقربة من المكان على حافة الطريق توجد شجرة جميز عتيقة لها أوراق صفراء ويحيطها قفص خشبى بائس، يقال عنها إن العذراء احتمت بجذعها

عندما كانت تفر من مطارديها. هكذا يحكى الفلاحون البؤساء فى ذلك المكان، يطلبون بعد ذلك البقشيش الذى لا يمكن للزائر أن يتجاهله، ونسوا أن الشجرة لا يمكن أن يتعدى عمرها ثلاثة قرون.

ولا ينقص العاصمة المصرية آثار خلفها الفن المزدهر فى عصر السلاطين. وللأسف فقد تسبب الإهمال فى القرون السابقة فى تحطم العديد منها، ولا تجدى الجهود المبذولة الآن لإصلاحها. ومن المؤسف أن يحدث ذلك، فمن كل البلاد التى أخضعها المسلمون لسلطانهم لم يوجد من نال حظ مصر من الملوك اللامعين من ذوى النفوذ الذين كرسوا جهودهم لترك آثار شاهدة على عظمتهم وتقدمهم على من خلفوهم، فاعتنوا بالتحصينات الحربية وقت المعارك والبناء فى وقت السلم.

قلعة صلاح الدين

وتعد القلعة من أهم الآثار الموجودة حاليًا فى القاهرة وأكثرها جذبًا للانتباه لعظمها. بناها السلطان صلاح الدين، ذلك البطل الذى حارب الصليبين. وتم بناؤها بأحجار جلبت من أهرامات الجيزة فوق هضبة عالية تطل على المدينة. وتدخل إلى المكان عن طريق باب عربى الطراز يكتنفه برجان مزودان بالشرفات من الناحية الغربية يسلم إلى ممر ضيق متعرج صاعد إلى بطحاء القلعة. وقد جرت فى هذا الممر ليلة الأول من أغسطس سنة ١٨١١، مذبحة كبار المماليك الشهيرة، والذين كانوا يمثلون خطرًا دائمًا على محمد على والى مصر الجديد. فدعاهم محمد على جميعًا إلى وليمة فخمة ترأسها بنفسه، وعندما أقبل الليل، ولدى خروج ضيوفه البالغ عددهم من ثلاثمائة إلى أربعمائة هاجمهم الانكشارية الألبانية وقتلوهم دون شفقة أو رحمة. ولم ينج منهم سوى واحد هو أمين بك الذى فر بحصانه من فجوة بالسور.



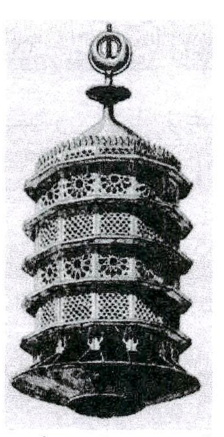
قلعة صلاح الدين

ويحرص أى دليل للسيَّاح فى القاهرة على اصطحاب الزوار إلى الأطلال الموجودة على يسار المدخل والتى لا تزال تحتفظ باسم *مكان " قفزة المملوك"*. وتحكى القصص العديدة - ومعظمها خيالية - عن شهرة الفرسان العرب فى بلاد كثيرة بالقفزات الهائلة بالخيل، لكن هذه المرة ليس هناك شك فى صدق الرواية.

شهدت مبانى القلعة تغيرًا بسبب انفجار مخزن للوقود والذخيرة فى عـــام ١٨٢٣، تحطمت بسببه مبانى صلاح الدين القديمة. وأمر رأس الأسرة العلوية بإقامة مسجد فى مكانها على نسق "سانتا صوفيا" فى القسطنطينية. ورغم عظم المبنى فإنه يخلو من الفن وليس به من جديد سوى المئذنتين القائمتين على شكل مسلتين رشيقتين نحيفتين ترتفعان فى الفضاء مسافة كبيرة. وبالقرب من القلعة توجد سلسلة جبال المقطم وهى جزء من سلاسل الجبال التى تسير بمحاذاة النيل من الجانب الشرقى. ويستخدم العرب الآن تلك الجبال المكونة من الحجر الجيرى الكثيف كمحاجر، كما استخدمها أيضا المصريون القدماء. ومنذ بداية سلاسلها ناحية الجبل الأحمر وهليوبوليس وحتى محطة حلوان توجد مغارات عديدة كان عمال ملوك منف وطيبة يقطعون منها الأحجار التى استخدموها فى بناء الأهرامات والمبانى العديدة فى المدن والجبانات.

المقطـــــــم

ومن فوق المقطم ترى بانوراما عجيبة للقاهرة، وقد صعدت لهذه القمة مرات عديدة عند الشروق، وكنت أقف دائما مبهورًا بمنظر المدينة الجميل الممتد تحت قدمى كقرية من النمل تبرز منها القباب الرشيقة والمآذن البديعة لمساجدها. وعلى البعد ترى حقول الوادى المصرى الخضراء ويرى النيل لامعًا هادئًا كشريط من الفضة فرش على حقل من الزمرد، وفى الأفق ترى الشمس تتوارى بين سحب السماء حتى تختفى خلف تلال الصخر الهرمية الضخمة. ولا أدرى إذا كان المنظر قد سُجل على لوحة أم لا لكنه بالتأكيد يستحق أن ترسمه يد أحسن الفنانين.



قنديل السلطان برقوق

مقابر السلاطين والخلفاء

وعلى جانبى القلعة توجد عدة آثار تلفت الانتباه وتستحق الزيارة، وهى التى يسميها العامة مقابر السلاطين والخلفاء. وتقع مقابر الخلفاء فى الصحراء بين

سلسلة جبال المقطم والجبل الأحمر. وتتكون من مساجد صغيرة بنيت لحفظ أجساد العديد من سلاطين المماليك البحرية والجراكسة والذين حكموا منذ ١٣٨٢ وحتى١٥١٧. وتنتمى الرئيسية منها للسلطان برقوق وفرج وسليمان وبرسباى وقايتباى. ولم يبن هؤلاء الملوك تلك الأضرحة الفخمة ذات الذوق الرفيع فقط لكنهم عينوا عند كل منها جماعة من الرجال يعملون على حراسة المكان وإقامة شعائر الدين والصلوات اليومية على الضريح. وخصصت الأملاك الكثيرة لإعاشة هؤلاء الموظفين حتى أمَمها محمد على فى مطلع القرن التاسع عشر. وكما كان متوقعا، فقد تفرق الشيوخ، ومنذ ذلك الوقت لا يمكن أن تصدق ما سببه ذلك من تدهور حتى صارت جميعها أطلالاً لا يعتنى بها أحد، ومن يحتاج إلى حجارة للبناء من الفلاحين أو الأعراب المجاورين فإنه يأتى إلى المقابر ليهدم أحد جدرانها كى يحمل ما يخرج منها. وعلاوة على ذلك فقد اتخذ الكثير من الشحاذين وأسوأ أنواع المتسولين هذه الأضرحة سكنًا يعيشون فيها، وعندما يرمقون سائحًا جاء للزيارة يفرضون أنفسهم عليه كمرشدين ويزعجون الزوار إلى حد غير معقول بطلب النقود.

وآلت الآثار المشابهة الموجودة على يسار القلعة إلى نفس المصير والمعروفة باسم مقابر السلاطين وإن كانت فى الواقع مجهولة الأصل وهى مهدمة أكثر من سابقتها بكثير غير أن الأجزاء الباقية منها تكشف عن عجائب فنية عظيمة. ويشعر الإنسان بعظيم الألم عندما يتأمل الطريقة البربرية التى أدت إلى ضياع هذه النماذج الفنية الثمينة بلا أمل فى استعادتها.

وتستحق مساجد القاهرة أن نفرد لها فصلاً خاصا، لكن يلزمنا قبل ذلك شرح ماهية هذا الدين الذى شيدت من أجله تلك المبانى.

الفصل الثامن

الإســـــلام

تعد المظاهر الشكلية الخالصة للدين الإسلامى بشكل عـــام بـــسيطة جـــدًا، وتتصف ببعض التقشف الذى تفرضه على من يميل عن جادة الأمــر. ولا تـــروق للمسلمين الاحتفالات الدينية المليئة بالمباهاة والفخر والتى تؤذى الأحاسيس وتثيـــر التخيل بطرق عجيبة. فالصور مستبعدة من مـــساجدهم وكـــذلك التماثيـــل الملفتـــة للأنظار والزينة والموسيقى والغناء. ويسمون معابدهم بيت الصلاة، وكل شىء فيه معد للمساعدة على التركيز الروحانى الذى لا غنى عنه فى الصلاة.

وفرضت الصلاة على كل مسلم خمس مرات يوميًا يتجه فيها إلى ربّه بعقله بطريقة سطحية. وليس هناك ما هو جدير بالاحترام أكثر من رؤية أولئك العـــرب من جميع الطبقات والمقامات يسجدون بخضوع حتى تمس رؤوسهم ثرى المـــسجد راجين إلههم الرّحمن الرّحيم أن يغفر ذنـــوبهم ويهـــديهم الـــصراط المـــستقيم وأن يحفظهم من كل ذنب وسوء. أما ما خلا ذلك فتقتصر صلاتهم على تـــسبيح اللـــــه باستمرار. واللــــه هو اسم الإله الواحد، ولا يوجد وسطاء يحملـــون إليـــه قـــرابين البشر ولا يستنزلون رحمته ولا يمنعون غضبه لأن النقم فقط هى التى تحقق عدله فيهم. وحتى محمّد نفسه، النبى الأوحد ومن نزل على قلبه الوحى لا يتمتع بمكـــان مميز فى الجنة، وهو ليس أكبر شأنًا فى عيون الرب من أفقر المؤمنين وأقلهم شأنًا إلا بأعماله الصالحة وإيمانه(١).

وتتطلب الصلاة عند المسلمين استعدادات خاصة تختلف عن كل الـــشعائر الشرقية الأخرى. بدءًا بالأذان أو النداء الذى يطلقه المؤذنون العـــاملون بالمـــساجد إلى المؤمنين من أعلى المآذن، يذكرونهم بفرض الصلاة. ولا توجد أجـــراس فـــى أماكن العبادة الإسلامية. ولكنها الأصوات التى يطلق عليها الشعر المسيحى "صوت

---

(١) رؤية خاصة بالكاتب تعبر عن فهم مشوش لما قرأه عن الإسلام (المترجم).

برونزى مهيب" يستعمل لدعوة المؤمن الذى دينه الإسلام إلى المسجد. كما يثير فيه الحمية للحرب، وكذلك بالنسبة للاحتفالات الدينية الرسمية. ولكن بالنسبة للاحتفالات الشعبية ليس مسموح للمؤمنين باستخدام المآذن. فهم يرون أنه من الأنسب لعظمة اللـه بل ولكرامة عباده الفضلاء أن يكون صوت البشر هو الذى ينادى المؤمنين إلى بيت الرب[1].

وعليه يصعد المؤذن خمس مرات فى اليوم بين شروق الشمس وغروبها إلى مئذنة المسجد، ويطلق صوته النافذ إلى الجهات الأربع وهو يدور فى الشرفة المحيطة بالمئذنة ويقول: حى على الفلاح، حى على الصلاة، اللـه أكبر اللـه أكبر اللـه أكبر، لا اله إلا اللـه، محمد رسول اللـه، اللـه أكبر.

وعندما يسمع المسلم النداء يترك عمله ويترك شئونه الدنيوية ويتوجه فى صمت ورصانة إلى أقرب مسجد، أو إلى المكان الذى اعتاد الصلاة فيه داخل بيته. وإذا كان فى الخلاء وقت الصلاة فإنه يسجد على الأرض مستقبلاً الشرق بين يديه. ولا يدخل المسجد إلا من توضأ.

فما الوضوء؟ إن الجسم البشرى نقى كما جاء فى القرآن. بيد أن المادة لا تخلو من الشر ولا تصلح لعملية الاتصال بين المؤمن وربه قبل أن يتطهر. ولذا فالعرب فى حاجة للوضوء قبل دخول المسجد. إن شعائر غسل الفرج واليدين والوجه وبخاصة الفم ثم بعد ذلك الرأس ما هى إلا رمز لتطهير المادة التى تأثم بها الروح. وبجانب باب كل مسجد أو فى صحنه توجد آبار أو فسقيات أو ببساطة أحواض مياه نظيفة تستخدم لهذا التقليد غير المريح طبقًا للطائفة التى ينتمى إليها المؤمن: فيستخدم السنة من أتباع محمد مياه الأحواض أو مياه الآبار، أما الأحناف فهم أكثر تحضرًا ورقيًا حيث يغتسلون من صنابير الفسقيات[2].

---

(١) يقارن المؤلف بين استدعاء المسيحيين للصلاة بأجراس الكنائس ومناداة المسلمين للصلاة عن طريق الأذان (المترجم).

(٢) يختلط الأمر هنا على الكاتب لعدم إلمامه بالسنة جيدًا فيفهم من حديثه أن الأحناف ليسوا من أتباع سنة محمد صلى اللـه عليه وسلم، وهذا غير صحيح (المترجم).

ويدخل المسلمون بعد التطهر حفاة إلى المسجد ويضعون سجادة صغيرة على الأرض أو جلد ماعز أو قطعة من الحصير، وإذا لم يجدوا شيئا من هذا يفترشون عباءاتهم ويسجدون عليها متجهين إلى الشرق. وتبدأ الصلاة برفع اليدين مفتوحتين إلى مستوى الرأس التى يغطونها عادة ثم يلمسون بإصبع الإبهام شحمة الأذن ثم ينطقون بخشوع جملة. الله أكبر ثلاث مرات متتالية.

ثم تتبع ذلك شهادة الإيمان التى يهمسون بها راكعين. وهى بسيطة جدًا ومختصرة وتقول بالنص: "أشهد أن لا إله إلا الله وأن سيدى محمد رسول الله". هذا هو الضرورى، ويضيف إلى ذلك بعض المؤمنين : "بسم الله الرحمن الرحيم".

ثم يتلو المصلون سورة من سور القرآن، ذلك الكتاب المقدس الذى يحفظه معظمهم. ويكون اختيار السورة برغبة المصلى والذى عادة ما يقرأ أول سورة من القرآن وإذا خصص صلواته إلى غرض معين كأن يصلى لذكرى شخص ميت فإنه يقرأ الفاتحة أو سورة القيامة. وإذا أراد طلب نعمة معينة من الله فإنه يفعل ذلك بطريقة مختصرة وبسيطة.

وعادة ما يصلى المسلمون بكل جدية فى صفوف منفصلة دون أن يشتت انتباههم شيء، فيركعون ويسجدون عدة مرات ويذكرون اسم الله. وعندما يكون الإمام بالمسجد أحيانًا يجتمع بعض المؤمنين ويؤمهم مكونين صفًا أمام الحائط الشرقى ويؤمنون بصوت عال موحد. وفى عصر أيام الجمعة وهو يوم الراحة للمسلمين، يصعد الإمام منبر المسجد بعد انتهاء الصلاة الساعة الرابعة فيقرأ ويخطب خطبة صغيرة فى الحاضرين بالمسجد[١].

---

(١) ربما قصد الكاتب دروس العصر التى يلقيها الخطباء فى بعض المساجد التى زارها (المترجم).

واتاح لى شغفى بجمع الكتب الحصول على نسخة أصلية لنص إحدى تلك الخطب من سوق الكتب بالقاهرة، فأسرعت بشرائها وأحتفظ بها الآن بين الوثائق العديدة النادرة عندى. وهى عبارة عن ورقة عادية جدًا كتب عليها بالعربية من الوجهين وبها اختصارات عدة وأسلوب ينبئ عن أن كاتبها هو شخص مغربى. وبعد أن يبدأ النص بحمد اللـه والثناء عليه يشيد بمزايا الصلاة ويشرح الآثار المترتبة عليها فى الحياة الدنيا والآخرة. ويعد محتوى النص على درجة كبيرة من الطرافة وله علاقة بدراستنا هذه، مما جعلنى أورد النص الأصلى وفيما يلى ترجمته:

الحمد للـه، الذى فرض الصلاة، الذى دعا إليه المؤمنين ووعدهم بنعم الجزاء. فلنعبده جل شأنه ونوقِّره فى عليائه. فقد ضمن لنا بلطفه السعادة الأبدية.

نعوذ به من النفس الأمارة بالسوء وندعوه أن يمنحنا القوة كى نتغلب عليها حتى يوم أن نلقاه فى الدار الآخرة. وعليه نعقد آمالنا فى أن يهبنا القوة التى نقاوم بها شيخوخة الروح. ونشهد أن لا إله إلا اللـه، الواحد الأحد وأن محمدًا عبده ورسوله ومصطفاه فى الكتب السماوية.

وصلاة وسلامًا على نبى اللـه وعلى أصحابه الأطهار.

وصلاة وسلامًا على عباده المؤمنين به وبرسوله.

أيها الجمع الكريم، اركعوا وسبحوا وصـــلوا.إن تـــارك الصلاة يتركه اللـــه ويلعنه الناس. إن صلاتكم تصعد إلى اللـــه سحابة من المسك، وهى تبعد عنا الشر، وتطهر الأجساد وتشفى الأرواح. فلا تهملوا الصلاة، وميزوا فروضـــها، وإلـــى أئمـــة المساجد الجدد أقول:

انشروها فى كل مكان فبأيديكم طوق النجاة.

إن الصلاة كاللؤلؤة فى البحار، وهى عماد الدين. وهى صلة بين العبد وربه، فيها النجاة وفيها العدل والخير الكثير فى الحياة الدنيا والآخرة.

إذا أتينا شعائرها فإنها تبعد عنا خطوب الدهر، فهى لنا ساعات سعادة فى الدنيا، وهى تمنحنا جنة الخلد ومنزلة عالية عند عرش الخالق سبحانه فى الآخرة. لا تتقاعسوا عن الصلاة أيها المؤمنون ولا تؤخروها عن أوقاتها ولا تسبقوا بها الإمـــام ولا تساووه.

واذكروا أن العظيم يتنزّل إليكم بسببها، وهـــو عنـــدما يهب نعمة يهبها لمن يدعوه ويتواضع له. قال رســـول اللـــــه صلى اللـــه عليه وسلم، إن الصلوات الخمس تغفر الذنوب ولو كانت كزبد البحر.

وأضاف، أن أول ما يحاسب عليه المرء أمام ربه

هو الصلاة ويتوب اللـــه على من تاب وأناب.

وقال محمد صلوات اللـــه وسلامه عليـــه، إن الـــصلاة عماد الدين وعليها أقيم الدين، فمن أقامها فقد أقام الدين ومـــن هدمها فقد هدم الدين.

ومن ترك صلاته متعمدًا فمصيره نار جهنم تسعين عاما مع قارون وهامان، لكن من أقام الصلوات الخمس وتطهر فإنه سيغتسل بالنور الذى ينير الطريق للأبرار يوم القيامة.

إن من يسرق الصلوات من ربه فهو لص، بل و أسوأ أنواع اللصوص.

فلنستمع لقول رسول اللـه ونتقن صلاتنا، فهى تهدينا إلى الصراط المستقيم وتمنحنا القوة كى نعصى الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس.

هدانى اللـه وإياكم

كما ترى العرب يصلون أيضًا فى مناسبتين أخريين، هما المواكب الدينية ومواكب الدفن. ففى الأعياد المسماه بالموالد- والتى سنفصل الحديث عنها فيما بعد- تظهر البيارق الخضراء الخاصة بالطرق الدينية ويلتف المؤمنون من حولها ينتفعون بذكر اللـه. وعندما ينزل الموت بأحد من الأسر أو بيت من البيوت الصديقة فإنه من المروءة تشييع الميت إلى مثواه الأخير، والنطق بالشهادتين السابق ذكرهما أمام نعش المتوفى.

أما النساء فلا يصلين إطلاقًا[1]. إن هؤلاء التعيسات لسن أهلاً لرحمه اللـه أكثر من الرجال. وفى هذه الحال من قلة الاعتبار الذى يعشنه يحرم عليهن السمو بأرواحهن من الأرض إلى فيض التأملات فى السماء. وباعتبارهن مخلوقات أدنى من الرجال فإنهن ممنوعات من تخطى أعتاب المساجد.

---

(١) ربما لأن الكاتب لم ير نساءًا تصلين فى المساجد فبنى حكمه على ذلك (المترجم).

مساجد القاهرة

عند وصولى للقاهرة كان أحد أهدافى التى أنجزتها بسرور هو زيارة مبانيها الإسلامية المقدسة. فتوجهت لوزارة الأوقاف والأديان بطلب إذن منها بالخطاب التالى الذى كتب بالعربية:

> **"إلى العالم الحكيم الكامل معالى السيد وزير الأوقاف. إن واجبى يملى على السؤال عن صحتكم والاطمئنان على أحوالكم راجين الله الرحمن الرحيم أن يسلمكم من كل أذى. كما أعرب عن رغبتى فى زيارة المساجد والأضرحة والمقابر المقدسة بالقاهرة، ولذا أطلب منكم بصفة ودية إصدار تذكرة أو تصريح لى كما جرت العادة. مع أمنياتى بدوام السلامة والأمان".**

بعث لى الوزير بالتصريح الذى طلبته بزيارة كل أماكن العبادة فى مصر المحروسة - كما يسمى المصريون العاصمة - وكانت تلك الورقة تخرس أولئك الذين يحرسون تلك الأماكن، مع العلم بأنها تحت أيدى الإنجليز منذ ستة أعوام.

وتتمتع القاهرة عن جدارة بشهرة المساجد الجميلة التى تضمها، وقد بلغت من كثرتها أن إدارة الأملاك الدينية تدفع زيت مصابيح أربعمائة مسجد وربما بلغت المساجد التى تعتمد على التمويل الخاص أكثر من ذلك عددا. ويصعب وصفها نظرا لتشابه مبانيها، فهى تشبه فى ذلك المدن الصينية، فعندما ترى إحداها فكأنك رأيتها جميعا. وأقصد بالطبع مبادئ العمارة العامة فيها، فالكثير من المساجد المصرية يتميز بقيمته التاريخية والفنية.

وصف المسجد

ويتكون المسجد من صالة مربعة أو مستطيلة، وتتجه حوائطه إلى الجهات الأصلية الأربع، يرتكز السقف على أعمدة من الرخام الموزعة بوفرة فى أرجاء المسجد. ويوجد ناحية الشرق فى مستوى الأرض محراب أو أكثر بارتفاع مترين غائر فى الجدار يعلوها عقد رومانى بسيط مزين داخله بفسيفساء من المرمر والخشب، ولا يخلو من تذكارات بيزنطية يكتنفها أحيانًا عمودان أو ثلاثة أعمدة صغيرة، يثبت على الجزء العلوى منه لفظ الجلالة. وبالنظر إليه تعتقد أن هذه المحاريب الحالية تنتظر قدوم التمثال الذى ستضمه. ولكنها محاريب فقط وضعت كذلك كى تحدد للمصلين الوجهة التى يجب عليهم التوجه إليها بأنظارهم عندما يصلون. وعلى يمين المحراب نجد المنبر. وسلمه عمودى تقريبًا على مدخل المسجد وجسمه الحجرى أو الجيرى يمتلئ بالزخرفات المفرغة والرسوم النباتية والهندسية ذات الطابع الشرقى.

ذكرنا أن أفنية المساجد تزينها الأعمدة التى توجد بكثرة فى مساجد القاهرة، لافتة بشدة انتباه أولئك الذين يجهلون أن كتل المرمر هذه والتى يحمل بعضها تيجانًا نحتت بإتقان شديد تمت سرقتها من معابد رومانية ومن أديرة قبطية فى عصر الاضطهاد المسيحى. ومن المعروف أن السلطان الحاكم بأمر الله دمر وحده مئات المبانى الدينية.

أما الأسقف فهى مبطنة ببطانات ثرية ذات ذوق رفيع فى مجملها لكنها شبه محطمة بسبب الترميمات غير الجيدة والألوان الزاهية التى استخدمت فيها. وعادة ما تكون الأرضيات من المرمر أو الحجر، وتكثر أيضًا أعمال الفسيفساء بأشكال متعددة، وأغلب هذه الأشكال فى حالة سيئة لكنها لا ترى غالبًا لأن الجزء المخصص للصلاة عادة وهو الرواق الأوسط للمسجد دائمًا ما يكون مفروشًا بالحصير.

أما جدران المساجد فهى تخلو من الزخارف عادة إلا من شبابيك كبيرة من الطراز العربى مزينة بأعمال الجص التى تقوم مقام الغطاء للزجاج الملون، ويوجد تحت الإفريز شريط من الجص أو الخشب عليه كتابات بالخط الكوفى تحمل سورة أو بعض آيات من القرآن، وقد وجد فى مسجد السلطان قلاوون وحده حجران أو ثلاثة تحتوى على نقوش قديمة.

ولا نرى فى المساجد العربية صورًا أو تماثيل لأشخاص قط. فقد حرم ذلك النبى مُحمّد لأنها ترمز للوثنية. وتقتصر الزينة فى المساجد على القناديل والأعمدة.

أما الغرفة الرئيسية داخل المسجد فهى الصهريج المخصص للوضوء، وقد شرحنا وظيفته من قبل. ومن الخارج تعد المئذنة هى العلامة المميزة للمسجد. وهى ترى على البعد بسنونها المدببة الرشيقة التى تنتهى عادة بهلال مذهّب وخمس أو ست قطع خشبية بارزة تستخدم لتعليق الأنوار الملونة فى أيام العيد الكبير. وتعد المآذن كأبراج الأجراس لكنها بدون أجراس. ويحتوى كثير من المساجد على مئذنتين على جانبى المدخل، أما المساجد الأخرى ففيها مئذنة واحدة لتخفيض النفقات. وعند منتصف المئذنة نجد شرفة خارجية من الخشب أو الحجر يحيطها درابزين دائرى عال يقف فيها المؤذن مرات عدة خلال اليوم كى يؤذن فى المؤمنين بالصلاة.

العاملون بالمسجد

وليس بالمساجد كهنة منوطون بإقامة الشعائر الدينية، ولكن بها أشخاص يتكسّبون بالدين حيث يتخصصون فى شرح مبادئ القرآن وتعليمها للذين يريدون إشباع حاجتهم الروحية بالوضوء والصلاة. وغير ذلك ليس فى الإسلام عبادات ظاهرية. كما أن هذا الدين لا يعترف بفلسفة أو مبادئ أخلاقية غير التى وردت فى القرآن حرفيًا:

﴿وَإِذ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

الأئمـــــــــة

والإمام هو شخص أتم دراسة القرآن، وظيفته الوحيدة هى وعظ المــؤمنين من فوق منبر الجامع بخطبة صغيرة كل جمعة، وتسبيح اللـــه الذى يــشاركه فيـــه المؤمنون على نسق التواشيح. كما يشارك الإمام أيضًا فى عقــد زواج المــسلمين، لكنه غالبًا ما تستدعيه الأسر الغنية فقط.

العلمـــــــاء

والعلماء هم الحكماء والعالمون بالقانون، يمضون حياتهم فى دراسة القــرآن بالمساجد، وينشرون تعاليمه أيضًا بالمجان، وهم يحسبون أنهم بذلك يؤدون عمــلاً قيِّمًا من أعمال الدين.

الفقهـــــــــاء

أما الفقهاء فهم مدرسو القرآن النظاميون. وهم جماعة من المؤمنين الــذين يمضون حياتهم فى أروقة المساجد، وعندما يتميزون بالتقوى والفطنة يعلنهم الطلبة معلمين. ويجتمع التلاميذ من حولهم، يجلسون جميعًا على الحصير أو علـــى جلــد الماعز المفروش على بلاط المسجد، ويستمعون بخشوع المتعبد إلى شروح الفقيـــه للسور والآيات القرآنية.

الدراويـــــــش

أما الدراويش فهم طوائف شعبية كطائفة الرهبان المسيحية، وهم يظهـــرون في ممارساتهم وطرق معيشتهم غلوا دينيا خاصـــا بالخيـــال الـــشرقي. ويعـــزف الدراويش عن المتع الدنيوية ويهجرون الحياة الأســـرية ويقفـــون ضـــد شـــهواتهم الطبيعية، ويسلمون أجسادهم للبؤس وأروحهم للذل، ولا يعتنون بأنفسهم فيثيـــرون النفور والاشمئزاز بقذارتهم. وفي عصر أيام الجمعة يستغرقون في تمارين عنيفـــة ويتراقص بعضهم على رجل واحدة والبعض الآخر يصيح بكل ما أوتي من قـــوة، حتى يستسلموا ويسقطوا على الأرض منهكي القوى من فرط الإرهاق. ويوجد في القاهرة مكانان للدراويش، الأول: هو تكية مولانا، والآخـــر: هـــو مـــسجد قـــصر العيني. ولم أرَ غيرهما في أي مكان آخر في مصر.

المـــــؤذنون

ويسمى خدم المسجد الذين يصعدون في ساعات محددة للـــصلاة فيرفعـــون الأذان المؤذنين، وهم الذين يعلنون المسلمين بدخول وقت الصلاة. وأخيـــرًا يـــأتي خدم المساجد وهم يقومون بدور مشابه لدور خادم الكنيسة عندنا. ويقومون بأعمال الحراسة والنظافة بالمسجد والعناية بالقناديل.

والإسلام ديانة ترتكز على الفرد، ولا تطلب مـــن الجماعـــة إلا القليـــل إذا طلبت، مع الأخذ في الاعتبار أن الشعب العربي لا يحب أن يرتبط بأي من قواعـــد الرفاهية التي نسميها نحن بالحياة الاجتماعية. فكما أنه لا توجـــد اجتماعـــات فـــي نطاق الأسرة ولا أحزاب سياسية في الدولة ولا نقابات للصناع، فإن الدين أيضا لم يستطع تجميع عدد كبير منهم في المساجد. ولا يمكن للجمعيات الدينية أن تزدهـــر

فى هذا البلد. وعندما يصعد الإمام المنبر أيام الجمع لأداء الشعائر المعتادة فإنه يجتمع له بالكاد بضعة وعشرين مصليًا. أما فى اليوم السابع والعشرين من رمضان وهو يوم الذكرى السنوية لمولد الرسول[1]، فإنه يسمح للنساء أن يحملن الشموع إلى المساجد ليلاً، وعادة ما تستغل النساء هذه الحرية لأغراض أخرى ممنوعة فى حياتهن اليومية. وبالنسبة للجمعيات الدينية المنظمة فى مصر فهى منظمات تهدف للربح فقط.

وفى غير أوقات هذه الاحتفالات الدينية الفقيرة جدًا تبقى المساجد خالية ومفتوحة لكل من يريد الدخول للصلاة أو الاستجمام تحت أروقتها. ويقضى الاحترام بعدم تخطى أعتاب الأماكن المقدسة إلا بخلع النعال. وهذه العادة تفرض أيضًا على الأجانب، فهم لا يستطيعون زيارة أى مسجد ونعالهم بأرجلهم أو على الأقل وضع القدم مرتديًا للنعل داخل خف من القش أو الجلد.



رجل يصلى

(١) يقصد ليلة القدر (المترجم).

وتتمثل نفقات المساجد الوحيدة فى كم المصابيح التى تضاء فيها أيام العيد. ويصل عدد القناديل التى تتدلى من السقف فى بعض المساجد إلى عدد لا يستهان به حتى ولو كانت أوانى بسيطة من الزجاج تمُلأ بالماء حتى نصفها ويضاف إليه بعض الزيت الذى تطفو عليه شعلة القنديل. وتدفع وزارة الأوقاف بالقاهرة جزءًا من هذه النفقات من ريع الأملاك الدينية التى تديرها.

كما تقوم التبرعات الشعبية بدفع جزء من نفقات هذه الإنارة، فتستقبل المساجد أحيانًا هبات من أحياء وأموات تخصص لهذا الغرض. وهناك أيضًا أنواع من الأوقاف على درجة كبيرة من الأهمية يخصص ريعها لبناء المساجد أو الأماكن الدينية الأخرى كالأضرحة، وتخصص إيرادات كبيرة للإنفاق عليها بعد البناء. كان هذا دأب سلاطين وخلفاء الأسر الحاكمة العربية قديمًا، فقلدهم فى ذلك بعض المعاصرين من الولاة. لكن ما يحدث عادة هو أن هذه الوصايا الدينية تختلط بأملاك الوقف، أو تقع فريسة للأوصياء غير المخلصين الذين يهملون هذه الأبنية المقدسة القديمة المليئة بالفن ويؤثرون مصلحتهم الشخصية.

كان المسجد فى شكله البدائى عبارة عن فناء مكشوف تحيطه أروقة، وفى وسطه حوض للمياه. ثم شيدت الأروقة المغطاه بالقباب شاهقة الارتفاع كما هو قائم الآن فى أغلب المساجد. وتزامن التطور المعمارى مع الثراء فى الزخارف الذى وصل إلى مستويات عالية. ويعد مسجد السلطان حسن الشاهد على هذا الطراز الإسلامى فى القاهرة، كما كان السرابيوم شاهدًا على عبادة أبيس فى العاصمة منف.

وقد بذلت بعض الجهود حديثًا لإحياء الفن العربى. فعندما تهدمت معظم المساجد أراد المخلصون من المسلمين أن يشيدوا مساجد جديدة لرب مكة والمدينة. وقد رأيت جدران اثنين أو ثلاثة منها فى شارع محمد على وميدان الرميلة، لكن تلك الجهود السخية اصطدمت بإهمال الشعب من ناحية وفساد الفن من ناحية أخرى. ومن الأفضل لهؤلاء المؤمنين أن يحافظوا على المساجد العتيقة التى بجانب كونها تحفًا فنية ثمينة تعد شاهدًا على إيمانهم.

الفصل التاسع

مسجد السلطان حسن

فى نهاية شارع محمد على الممتد أمام القلعة، وفى جانب من ميدان الرميلة يرتفع شاهقًا مسجد يعد تحفة للفن العربى فى أزهى عصوره. وقد مرت القرون على جدران هذا البناء الداكنة، والتى تصلح أن تكون جدران قلعة أكثر منها جدران مسجد، مخلفًا حوله أطلالاً لأبنية أقل صلابة.

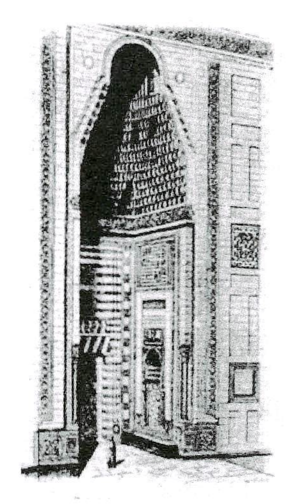
هو بناء مترامِ الأطراف، تم تشييده بأحجار انتزعت من الأهرامات، تعطى واجهته- التى تزينها صفوف من النوافذ الكبيرة وتسدها عوارض حديدية- انطباعًا بأنه سجن. وترتفع فوق الأسوار قباب المسجد وقبة ضريح السلطان حسن، كما شيدت مئذنتان رشيقتان بارتفاعات مختلفة تعد من أثرى وأجمل المآذن فى القاهرة. ويبدو من هيئة المئذنتان وطريقة بنائهما أنهما تأثرتا بالفن المغولى فى أزهى عصوره، وقد رأيت معابد فى شمال الصين تتشابه كثيرًا مع هاتين المئذنتين.



مدرسة السلطان حسن

البـــــاب

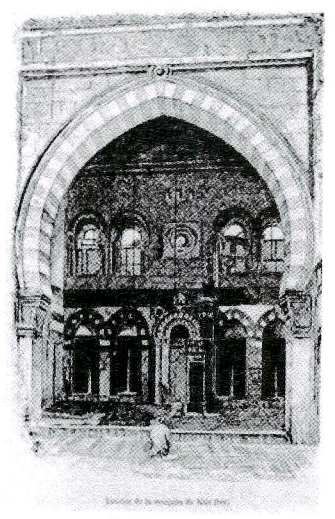
ندخل إلى المسجد عبر بوابة واحدة هائلة. وإذا أردنا وصفها فإننا سنستهلك كل عبارات وصفات الثناء عليها. إنها عظيمة حقــاً. وترتفع عتبة المدخل بمقدار ثلاثة أمتار على الأرض. ويصعد إليها بسلم متواضع. أما العقد الذى يعلو الباب فيتخذ شكل نصف قبة تملؤها المقرنصات وزخارف المرمر والتى تصل حتى إفريز الواجهة. وعلى الجانبين ترى كثيرًا من الأعمدة الصغيرة دقيقة الصنع والمحاريب الخالية من التماثيل والأحجار تملؤها نقوش نباتية وهندسية ونقوش بالخط الكوفى صممت بعناية فائقة.



مدخل مدرسة السلطان حسن

ويلاحظ فى هذا الأثر - كما فى كل الآثار العربية - خليط غريب من العظمة والبؤس، تتشابك فيه مفاهيم الفن السامية بتفاصيل شديدة الفقر والقبح. فقد ترك الفنان الذى صمم المبنى جزءًا ناقصًا، فاستغل المساحة لعمل أشياء لا تتفق

وسمات المكان الخاصة. فمثلاً نرى سلمًا مظلمًا بائسًا على جانب البوابة الفاخرة، وهو ضيق صنع بخشونة واستخدمت فجواته كحجرات لخدم وعمال المسجد. ويؤدى السلم عبر باب صغير إلى المسجد عن طريق أحد الأواوين.

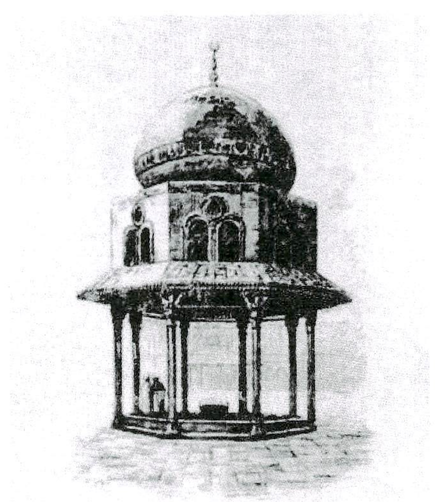


إيوان القبلة

الصـــــحن

والمسجد فى جملته عمل جليل، صمم طبقًا لنموذج المساجد البدائية العربية. فكانت المساجد قديمًا تشيد مكشوفة يضيئها نور الشمس أكثر من أضواء المصابيح. وهى متصلة بالطبيعة بخلاف الآن، فهى منعزلة عن العالم بأسوار وشبابيك تملؤها قضبان حديدية. ويتميز مسجد السلطان حسن أساسًا بالصحن الواسع الذى يشغل مركز البناء، ويبلغ طول ضلعه مئة وستين قدمًا، ويرتفع عند كل ضلع إيوان فارسى شاهق الارتفاع يؤدى تحته المؤمنون صلواتهم.

وفى وسط الصحن توجد فسقيتان للوضوء يشبه شكلهما الخارجى المقاصير التى ترى فى أروقه الكاتدرائيات القوطية. ويعد تشييد هذه المبانى الصغيرة من الطوب والخشب عملاً مدهشاً، ويجبرنا على احترامه رغم حالة الدمار التى هى عليه الآن والتى يرثى لها. وبجانب الفسقية الكبرى توجد مقاعد من الحجر حول المنتصف تسمى الميضأة والتى يجلس العرب عليها للوضوء. أما الصنبور الصغير الذى يسمى "حنفية" فإنه معد لخدمة طائفة خاصة من المسلمين يحبذون الاغتسال بماء جارٍ.



ميضأة السلطان حسن

وتتجه الإيوانات ناحية الجهات الأصلية الأربع، ويحتوى الإيوان الشرقى على المحراب الذى يتجه إليه المؤمنون بأنظارهم خلال الصلاة. وتحت هذا العقد نرى منبرًا من المرمر يتكئ على أعمدة أنيقة. وقد ألقى من فوقه سلاطين مصر القدامى فى أكثر من مناسبة الخطب السابقة عن المعارك فى جموع الحاضرين.

وتدهشك بساطة البناء رغم عظمته. ويكسر جمود المكان شريط كبير مذهب نقش عند التقاء الجدران بالعقود، ويحتوى على آيات من القرآن كتبت بالخط الكوفى. وتتدلى من الإيوانات سلاسل كثيرة وخطاطيف حديدية تحمل الفوانيس فى أيام الأعياد الكبرى. ويكثر المرمر فى كل مكان مكونًا أشكالاً غير تقليدية من الفسيفساء. ويعد إفريز دكة المبلغ والنقوش التى على الأبواب ورقائق النحاس التى تكسوها أفضل زينة للمسجد.

وخلف الإيوان الشرقى الذى يحتوى على باب من كلا جانبيه، توجد قاعة مربعة شيد فى وسطها الضريح الذى يعد من العجائب، وتعد قبته شديدة الأناقة من أفضل ما خلّف الفن العربى، وتزينها مقرنصات الخشب الثرية والتى تتساقط اليوم أجزاء، وتكسر جفاف جدرانه العارية نقوش طويلة على الخشب الذى تحول إلى رماد. وفى وسط القاعة نرى قبر السلطان حسن المرمرى يحيطه سور حديدى بسيط، ووضع فوق القبر شاهد نقش عليه:

بسم اللــــه الرحمن الرحيم، كل من عليها فان. أمر ببناء هذا المسجد الشهيد حسن ليكون ضريحًا له ولأبنائه. وسعهم اللـــه برحمته الأبدية.

مؤسس المســـجد

فمن يكون السلطان حسن؟ كانت القرون الأخيرة من العصور الوسطى فترة ثورات وتمرد. وقد أفشت الحملات الصليبية روح الحرب فى الشرق، كان من نتائج ذلك سقوط الأسر الحاكمة المسلمة التى لم تستطع مقاومة الهجوم العنيف

لهذه القوات الشغوف لفتح الأراضى المقدسة. استغل قواد الجيش هذه الحالة من الفوضى واستطاعوا دحر الجيوش الصليبية من القدس حتى عكا ودمياط، وأسسوا أسرًا حاكمة جديدة اختفت مع أول هزيمة لجنودها أو مع أول تمرد لمدن مصر غير المستقرة. وهكذا تناوب على عرش مصر فى تتابع سريع الفاطميون والأيوبيون والمماليك البحرية والبرجية حتى غزت البلاد قوات الأتراك المنتصرة فى ١٥١٧، وجعلت منها باشاوية أو ولاية من ولايات الباب العالى.

حكم المماليك البحرية منذ ١٢٥٠ حتى ١٣٦١م. ولا يوجد أوضع من أصل هذه الأسرة الحاكمة، فقد كان مؤسسها المعز أيبك ببساطة عبدًا مملوكًا رفعه الحظ فى الحروب إلى مرتبة قائد الجيش. لكن خلفاءه تميزوا بنجاح حملاتهم الحربية ورعايتهم للعلوم والفنون، ومن بين هؤلاء كان الملك الناصر أبو المعالى حسن بن قلاوون، وهو آخر ملوك تلك الأسرة. ويعرفه التاريخ باسم السلطان حسن.

الأحداث المهمة التى جرت أثناء حكمه

لكن الحظ لم يسعده، فقد ارتقى العرش عام ١٣٤١م، عندما كانت مصر أسيرة الفوضى الرهيبة. وكان المماليك وهم الحرس الملكى للسلاطين يعيشون فى ثورة مستمرة، فأعلن أمراء الأقاليم استقلالهم وتجرأت عصابات منظمة من اللصوص المسلحين على مهاجمة المدن المزدحمة بالسكان. وأضف إلى كل تلك النكبات الوباء الأسود الذى انتشر فى ربوع البلاد والذى كان يقضى فى نفس الليلة على كل من بالبيت الذى يدخله. ويحكى المقريزى - مؤرخ العصر - أنه منذ نوفمبر لعام ١٣٤٨م حتى يناير ١٣٤٩م، حصد الوباء أرواح تسعمائة ألف شخص فى مدينة القاهرة فقط، ومات فى يوم واحد عشرون ألف ضحية من سكان العاصمة.

أدت هذه الحالة من البؤس إلى إثارة الشعب، حتى تجرأ على كل أنواع العنف والتجاوزات. فما فائدة الحياة بالنسبة لهؤلاء الذين يهددهم الوباء والعصابات بلا هوادة وينشرون الموت من حولهم؟ كان الناس يعيشون فى معصية دائمة دون احترام للملكية ولا أى شيء. وذات يوم سرت الشائعات بأن الأقباط المسيحيين هم السبب، فانطلق الغضب الشعبى ضدهم، وقيل بعد ذلك إن السلطان نفسه هو المسئول عن تلك النكبات لأنه جلب على شعبه غضب السماء وأنزل عن العرش. وكان على وشك الموت بسبب شغب سكان القاهرة الغاضبين.

حدث ذلك فى عام ١٣٥١م، وبعد ثلاث سنوات عاد السلطان إلى عرش أجداده ولكى ينال فضل ورحمة ربه الرحمن الرحيم، مالك الملك ورب العالمين فشرع فى بناء هذا المسجد ليكفر به عن ذنوبه وآثامه. وبدأ البناء عام ١٣٥٤م، وتم فى غضون ثلاث سنوات فقط رغم أنه المبنى الدينى الأكبر مساحة والأحسن فنًا من بين كل المبانى العربية فى مصر. ويحكى أن السلطان حسن الغيور على بنائه أمر بقطع اليد اليمنى لمهندسه المعمارى عندما أتم البناء كى لا يصمم بناء مثله أو أفضل منه. وفى أكثر الأماكن قدسية خلف إيوان القبلة أشار بمكان الضريح الذى سيدفن فيه مع ذريته عندما تبحث ملائكة السماء عنهم ليلة مماتهم لتهديهم إلى جنة الخلد.

وفـــــاته

ولسخريه القدر! لم يكتفِ تمرد الرعية عام ١٣٦١م، بإنزال السلطان حسن عن العرش لكنهم أوسعوه طعنًا وقضوا على سلالته كى يسلموا السلطة إلى جندى جديد منتصر جاء من أراضى القوقاز البعيدة.

كان حظ تلك الأسرة البحرية مروِّعًا. فقد انتهكت حرمة رفات ملوكها وأخرجت من قبورها وطمست ذكرى أعمالهم الجليلة بسبب التعصب الشعبى. حتى المسجد الجليل تحول إلى مكان لاجتماع العصابات التى تستعد للانطلاق خلال الثورات اللاحقة التى كانت القاهرة مسرحًا لها، كما لو كانت لعنة العصر الذى شيد فيه قد عادت من جديد لتحوم فوق جدرانه. وحضر الملوك أنفسهم للمسجد خاضعين أحيانًا يخطبون فى الشعب ومطلقين عليه قذائف أحيانًا أخرى من منصات القلعة المجاورة. وتنبئ الجدران المهدمة فى مواضع كثيرة والأعمدة المحطمة والزخارف الهندسية التالفة اليوم عن الدمار الذى أحدثته قذائف المدافع التى أطلقت على أولئك الذين حولوا المسجد إلى ثكنة للتمرد الشعبى.

النقوش الموجودة على جدران المسجد

ذهبت مرارًا خلال إقامتى بالقاهرة لزيارة هذا الأثر الشهير، وعند تفقدى للإيوانات التى تحيط بالصحن الأكبر أو عند اقترابى من الجدران كى أرى بوضوح الزخارف الهندسية والنباتية الرقيقة للشرائط الكتابية والنوافذ شد انتباهى العدد الكبير من الجرافيتى أو النقوش اليدوية التى امتلأت بها الجدران وغطتها بالكامل كما غطت درابزين السلم وكل مساحة تصل إليها الأيدى.

وكتابة الجرافيتى على الجدران عادة قديمة جدًا وشائعة بين كل الشعوب. ولقد رأيتها على أقدم آثار الحضارة البشرية كما رأيتها أيضًا فى أوربا الحديثة. وفى القارات البعيدة كآسيا وأفريقيا. وفى شرق سلسلة الجبال الليبية، فى كهوف طرة القديمة التى استغلها المصريون القدماء من أجل قطع الأحجار لبناء الأهرامات منذ أكثر من ستة آلاف عام وقفت مشدوهًا أمام الكتابات الهيروغليفية الحمراء وخطوط الهيراطيقية التى كتبتها أجيال قديمة هى الآن فى طى النسيان.

ولقد أتيح لى أن أرى فوق جص الجدران المهدمة لأضرحة "منجيتاس" الحكايات التى خطها الزوار الصينيون- بسنى السكاكين - عندما كانوا يزورن مقابر تلك الأسرة الحاكمة التى أبعدت عن العرش فى أراض تقع على الجانب الآخر من الكرة الأرضية.

تمتلئ جدران بيوت مدينة بومبيا بالجرافيتى التى تذكرنا بالنزاعات السياسية التى عمت المدينة منذ عشرين قرناً، وحتى على جدران بيوت المتعة الموجودة بها كان الفاسق المنحدر من سلالة الرومان عادة ما يكتب حكايات فظة بعدما ينهض من المخدع الحجرى الذى ضاجع فيه البغى وهى ترى حتى اليوم.

لذلك لم أدهش لوجود كتابات فى المساجد الإسلامية أيضًا والتى يكثر روادها من المصلين. وتكشف هذه النقوش عن أدعية المبتهلين والنزعة الورعة لمن يصلون وتنهدات الألم للثكلى وأنَّات المتألمين وصرخات الغضب من المحاربين المهزومين واليائسين من ابتسام الحظ لهم على الأرض فيبحثون عن المواساة فى عالم الخلد.

وتختلف النقوش بالطبع تبعًا للمكان الذى تكتب فيه. ففى المحاجر المصرية تدون دائمًا كتابات مثل: "*قمنا بقطع كذا من الحجارة*". كتبها منذ أربعين قرناً ق.م عبد مجهول كان يشيِّد آثارًا عمرت أكثر من سير الملوك. وفى المعابد الصينية توجد جمل فلسفية أو مقاطع من أجمل الأشعار. وفى المبانى الرومانية توجد وصايا سياسية، وفى معابد العصور الوسطى توجد تحيات دينية، وحتى فى السجون القديمة توجد قصص مؤلمة كتبت بالدم والدموع. وفى أيامنا الحالية فقط يعتقد المسافر المعاصر الذى يزور الآثار العظيمة أنه ليس هناك أهم من حروف اسمه يمكن أن يخلفها للأجيال القادمة حتى تعرف القرون القادمة أن هذا الـــ"سانشيز" أو ذلك الـــ" جيترز" قد أفسد جدران الأثر فى ذلك التاريخ.

لا يتبعنا فى هذا الطريق السيئ شعوب أخرى ممن نصفهم فى غرور بأنهم بربر أو غير المتحضرين، والدليل على ذلك هو الكتابات المنقوشة على جدران المساجد الإسلامية. فعادة ما يكتب فيها مديحًا للرب أو تأملات حول الموت، كما يصلى على الأحياء حتى ينالوا الرحمة فى دار الخلد. وكما ذكرت آنفا توجد أيضًا بعض الإشارات لكوارث الحياة وصرخات مريرة للتعساء الذين آلمتهم نكبات الدهر، ولا نجد فيها قط عبارات قبيحة أو تافهة. وربما نجد فى مناسبة أو اثنتين فقط كلمات هائم أو مغرم روّح عن نفسه بكتابة أبيات العشق يهديها لمحبوبة قلبه على جدران البيت المقدس.

ونادرًا ما تحمل تلك الكتابات الإسلامية إمضاءً فى آخرها. ربما لأن كل انتباه الكاتب ينصب على مضمونها دون إعطاء أهمية تذكر لاسمه، فهو يكتب فقط لطلب الرحمة لروحه مباشرة، ورغم ذلك فهو يشفعها دائمًا بصفات تقلل من قدره أمام القراء. وأحيانًا يكتب تاريخ النقش بجانب الإمضاء.

ولا شك أن نقل كل الكتابات الموجودة فى مسجد السلطان حسن يستغرق وقتًا وجهدًا كبيرًا، لذا اضطررت لإختيار تلك التى أستطيع نشرها كمثال على نوعيتها أو تلك الكتابات الظاهرة بسبب معانيها. والغالبية العظمى منها كتابات جنائزية تتحدث عن الفاتحة وهى سورة من القرآن تتعلق بالبعث. وقد ذكر مسلم مجهول منذ عشر سنوات الفوائد التى يدين بها الشعب العربى لمُحمّدٍ وآل بيته وعلى سبيل الشكر المستحق الذى يفيض من قلبه كتب ما يلى:

أكتب فى هذه البقعة المباركة هذا الدعاء:" لا إله الا اللـــه محمد رسول اللـــه، إلى قارئ هذه الكلمات أسألكم الفاتحة لآل بيت الرسول. سنـــة١٢٩٥، وغالبًا ما توجد الشهادتان فى تلك الكتابات التى تطلب أيضًا قراءة الفاتحة حتى تنال الروح السعادة فى السماء.

ونجد فى كتابات أخرى:

كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

إلى قارئ هذه السطور نسألكم الفاتحة لكاتب هذه الكلمات وأطلبوا له المغفرة.

وفى نقش آخر نقرأ ما يلى:

لقارئ هذه الكلمات، عند رؤيتها ترحم علىّ واقرأ الفاتحة علىّ محبة فى رسول اللـــه.

ونقرأ فى جرافيتى آخر مُذيـــّل بإمضاء:

اقرأ الفاتحة لروح كاتب هذه السطور موسى عبد الرحيم، العبد الذليل للعلى القدير.

وهناك كتابات أخرى تتوجه للقارئ ليس لطلب الدعاء وإنما لإسداء النصح والتوجيه لطريق الخير. تقول إحداها:

أشهد فى هذا المكان المقدس أنه لا إله إلا اللـــه وأن محمدًا رسول اللـــه ليوم الدين. قال اللـــه إن كل نعمة فى الدنيا إلى زوال لكن نعم الآخرة عظيمة وباقية.

وكتب شخص يبدو أن أصدقاءه خدعوه ما يلى:

أيها القارئ: لا تفش أسرارك فقد عرفت الدنيا والناس ولم أرَ فيها رجلاً شريفًا حقًا، والآن يا من تمر على قبرى لا تعجب منى فقد كنتُ بالأمس مثلك وغدًا ستصير مثلى. فالكتابة تخلد كاتبها الذى ينام فى باطن الأرض. الفقير إلى رحمة ربه حسن عبد الرازق سنـــــــة ١٢٤٨هـــ/ ١٨٢٣م.

وتذكر كتابة شبيهة بالسابقة:

وإذا أردت العيش فى سلام فاهجر الدنيا، لأن الدنيا ليس بها رفيق حسن، فالعالم أشبه بالساقية التى ينتهى الحال بقادوسها إلى الفناء فى المياه التى يخرجها. فهب لنا يا إلهى نعمة الفصاحة، وكلل رؤوسنا بتاج العباقرة الخالدين سنـــــة ١٢٧٤هـ /١٨٥٥م.

ولا يخلو الدعاء التالى من معان:

سألت يا إلهى كيف أنول الرحمة، وقال لى كل الناس إنك فقط من تعطيها. وقد جئت أطلبها بجاه الرسول وكرامة لأهل بيته وأجداده الكرام. فاسمع دعائى يا إلهى. فأنا عبدك من الآن، فالكتابة تعيش أكثر من كاتبها الذى ينام فى باطن الأرض، فلتنزل رحمتك يا إلهى على روحى وعلى روح المؤمنين جميعًا رجالاً ونساءً أحياءً وأمواتًا، يا رب العالمين استجب لدعائى وارحمنى.

شوال من سنـــــة ١٢٧٢هـ. الحاج على.

وثمة كتابات أخرى توصى اللـــه بكاتبها عن طريق صيغة شديدة البساطة. فتقول إحداها ما يلى:

"ارحم يا إلهى كاتب هذه الكلمات البائس".

وتقول كتابة أطول من سابقتها:

أكتبُ فى هذا المسجد الشهادة التى تخرج من قلبى: لا إله إلا اللـــه، محمد رسول اللـــه، ارحم يا إلهى كاتب هذه السطور ليعترف بعظمتك. إبرهيم بن محمد بن على، من أحيا العدل بين المسلمين. ســـنة ١٢٧٨ هـ.

وتضم كتابة بحروف غير متساوية ومشوهة قصيدة ألم فى سطرين، تقول ما معناه:

إلهى! إنى ضحـــية للظلم فلتنزل للأرض أيها العادل

الأعظم حتى تجازى الظالمين بظلمهم.

وثمة كتابة أخرى ربما كتبها أحد المشككين تقول:

أحلف باللـــه أنه لو أحصيتم النجوم فى ليلة هادئة فلن

تساوى الظلم الموجود فى العالم.

وأخيرًا سأنقل لكم نقشين عن الحب هما الوحيدان من نوعهما فى المسجد. وربما يجيب الأول عن وعود الحب الأبدية التى تطالب بها كل النساء، وهى مكتوبة على شكل ثنائيات:

ألن يكون ذنبًا أن أحب أخرى بعدما أحببتك أنت كثـــيرًا؟

والنص الثانى هو نص شعرى أيضًا يتميز بأنه كتب باللغة التركية. كتبه بدون شك ابن ملتاع من أبناء اسطنبول التى ترك على شواطئها الباسمة سلطانة أحلامه وسيدة أمنياته، ووجد نفسه وحيدًا منفيًا على ضفاف النيل فأحس بالحنين إلى الحب المفقود فيتوجه إلى المسجد كى يسجل على جدرانه شهادة على ذكرياته، فيقول حرفيًا:

أنتِ يـــا حبـــيـــبة القلب يا رفيـــقة الروح

كم وددت أن يكون جمالك وردة البستان

وعبد حبك الفقير الذى يبكيكى على البعد

البستانى الذى يعتنى بها للأبد.

إنها آيات الحب التى تمتلئ بها كل المجتمعات والسلالات، والأنفس الجريحة المتألمة يومًا والتى شفيت ونسيت الحب يومًا آخر.

وأغلب الكتابات الموجودة على جدران مسجد السلطان حسن خطتها أيدى المؤمنين الأتقياء باللغة العربية. غير أن بعضها كُـتِب بالتركية وبالفارسية أحيانًا، كتبت بالحبر، وهو شيء شائع بالنسبة للعرب الذين يحملون دومًا فى أحزمتهم أوانى نحاسية بها محبرة وقلم من البوص. ونقشت بعضها على الجص المبطن للحوائط. ورأيت مرة واحدة لوحة حجرية كتب عليها اسم اللـــه منحوتًا فى الوسط، يبدو أن أحد العابدين أهداها للمسجد لتزيينه.

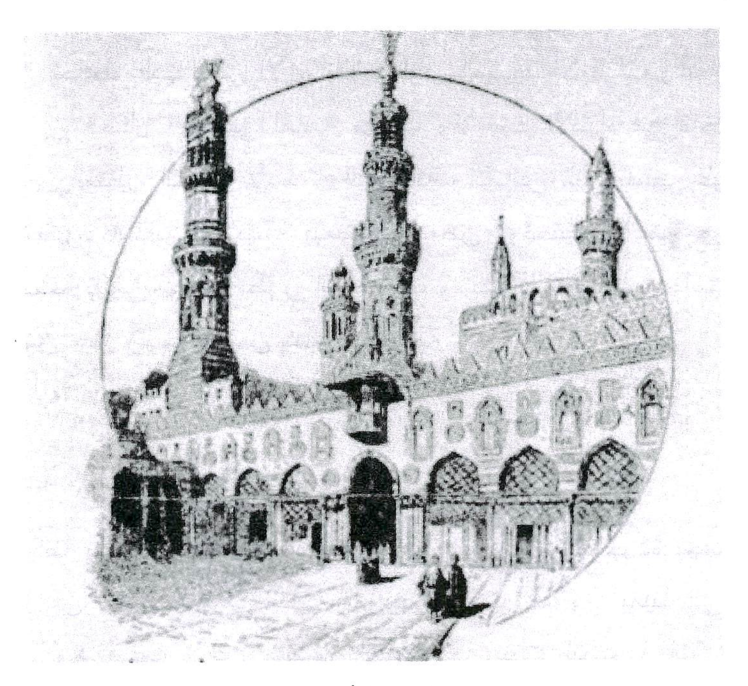
وبالرغم من مرور خمسمائة عام على إنشاء هذا المسجد ما زال العرب يكتبون عليه الجرافيتى، وهى عادة يبدو أنها ترجع إلى تاريخ قديم. فعندما تَسْوَدّ الحوائط بفعل تلك الكتابات يتم تبييضها بالجير. وتحت الطبقات المختلفة من الألوان التى تتهاوى فى أجزاء معينة من الحائط ما زال يمكننا قراءة الكثير من الكتابات القديمة والتى يتفق مضمونها وشكلها مع ما أوردناه آنفًا.

ونواصل الآن بزيارة المسجد الرئيسى بالقاهرة وكلنا ثقة بأن كل واحد منها سيعرض لنا مظاهر جديدة لحياة الشعب العربى قديمًا وحديثًا.

الفصل العاشر

الجامع الأزهر

يعد الجامع الأزهر أحد أهم المساجد بالقاهرة فى بلد يسيطر فيه الدين على كل شىء مما يحوّل المدرسة إلى مسجد. وعندما لا يوجد إيمان إلا بعقيدة ولا علم ولا قانون ولا اعتراف بأى نوع من المعرفة فإن دراسة النصوص المقدسة تفرض نفسها. ولا يوجد بمصر كتب للتعليم سوى القرآن، ولا يوجد مكان لتدريسه سوى فى الجامع الأزهر.



الجامع الأزهر

إنشـــــاؤه

هل هو جامع أم جامعة؟ ادعوه كما يحلو لكم، فكلا المعنيين مترادفان هنا. ويعود أساسًا لعصور قديمة منذ بدايات الفتح العربى. بناه جوهر القائد أحد قواد المعز فى عام ٩٧٠م، لكن لم يبقَ من العمارة الأساسية شيء نظرًا للتوسعات والإضافات التى أمر بها سلاطين العصور السابقة. وقد أمر الخديو إسماعيل بعمل إصلاحات ولكنها لم تكن كافية للحفاظ عليه من الدمار الذى يهدده. فعقوده مهدمة، ومآذنه غير مستقيمة، ومن السهل سقوطها على الأرض لولا السقالات الخشبية القوية التى تحافظ عليها حتى الآن. ولا يساوى المسجد إلا قليلاً، وعمارته ليست ذات بال. إن الشكل الأساسى لمآذنه مشوه، ولا يشد الانتباه فى داخل المسجد الفسيح سوى المنظر الجميل لأعمدته الثلاثمائة والثمانين التى يستند عليها السقف أو لنقل العشرة أسقف الملتصقة ببعضها البعض. ونحتت الأعمدة من المرمر بأحجام مختلفة تنتمى لجميع الطرز المعمارية، وسبب ذلك هو أنها جاءت من آثار إغريقية ومن مبانٍ رومانية ومن كنائس مسيحية.

أبنيتــــــه

ويمكننا رؤية تفاصيل فنية صغيرة فى المدارس الموجودة بجانب الباب. وإذا دخلنا من الباب المسمى بباب المزينين يمكننا المرور يمينًا إلى المدرسة الطيبرسية، وهى عبارة عن مقصورة متواضعة بنيت لتضم رفات أحد رعاة الجامع. وبنى القبر فى أحد جوانبها، ويحيط به شباك حديدى جميل. ويحتوى المحراب على ترصيع ثرى وفسيفساء ذات قيمة عالية. ويشبه فناء الجامع ميدانًا كبيرًا مبلطًا بألواح الجرانيت المنزوعة من الآثار القديمة.

أهميته مركزا للتعليم العالى

وتأتى أهمية الأزهر من كونه مركزًا أعلى لتعليم دين الإسلام. ومدارسه يعرفها كل المسلمين. وذاع صيت منابره ومناهجه المتقنة فى أبعد البلاد التى تدين بالإسلام. ولذلك يأتى للدراسة فى مصر شباب من كل بلاد الشرق، ويلتقى بالجامع حوالى أحد عشر ألف طالب يستمعون إلى أكثر من ثلاثمائة أستاذ يدرسون العقيدة والقانون والفلسفة التى اشتملت عليها صفحات القرآن.

وتمثل كل رعايا بلاد الإمبراطورية الإسلامية فى الأزهر، فتبعث الولايات التركية والأفريقية الشرقية وسوريا وفارس والهند وكردستان ودارفور وسنار والنوبة وكل مناطق البحر الأحمر بطلابها إلى العاصمة المصرية، حيث يدرسون من ثلاث إلى ست سنوات. ويلقى الفقهاء دروسهم فى الهواء الطلق وسط الصحن أو بجانب أحد الأعمدة تحت رواق المسجد. ويقرأ المعلم متربعا على حصيرة أو جلد ماعز فى الكتاب الذى بيده متوقفا عند كل جملة كى يشرح ما ذكره المفسرون حولها.

ويدوّن الطلاب وهم جالسون من حول الأستاذ الشروح التى يذكرها ثم ينصرفون كى يستذكروا ما درسوه. ومن المألوف رؤية طلاب معزولين وبأيديهم الكتب يهزون أجسادهم يمينًا ويسارًا لاعتقادهم أن الذاكرة تستوعب بذلك ما يقرأون بطريقة أفضل. كما يفعلون ذلك عند التلاوة، ويمكن أن نؤكد أن العرب لا يستطيعون أن ينخرطوا فى أى عمل ذهنى دون أن يحولوا أجسادهم إلى ما يشبه بندول الساعة.

برنامج الدراسة فى الأزهر

أما المناهج التى تدرس فى الأزهر فهى شديدة الغرابة، وهى تعطينا فكرة تامة عن الحركة الفكرية فى هذا البلد. وتعتمد العلوم العربية على علم الكلام والدين. ومن أول أجزائه وأهمها علم التوحيد. ويتفق هذا الأساس الجوهرى للعلم الإنسانى مع دراسة الصفات الإلهية وذكرها كالتالى:

- الوجودية.
- علة الخلق.
- الأبدية.
- الحرية.
- التوحيد وهو مطلق إلى حد أن الإسلام يعد واحدًا من الأديان الشرقية القليلة جدًا التى لا تعترف بسر التثليث.
- القدرة
- الإرادة؛ وهى تحكم العالم، فكما أن الإرادة الإلهية تسبق إرادة الإنسان وتعلو عليها فلا شيء يُثنيها أو يغير الأفعال الناتجة عنها. ومن هنا تولد الجبرية فى الإسلام.
- الحكمة، فالله يعلم كل شيء يحدث كما يقول القرآن من باطن الأرض وحتى عنان السماء.
- الحياة.

- البصيرة، بدون عين ولا ضوء، فاللــه مطلع على البشر وعلى الإنسان في كل الأحوال.

- السمع، وهذه الصفة تضم أحاسيس عديدة جدًا بدون حد، وتفهم دون حاجة إلى عقل.

- النطق، فلغة الرب كما يقول المفسرون هي أكثر وضوحًا ودقة من لغة البشر غير أنها تخلو من الكلمات ومن الحروف والأصوات.

ويشكل هذا المنهج لعلوم العربية المظهر اللاهوتي، فهو يشدد على دراسة صفات اللــه. وعندما ينتهي الدارس من هذه النظريات بالغة التجريد والإسهاب يبدأ في دراسة علم الفقة أو دراسة علم القانون. ويعرِّف ابن خلدون، وهو واحد من أشهر المفسرين العرب، القانون بأنه مجرد معرفة أوامر اللــه وتطبيقها على الإنسان. وهناك ثلاثة أنواع من الأفعال البشرية، أولها أفعال واجبة، وثانيها أفعال محرمة وثالثها أفعال مكروهة. ومعرفة المنازل التي تندرج تحتها هذه الأفعال تأتي من النصوص القرآنية ومن السنة ومن التفاسير التي سمعها الصحابة من النبي وتناقلتها الأجيال.

وبذلك ينقسم الفقه إلى فرعين:

١- العبادات، وأساسها التوحيد أو معرفة ذات اللــه، ثم الصلاة والطهارة وهي حتمية تطهير الجسد وإقامة الصلاة. ثم الصدقة والزكاة وهي وجوب إعطاء الصدقات ودفع الزكاة وصيام شهر رمضان، وأخيرًا الحج وهو ضرورة أداء الحج إلى مكة مرة واحدة على الأقل في العمر.

٢- المعاملات، وهــي القانون المدني والجنــائي ومصدره أيضًا القرآن. وهو معترف به ويرد ذكره في أحكام المحاكم وفي تفاسير رجال القانون.

وثمة علم آخر يدرّس فى الأزهر هو علم القراءات؛ وهو يوضح الطريقة المُثلى لقراءة القرآن. وتكمل علوم الشعر والخطابة وأفكار أولية فى الفلسفة إلى جانب القواعد اللغوية المنهج الذى يدرس فى ذلك المركز التعليمى الرائد فى الممالك الإسلامية.

ولا يريد العرب معرفة أى علوم أخرى، وهم لا يعرفون شيئا اليوم عن علم الفلك الذى نبغ فيه أجدادهم. وكذلك علم الطب الذى حقق فية الأقدمون تقدمًا كبيرًا وهو بينهم اليوم منسيًا. وتعد العلوم الطبيعية والتاريخ والجغرافيا والفنون والسياسة وحتى الآداب ألعابًا تشغل الفكر وتلهيه عن دراسة علوم الدين الجادة والمفيدة. وهم فى ظلمات التخلف يملؤهم الغرور أكثر من عصور العظمة والازدهار السابقة. وهم يكرهون الانضمام إلى فريق التقدم مفضلين الموت بين أحضان الفقر.

حيـــــاة الطـــلـــبـــة

ونختتم وصفنا للأزهر بقول إن الطلبة يعيشون داخل الجامع نفسه، وينقسمون إلى جماعات تبعًا للمكان الذى وفدوا منه. ويعيش شباب كل محافظة مصرية أو كل بلد أجنبى فى رواق مستقل. وهو عبارة عن حجرة واسعة، وتشكل الدواليب الخشبية البيضاء الكبيرة التى تستند إلى الحوائط قطع الأثاث الوحيدة بها. وتنقسم تلك الدواليب إلى أدراج مربعة صغيرة يضع كل طالب خبزه فى أحدها وهو نوع من الخبز الجاف المحمص المتعفن تبعث به أسرهم كل ثلاثة أشهر، وعادة ما يأكله الطلبة بالفول الأخضر أو البصل. إن قناعة أولئك القوم ليس لها مثيل فى العالم.

وينام الطلبة فى أى مكان، على حصير الجامع أو على جلد الماعز الخاص بهم ويفترشونه فى الفناء. وبعض الأروقة مزودة بالكتب، ولقد رأيت فى رواق الأتراك مجلدات كثيرة من المخطوطات القديمة، رأيتها مفتوحة وملقاه على الأرض بإهمال شديد. وفوق شراعة الباب الذى كان مغلقًا حينئذ رأيت لوحة كتب عليها كلمة "مكتبة" فأردت الدخول لكنى منعت حتى بعد أن عرضت "بقشيشًا" كبيرًا، ورغم أنى ألمحت لشيخ المسجد الذى كان يصطحبنى بأننى سأهديه كتابًا فإن هذا التلميح قوبل برفض شديد. ومن المعروف جيدًا أن هذا الجامع هو معقل التعصب فى الإسلام، فقد وجدت فى أماكن أخرى أناسًا أسهل بكثير فى المعاملة وأكثر تبسُّطًا.

ولا تطلب الحكومة شيئًا من الطلبة، ولا تفرض عليهم أى مصاريف، وتوفر لهم المدرسين مدفوعى الأجر من أموال المسجد، وتسكنهم بالمجان، وعندما يصلون إلى مستوى معين من الدراسة تعفيهم من الخدمة العسكرية ومن السخرة. وفى المقابل فإن هذه الحشود الصاخبة المتمردة بطبعها هى التى تسارع إلى الحركات الشعبية التى يثيرها الحس الدينى القومى. ويعد الطريق من الأزهر وحتى مسجد السلطان حسن هو طريق الثورات والانتفاضات التى حدثت بالقاهرة.

مسجد السلطان قلاوون

وثمة مسجد آخر يعد من أهم مساجد القاهرة هو مسجد السلطان قلاوون. وينتمى هذا الملك إلى أسرة المماليك البحرية الشهيرة الذين بلغت مصر خلال حكمهم القصير رقيًا فى الفن والعلوم يوازى الذى حققته فى حملاتها الحربية. ويرجع الفضل فى إنشاء أجمل العمائر الإسلامية التى ما زالت قائمة فى مصر إلى ملوك هذه الأسرة الذين كانوا قادة ومُشرّعين وفنانين.

وكان المنصور قلاوون أحد أولئك السلاطين الذين تألقوا في هذه الفترة القصيرة من الحكم العسكري، فتولى الحكم من سنة ١٢٧٩م إلى ١٢٩٠م. واغتصب العرش ممن كان يستحقه وهو أحد أبناء بيبرس. وأراد أن يبرر هذا التعدى بالانتصارات التى حققها فى كل مكان على أعداء البلاد فأعلن الحرب على كل من هدد عرشه. وحالفه الحظ فى حملاته، فقضى على حاكم دمشق الذى ثار عليه. وتغلب على المغول فى معركة حمص، وأنقذ بذلك سوريا من جحافل سمرقند البربرية. وعاقب أمراء أرمينيا وجورجيا لتحالفهم مع الأوربيين ضد سلطانه. واستولى على سواحل اللاذقية وطرابلس التى كانت قد وقعت فى يد "بالتران دى جبلت" بعد موت بوهيموندو. وأخيرًا فقد كان يستعد لمهاجمة حصون عكا لاستردادها من أيدى جيوش الصليبيين التى كانت لا تزال فى سوريا، ولكن وافته المنية فى العاشر من نوفمبر ١٢٩٠م.

كانت أعماله السلمية لا تقل نشاطًا عن أعمالة الحربية. فكان يتوق للبناء كلما استطاع، ونظرًا لما حققه من نتائج وقع معاهدات دبلوماسية مع الإمبراطور الألمانى رودولفو، ومع جمهورية جنوة، ومع ملك قشتالة ألفونسو الثالث، ومع حاكم صقلية دون خايمى، ومع أمير اليمن وأمير سيلان. واتهم السلطان قلاوون فى بعض الأحيان بعدم الوفاء بوعوده واتفاقاته الدولية متعمدًا عندما كان يرى ذلك فى صالح إمبراطوريته. ولكن هذا الاتهام ليس فى محله لأن كل ملوك العصور الوسطى وقعوا فيه مرات كثيرة.

وكان قلاوون فى داخل مملكته ملكًا متحضرًا محبًا لرخاء البلاد، لم يؤثر عنه إتيان أفعال غريبة ولا بربرية أو تقلب أطواره. وكان المصريون عارفين بفضله، والدليل على ذلك هذا المسجد الباقى حتى اليوم والذى يضم رفات السلطان قلاوون.

وكان الطب واحدًا من العلوم المفضلة عند قلاوون، فآثرها رغبة منه فى إيجاد علاج للأمراض الكثيرة التى طالما هاجمت المصريين فى جميع العصور. فأمر ببناء مستشفى كبير بحثًا عن حلول عملية يمكن استقاؤها من ذلك العلم، وحتى يستطيع توزيعها على المرضى فى أقسام المستشفى المختلفة طبقًا لنوع المرض الذى يعانونه، وبهذا يسهل عليهم العلاج. كما أراد تخصيص قسم للعناية بالمرضى النفسيين.

كانت شعوب الشرق الأقصى تفسر الجنون بأنه عقاب من الرب للأشقياء الذين ارتكبوا ذنوبًا فى هذه الحياة أو فى حياة أخرى ولم ينالوا عقابهم من العدالة الإنسانية، لكن العرب كانوا يفسرونها من منظور مختلف كليًا. فيعتقد المسلمون أنه إذا فقد المرء عقله فهو يستغنى عن الحياة الأرضية كى يرتفع إلى اللـــه، فمن يهرب من العالم حيًا فليس له مأوى غير السماء ولذلك يسمى "مجذوبًا" والتى تعنى فاقد العقل كما تعنى وَلِيًّا فى نفس الوقت.

والمجانين لهم احترامهم، وهم يستفيدون بحالتهم المرضية إلى الحد الذى جعل كثيرًا من العقلاء يقلدونهم. ولقد رأيت بعض أولئك التعساء جالسين على الأرض متوجهين إلى الشرق وهم عراة تمامًا وأفواهم فاغرة وعيونهم مغلقة وجلودهم حمراء ألهبتها الشمس وعواصف الصحراء، ويظلون لساعات طويلة كذلك بدون حركة وهم مستغرقون فى ذهول من يعيش بجسده فى عالمنا لكن روحه طليقة فى معيّة ربه. والجميع يحترم هؤلاء المجانين ويقدِّرهم ويطعمهم بل ويطلب منهم الدعاء. وأحيانًا يتم إدخالهم خلسة إلى البيوت. ومن تريد الحمل من النساء العاقرات لا تتحرز من التقرب منهم. فهن لا يرتكبن ذنبًا إذا ما أسلمن أنفسهن لوَلِىّ.

كان ذلك المستشفى أو المورستان كما يسمى حتى اليوم كبيرًا جدًا، وبقيت منه الآن أجزاء كثيرة مهدمة بسبب الاستخدامات المتعددة للمبنى فيما بعد. وكان يحتوى على صالات فسيحة للمرضى وفسقيات وأفنية وعنابر وغرف للأطباء والعشابين، ومستودع للجثث، ومختبرات للجراحة ومكتبة، والأهم من ذلك وهو الإيرادات للصرف على كل ذلك.

أتريدون معرفة ما حدث بعد ذلك ؟ بمجرد وفاه السلطان قلاوون تم القضاء على جميع أجزاء مؤسسته. فاستولى الوكلاء الجاحدون على مواردها، وأخذ الملوك معدومو الضمير رأس المال. ولما فنى المال اللازم للحفاظ عليها هجرها الناس، ولم يرد المرضى إضافة ألم الجوع إلى الأمراض التى يعانونها. وعندما هجر المكان جرى استخدامه لأغراض أخرى. وأخيرًا بيعت أجزاء من المبانى.

ولم يبق الآن من الموريستان سوى مسجد السلطان قلاوون، الذى تبدو واجهته مهيبة لارتفاعها وثرية بالمواد المستخدمة فيها، فهى عبارة عن قطع من حجر المرمر الأبيض والأسود المتراصة فوق بعضها فى أشرطة منتظمة. والمآذن بطلائها الأبيض والأحمر تعد تحفًا غنية بزخارفها المفرغة رغم تشويه أعمال الترميم الحديثة لها.

أما الممر الذى يبدأ من باب الدخول الخارجى ويفضى إلى داخل المسجد فهو عبارة عن بهو من العقود الفارسية المدببة. والجامع مربع الشكل وتستند قباب رواقه على أربعة أعمدة ضخمة. وبجانب الأبواب، وعلى العقود الصغيرة التى فى الحوائط الجانبية نرى أعمدة المرمر التى جُلبت من أطلال قديمة. ويمتلئ المحراب بأعمال رقيقة من التوريق التى تملأ الجدران المجاورة، وهى مغطاة بالمرمر الملون الذى يشكل لوحات وحواشى زخرفية غاية فى الأناقة.

وفى وسط الرواق الأوحد الموجود فى المسجد نجد ضريح السلطان الشهير يحجبه شباك خشبى. وقد صنع القبر من المرمر وتغطيه دائمًا قطعة من القطيفة الحمراء، وفى جهة رأس المتوفى يوجد عامود على شكل شاهد القبر كتبت عليه تلك الجملة البسيطة:

"سلام اللـــه عليك ورحمته"

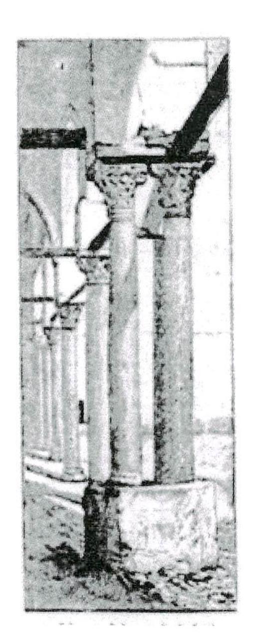
وعلى الشرائط المرمرية التى تزدان بها الحوائط نقرأ كثيرًا من الجرافيتى التى كتبها المصلون، لكنى لم أدونها نظرًا لأنها على شاكلة تلك التى ذكرناها فى مسجد السلطان حسن. غير أنى أتذكر إحداها والتى جذت انتباهى. وهى تقول:

"أتوسل إليك يا خلاص الهالكين، تذكر من يتألم وتكبله قيود الحياة".

مسجد عمرو فى جنوب القاهرة

وننتقل الآن إلى الطرف الجنوبى للقاهرة كى نزور أقدم جوامع العاصمة المصرية، والذى يحمل اسم القائد الشهير عمرو. وقد سقط المسجد من عليائه كدُرة للمساجد كما كان يسمى من قبل، وهو الآن مهجور، وقد تهدمت ثلاثة من أروقته الأربعة وتحطمت أعمدته وجفت فسقياته، وخفت صوت المؤذن الذى طالما نادى المؤمنين للصلاة من فوق مآذنه.

عندما عسكرت القوات الإسلامية بقيادة عمرو فى الفسطاط تم توزيع الأرض المجاورة بين القوّاد الرئيسيين لذلك الجيش. وخصص البعض منهم- مثل قصابة بن كلثوم وغيره ممن لم يحفظ التاريخ أسماءهم- أنصبتهم من الأرض لبناء هذا الجامع الذى كان من أبرز آثار عصر صدر الإسلام.



جامع عمرو بن العاص

وافتتح للصلاة عام ٢١هـ - ٦٤٣ م. واحترق فجأة فى عام ٢٧٤هـ، ثم شُرِعَ فى بنائه بعد ذلك بخمس سنوات، واستمر العمل به حتى عام ٣٨٧هـ، وزين فى هذه المرة بألوان جميلة وبطريقة فخمة لكن لم يبق من أثر ذلك شىء. وقد زار المقريزى الجامع عام ٤٠٧ هـ، عندما كان فى أوج عظمته، وحكى أن مكتبته حوت ألفًا ومائتين وتسعين نسخة خطية من القرآن، وكانت أروقته تضاء كل ليلة بثمانية عشر ألفًا من القناديل.

أعمدته

والجامع مهجور فى أيامنا الحالية، ولم يبق منه سوى رواق القبلة الذى يحتوى على ٣٦٦ عامودًا من المرمر. ولم يتردد المعماريون الذين أشرفوا على

البناء فى استخدام كل ما وقعت عليه أيديهم من الأطلال القديمة. فقد جمعوا الأعمدة والتيجان اليونانية والرومانية ثم أخذوا يرتبونه على ارتفاع معين، فإذا كان العامود طويلاً قصوا منه، وإذا كان قصيرًا وضعوه فوق قاعدتين أو وضعوا تاجين من فوقه.

ويرتبط أحد هذه الأعمدة المرمرية والموجود على يمين المحراب بحكاية ترفعه إلى مرتبة آثار القديسين. فيحكى أن الخليفة عمر كان فى مكة حين بدأ قائده عمرو بناء هذا المسجد، ولما أراد الأخير أن يضع به شيئًا ينتمى إلى المدينة المقدسة كتب إلى الخليفة طالبًا عامودًا ليضعه فى المسجد. وكان الخليفة يصلى فى مسجده عندما وصلته الرسالة، فأمر هذا العامود فى الحال بالانتقال وحده إلى ضفاف النيل. ولما لم يتحرك العامود فى الحال كرر الخليفة الأمر، ولما لم يستجب لأمره للمرة الثانية والثالثة استل الخليفة سوطه غاضبًا وضربه ضربة قوية. ثم هدأت ثورة الخليفة العظيم المتواضع وسجد عند العامود وقال:

"استحلفك باسم اللــه يا عامود المسجد أن تنهض وتنتقل إلى القاهرة [1]".

ووسط ذهول عظيم رأى الحاضرون كيف اختفى العامود وطار فى اتجاه عاصمة مصر. وما زال يحتفظ فى وسطه بأثر السوط وقد كتب المؤمنون لفظ الجلالة تحته. وفى الواقع فإنه توجد علامة على الحجر والتى نفسرها كغير المؤمنين بعرق طبيعى يميل إلى الزرقة فوق لون الحجر المرمرى الأحمر. وأخيرًا نجد فى ركن هذا المسجد الأيسر من الرواق الأكبر قبرًا يخلو من أى مميزات فنية يرقد فيه جثمان عبد اللــه بن عمرو.

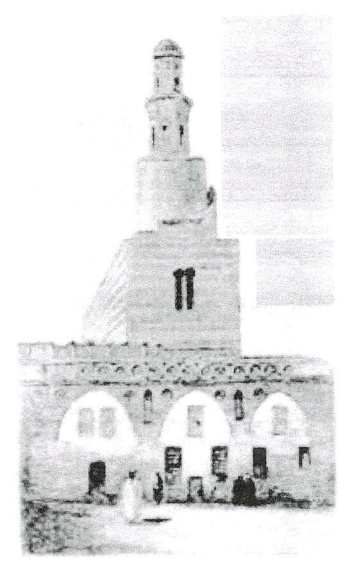
---

(١) لم تكن مدينة القاهرة قد أسست بعد ؛ فكيف للخليفة عمر الذى عاش فى القرن السابع الميلادى أن يأمر العمود بالانتقال لمدينة القاهرة قبل تأسيسها بثلاثة قرون؟ (المترجم).

مسجد أحمد بن طولون

وفى أزحم مكان من الحى العربى ما زالت باقية آثار مسجد آخر مهم وقديم جدًا. ويذكرنا المكان الذى بنى فيه بأول أساطير الجنس البشرى، فيعتقد المسلمون أن سفينة نوح استوت على هذا المكان بعد أن غيض ماء الطوفان. وتؤكد قصص أخرى أن النبى إبراهيم ضحَّى هناك بالكبش.

بنى هذا الجامع على هضبة قلعة الـكبش عام٢٦٩هـ - ٨٧٩م، بأمر من أبو العباس أحمد بن طولون والى مصر أولاً ثم ملكها المستقل، ومؤسس الأسرة الطولونية الحاكمة. ومساحة المسجد شاسعة ولا يفوقه حجمًا سوى جامع عمرو، غير أنه يتفرد بكونه بنى بالكامل بمواد جديدة، ولم تستخدم فيه أطلال يونانية ولا رومانية كما جرت العادة فى تلك العصور.



مئذنة أحمد بن طولون

ويتكون المسجد من فناء رحب، وعلى الجانب الشرقى منه كانت هناك خمسة أروقة لم يبق منها سوى أربعة الآن. أما المحراب فيعتمد على أربعة أعمدة من المرمر وهو مرصَّع بالصدف. أما المنبر فهو عمل رائع من النحت جار عليه الزمن وأيدى البشر. وتستند الأروقة على أعمدة رشيقة من الطوب يكسوها الجص الذى نقشت عليه رسوم دقيقة تقوم مقام التيجان وأشرطة النقوش. وعلى العقود نقشت أشرطة عريضة من الكتابات الكوفية لبعض سور القرآن.

أما الأروقة الثلاثة الأخرى غير رواق القبلة فهى على حالة معقولة من الحفظ وكانت قد استخدمت لعدة سنوات كملجأ للفقراء مما نتج عنه بناء بعض الأكواخ الطينية تحت عقوده. وفيما بعد تم نقل اللاجئين إلى مكان آخر لكن حجراتهم البائسة ما زالت قائمة تشوه ذلك الأثر العظيم.

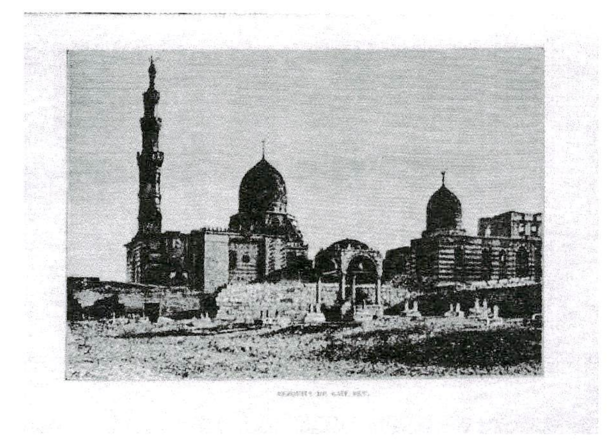
وفى وسط الصحن يوجد بناء مربع الشكل تغطيه قبة أنيقة لا بد وأنها كانت ضريحًا لمؤسس المسجد. لكنه لم يدفن به، ذلك أنه مات بالوباء فى حقول سوريا عام ٨٨٤م. وهجره قواده وتركوا جثمانه دون دفن، فاستخدم الضريح كميضأة.

وتتميز المئذنة الوحيدة للمسجد بشكلها الفريد، فلا يوجد مثيل لها فى أى مسجد آخر فى مصر. فالسلم مبنى على شكل منحدر خارجى يتجه فى صعود حول المئذنة. ومن المحتمل أن هذا السلم لم يبن مع المئذنة ولكن بسبب ميلها وعدم اتزانها نظرًا لأساسها الضعيف فكانت على وشك الانهيار فأرادوا تجنب ذلك ببناء السلم كدعامة قوية.

والمسجد مغلق حاليًا، ووضع تحت تصرف اللجنة القومية لحفظ الآثار العربية لكنها لا تستطيع ترميمه لأسباب مادية، فلا تقام فيه الصلوات الآن، ولم ترمم من جديد العقود المحطمة. إن هذا المسجد محكوم عليه بالإهمال.

مسجد قايتباى

وغير بعيد عن المسجد السابق يوجد مسجد آخر صغير يسمى مسجد قايتباى. وهذا هو اسم واحد من أهم سلاطين المماليك فى مصر. عاش فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر، ولذلك فقد وجد نفسه فى وسط كل الصراعات العسكرية والدبلوماسية لهذه الحقبة التاريخية الحافلة بالأحداث والتى هدد خلالها الغزو التركى الغرب والشرق على السواء بقيادة محمد باياسيتو[١].



مسجد قايتباى

أبلى السلطان قايتباى بلاءً حسنًا فى الحفاظ على استقلال بلاده والذى أكده بانتصارات حاسمة فى المعارك وبمعاهدات متميزة فى وقت السلم. وكان فى نفس الوقت رجلاً ذا ذوق رفيع مثل العربى فى أبهى صورة عابدًا لربه ومؤمنًا بأهمية الشكل فى إثراء الحس الدينى وبناءً على ذلك فقد أمر ببناء مساجد فخمة فى مواضع مختلفة من المملكة، وفى أبرزها نجد الضريح الخاص به فى الصحراء المجاورة للعباسية والمسجد الذى يحمل اسمه على أطراف العاصمة.

---

(١) باياسيتو الثانى (١٤٧٧- ١٥١٢) تولى السلطنة فى تركيا من ١٤٨١ إلى ١٥١٢م. مات مسمومًا بتدبير من ابنه سليم الأول. لاروس (المترجم).

وهذا المسجد ليس بالكبير، ويخرج عن الشكل البدائى للمسجد لأنه لا يوجد به فناء. فالبناء تحيطه جدران أربعة، وهو مقسم إلى أربعة أروقة على شكل صليب. وفى الزواية اليسرى منه ترتفع مئذنة مزخرفة لا يمل الزائر صاحب الذائقة من تأملها. وتتخذ عقود القبة شكل حدوة فرس، ويغلب عليها عند القمة الطراز الفارسى. أما المنبر فقد صنع من الخشب المطعّم بالعاج. وفى الأرض وعلى الجدران يتألق المرمر الملون. أما الأبواب فقد كسيت برقائق النحاس المزخرفة. وقضيت عصر يوم كامل متأملاً هذا المسجد الصغير الذى ما زالت تؤدّى فيه الصلوات. وأثلج صدرى معرفة الحكومة المصرية لقدر هذا البناء، فقامت ببعض الإصلاحات لحماية المئذنة من الدمار المحقق.

وهنا أختم وصفى لمساجد القاهرة، لأن المجال لا يتسع للحديث عن جميع المساجد التى تحوز الإعجاب ومن بينها مساجد الغورى والقلعة والأقمر والسيدة زينب والبرقوقى ومساجد أخرى كثيرة أقل أهمية.

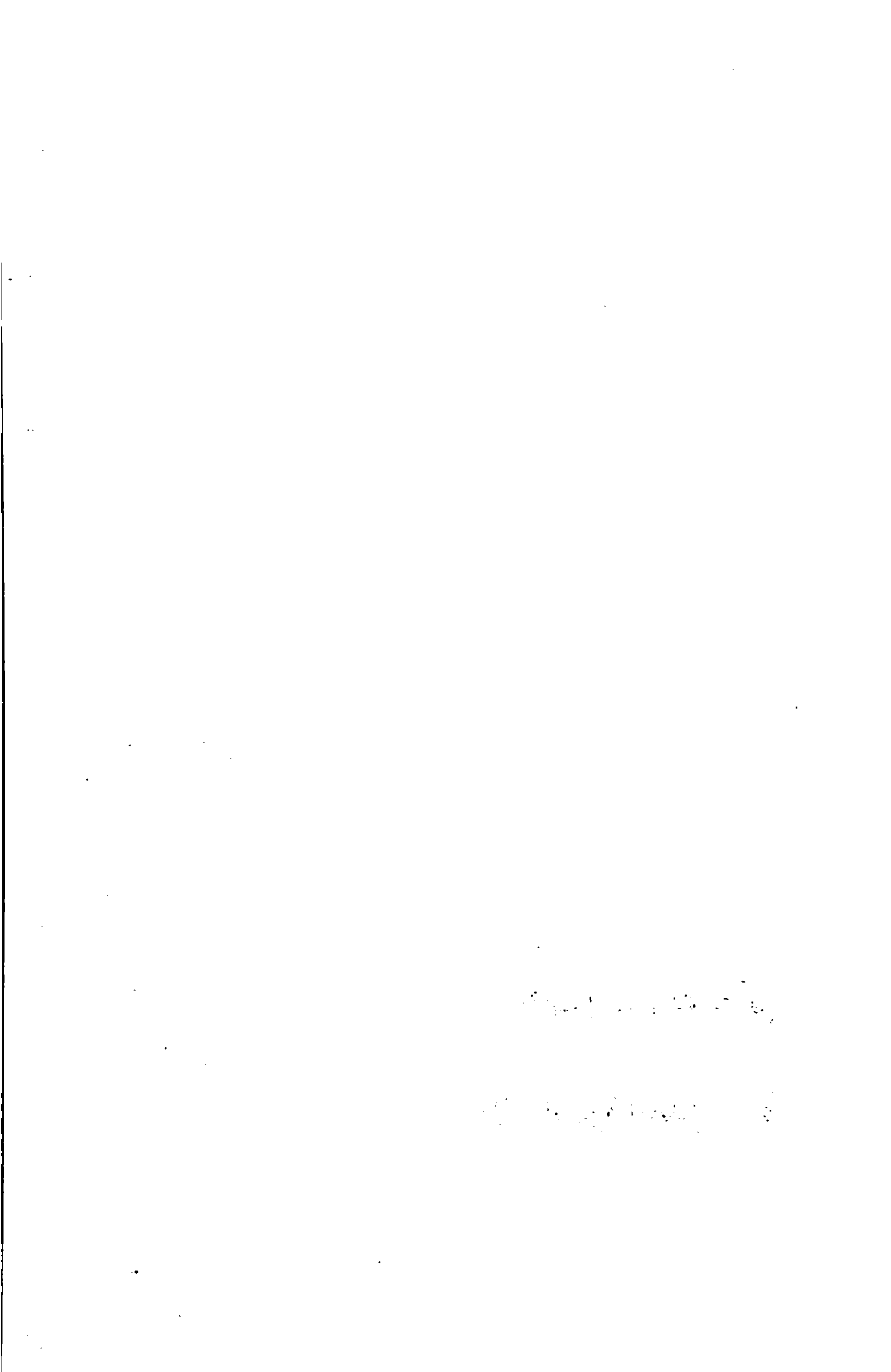
إن هذه الآثار العظيمة لحضارات سابقة ولمعتقدات تكاد تتلاشى - رغم صمتها - تعد شاهدًا بليغًا على تقوى الأجيال السابقة. إن هذه المساجد التى صارت اليوم أطلالاً لها أهمية كبرى بالنسبة لتاريخ الفن العربى وخاصة بالنسبة لنا كإسبان نظرًا لارتباط تاريخ الفن الإسلامى فى إسبانيا بنظيره فى أفريقيا. إن الزمن الذى لا يرحم قد أكل أحجار جدرانها، وتآكلت أعتاب أبوابها بفعل جماعات البشر سواء كانوا أتقياء قليلى الوقار. إن الإيمان الذى دفعهم مرات عديدة للنصر- حتى وصلوا لتهديد الممالك المسيحية فى الغرب والتى لم تتنفس الصعداء إلا بعد انتصار ليبانتو[1] الخالد- لا يدفع قلوب المؤمنين من المسلمين ويحثهم على إعادة بناء تلك المبانى المقدسة التى تشهد على عظمتهم فى القدم وعلى مجدهم المفقود.

---

(١) الانتصار البحرى حققه "دون جوان" ملك النمسا على الأتراك عام ١٥٧١م، لاروس (المترجم).

الفصل الحادى عشر

القـــاهـرة القديمـــة



القاهرة ليست مدينة مصرية عريقة، رغم احتوائها على آثار أكثر مما تحوى الإسكندرية لأنها بنيت فى عصر قمبيز منذ ستة قرون قبل الميلاد[1]. وقد اختار الغزاة الذين جاءوا مع الملك الفارسى المكان الذى يشغله اليوم حى مصر القديمة كى يشيدوا مدينة أسموها بابيلونيا الجديدة.

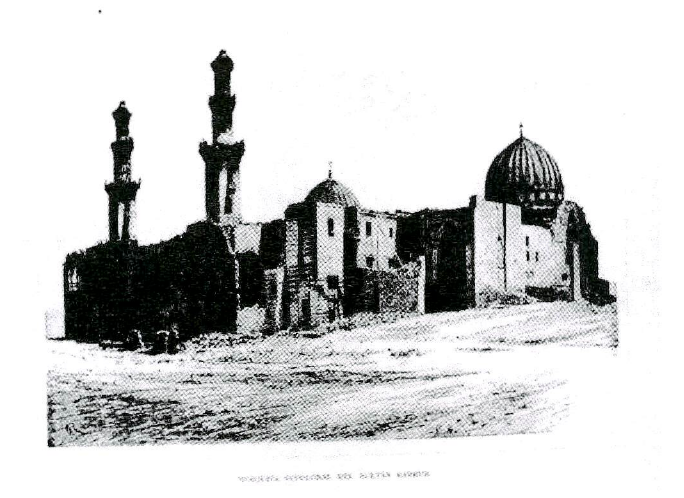
الفسطاط

ولم تكن المدينة قوية ولا مزدهرة فى عصر الاستعمار اليونانى، وهناك دلائل تشير إلى أن مؤسسيها هم الذين هجروها. ولحسن الحظ فإن القوات الرومانية لم يكن لها فى القاهرة سوى قلعة واحدة كانت نقطة تمركز لواحدة من الكتائب الثلاث الموجودة بمصر، لكن المدينة كانت مهجورة. واستولى عمرو قائد الخليفة عمر على القاهرة عام ٦٣٨م، ومن هناك توجة إلى الإسكندرية لاستكمال فتح البلاد. وتحكى المصادر العربية أن الأمير العربى أقام معسكرًا فى الفسطاط وعندما همّ بمغادرة المكان وجد يمامتين عششتا على أحد أركان خيمة. فاعتبر هذا الحدث - عديم الأهمية - كعلامة على حسن الطالع وأمر بعدم المساس بالمعسكر حتى تغادره اليمامتان.

وتوجه عمرو إلى الإسكندرية ليستولى عليها ٦٤١م، وكان بالطبع ينوى إقامة حكومته الجديدة بها غير أن عمر أعطاه أوامر عكس ذلك. كان الخليفة يعتقد أن المدينة البطلمية اجتمعت فيها عناصر الشقاق الكفيلة بتهديد السلام الذى كانت

---

(١) المقصود بالقاهرة هنا هو مكانها الجغرافى. يرجع اسم القاهرة للفاطميين الذين غزو مصر عام ٩٦٩م- المراجع.



مسجد السلطان برقوق بالقرافة

إمبراطوريته بحاجة إليه، كما أنها لا يجب أن تظل عاصمة لموقعها الجغرافي البعيد عن مركز البلاد. حينئذ فكر عمرو في خيمته الخالية في الفسطاط. وعندما عاد لمعسكره القديم قام بتوزيع الأراضي القريبة بين قواده، وبنى عليها عاصمته الجديدة التي أصبحت سريعًا عاصمة فخمة للسلطنة المصرية.

وبعد عدة سنوات، وفي عام ٦٤٤م، جاءت عدة قبائل عربية من اليمن كي تستقر في ربوع النيل. وفي عام ٦٦١م، نادوا بالخلافة الأموية التي استمرت حتى ٧٥٠م، ثم زالت عن مصر باغتيال آخر أفرادها وهو مروان الثاني وأسرته جمعاء. واستطاع أمير واحد فقط من أفراد العائلة الهروب من هذه المجزرة الوحشية إلى إسبانيا وهو عبد الرحمن مؤسس الخلافة المستقلة في قرطبة.

وتوالت أسر السلاطين على القاهرة بسرعة كبيرة. وقدموا نموذجًا محزنا للصراع على السلطة. وحكمها العباسيون منذ ٧٥٠م وحتى ٨٧٠ م، والطولونيون من ٨٧٠م وحتى ٩٠٤م. وبعد ستين عامًا من الصراع والقلاقل جاء الفاطميون الذين بدأ عهدهم بازدهار، فزاد عدد السكان وزادت ثروات البلاد، لكنهم سرعان ما سقطوا عام ١١٧١م، على يد صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية الذي واجه

صداما عنيفا مع أولى الحملات الصليبية القادمة من الغرب. ولم تدم هذه الأسرة كثيرا أيضا. ففى عام ١٢٤٠م، يغتصب الملك الصالح[١] السلطة ويضع المماليك[٢] فوق العرش، والذين حل محلهم المماليك البحرية فى عام ١٢٥٠م. وفى عام ١٣٨٢م، يستولى المماليك الجراكسة البرجية على عرش البلاد. وكان حكمهم عبارة عن سلسلة من الفظائع انتهت على يد الأتراك فى عام ١٥١٧م. وجاء السلطان سليم الأول من القسطنطينية كى يحيى السلطنة الدينية والدنيوية على كل من يدين بالإسلام، ويحول مصر إلى ولاية تركية تخضع لسلطانها الذى لم تتحرر منه حتى اليوم.

جاءت تلك العصور من الحكم وبالاً على البلاد. فنادرا ما ظهر حكام بارزون يحكمون بالعدل ويشجعون الفنون، ويحرصون على سعادة رعاياهم ولا يحولون العرش إلى أداة شريرة للانتقام. ولهذا كثيرا ما اندلعت الثورات فى شوارع القاهرة التى كانت تجدى أحيانا وتسبح فى دمائها أحيانا أخرى، فيهاجر الشعب ويترك الحقول وتقل الثروة حتى تحولت تلك الحقول التى كانت يوما مخزن غلال لأوربا إلى أراضى بور مهجورة.

ازداد الغضب الدينى على أولئك الذين لا يدينون بالإسلام، وأصبحت حياة المساكين من اليهود والمسيحيين مؤلمة، وحكم عليهم بتجرع شتى أنواع الهوان فى صمت وتحمل كل أنواع الإهانات. وأمسوا ضحايا للغضب الشعبى فى أكثر من مناسبة نظرا لاتهامهم بجلب المصائب التى تحل على الشعب بين الحين والآخر.

كانت الكوليرا تسمى قديما الوباء، وانتشرت عادة فى تلك الأماكن على نفس الفترات وهى من ٢٠ إلى ٢٥ سنة. وكانت تتسبب فى وفيات كثيرة بين هؤلاء القوم البؤساء الذين كانوا يعيشون فى ذات التخلف، لكن جهل الناس ربط الوباء بالمسيحيين وكانوا ينتقمون منهم شر انتقام.

---

(١) يقصد السلطان عز الدين أيبك التركمانى الذى اعتلى العرش بالاتفاق مع شجر الدر. وأسس بذلك دولة المماليك (المترجم).

(٢) يقصد المماليك الأوائل وهم عز الدين أيبك وقطز وبيبرس (المترجم).

مسجد السلطان الحاكم

وأظن أنه من الطريف دراسة ذلك العصر، وقد سنحت لى الفرصة لذلك بزيارة أطلال مسجد السلطان الحاكم بالقاهرة. وبالقرب من باب النصر نرى بقايا هذا الأثر الذى جارت عليه يد الزمن التى لا ترحم، وفطرة الشعب السوية وطبعت عليه آثارها التى لا تُمحى. ومن بعيد نرى علامات دالة على المسجد وهما المئذنتان ذواتا الشكل النادر جدًا فى الفن الإسلامى. وتتخذ قاعدتاهما المربعتان شكل الحصون وترتفع من فوقها المئذنتان التى تتوجهما قبتان كبيرتان تزينهما النقوش النباتية والهندسية. وتبدوان من بعيد كأنهما مبخرتان، وما زال أفراد الشعب يعتقدون بأن تلك البنايات كانت تستخدم لتطهير الجو فى أوقات الوباء والطاعون.

وعند الدخول إلى المسجد نرى منظرًا مؤلمًا بسبب الدمار الكامل الذى لحق به، وتحتوى بعض العقود التى ما زالت قائمة على أجزاء من نقوش كوفية عريضة كانت تزدان بها. لكن السقف سقط منذ سنوات كثيرة. وتغطى الضريح المغتصب للسلطان الذى بنى المسجد قبة داخلية. وتعلو الجدران الخارجية مزاغل للدفاع بناها جنود بونابرت لتخليد ذكرى مرورهم بهذا المكان. حتى الأبواب اختفت وراء الحوانيت التى سمح ببنائها حراس المسجد الطامعون من حول الأسوار. وهذا هو كل ما تبقى من آثار واحد من الملوك الذى أثروا فى البلاد بقوة بعد الفتح الإسلامى.

وصل المعز الفاطمى بر مصر عام ٩٦٨م، قادمًا من الشمال الأفريقى، وعندما توجه للشرق زادت قواته بانضمام العصابات الصقلية المسلمة إليه بقيادة جوهر القائد القادم من باليرمو. وانطلق كالسيل الجارف منحدرًا من فوق سلاسل الجبال التونسية ومُسقطًا فى طريقه الحكومات القديمة للبلاد التى يستولى عليها،

ولم يتوقف إلا فى الوادى الشاسع الذى تخصبُه مياه النيل بالقرب من الأهرامات. وهناك أسس- والإيمان يملؤ قلبه- الجامع الأزهر والذى بنيت من حوله مدينة القاهرة الجديدة.

حياة الحاكم

أسس المعز أسرة السلاطين الفاطميين الذين حكموا مصر خلال مائتى عام، وكان الحاكم بأمر الله هو سادس خلفاء المعز. ولد هذا السلطان فى القاهرة عام ٣٧٥هـ - ١٠٠٤م. وأدى موت أبيه عام ١٠١٥م، إلى توليه العرش وهو ابن أحد عشر عامًا، وفتح الجامع الأزهر أبوابه وأخذ زينة الاحتفال بتتويج ذلك الطفل الذى أثر كثيرًا فى مصائر هذا البلد.

بدأ السلطان الجديد دراسته مبكرًا. كان الأزهر مدرسته، والقرآن كتابه الأساسى والمفضل على كل العلوم، والأئمة هم مدرسيه، وكان مثله الأعلى هو الرسول. وملأته العظمة والثروة، ونضج عقله قبل أن يتلذذ بنزوات الشباب البسيطة، وامتلأ نشوة عندما سمع همس تحيات رعيته المتواصل فى أذنه:" لا إله إلا الله، محمد رسول الله والحاكم ولى الله ومبعوثه إلى الأرض كى يصلحها ويهديها". وحوّله المديح الذى استولى على عقله إلى مصلح أخلاقى. لكن المصلح الذى لم يتعد عشرين ربيعًا مولع بالمغامرة وتنقصه الخبرة فلا بد وأن يكون مروعًا. فبدأ أول الأمر بالنساء.

أغراضه مع النساء

كان الحاكم فى بادئ الأمر كأى طاغية تقليدى. والمستبدون عامة الذين ظهروا على مر التاريخ وألهبوا ظهور شعوب الشرق، غالبًا ما تورطوا فى مكائد

عاطفية، وكانوا لعبة فى أيدى المحظيات الطموحات اللواتى يتحكمن فى شئون الحريم، وعندما يضعف سلطانه فإذا لم يوسعهم الجند طعنًا بالخناجر ولم ينتهك الغضب الشعبى حرمات أجسادهم بعد انتزاع أرواحهم بقسوة فإنهم لا بد أن يقعوا فريسة لمكر كمكر دليلة[1]، أو لطموح كطموح كليوباترا، أو لعار مشين مثل ليثيسكا. ولم يهرب غالبًا أى منهم من قدره المحتوم الذى يرمى به عند أقدام من خانتهم، فيبحثون عن راحة لوخز ضمائرهم أو تسلية فى ساعات الهدوء حتى يكظمون صرخات ضمائرهم فى أحضان النساء اللاتى حولهم. لكن الحاكم تصرف بطريقة أخرى، فبدلاً من أن يتركهن يسيطرن عليه، أبغضهن من أعماق روحه، فكان يعتقد أنهن مخلوقات دنسة ومصدر للشر، ووعاء للضياع يتجرع منه الرجال لإشباع غرائزهم الدنيئة. فأراد إبعادهن من المجتمع واقتلاعهن من الحياة وعدم رؤيتهن أو سماعهن، وإقصاءهن دائمًا عن أعين الرجال. ولتحقيق ذلك الغرض اخترع الوسيلة وفرض العقاب فمنع تصنيع أحذية للنساء، وهدد بقطع أرجل النساء اللاتى يخرجن إلى الشارع أو اللاتى يطللن من فوق بيوتهن.

وعندما حبسهن فى عقر ديارهن أخذ يطاردهن متعللا بأتفه الأسباب. فدفع العجائز من النساء للوشاية، فاختلقن البراهين على أفعال ترتكب حتى فى محيط العائلة بأرخص الأسعار. وكان العبيد والخصيان ينطلقون بحثًا عن الضحايا المحددة سلفًا، واللاتى يتم ربطهن من ذراعهن كوعًا بآخر، وبدون محاكمه يتم حملهن إلى النيل لدفنهن فى مياهه.

وكلما زاد جنون السلطان واصل بحمية أفعاله البربرية. وكان ما يلى بعضًا من أفعاله:

---

(١) دليلة، هى بغى سلّمت شمشون للفلسطينيين القدماء بعدما قصّت شعره الذى كان يستمد منه قوته الهرقلية. لاروس (المترجم).

"عندما مر الحاكم بأحد شوارع القاهرة الضيقة سمع أصواتًا تخرج من حمام عمومى، ولكون الوضوء عملاً مقدسًا بين المسلمين سارع بالسؤال عن سبب هذا السفه، وعندما عرف أن هناك بعض السيدات داخل المبنى أمر بسد كل الأبواب والشبابيك بالأحجار حتى يموت جوعًا كل من كان بالداخل".

ولا تُسَبّ امرأة أبدًا إلا وتحاول أن تذهب غيظها بالانتقام، وكان انتقام سيدات القاهرة من السلطان عجيبًا. فكانت النساء يعرفن أن السلطان يمر بحى مصر القديمة كل يوم ليلاً متجها إلى قصره فوضعن تمثالاً من القش على ناصية أحد الشوارع وألبسنه ملابس امرأة، ووضعن فى يده خطابًا للحاكم. وعندما رآه السلطان فى ظلمات أول الليل غضب لذلك التعدى السافر على القوانين أمام عينيه، فأمر بضرب تلك المرأة بالعصا فى الحال. فذهب العبيد لتنفيذ أوامره وعندما تفكك التمثال أشلاءً مضحكة أخذ أحد العبيد الخطاب وسلمه للسلطان.

كان الخطاب منشور قذف ضد "ست الملك" أخت الحاكم، وبرغم كونها صبية بكرًا فإنها ارتبطت بكل أنواع المغامرات العاطفية التى خبرتها جيدًا شهواتها الحسية. ولم يستطع السلطان فرض الأخلاقيات التى كان يود فرضها على الشعب على أسرته هو، إذ إن ست الملك المدنسة كانت تشبع أشواق روحها الملتهبة بتسليم جسدها لكل النزوات مع عبيدها النوبيين، ولم يقف انتقام الحاكم عند أحد. فأعماه الغيظ وأمر جنوده من الأتراك والمغاربة وعبيد القلعة بالدخول إلى مصر[1]، وذبح سكانها وحرق منازلهم. وأراد سكان الحى المسكين الاحتماء خلف أكوام الجثث لكنهم سرعان ما فروا منها لأن النار التهمتها وحولت الشوارع إلى أكوام نتنة من الموتى. واستمرت المجزرة المروعة ثلاثة أيام، وكان معظم من سقط بها من الأبرياء. وعندما تدخلت عدالة الرب أنهت أيام الحزن الشديدة. وعبثًا حاول شيوخ المساجد مرتدين لعباءاتهم وحاملين فى أيديهم المصاحف يمشون على ضوء قناديل

---

(١) يقصد الفسطاط التى اشتهرت فى كتب التاريخ باسم مصر (المترجم).

المساجد فى مسيرة مهيبة إلى قصر السلطان طالبين كلمة لم ينالوها وهى الرحمة لآخر سكان الحى الذين ما زالوا يدافعون عن حياتهم. وأخيرًا احمرّ وجه الجنود الأتراك خجلاً وأعلنوا انضمامهم للضحايا، وأنه إذا لم تنته هذه المذبحة الدامية فى الحال فإنهم سينهونها بحريق شامل للقاهرة. عندها فقط خاف الحاكم وأمر بسحب عبيده من أطلال مصر التى يتصاعد منها الدخان. وأعلن بخفة أنه لم يدر شيئًا عما حدث. وعلى مر ثلاثة أيام كان الحى يحترق والضحايا تموت على مرمى حجر من قصره.

وإذا كان الحاكم يظهر أنه حامى الأخلاق العامة، الغيور على طريقته الخاصة فى فهمها فلنا أن نتخيل أفكاره عن أولئك الكفار الذين لا يقبلون هداية ولا يتبعون شعائر الدين الإسلامى. فطاردهم بشراسة. لقد أمضى السلطان أيام الصبا فى المسجد بين معلمى الشريعة الإسلامية يتشرَّب بأفكار الرسول مُحَمّد التى دعا إليها فى الأرض ورضيت بها شعوبها. وفى الشريعة الإسلامية- كما فى شرائع أخرى كثيرة - من ليس مع الله فهو ضده. وأمّا من لا يتبعونها فليس لهم نجاة فى الآخرة ولا سكينة فى الدنيا. إن الكفار كائنات متمردة على النور، ملاعين يغلقون قلوبهم بفسق أرواحهم الهائل عن كل الأحاسيس وعقولهم عن كل الأفكار. وبذلك فإن أى عنف يوجه ضدهم يكون بالضرورة مبررًا.

أفكاره الدينية

اتبع الحاكم مع مرور الزمن سياستين متناقضتين بالنسبة لدينه هو. غير أنه عامل غير المؤمنين دائما كأنهم أعداء، وأعداء لا يمكن التصالح معهم. لم يرَ فيهم مذنبين يستحقون النار ولكن مجرمين وأهلاً لكل عقاب يسرى عليهم. إن روحه الذليلة اللئيمة لم تعرف أبد النسيان ولا الرحمة. يا لهؤلاء الكفار، ألم يروا طريق

حياتهم منيرًا بتعاليم الرسول؟ ألم يغسلوا دنس أجسادهم بمياه الإيمان؟ ألا يسجدون في المساجد عندما يسمعون اسم اللـــه؟ اذهبوا إلى مصر اليوم وستجدونهم. فرجال بلاد الشرق هذه صامدون كالأفكار، وتمر النجوم في أفلاكها الـشاسعة، والقـــرون تمر باستمرار في التاريخ، لكن السلالات لا تتغيــر ولا تتحـــول ولا العـــادات ولا الوجود المادى ولا المظاهر الأخلاقية لشعوبه.

كانت في عصر الحاكم عقيدتان ضاربتان بجذورهما في الأرض كالـشجرة العتيقة التي انقسم جذعها إلى قسمين، واتجهت فروع كل جذع في اتجاه مختلـــف. فقد عاشت اليهودية والمسيحية في مصر كأختين متخاصمتين، لكنهما لـــم تغـــادرا بيتهما الأول الذى صار أطلالاً ورأيتا الغريب يستوطن في الـــديار بـــصبر وأنـــاة وتحول إلى مالك للخيرات. وكان يتقبل خدماتهما فقـــط لأن ذلـــك كـــان يناســـب مصالحه. وحتى هذه الحالة من التعايش لم تستمر طويلاً. فلم يستغن الحـــاكم عـــن أولئك القوم غير المؤمنين الذين كانت الحكومة بحاجة لخـــدماتهم، فكـــان الـــبعض يساعد بذكائه في جمع الضرائب، والبعض الآخر يمثل بعمله وجهده المادة الخـــام المدربة للدولة. ولم يكن من المناسب قتلهم ولا إجبارهم على مغادرة البلاد، لذا فقد قرر السلطان تحويل حياتهم إلى ذل دائم.

بدع إسلامية

ونادى المنادى في كل الحارات بأمر ملكي ينص على ألا يخرج أى مسيحى من بيته إلا وهو يحمل في رقبته صليبًا من الخشب يزن خمسة أرطال ويكتب عليه بأحرف من رصاص اسم الحاكم. وأمر اليهود بتعليق رأس كبش أو جرس ثقيـــل. وأظهرت أوامر أخرى أصدرها الحاكم ضد أتباع الديانتين الحقـــد الـــذى يـــضمره الحاكم عليهم وعزمه على إخضاعهم لكل أنواع الإهانة التي توافق هواه. فمـــنعهم

من استئجار الخيل للتنقل من مكان لآخر، وأجبر من امتلــك مــنهم خــيلاً علــى استخدام سروج سوداء بدون زينة وركاب من الخشب. ومنع أصحاب المراكب من نقل المسيحيين من ضفة إلى أخرى، وحرم عليهم المشى بجوار المساجد حتــى لا يدنسونها بظلالهم. وأجبرهم على ارتداء أزياء خاصة كانت تجلب الخــزى لمــن يرتديها وأمسى جليًا أن هذا الطاغية صغير السن عديم العقل كان يتوق إلى الــدم. وإذا كان فى سنوات صباه الأولى وسط الأجواء الوردية التى كانت تحيط بــه لــم تتفتح لديه المشاعر الطيبة فى القلب الإنسانى كبراعم رقيقة خصَّبها دفء الفطــرة الكريمة، وإذا لم يبدأ فى هذه اللحظات كفاحه ضد الشر بل سيطر الشر على نفسه، حينئذ ينصبُّ غضب الرب وحنق جهنم على الإنسان الذى تحول إلى وحــش بــلا إحساس ولا رحمة.

لم يكن السلطان متسامحًا مع غير المؤمنين فى المرحلة الثانية، مما يمكن أن نسميه غروره الدينى. فساد الاضطهاد ربوع المملكة، من جبال ســوريا الــوعرة حتى شلالات النيل وسهول ليبيا. ولم تسجل صفحات التاريخ مثل هذا الــدمار ولا تلك القسوة التى شهدتها مصر فى ذلك العصر. فقد هدمت أكثر من ثلاثــين ألــف كنيسة وصومعة ودير مسيحى وسويت بالأرض. كما هــدمت المعابــد اليهوديــة. وجرى الدم البشرى فى شوارع المدن، وزادت الضحايا من القتلى لدرجة أن أحــدًا لم يهتم بعددهم.

وغنى عن القول، إن أتباع كلتا الديانتين تفرقا كأسراب النحل تحملها الريح. وترك ضعاف الإيمان دينهم وترددوا على المساجد، ولاذ بالفرار من تنبأ بــالأمر. واستطاع السلطان لبعض الوقت أن يتأمل برضا نتائج أعماله واقتنع أنه فى داخــل حدود إمبراطوريته لا يوجد إله إلا اللــه ولا سيد إلا الحاكم.

لقد وصل به الحد إلى التعالى على إله المسلمين والثورة على تعاليمه. فلم يستطع الطاغية المصرى التكيف مع فكرة العيش خاضعا لسلطان خلفاء بغداد الروحى وهم من سلالة الرسول مُحَمّد، فلماذا لا تزين هالة القدسية وجهه هو أيضًا؟ لماذا لا يحل الرب فى جسده، ولا تمتلئ روحه بالأبدية؟ فتطلع إلى الخلود، ولكن ليس كهؤلاء الملوك المنغوليين البائسين الذين يتلاشون أمام شبح الموت، والذى كانوا يطلبون الأكاسير من علمائهم الكيميائيين والأدوية من رفات قديسيهم كى يبلغوا الخُلد فى الأرض، إنما أراد الحاكم أن يُعبَد، وأن يكون شخصه مركزًا لعبادة دينية. كانت أفكارة مكرسة فى النصف الثانى من حكمه على بلوغ القداسة والصعود إلى السماء لمَّا رأى جموع المؤمنين يجثون ساجدين وسحب البخور تتصاعد حتى السماء تختلط بالدعوات.

إنه لطاغية صعد على ضعف شعبه وعلى مرضاة أفراد حاشيته. وغنى عن القول إن العناصر الأساسية لدينه الجديد الذى يفرضه على الشعب كان لا بد منها. ولم يعدم المتملقين. وكان أحد هؤلاء العلماء الذين كانوا قديمًا كما هم الآن يخضعون مبادئهم وأفكارهم للسلطان والثروة، أحد هؤلاء المرتزقة بالفكر الذين يتاجرون بنظرياتهم، كان شيخ الإسلام "الدرازى" الذى كتب كتابًا يعرض فيه نظريات فلسفية لم تأتِ بجديد يذكر، لكنها تلائم احتياجات مصر وكما كان يفهمها ملكهم. فقال بأن الأرواح لا تموت بموت الجسد ولن تذهب إلى عالم أفضل تحاسب فيه ولكنها تحتاج سلسلة من أعمال التطوير المستمر فى الأرض كى تصل إلى درجة كافية من الإتقان تؤهلها للصعود للسماء. وكان الحاكم نفسه عند الدرازى مثلاً حيًا لتلك النظرية، لأن جسده كان يحوى روح علىّ وهو من سلالة مُحَمّد ومؤسس الخلافة فى بغداد[1]. لكن الشعب لم يتبع طاغيته. فعندما صعد الفيلسوف إلى المسجد ونيته مبيَّتة أن يثنى على السلطان بصفته مصطفًى من الرب على

---

(١) يقصد عليًا بن أبى طالب، وهو ليس من سلالة سيدنا محمد، ولكنه من بنى عمومته (المترجم).

الأرض ووريثًا مباشرًا للنبى، فانتفضت جموع المصلين - التى كانت تستمع إليه بخشوع أول الأمر - وكلهم غضب يقولون إن الكفر بظلاله النجسة كان يدنس آيات القرآن المكتوبة على حوائط جامع الأزهر. إنها لثورة غريبة وطموح لشعب من العبيد كان ينتظر موت مليكه كى يؤلهه، ولكنه لم يرد منحه أوج التقديس فى حياته.

وفكر الحاكم فى أن ما لم يستطع تحقيقه فى عاصمة البلاد يمكنه أن يحققه فى الولايات البعيدة من مملكته، ولذا بعث بالدرازى نفسه إلى أراضى سوريا ليبشّر بالأفكار الجديدة. وهناك أقام أول مسجد له فى تيم الله. وتوج عمله بالنجاح فنال رضاء السلطان وتعاطف الرعية، وولد الدين الذى أسس على نظرية تناسخ الأرواح من رحم المبادئ المادية التى اقتصرت على مكافأة المؤمنين به بخيرات مادية ومعاقبة العصاة بسلب ثرواتهم بل وأرواحهم. وما زال المسلمون الدروز فى وديان لبنان يدينون بهذه العقيدة.

واستراح الحاكم للنظريات الجديدة، وأخذ دوره كنفحة الرب مأخذ الجد. فهجر الصلاة فى المسجد، ومنع إرسال كسوة الكعبة المشرفة التى يحملها الحجاج كل عام من القاهرة إلى مكة، واهتم بأسرار تحضير الأرواح التى بدت له محاكاة للقداسة لاعتمادها على أفكار فائقة للطبيعة. فوصل للاعتقاد بأن عمله لا يخفى عليه أسرار ولا حتى أعمق أسرار الضمير الإنسانى وأنه يستقرئ أحداث المستقبل وأنه يخترق أفكار العقل وأنه يفسر أوامر الله فى حركة النجوم. وهكذا وصل أن يكون كأمثاله على مر التاريخ، مصروعًا يستغرق فى لحظات الذهول التى ظن أنه يتصل فيها بالرب، وأن روحه تنطلق من جسده لتصعد إلى السماوات العلى.

ولما لم يستطع الدرازى فرض عقيدته فى القاهرة من خلال المساجد بحث عن معلم يدرسها فى المدارس، ولذلك أسس فى المسجد الأحمر ما أطلق عليه بكل تواضع "قصر العلوم". وكان المعلم هو حمزة. وحمزة هذا مغامر فارسى وصل

إلى العاصمة بغرض فتح الطريق لنفسه إلى المجد والثروة. وكان بمثابة ما نسميه اليوم بتابع النظريات الحديثة التحررية، أو قل إنه الرجل الذى يبحث عن صيغة ترضى الجميع والتى تقبل العادات بعيوبها، والذى بدلاً من أن يعلو صوته دفاعًا عن الخير والأخلاق والعدالة يتورط فى اتفاقات غير شريفة، تؤدى بالشعوب فى النهاية إلى انحطاط هويتها وإلى العار والجهل. فكان حمزة يرى ملكًا بلا بصيرة، وبلدًا بلا أخلاق ودينًا بلا عقيدة، فقبل بهذه المقدمات لكى يصل إلى كل النتائج التى يمكن أن تؤدى بهذا المجتمع إلى الانحطاط.

فبدأ بإلغاء العلاقة بين الحاكم والرب ككيانين مختلفين، وأكد على وجوده فى الأرض وفى السماء. ونسب إليه بذلك كل أمجاد الألوهية، لكن فرائضه لم تكن الصوم والصلاة والحج كما تأمر الشريعة الإسلامية، لكنها كانت تنحصر فى طاعته وإرضائه فى هذه الدنيا حتى ينعم بالجزاء فى الحياة الآخرة. وسيرًا على مذهبه الوفاقى أوعز للمسيحيين واليهود بأن الحاكم هو المسيح الذى جاء بالنسبة للبعض والمنتظر بالنسبة للبعض الآخر. وبهذا التوحيد بين العقائد فى أسسها، وحّد بين طوائف الشعب وبذلك أنهى الصراعات والمشاحنات الدينية. وساد السلام وتحول تقديس الحاكم إلى ضمان لكل أنواع الخير بالنسبة للرعية.

أما فيما يخص الأخلاق، فكان حمزة مرنًا كل المرونة، فبالنسبة له لا يوجد إلا ذنب واحد فى القانون، وبما أن نظرياته تم الترويج لها بين طوائف الشعب الأكثر شهوانية فى الأرض، فقد أحل الزواج بين الآباء والأبناء والإخوة والأخوات طالما أن الوفاق العام سيقضى على كل مقتضيات الغش والعنف. وعم السرور. وقام الملك بالإنفاق فى قصره على الواجبات المقدسة. وتقاضى المعلم حمزة الكثير من الأفضال الملكية. وحتى اليهود والمسحيين المضطهدين لم يعد هناك ما ينغص عليهم لما امتثلوا للنظريات المزعومة للمبدع الشهير. وتنبأ القليل فقط بأن هذا الهدوء كان ظاهريًا، أما العاصفة ضد أعمال الحاكم الجنونية فقط فكانت تتشكل فى عقل امرأة، وكان انفجار العواصف لا بد وأن يكون مروّعًا.

فكما أن المرأة تنتشى بالحب حتى تنجز البطولات فإن الكره ينحدر بها إلى حد ارتكاب أى جريمة. تلك المرأة التى لا تملك روحها إلا كنز الحنان، والتى تسيطر على الرجال بسلاح الضعف، والتى تعيش لتُحِب وتُحَب وتحتفظ فى جميع الأحوال بعزّتها بنفسها، ولا تحب أن تُحقَر حتى ولو كانت ذليلة، وهى لا تستسلم فى انتقامها ولا تتخلص من كرهها لذلك الأحمق الذى قذفها بإهانة يومًا.

وقد رأينا كيف أن الحاكم عاقب حى مصر دون أن يشبع الدم المراق روح الانتقام عنده. فقد أحزن السلطان تهاوى القواعد التى كان لا بد وأن تدعم حكمه، فكانت تصرفات أخته، أحجار الفضيحة التى يقذفون بها فى وجهه، فقرر معاقبة ست الملك بأن عاملها كأحقر بغىٍّ يمكن أن تراها عيناه.

وكان أول قرار اتخذه هو الحكم عليها بالإعدام، وهو قرار ناتج عن عدم التروّى الذى ميز كل قراراته. لكن رجال البلاط تدخلوا لإنقاذها قائلين إن ست الملك يمكن أن تكون ضحية لشائعات مغرضة أطلقها أعداء الملك، وجثوا عند أقدام الحاكم طالبين رحمته لشقيقته التى دمها من دمه وروحها من روحه فصار ذكرها يضارع ذكر أشرف وأطهر نساء المملكة.

وألغى السلطان مرسومه الأول استجابة لتوسلات رجال البلاط ورغبة منه فى ألا يثير فضيحة فى قصره. وفكر أيضًا فى إمكانية أن تكون ست الملك بريئة، وامتلأ رغبة فى معرفة الحقيقة، فأراد أن يخضعها لاختبار من قِبَل جماعة من القابلات. حينئذٍ أطلقت تلك المرأة العنان لحقدها، وهى التى لم تخفض رأسها ولم تنطق بكلمة حين سمعت بقرار الملك الأول بإعدامها، فأعلنت أنها ستقضى على نفسها إذا ما هتك أحدٌ شرفها.

فتراجع الحاكم، وكان هذا الضعف الذى نادرًا ما أظهره طوال حياته هو السبب المباشر فى هلاكه، لأن أخته التى ربما نسيت حكمه عليها بالإعدام فى لحظة غضب، لم تنسَ له قراره فى ساعة هدوء الذى ألصق بها العار.

وفاة الحاكم

وفى جنح الليل المظلم أعمتها الرغبة فى الانتقام عند المرأة وخاصة فى نساء الشرق، وذهبت ست الملك لتتحالف مع أحد أعداء السلطان الشخصيين والذى كان يتمتع بنفوذ كبير بين القوم، والذى كانت متأكدة من أنه سيأخذ رغباتها مأخذ الجد. وكان ذلك الطموح يدعى ابن دواس. وسريعًا ما حيكت المؤامرة، واتفقا على إعلان أحد أبناء الحاكم الصغار سلطانًا جديدًا للبلاد، وابن دواس وصيًا عليه ووليًا، وكبير قواد المملكة، وأن تعيش ست الملك فى غرامها بسلام، دون أن تخضع لذلك الاختيار الفظيع لعذريتها الذى كان يريده أخوها، فهو اختيار مشين خطير. وفى عام ١٠٤٠م، سنحت للمتآمرين فرصة مواتية للتخلص من السلطان حيث لحق به رجلان فى حديقة قصره وأوسعا جسده طعنًا بالخناجر.

وانهال على قبره وابل من السباب من المرتزقة الذين كانوا من قبل هم أكثر المنافقين له، وتكررت مرة أخرى مهزلة الهوى المحزنة والجحود البشرى كما سوف تتكرر حتى قيام الساعة. وكتب الأشمونى نعى الملك كما يلى:

> **كان فظيع المنظر مخيفًا كالأسد، بعينيه الجاحظتين الزرقاوين وصوته القوى الرنان يثير الرعب حتى إن أحدًا لم يكن يجرؤ على النظر إليه أو الاستماع إليه. ولقد اجتمعت فى شخصه الخفة والقسوة مع الطموح، والزندقة مع الاعتقاد فى الخرافات، حتى إنه أقام لكوكب زحل ديانة خاصة، وكان يتبادل القول مع الشيطان".**

كلا، فلم يقبل الشعب بهذه الأحكام، كما يحدث دائمًا. فالشعب لـه حـس أفضل من المنافقين ورجال البلاط الخونة. فبعد موت الطاغية نسى الشعب الشرور التى فعلها خاصة تلك التى كانت فى مرحلة مبكرة من حياته، بل واعتقـد سُـمُو هذيان ذلك الرجل الذى كافح فى الأرض كى يقتحم ملكوت السماء.

دروز لبنان

ومرت قرون تسعة على موت السلطان دون أن يزول ذكر أعماله أو ديانته. فإذا سافرتم مرة إلى أقاليم الشام البهية الحارة، فتوقفوا فى جبـال بيـروت، وفـى سهول لبنان وفى مدن وادى الطين وصور وصيدا خاصة، وبعد تأمـل الـذكريات الإنجيلية التى تحفظها تلك الأماكن وتثيرها فى أنفس المسيحيين لا تفـوتكم زيـارة المساجد الدرزية حيث يُقدس الحاكم هناك كإله وحمزة كنبى.

غير أن مسجده بالقاهرة انتهت به الحال إلى التهدم، دون مصلين يتـرددون عليه ولا شعائر تقام فى جنباته.

وهكذا تحقق حلم الحياة الذهبى للسلطان الشهير، وهو أن يبقى بـذكره فـى التاريخ وأن يبقى جثمانه واسمه فى المسجد، وروحه فى السماء. وهذا هو كل مـا يحتاجه بشر كى يضمن لنفسه الخلود.

الفصل الثانى عشر

غزو الأتراك لمصر

سار الفتح التركى لمصر عام ١٥١٧م، على نهج مملكة الفراعنة الأقدمين فاعتبرت البلاد محافظة أو ولاية تابعة للقسطنطينية[1]. أراد سليم الأول سلطان تركيا حينئذٍ إضفاء الشريعة على حقه في السيطرة الروحية على كل المسلمين، ذلك الحق الذى جرت العادة على منحه للخلفاء الأقدمين، وجعل المتوكل- وهو سليل العباسيين الأوائل، وكان يعيش فى الظل بمدينة القاهرة- يتنازل له عن هيمنته الصورية على كل المسلمين والسُّنة منهم خاصة. وبذلك أطلق السلاطين الأتراك لقب خليفة على أنفسهم وهو لقب القواد الدينيين والعلمانيين للمسلمين جميعًا.

لكن بعض الطوائف رفضت الاعتراف بهم كالشيعة الذين لا يقبلون القيادة الدينية إلا من سلالة علىّ. كما يعتبر السنة سلاطين المماليك خلفاء دنيويين فقط لاعتقادهم أن سلالة القرشيين وحدها- والتى تنتمى إليهما أسرة الرسول- يستطيعون أن يصلوا إلى مرتبة الإمام أو الزعيم الروحى، وهو بالنسبة لهم شريف مكة.

غير أن سلطان تركيا لم يتأكد فى مصر بقوة بسبب حالة الفوضى التى أثارها البكوات المماليك أو الأمراء الذين حكموا المديريات الأربع والعشرين. فقد كان هؤلاء حكامًا شبه مستقلين، فكانوا يدفعون فقط ضريبة سنوية للباشا التركى الذى لم يعترفوا بسلطته قط. وأعلن أحد هؤلاء الأعيان نفسه سلطانًا على مصر عام ١٧٧١، وهو "*على بك*" الذى استغل حالة الاضطراب وسوء الحكم التركى بسبب حرب تركيا مع روسيا واستولى على الشام والجزيرة العربية. ولكن صهره

(١) يقصد الكاتب النهج الذى سار عليه المصريون فى ضم البلاد الأخرى، واعتبارها ولايات تابعة لنفوذ طيبة عاصمة مصر القديمة فى عصر الدولة الحديثة (المترجم).

"محمد بك أبو الدهب" اغتاله وخلفه فى حكم البلاد، ولكن بموت قاتل صهره هـذا ثار اثنان من البكوات وهما مراد بك وإبراهيم بك وأعلنا استقلالهما.

وعندما بعثت الجمهورية الفرنسية جيشًا بقيادة جنرالها "بونابرت" كانت الفوضى تعم ربوع البلاد المصرية تحت حكم المماليك. وفى أولى المعارك هـزم الفرنسيون مراد بك، وحتى بعد أن حارب الإنجليزُ الفرنسيين وأُجبرت الجيوش الجمهورية- بسبب الصراعات الأوربية- على مغادرة مصر ظلت دولة المماليك تصارع الموت. وتلقت تلك الدولة الضربة القاضية من "محمد على" الذى لم ترضَ قوتُه الوليدة بالمؤامرات المستمرة لأولئك المماليك الأرستقراط المضطربين. فطاردهم عام ١٨١١م، فى ربوع البلاد واغتالهم فى القاهرة واستأصل شأفتهم منها.

توطد حكم أسرة محمد على فى مصر، واعترف الباب العالى العثمانى به بشرط امتثال الولاة أو الخديوية لهيمنة السلطان ودفع ضريبة سنوية محددة. وبهذا نالت مصر استقلالها. أما الولاة الذين تولوا حكم البلاد منذ ١٨٠٥م، وحتى الآن فهم كالتالى:

- محمد على ١٨٠٥-١٨٤٨م.
- عباس باشا بن طوسون باشا وحفيد محمد على ١٨٤٨- ١٨٥٤م.
- سعيد باشا بن محمد على ١٨٥٤- ١٨٦٣م.
- إسماعيل باشا بن إبراهيم وحفيد محمد على ١٨٦٣- ١٨٧٩م.
- توفيق باشا بن اسماعيل منذ ١٨٧٩ م وحتى الآن.

تعد القاهرة مقرًا للبلاط الملكى عامة رغم امتلاك الخديو قصورًا فى كل مدن المملكة الرئيسية. ويحكى أن إسماعيل وحده أمر ببناء أكثر من ستين قصرًا

تم تأثيثها ببذخ، وفيما عدا اثنين أو ثلاثة صارت مهجورة جميعًا ومهدمة. ويُرجِع البعض هذا الهوس بالبناء للوالى السابق إلى اعتقاد المسلمين المتأصل بأن الفرد الذى يأمر ببناء البيت الذى سيستقر فيه للأبد يموت فور انتهائه من البناء. لهذا السبب كان اسماعيل يشرع فى بناء قصر يسميه المفضل لكونه آخر قصر يبنيه، ولكن الأكثر منطقية من ذلك هو القول بأنه كان يهوى الترف، وأنه كان يستمتع بإنفاق المال ولم يكن يهمه كيف ولماذا ينفقه.

الخديو توفيق

وبموجب مهام وظيفتى الرسمية قمت بزيارة الخديو توفيق مرارًا، وما زلت أذكر المشاعر التى ملأت نفسى عندما دخلت قصر عابدين لأول مرة. فقد كانت مخيلتى تزخر بالأوصاف التى قرأتها فى قصائد الشرق، وشعرت بالقلق والعصبية عندما تخطيت أعتاب القصر. ولكن خيبة أملى كانت كبيرة، فقد حيّانى الحراس عند البوابة على الطريقة الأوربية، وصعدت السلالم الرخامية الواسعة المفروشة بالسجاد الإنجليزى والمؤدية للحجرات الملكية التى وجدتها مفروشة على الطريقة الأوربية الحديثة؛ فالكراسى من باريس والفرش فرنسى والمصابيح تعمل بالغاز. كان كل ما هناك مستوردًا، بدءًا من الكراسى ذات الساتان الأصفر حتى زى الوصفاء الأحمر والنجف المصنوع من كريستال فينسيا والساعات السويسرية ذات الحروف اللاتينية. وبحثت بعينى دون جدوى فى هذا القصر عن العادات والتقاليد وروح الشعب الذى يحكمونه فلم أجد شيئًا حتى عندما فتحت أبواب القاعة الملكية أعلن الحاجب عن قدومى باللغة الفرنسية.

وليس عندى الكثير مما أقوله عن الخديو الحالى. فهو قصير القامة ممتلئ ذو لحية كثيفة ويبلغ حوالى خمسة وثلاثين عامًا. ويعتقد الجميع أنه رجل طيب، وربما كان كذلك بالفعل، إذا كانوا يقصدون بالطيبة عدم القدرة على اتخاذ قرار.

فالمصاعب التى تواجه هذا البلد تتطلب شخصية نشيطة على رأس الحكومة، وهو ما يفتقر إليه توفيق بالتأكيد. فلم يكن يعنيه أمر الدولة كثيرًا وعندما تعرض على جلالته مشكلة عادة ما يقول:



"لترى حضرتكم نوبار وبارينج".



الخديو توفيق

ونوبار هذا هو رئيس الحكومة، وبارينج هو الوزير الإنجليزى.

وليس توفيق ذا أبهة أو بذخ. وهنا يمكن القول إنه كان الوجه الآخر للعملة بالنسبة لوالده. فهو لا يقيم حفلات استقبال فى قصره عدا تلك الرسمية منها وفى أضيق الحدود. ويقيم حفل استقبال واحد فقط فى السنة، وهو فى عيد رأس السنة الهجرية. وعندما لا يستطيع التهرب من استضافة مسئول أوربى أثناء زيارته لمصر فإنه يدعوه على مائدة مع صحبة صغيرة من ستة أو ثمانية أشخاص فقط. وقد ألغى كل حفلات البلاط مفضلاً الخلود إلى حريم القصر فى وقت مبكر والجلوس معهن. ويقال إنه مولع بأكل الأرز العربى المطبوخ.



الأميرة أمينة

الأميرة أمينة هانم

أما الأميرة الخديوية أمينة هانم؛ فهى آية فى الجمال واللطف. ويجب أن أعترف أنى أتحدث عما سمعته فقط. فقد زرتها مرات كثيرة رغم أنى لم أرها ولا مرة. فالجناح الخاص بها فى قصر عابدين مؤثث على الطريقة الأوربية. وتحكمه الأميرة منفردة، فحتى الآن استطاعت الهانم أن تحتفظ بحب زوجها وإخلاصه. ولهما ولدان يدرسان فى سويسرا. وليس لخدم القصر فى مصر أهمية تذكر، فهم عبارة عن موظف واحد للتشريفات وثلاثة أو أربعة موظفين وسكرتير. وفيما يخص الإتيكيت فهم يودون تقليد البلاط الفرنسى فى عصره الإمبراطورى فى كثير من الأحيان.

وللخديو مجلس من الوزراء يتكون من الرئيس الذى يشغل منصبى وزير الدولة ووزير للحربية وآخر للمالية وثالث للداخلية وآخر للأشغال العامة. وراتب كل واحد منهم اثنا عشر ألف شلن فى العام، وليس لهم من عمل عادة إلا سؤال الوزير الإنجليزى عن القرار الواجب اتخاذه فى أى موضوع يعرض عليهم. وكما نرى فإن المنصب لا يتطلب قدرة فائقة للقيام به كما يجب.

ولا يظن أحدكم أنى أبالغ. فما زلت أذكر أول زيارة لى لرئيس الحكومة المصرية فى عام ١٨٨٤. وكنت حديث العهد بهذا البلد، ولم أكن أعرف شخصياته المهمة، فذهبت إلى رئاسة المجلس وتركت للخدم مهمة اصطحابى من صالة لأخرى وتبعتهم متأهبًا لمقابلة شخص مجهول فى بيت لا أعرفه. ودلفت أخيرًا إلى مكتب للأعمال، ورأيت رأسًا محنيًا تقرأ برقية تلغرافية من خلف مائدة مليئة بالأوراق. فاقتربت كى أقول تعبيرات المجاملة المعتادة فى هذه المناسبات وعندها رأيت الزى الإنجليزى الذى يلبسه ذلك الشخص، لقد كان رئيس كتيبة الحرس الملكى. وعندما استدرت وجدت الباشا يجلس على أريكة، وقدم لى بابتسامة مهذبة وعذبة سيجارًا تركيًا.

ويوجد بمصر الآن ثلاثة رؤساء هم نوبار وشريف ورياض. ولكل واحد منهم ولد، وهم شباب فى العشرين من العمر أو الخامسة والعشرين، وهم يشغلون مناصب كبيرة فى الوزارات، وسيصلون بدون شك إلى أعلى المناصب إذا ما استمر الوضع الحالى للبلاد بعضًا من الوقت. وثمة اتفاق ضمنى بين الرؤساء الثلاثة لحماية أبنائهم. فإذا اعتلى نوبار الكرسى فإنه يتخذ ابن شريف سكرتيرًا له، وابن صاحبهم الثالث رئيسًا للقلم. وبهذا يكون ثلاثتهم راضين، فمرتبات هذه المناصب لا تخرج عن نطاق الأسر الثلاث، وإذا ما همس الناس فيما بينهم فإن الرؤساء يثورون وينتصرون لأنفسهم، هذا هو ما يهمهم أولاً وآخرًا.

عيد الأضحى

وقبل أن أترك الحديث عن الحكومة لا بد أن أصف الاحتفال الرسمى الشهير، وهو حفل دينى أيضا ويدعى "قربان بايرام [١]"، والذى يمكن أن نعتبره كعيد للفِصح الإسلامى. فالدين الإسلامى يحتوى على معتقدات كثيرة من الديانة اليهودية وأحدها هو التضحية "بإسحاق[٢]" على يد أبيه إبراهيم "*خليل الله*" كما يسميه العرب والتى تتفق ذكراها وذلك العيد. وما يميز ذلك العيد هو التضحية بكبش فى كل البيوت الميسورة الحال، وإذا كانت الأم ما زالت تعيش فى كنف الأسرة فإن الضحية تخصص لمغفرة ذنوبها أو ذنوب أحد أبناء الأسرة.

ولا تقتصر الأفراح على الموقد ولا الهيكل[٣]. فتأتى الأعياد الرسمية التى يبدأها الخديو بعد الأعياد الدينية، فتفتح أبواب قصره على مصراعيها حتى تستقبل أعيان وموظفى الدولة الذين يأتون كى يجهروا بآيات الإخلاص التى هى هنا - كما فى كل مكان - لا تخرج من القلب فى أحيان كثيرة، ولا تصمد أمام أى مكروه.

قصر عابدين

وقد رأيت منذ عامين بقصر عابدين هذه الاحتفالات. فاجتمع منذ ساعات الصباح الأولى فى ساحته الواسعة طابور من سلاح المشاه المصرى حاملين الأعلام يعزفون الموسيقى. ووقفت كتيبة من الانكشارية على خيولها لتمنع وصول

---

(١) مصطلح تركى يقصد به عيد الأضحى المبارك. المترجم.

(٢) يعتقد اليهود والمسيحيون أن إبراهيم عليه السلام كان ينوى التضحية بولده إسحاق، بينما يعتقد المسلمون أنه كان على وشك التضحية بابنه إسماعيل. المترجم.

(٣) يقصد أن الأفراح لا تقتصر على الطعام والصلاة. المترجم.

موجات البشر إلى سلالم القصر الملكى. وكان دوىّ المدافع يُسمع فى نفس الوقت من أبراج قلعة صلاح الدين ليعلِن الحشود المتلهفة بالاتجاه إلى القصر لحضور عرض السلطات المختلفة والجماعات التى اتجهت لتحية الخديو.

وكان الاستقبال حافلاً فى صالونات القصر. وفى الساعة الثامنة صباحًا ظهر الخدم بأزيائهم المطرزة بالذهب وصدورها مغطاة بأشكال متقاطعة، والعلماء بعمائمهم الكبيرة الخضراء، وملابسهم الفضفاضة المسدولة، والشيوخ بعباءاتهم البيضاء، وشيوخ القبائل البدوية طويلو القامة أقوياء البنيان، ذوو بشرة سوداء كالأبانوس، نظراتهم عابسة متلألئة، وأيديهم على مقابض خناجرهم.

مسيرة الدبلوماسيين

ثم وصلت الوفود الأجنبية بعد ذلك. الحاخامات اليهود والبطريرك اليونانى يصحبه الآباء، ورئيس الرهبان الفرانسيسكان، وركب جميعهم عربات أثرية تجرها الخيول لتوصلهم إلى قصر الأمير المسلم. ولقد تحسنت مصر كثيرًا من حيث الاستقرار الدينى منذ أن فتحها الأتراك. وسادت من جديد التقاليد القديمة التى جعلت ذلك الشعب أكثر تسامحًا على وجه الأرض.

وكانت أفضل ساعات الاستقبال وأبهى لحظات العيد من نصيب أعضاء السلك الدبلوماسى والقنصلى المعتمدين لدى الخديو. فبدأ وصول العربات التى تقل أعضاء الوفود الأجانب فى الساعة العاشرة صباحًا إلى القصر. وكم آلمتنى رؤية أولئك التعساء كالنباتات الغريبة فى التربة الأفريقية يعانون الحر ويتصببون عرقًا فى أزيائهم المطرزة التى تثقلها الشرائط والصلبان، خرجوا فى صف واحد من البهو الذى أعِد لهم يتقدمهم عميدهم. ووقف الملك بصحبة مجلس الوزراء ويده على سيفه الأحدب والابتسامة تعلو شفتيه يستقبلهم فى صالة العرش، ويستمع إلى كلمات التهنئة المختصرة ويجيب بجمل الإتيكيت المعتادة فى تلك المناسبات.

وتدين مصر للقوى الأوربية بالكثير من الاضطرابات فى الماضى، والأكثر من عوامل خرابها فى الحاضر، ولذلك بدت كلمات الاهتمام الحانى على لسان رأس الدولة سخرية للقدر.

كون أولئك الفرسان الخمسة والثلاثين أو الأربعين الذين ينتسبون إلى أطراف الكون الأربعة دائرة حول الملك، وعندما انتهت كلمات المجاملة دعا الخديو ضيوفه النبلاء للجلوس على الأرائك الواسعة المنتشرة فى الصالة المغطاة بنسيج الأطلس الأصفر.

فتح باب بعد ذلك بقليل فى صدر حجرة من الحجرات خرج منه بعض الخدم يرتدون "*ستامبولينا*" أو سترة سوداء ذات ياقة زرقاء. وأخذوا يقتربون من كل دبلوماسى يقدمون له غليونًا مشتعلاً ومملوءًا بأفضل أنواع التبغ من "*لاتاكيا*". وتسمى تلك الغليونات باسم "*شيبوك*" وهى كبيرة جدًا، وإناء الورقة العطرية عبارة عن إصيص رقيق جدًا تزينه رقائق الذهب، والأنبوب من فروع الياسمين يبلغ مترين من الطول دون مبالغة، أما المبسم فهو عبارة عن قطعة ثمينة من العنبر فى حجم وشكل باذنجانة صغيرة تتصل بالأنبوب عن طريق خاتم ثمين من التركواز والماس. ولم تدهشنى معرفة أن كل واحد من هذه الغليونات يكلف ألف شلن. وراودتنى فكرة استخدام قطعة أثاث غالية كهذه لو لم أتخيل الكثير من العرب البؤساء الذين لا بد وأنهم وضعوا أفواههم على نفس المبسم. غير أنى أعترف بخجل لأننى رغم ذلك لم أحرم نفسى من تلك التجربة فدخنت حتى نفذ الدخان الذى يحويه الشيبوك كله.

وكانت رؤية أولئك السادة مضحكة للغاية، أولئك الجادون فيما يخص المرات القليلة التى تسمح لهم وظائفهم الظهور فيها على الملأ، وأفواههم ملتصقة بالأنابيب الطويلة وكل واحد منهم يتجنب النظر لجاره خشية أن يغيب عن جو اللحظة وهو يندفع فى قهقهة صاخبة.

بعد ذلك بقليل دخل خدم آخرون بصوان تغطيها مفارش الحرير المطرز بالذهب والأحجار الكريمة، ثم رفعوا المفارش ووضعوها على أكتافهم ليكشفوا عن فناجين كثيرة من البورسلين الراقى ركّب فى آنية من الفضة المزخرفة وهو عمل يتقنه العرب أيما إتقان، ولكن التى قدمها الخديو لضيوفه ذلك اليوم كانت تساوى ثروة رجل مقتدر، فكانت مصنوعة من الذهب الخالص المكفّت برقة على شكل غصون تشبه الميداليات الكبيرة من الطلاء الراقى يحيطها سياج من المجوهرات الفاخرة. وللأسف لم يهدِ إلينا الخديو – مع القهوة طيبة الرائحة– الفناجين التى قدّمت فيها. ورفع الخديو فناجينه مرة أخرى وربما لم يفكر فى أن الفلاحين الذين يعملون فى أرضه يموتون فى الحقول من الفقر، وأن ثمن واحدة من تلك الجواهر يكفى لإعالة فلاح مسكين وأسرته طوال العمر.

كان طابور الدبلوماسيين الأجانب باهرًا جدًا عند خروجهم كما كان عند الدخول. واتجه الجمع حينئذٍ إلى الحجرات المجاورة التى تخص زوجة الخديو، حيث سلموا لها بطاقات التهاني. ولم تستقبل السيدة الجليلة الأجانب، لكنها لم تستبقهم كثيرًا فى البهو، فبعد برهة ظهر رجل أسمر ضخم لا شك أنه كان خصيًا لما كان له من لحم كالبطة السمينة وصوت ندىّ، وأعلن أن سيدته تقدر لطف الدبلوماسيين المحترمين، وتطلب منهم قبول فنجان من القهوة والسيجار الورقى. وعند هذا الحد وقفت مظاهر الذوق الشرقى الرفيع راضية تمامًا.

المجتمع الأوروبى فى القاهرة

لا يقضى أوربى وقته كله مكدرًا. فلا تنقصه الصحبة والرقص والأكل والمسارح والنزهات إذا ما أراد. أما عن المجتمع الودود الموجود فى مصر وجَبَ علَىّ القول إنه مفتوح وصريح ومن السهل دخوله، وهو مجتمع بسيط ومبهج.

ويرجع ذلك إلى أن الأوربيين الجديرين بالمجالسة ليسوا كثيرين، وبالطبع يجب أن نقبل كل من يطلب منهم الانضمام للصالونات دون تردد. لكن عادة ما يعزف بعض الشباب عن المجتمع القاهرى ويبحثون عن تسلية أفضل وأفيد داخل البلاد مثل الآثار والأطلال الغريبة، ويستغلون الوقت فى زيارة المتاحف أو تنظيم الرحلات إلى هليوبوليس ومنف والأهرامات.

وتنقسم سيدات المجتمع إلى قسمين، القسم الأول يتكون من الأوربيات الأصيلات اللاتى وصلن إلى البلاد ويقمن بها بصفة مؤقتة ويشغلن مرتبة اجتماعية معينة. وهن زوجات الدبلوماسيين وكبار الموظفين الأجانب الذين يعملون لدى الحكومة المصرية. وهن على أنواع: فمنهن السيدات الحقيقيات اللاتى يحافظن على أسمائهن بشرف ويصنّ كرامة أزواجهن، ومنهن اللاتى يستغللن وضعهن ويطفن بين الحريم طالبات للجميل والهدايا. وأعترف أن معاملة بعض أولئك السيدات غير سارة بالمرة، فقد تضطرهن الظروف إلى تقديم الطعام بعض مرة ويدعين لحفل راقص مرة أو اثنتين فى الشتاء ثم يـمُنون خلال ستة أشهر بطريقة غير مباشرة بما فعلنه من قبل. ولا توجد وسيلة مجدية للخلاص منهن إطلاقاً.

أما الشرقيات اللاتى خلعن عن أنفسهن عباءات أمهاتهن السوداء وانجرفن بكل سرعة إلى تيار الحياة الأوربية فهن ينفقن ببذخ حتى يظهرن أفضل من صاحباتهن اللاتى يسكنّ فى بيوت أكثر ثراءً، غير أنهن لا يعرفن ولا يستطعن التخلص من هويتهن الشرقية، فيقعن فى التظاهر المعيب عند محاولة الظهور بمظر الأوربيات، وبالتالى ينزلقن إلى ما نسميه الآن بالتحذلق. ونلاحظ فيهن الرغبة فى الظهور فى المجتمعات والاستحواذ على إعجاب الجميع، لكنهن لا يحبذن فى الوقت ذاته الإنفاق أكثر مما هو ضرورى لحياة الطبقة المتوسطة، وهذا مستحيل بالطبع. بيد أن الشرقيات لا يختلطن بالأوربيات- اللواتى يشعرن من ناحية أخرى بالهوان لافتقارهن لثراء الشرقيات- إلا فيما نـدُر. وللحق فإن كل هؤلاء السيدات لا يتفقن والمستوى الذى يظهرن به عادة فيما عدا القليلات منهن.

ولا يخلو المجتمع الشرقى من نبلاء، وهم عبارة عن مجموعة قليلـــة مــن الكونتات والفيكونتات والبارونات، وهم لا يتعدون العشرين بكثير فى مصر كلهـــا. فمن أين جاء هؤلاء النبلاء؟ فلا توجد فى سلالاتهم مــآثر معروفـــة ولـــيس فـــى أجدادهم من جاهد ضد الصليبيين. وأصلهم حديث جدا، وغنى عن الـــذكر أولئـــك الذين ذهبوا إلى بلاط أجنبى كى يشتروا اللقب، فما يحدث فى مصر يحدث أيـــضًا فى بلاد كثيرة أخرى. غير أن الآخرين أخذوا دورهم الأرستقراطى مأخـــذ الجـــد، وهم يعتقدون اعتقادًا راسخًا أن تاجهم يطبع شخصياتهم بطابع التميز عـــن بـــاقى البشر، وأن دمًا جديدًا أزرق قد حل حقيقة محل الدم الأحمر السورى أو اليهـــودى أو الأرمينى أو الإغريقى الذى كان يجرى فى عـــروقهم وهـــم يعيـــشون ســـعداء بفراغهم ولا يضرون أحدًا. وبين هذه الطبقة الأرستقراطية هناك من يتميز بمواهب خاصة. فمنهم من يتحرّق شوقًا للغناء فى الحفلات الموسيقية، أو للعزف على الناى أو لجعل أصدقاءه يتراقصون. ويختلط أحيانا أفـــراد مـــن الأرســـتقراط الأجانـــب مجهولى الأصل بالأرستقراطية الشرقية. فمنهم الأمراء الروس والبارونات الألمان والكونتات النابوليون والأرشيدوقات النمساويون أو الماركيزات الـــسويديون، ولـــم يكن أحد يعرفهم من قبل ولا سمع أحد عنهم، لكنهم يأتون للقاهرة ويُستقبلون بحفاوة ثم يختفون بعد ذلك متناسين تسوية ديونهم مع الدائنين أو تسديد فـــواتير الفنـــادق. وفى بلاط أورودون أو عند الملك كامى حـــامى حـــا يمكـــن أن يكـــون هـــؤلاء الأرستقراط على كامل سجيتهم.

وعادة ما ينخرط أصحاب البنوك أيضًا فى المجتمع. وقد ذكـــرت آنفـــا أن صاحب البنك فى مصر إنما هو مقرض أو مراب فى أكثر الأحيان. ومن ينحـــدر منهم من أصول يهودية يحافظ على أمواله، أما اليونان فهم ينفقونها، والأسوأ مـــن ذلك أنهم ينفقون مع أموالهم وأموال الآخرين دون أن يكلفوا أنفسهم عناء الرجـــوع إلى أصحاب الأموال. وأذكر أنه فى سبتمبر عام ١٨٨٤، وصل اللـــورد نـــورث بروك إلى مصر موفدًا من قبل الحكومة الإنجليزية من أجل تسوية قـــضايا ديـــن،

ودفع أموالاً للمتضررين من حريق الإسكندرية. فأكرمه صاحب بنك شرقى بإقامة حفل عظيم فى فندقه الكائن بشاطئ الرملة رغبة منه فى الظهور أمامه بصورة مشرِّفة، ودعا إليه عِليَة القوم فى الإسكندرية. وزين منزله حتى جعله بيتًا من بيوت أساطير الجان. وكانت نفقات الوليمة هائلة إلى حد فاق التقديرات. وحضر إلى الحفل ورقص الرقصة الختامية أجمل سيدات الإسكندرية اللاتى لا يقاوم جمالهن ولطفهن بملابسهن الباهرة. ومن المؤكد أنها هى المدينة الوحيدة فى العالم التى لا ترى فيها امرأة قبيحة. وبعد عشرين يومًا عرفنا أن صاحب الضيافة الميسور امتنع عن الدفع وأعلن إفلاسه وعجزه عن دفع ٥٠ مليون ريال. وللدائنين أن يعزوا أنفسهم عن ذلك بأن جزءا من أموالهم استخدم فى الأخذ بالثأر من التحذلق الذى يعيب المجتمع الشرقى.

منتزه شبرا

تعد شبرا المكان المفضل للتنزه بالنسبة للأوربيين، وهى عبارة عن طريق جميلة محفوفة بأشجار الحور تمتد من حى الاسماعيلية وحتى ضفاف النيل على طول خمسة أو ستة كيلو مترات. وهناك تتقابل سيدات القاهرة الأرستقراط أيام الآحاد ساعة العصر، يتباهين بحُليهن فى عربات مفتوحة تجرها الخيول، ويتنسمن الهواء العليل ويستمعن إلى نغمات الموسيقى العربية تعزفها فرق قومية. غير أن وقت النزهة وظروفها تجعلها غير مريحة، فشمس مصر الحارقة - حتى آخر لحظات الغروب والتى لا تحجب أشعتها غصون الأشجار - تسقط على وجه المتنزهين مباشرة. لذا فالجو حار. علاوة على أن الطريق مروية بالماء الوفير مما تجعله موحلة. والحقول منخفضة وعبارة عن مستنقعات، ويصدق فيها ما يقال عن أن بركها مأوى للملاريا. وتقطع شريط السكة الحديد الطريق وتعترض حركة القطارات النزهة فى كثير من الأحيان. لكنها الموضة المستبدة التى تجبرنا على الذهاب إلى شبرا وعلينا طاعتها حتى ولو كان ذلك ضد المنطق.



كورنيش شبرا

حدائق الأزبكية

وثمة نزهة أخرى عظيمة فى جنبات الحى الأوربى بالقاهرة، وهى تفوق تلك التى وصفتها من قبل بكثير، ألا وهى زيارة حديقة الأزبكية. وفى وسطه ترى بحيرة جميلة ترطب مياهها الجو وتهب الحياة للأشجار الهائلة فى شوارعها. وتعزف فرقة عربية الموسيقى فى كشك يتوسط ميدانها الصغير. وتقدم بعض المقاهى المشروبات المثلجة التى تخفف كثيرًا من حرارة الجو. فالمكان محورى ولطيف والحديقة بهية. غير أنكم لا بد أن تحترسوا من أن تحكوا لذوى الصيت أنكم تجوّلتم فى الأزبكية، لأنه يمكن أن تتهمُكم أميرة روسية بأنكم تذهبون لمغازلة المربيات. وتنتمى مسارح القاهرة إلى الماضى. ورغم ذلك فإنك ترى مبنى هائلاً أمر ببنائه إسماعيل باشا فى الميدان الفسيح الكائن بجوار تلك الحديقة ليكون دارًا

للأوبرا، عرضت فيه لأول مرة أوبرا عايدة، وعلى خشبته غنى أفضل المغنين على مدى عشرين عامًا. أما اليوم فلا تستطيع أى فرقة محترمة أن تغطى نفقاتها لموسم واحد لقلة المتفرجين الذى يرتادون العروض، ولا يكفى العدد لإعالة حفنة من الأفندية الأغراب الذين يعملون مخرجين ومهندسين وحراسًا ومستشارين للدار، ولا يمنع من اختفاء الأشياء الثمينة من خزانة ثيابهم الغالية.

يوجد داخل الحديقة مسرح آخر صغير من الخشب، ويجتمع فى صالته فى ليالى الصيف الأوربيون القلائل الذين يعيشون فى القاهرة. والعروض مستمرة غير أن الحضور لا يتعدى العشرة أشخاص كثيرًا، ولكى أكون دقيقًا اثنى عشر شخصًا فقط. وللقارئ أن يتخيل نوع الفرق التى تقدم عروضها هناك، فبعضها كوميدى من الإيطاليين عامة، وهم يعيشون على دخل التذاكر القليل، ومن بين الممثلات توجد الفاسدات اللاتى يستخدمن المسرح لإقامة علاقات من نوع آخر مع المتأنقين الأتراك والشرقيين، وهم صنف من المغازلين البلهاء الذى بُليت بهم القاهرة.

والشيء الوحيد الذى يجعل من الإقامة بمصر خلال فصل الشتاء شيئًا ممتعًا هو وجود جالية أجنبية كبيرة تلجأ إليها للهروب من برد أوربا القارس. ويوجد بالقاهرة فندقان أو ثلاثة، وهى خالية طوال العام عدا الفترة من نوفمبر وحتى فبراير، فتمتلئ خلال تلك الشهور الأربعة حتى إنها لا تستوعب كل النزلاء الذين يفدون إليها. ومعظم هؤلاء السياح من الإنجليز ثم يأتى بعدهم فى الترتيب الأمريكان، كما يأتى أيضا الكثير من الفرنسيين، ومن حين لآخر تجد بعض الألمان أو الإيطاليين أو الإسبان. ويمكث معظمهم فى القاهرة عدا القليل الذين يبحرون بالنيل حتى أسيوط أو الأقصر. ومن يشد منهم الرحال إلى العاصمة ويمكث هناك فى الشتاء فإنه يحيا حياة مريحة فى فنادق الدرجة الثانية، فيقيمون الاجتماعات وحفلات الاستقبال ويقدمون الأطعمة، ويتجاذبون أطراف الحديث عن أوربا، ويمثلون فى مجملهم قطعة من مجتمعنا الطيب نقلت إلى الأراضى المصرية.

إن الاختلاء بهم لطيف جدا لدرجة لا ترقى لها هؤلاء السيدات المعتدّات بأنفسهن ذوات المآثر المزيفة والمزاعم الكاذبة واللاتي يشكلن نواة الصفوة القاهرية.

ولم أندم بالتأكيد على الوقت الذى قضيته فى مصر، حيث سنحت لى الفرصة لتعلم أشياء كثيرة، أشياء طيبة تتعلق بالحياة وعجائب المجتمع الذى يمكن أن يطلق عليه هناك مجتمع متحضر. لم تكن انطباعاتى سيئة على الإطلاق فقد تحدثت حتى هنا بصفة عامة، ويسرنى أن أعترف أننى وجدت فى أحضان هذا المجتمع أكثر من صديق صدوق وأكثر من صديقة ممتازة أسهموا بشخصياتهم المتفتحة الصريحة الشفافة فى أن يجعلوا حياتى كأجنبى أكثر احتمالاً. ولكل قاعدة شواذ، وأستبيح صديقاتى فى القاهرة عذرًا إذا كانت الحقيقة التاريخية قد أجبرتنى على الحديث هنا ببعض الفظاظة عن مجتمع الصفوة المصرى. وهن يعرفن جيدًا أننى ليس فى نيتى أو فى كلماتى قصدٌ بأن أخلط بينهن وبين السيدات اللاتى أشرت إليهن عند حديثى عن طبقة الأرستقراط الأوربيات التى تتلألأ فى القاهرة.

الفصل الثالث عشر

المجتمع التركى فى القاهرة

لم يبق بالقاهرة الكثير من الأتراك، فقد اندثرت سلالة المماليك العتيقة ومـــن تولى مكانهم منذ تأسيس الأسرة الخديوية الحالية، ولكونهم قليلى العـــدد فقـــد تـــم تجاهلهم فى العقد الماضى، ولم تعد لهم أهمية تذكر. وهم يعيـــشون علـــى حـــدود القاهرة الجنوبية منعزلين وغير معروفين يبددون الثروات التى استولوا عليها مـــن البلاد على حريمهم المنعمات، ويحدث للتركى ما يحدث عادة للكثيـــر مـــن أهـــل الشرق الآخرين. فهو لا يفقد سمات بلده الأصيلة ولا عادات بنى جنسه. ولا يهـــم كثيرًا كونه ذا خبرة اجتماعية ولا تقلده للمناصب العامة ولا احتكاكه بالأجانب، ولا حتى كونه تلقى تعليمه فى لندن أو باريس، فلا يغير من سلوكه أى نفوذ، وعنـــدما يعود إلى بلده بعد طول غياب فهو تركى حتى النخاع تمامًا كاليوم الذى ترك فيـــه بيته لأول مرة.

هذا هو ما يحدث بالضبط مع الباشاوات الأتراك فى العاصمة المصرية. ولا يخفى على من يحتك بهم لأى سبب من الأسباب المكر والتعـــالى اللـــذان يكونـــان شخصيتهم وتصرفاتهم المبنية على الشك وعدم الثقة. وهم نادرًا ما يفتحون الأبواب الخارجية لقصورهم للأصدقاء، ولا تروق لهم زيارة الـــسيدات لزوجـــاتهم. فهـــم غيورون ولا يخفون ذلك.

قصور الباشاوات

وعند تجولك فى شوارع القاهرة تـــستطيع أن تتعـــرف علـــى دار الباشـــا بسهولة. فيحيط بالدار والحديقة سور عال لا توجد به فتحات سوى بـــاب محـــصن بحواجز حديدية سميكة. وتجد بجواره أحيانًا جلسة للسمر بين الخصيان الجالـــسين

فى الهواء الطلق. وهم طوال القامة ممتلئون منتفخو الأوداج ، يرتدون الحُلة التركية ذات الصديرى الأصفر ورابطة العنق الزرقاء والسروال الأبيض والأحذية اللامعة. وتشغل هذه المخلوقات الناقصة أوقاتها بالكلام الذى لا يستطيعون فعل شىء غيره. وجميعهم من السود القادمين من السودان، وقد تم خِصاؤهم عندما كانوا أطفالاً فى الثالثة أو الرابعة وكانوا يتركون عدة أيام مدفونين فى الصحراء كى يعمل ملح النطرون الموجود بالرمال على اندمال جروحهم ثم يأتون بعد ذلك كعبيد للخدمة والحراسة، وأحيانًا عدة لممارسة الاستبداد على نساء الحريم.

ويُظهر هؤلاء الخصيان ميلاً كبيرًا للترف. وهم يتزينون بطريقة مضحكة ويغالون فى لبس الحلى والمجوهرات. ويستغل البعض نقاط ضعف السيدات اللاتى يخدمون ويتحولون إلى قوادين، فيصلون بخدماتهم الإضافية تلك إلى جمع الثروات. وبذلك فهم يتحررون ويطلقون العنان لولعهم بالخيل والزينة، حتى إنهم يتزوجون أحيانًا. نعم أعنى ما قلت.. يتزوجون، وينتقلون للعيش فى بيوت خاصة فينظمون الخدمة ويكونون الحريم الذين يلعبون بينهن دور المهرج أغلب الظن.

ويوجد بقصور هؤلاء الباشاوات نوعان من الحجرات منفصلة كلية بعضها عن بعض. فيوجد مبنى بجانب الباب مخصص لاستقبال ضيوف صاحب الدار، وفى داخل الحديقة يوجد مبنى الحريم أو حجرات زوجاته، والذى يمكن تمييزه بسهولة عند رؤية أبوابه المغلقة على الدوام ونوافذه التى تختفى وراء ستائر من الخشب أو المشربيات الكثيفة. ويعيش خلفها قطعان من النساء اللاتى يطلق عليهن اسم غير حقيقى إلى حد ما وهو المحظيّات.

والحياة الأسرية فى الحريم مجهولة تمامًا ولذلك فالتجاوزات كثيرًا ما تحدث. وطبقًا للقرآن فإن الجنس البشرى ينقسم إلى نوعين متباينين لا تشترك فيما بينها فى الأفكار أو العادات أو الاهتمامات، ولا يسمح لمن فى الخارج أن يعرف ما يحدث فى داخل المكان. ويستحيل الاتصال إطلاقًا مع الرجال بخاصة، فحتى الأب لا يجب أن يعرف ما يحدث داخل حجرات بناته.

ولا يتصل الباشا نفسه بجواريه إلا عن طريق الخصيان والخدم كما لو كان ضيفًا فى بيته. وهو عادة ما يــراهــنّ ليلاً عندما ينتهى من عمله ويذهب لتغييــر ثيابه أو عندما يخلد لفراشه آخر الليل، ويسبقه الخصى كى ينير له طريقــه حتــى باب حجرته. وهو عادة ما يستقبل أفراد أسرته فى الصباح كأولاده مثلاً، ولكن ذلك لا يتكرر كل يوم ولا يستغرق سوى دقائق قليلة.

زواج الأتراك

ولا تخلو حفلات الزواج التركية من غرابة. فالفتاة تعيش فى صحبة والدتها أو فى صحبة الجوارى والمربيات اللواتى يربينها ولا يهذبنها ويتركنها فى جهــل تام. وعندما يريد الوالدان تجهيزها فإنهما يناديانها ويعلمانها بوجوب زواجها مــن رجل لا تعرفه بالطبع ولم تره قط. وتقوم الجوارى بإلباسها لباس العرس، ثم يــتم عقد القران بحضور جمع من النساء، وهو حفل يتلو فيه الإمــام بعــض الآيــات ويشهر عقد الزواج. وعندما ينتهى ذلك يتقدم الشهود من جانب العــريس لطلــب موافقة العروس التى تجيبهم من وراء حجاب، وعندما ينتهى عقد القــران تــوزع الحلوى والمشروبات على كل الحضور.

وفى يوم الزواج تصحب الصديقات العروس إلى الحمام، ويطلين أظــافرهن وأيديهن بالحناء التى تعطيها لونًا مائلاً للاحمرار، ويصحبنها فى جولة لها طــابع الانتصار بين حجرات الحريم. وتدعوها المربيات إلى مأدبة يبدو أنها أعدت بعناية خاصة لتتناسب ومقام عروس. وتتقبل مغطاة بالجواهر، جاثية على ركبتيها البركة من والديها وهما يحيطان خصرها بحزام من الماس كرمز لشرف المرأة. وعنــدما تنهض الفتاة تنهال على الحاضرين العملات المعدنية كالمطر، فيجمعونها بــشغف. ثم ينتظرون عند طرف سلم بيتها مجىء عريسها الذى يأخذ بيــدها حتــى حجــرة الزوجية، وتنتظر والتـــل يغطى وجهها قدوم الإمام كى يمنحها البركة الأخيرة.

حتى هذه اللحظة لم ينته الحفل بعد. فتتجه الزوجة للحريم لحضور مأدبة أخرى تدعو لها الصديقات، ويفعل الزوج مثل ذلك مع الرجال الذين في معيّته. وإذا أراد العريس أن يقوم بزيارة للحريم فإن أصدقاءه يحُولون دون ذلك فيضربونه أو يخلعون عنه حذاءه. وعندما يجتمع بزوجته آخر الأمر فإنه حتى تلك اللحظة لم يغازلها؛ فتظهر إحدى المربيات وتفرش سجادة على الأرض حتى يجثو الزوج عليها ويصلي صلاة معينة، ثم يتوجه باحترام إلى زوجته ويطلب منها أن تكشف عن وجهها. وهي بدورها تفعل ذلك لكن بعد أن تتمنّع لبرهة من الوقت، فيكافئها بهدية عبارة عن دبوس من الماس. لكن الأرملة التي تتزوج ليس من حقها أن يُهدَى لها مثل ذلك، بل على العكس يجب أن تهدِي هي لزوجها. وعندما تغلق أبواب الحريم فإن المدعوين من الجنسين ينصرفون في الحال، وينتهي الحفل.

الحياة الخاصة في الحريم

لا نستطيع أن نحكي كثيرًا عن حياة الحريم الأتراك الخاصة إلا إذا أتاحت لنا مصادفة نادرة حظ معرفة تلك الحياة بعمق. وليس أفضل من شخص عاش في تلك الأماكن حتى يصفها لنا. وهذا ما ينطبق على قرينة كبريزلي محمد باشا، والتي كانت ربيبته لمدة ثلاثين عامًا. وعندما ملّت عملها هربت إلى لندن ونشرت كتابًا شيقًا عنوانه "*ثلاثون عامًا في الحريم*". وسوف أفيض في هذا الفصل عن علاقاتها مؤكدًا أنه لا توجد أي مغالاة في وصفها لحريم مصر. فهي تصف بقلم فنان المجتمع الذي تسبب في دمار البلاد، وتتحدث عن شخصيات لم تمح ذكراهم من ذاكرة هؤلاء القوم.

وكانت السيدة كبريزلى امرأة خاصة. فكانت تدعى قبل زواجها "*ملك هانم*" وكانت ابنة لأب فرنسى وأم أرمينية، تلقت تعليمها فى أحضان الكاثوليكية اليونانية. وعندما كانت فتاة صغيرة ألهب جمالها أشواق طبيب إنجليزى كان يعالجها، وخطفها الرجل المولع بها وتزوجها على يد قسيس أرثوذكسى لعلمه بأن أسرتها سوف تعارض هذا الزواج غير المتكافئ فى السن. غير أن ملك هانم كانت رفيقة غاية فى السوء، ولشخصيتها الطائشة وميلها للإسراف سرعان ما أتعبت زوجها. ولما رغب هو فى إصلاحها بعث بها إلى روما بصحبة والدته، وكانت وصيفة شرفية لأميرة "*لوكا*" قديمًا، وهى سيدة أمينة متدينة. ولم تستطع هانم صبرًا على حياه التصوف التى أرادت حماتها إخضاعها لها، فقد كانت تحلم بالحرية التى تطلعت لها فى المدينة الإيطالية واللهو الذى تاقت إليه. وعلاوة على ذلك فقد أصيبت يومًا بأزمة عصبية فظيعة انتهت بلوثة عقلية عارضة.

واستطاع الزوج استغلال الفرصة، فطلب ما يثبت عتَه زوجته، وحصل على حكم بالطلاق من البطريرك اليونانى دون أن يعلمها بنواياه. وعندما عادت هانم إلى القسطنطينية كانت مفاجأة غير سارة بانتظارها، فقد شُغل المكان الذى تركته من قبل، وتزوج الدكتور بامرأة أخرى. وفى نهاية الأمر، وبعد أن هددته بالفضيحة والموت استطاعت أن تحصل على معاش يدفع لها إذا ما انتقلت للعيش بباريس.

وقبلت هانم بالانتقال إلى العاصمة الفرنسية. وهناك قابلت السفير التركى فتحى باشا، وحازت فى قصره على تكريم الملحق العسكرى للمفوضية كبريزلى محمد باشا، والذى هام بها وصحبها معه إلى القسطنطينية وضمها إلى حريمه الخاص. وهنا تبدأ أهم مرحلة فى حياة هذه السيدة. فقد علا نجمها لجمالها الرائع وذكائها حتى أنها استحوذت على إرادة السلطان كثير الأهواء عبد المجيد. كان نفوذها ملحوظًا بعض الوقت، إلا أنها لم تستطع الإفلات من تقلبات البلاط الشرقى الفظيعة. ثم حدثت بعد ذلك كارثة لزوجها حيث فقد منصبه وثروته ورتبته العسكرية كجنرال فى الجيش العثمانى.

ثم عاد كبريزلى بعد عامين إلى النعمة الإمبراطورية بفضل توسلات زوجته التى لم تستطع قبول الوضع المزعزع الذى كانا يعيشانه. فاستطاعت بمهارتها وإلحاحها أن تحصل للجنرال على حكم عكا، والتى استبدلها بعد ذلك بحكم القدس. وغادر الزوجان إلى سوريا، واستغلا الوقت لصالحهما جيدًا، وخاصة ملك هانم التى استطاعت الحصول على المال بكل الوسائل، بسلب التجار اليهود ونهب الأديرة الكاثولوكية واليونانية والأرمينية. ولم تحاول بعد ذلك إخفاء أفعالها، ولكنها على عكس ذلك كانت تعتبر ذلك طبيعيًا جدًا بسبب خوفها من الفقر فتقول : "وفى بلد لا أمان فيه لأحد ولا اعتراف فيه بالحقوق فمن الضرورى اتخاذ احتياطات معينة ضد نوائب الدهر".

الأميرة نازلى

وامتدت سمعة السيدة كبريزلى ومهارتها وحيويتها إلى كل مكان. وصارت الأميرة نازلى بنت محمد على باشا صديقة حميمة لبطله قصتنا، ودعتها لزيارة مصر. ولنترك كبريزلى تتحدث عن نفسها:

"لما قبلت الدعوة ذهبت إلى يافا وركبت قطار الإسكندرية حيث كان قطار سموها ينتظرنى هناك. وكانت عربات القطار تكسوها القطيفة الحمراء المشغولة بالذهب، وكانت الشبابيك مكسوة بالخشب المذهب. وساروا بى إلى قصر المحمودية الذى بنى بالقرب من ضفاف النيل فى وسط حدائق غناء تضفى عليه الطابع الأوربى. وعبرت أحد الأفنية إلى دهليز فسيح ينتهى بسلم يُفضى إلى الحجرات العليا. واصطف العبيد عند مرورى كحرس شرف وهم يرتدون ثيابًا من الحرير ذات

الألوان اللامعة، وتزينها الجواهر الثمينة. وأخذ عبيد آخــرون بيدى كى أصعد السلم بينما لملم الخصيان ذيل " الفرادجـــى " أو الطرطور الخارجى. واستقبلتنى خازنة الأميرة عند نهاية السلم، وأدخلتنى إلى صالة فسيحة ودعتنى للجلوس. غير أنها سرعان ما أخبرتنى بأن الأميرة تنتظرنى. وذهبت للقائها فوجدتها تجلس على أريكة تدخن الشيبوك. لكنها نهضت كى ترحب بى. وكانت امرأة متوسطة القامة ذات بشرة سمراء، كان وجهها يمتلـئ بحيوية قل أن يوجد مثيل لها، وكان بريق الذكاء فــى عينيهــا الثاقبتين. وانحنيت أمامها فحيّتنى وأشارت لى بالجلوس علــى أريكة مقابل أريكتها".

"كانت بعض النساء العجائز يجلسن بالحجرة، وظيفتهن تسلية الأميرة بالحكايات والأقاصيص. وأحضرت لى الـشيبوك، وبدأت سموها الحديث ببعض المجاملات، ثم تحدثنا بعد ذلك عن مواضيع أخرى وأيقنت أن نازلى كانت على دراية جيــدة بكــل قضايا الشرق. وقدمت لنا فى هذه الأثناء الحلوى والقهوة، وبعد مضى نصف ساعة توجهت إلى الغرفة التى خصصت لى وهــى حجرة مبهرة كبقية القصر".

"وتناولت الأميرة الطعام معى تلك الليلة، وقدم لنا الطعام على مائدة مغطاة بمفرش من الحرير المطرز، وكانت الأطبــاق جميعها من الفضة نقشت بطريقة فنية، وحتى الملاعق رصّعت بأحجار كريمة. وبعد الأكل دلفنا إلى الحديقة للتــدخين وشــرب القهوة".



الحريم فى القصور

"وفى العاشرة مساءً عادوا ليحضروا لنا فاكهة وحلوى فى جِفان من الذهب المرصع بالماس وحتى أغطيتها كانت كذلك. وتبسطت سموها معى بعدما شربت الخمر والعرق وسمحت لبعض الجوارى بالاقتراب من مجلسنا. وتضاجع اثنتان من الجوارى أمامنا ليسرِّيا عنا، وقامت إحداهما بدور العاشق وأخذت تغازل الأخرى. وخلال ذلك المشهد الذى كان يزداد إثارة كلما زاد هياج الممثلتين أخذت بعض الجوارى من الفتيات يرقصن ويغنين على إيقاع الصناجات النحاسية. وكان بالحجرة العديد من تلك الجوارى التعيسات اللاتى حكم عليهن بالوقوف طوال الوقت، وكن يسقطن من التعب ويُرَى على وجوههن آثار السهر ليالى عديدة. ولكن كان عليهن تحمل هذا التعذيب دون شكوى، لأنهن لو فعلن ذلك لنلن العقاب من مليكتهن دون شفقة. فقد مات العديد منهن بسبب تلك المعاملة السيئة".

"ولما تعبتُ بسبب هذه المناظر الكريهة مـن الإسـراف والأنانية طلبت الإذن بالخلود إلى فراشى فاصـطحبتنى نفـس المرأة التى استقبلتنى فى القدس. واستبقيتها لبعض الوقت عملاً باللياقة. وحدثتنى عن نازلى فقالت:

"أرأيتم سيدتنا، إنها تفعل كل ليلة مثـل هـذه الليلـة ثـم تستيقظ وقت الظهيرة. وتقوم ببعض الزيارات وقت العصر، وتتنزه فى عربتها، وتشرب وتلهو. ورغم أن السيدات المـصريات أقـل حرية بكثير من التركيات فإنها كانت تستغل قبل ذلك غياب زوجهـا حتى تدخل عشاقها إلى الحريم، ثم كانت تضمن صـمتهم بالقتـل. ولكن عندما انتشرت الشائعات حول جرائم القتـل تلـك اضـطرت للإقلاع عن هذه التسلية غير مضمونة العواقب".

وأضافت رفيقتى:

"إننا تعساء تحت سلطانها، فهى قاسية وكثيرة الأهوال. لقد قال المرحوم زوجها مرة للجارية التى كانت تقدم له الماء: كفى يا حَمَلى الوديع. ولما نقلت لأسماعها هذه الجملة البريئة، أخذتها على غير محملها وأمرت بذبح الجارية وفصل رأسها كى تطبخ مع الأرز. وعندما جلس الزوج للمائدة قدم إليه هذا الطبق المشئوم وقالت له الزوجـة : الآن تـستطيع أن تأكـل حملـك الوديع. فاشتاط غضبًا ورمى الطبق وغادر القصر، ولـم يعـد لفترة طويلة، ولم يحرك ذلك مشاعر الأميرة مطلقًا. لكنـه لـم يطلقها حفاظًا على ثرواته، ولكى يستمر صهرًا لمحمـد علـى. وامتدت غيرة نازلى إلى الجوارى اللاتى كن غرضًا لأهوائهـا، فهى تعاقب أقل شك فى خيانة بالموت جلدًا....".

"كانت الساعة العاشرة صباحًا، ولم أكن غادرت سريرى بعد عندما دخلت الأميرة تصحبها اثنتان من الجوارى، فقالت: كيف ذلك، أما زلتِ نائمة يا عزيزتى، وقبّلتنى وأسهبت فى عبارات الترحيب، وانصرفت بعدما قالت إنها تنتظرنى".

"وعندما ارتديت ملابسى وجدت نازلى تفحص بعض الجواهر وقالت لى : أريد رأيك، لنختر سويًا بعضًا منها. ثم أرسلت فى طلب صندوقين كليهما يزيد طوله على ثلاثة أقدام مع عرض وعمق مناسبين، وكانا ممتلئين بالماس والزمرد وأحجار أخرى لا تقدر بمال. وقبل أن تغلقها قالت: أريد أن أمنحك هدية صغيرة. وهذان الحجران من الألماس يصلحان لعمل خاتم، واحد لك والآ خر لزوجكم. وكان كل حجر منهما يساوى أكثر من ألف شلن. ثم طلبت صندوقًا آخر يمتلئ بسبائك الذهب، وكانت تريد صنع طاقم للمائدة منها. ولفتُّ بدورى انتباهها إلى أن أطباق الذهب الخالص ستكون ثقيلة جدًا، وأنه من الأفضل أن تصنعها من الفضة. فقبلت فكرتى، وأخذت سبيكتين أو ثلاثًا ورمت بهما عند رِجل إحدى الجوارى وقالت : خذى، إنها لكِ".

قصرها فى المحمودية

"ودَّعتنى سموها إلى حدائق القصر المدهشة. وكانت أشجار البرتقال والنخيل والزهور والشجيرات منسقة بفن ليس له مثيل فى الشرق، كانت الخضرة تكسو الأسوار. وأقيمت الأكشاك الرشيقة هنا وهناك وفى وسطها الفوّارات تلطف حرارة الجو. وتنزهت لبعض الوقت تصحبنى بعض النساء اللاتى يرتدين مناديل

بيضاء على العنق مطرزة ببيوت من الشعر، وهى علامة مميزة لفضل الأميرة عليهن. وبعد برهة ظهرت الأميرة وسألتنى: ما رأيكم فى حديقتى؟ هل يروق لكم الجو فى مصر؟ فأجبت بأن الحديقة والجو رائعان ولكن ما روعة الجو والحديقة إلى جانب روعتكم. فابتسمت وأظهرت رضاها بقرصة خفيفة على خدى. وقالت:

إذا أردتِ رؤية أى شيء فلنخرج.

"فلبسنا الفرادجى والبرقع وهو طرطور يغطى الرأس والوجه. ولا تغطى النساء وجوههن فى أى مكان بعناية كما يحدث فى مصر، فيكفى اليشمك عادة وهو حجاب من التل الأبيض لغطائهن، وركبنا العربة وذهبنا إلى قصر إبراهيم باشا وهو أخو نازلى، حيث استقبلنا بالترحاب الكبير. وقدمتنى الأميرة إلى زوجات إبراهيم، وكن أكثر شبابًا وجمالاً من حريم الأميرة، لكنهن طبعن أيضًا بطابع الخوف وظهر السأم على وجوههن".

غراميات ومغامرات مع الجوارى

"وحكت لى عجوز ترافقنى أن سيدها غيور لدرجة فظيعة فقالت: أغرم خصى أسود بجنون بشركسية كان الباشا يحبها كثيرًا. ولما رفضته أقسم على هلاكها. وذات يوم ترك عباءة رجل أمام باب حجرتها. وعندما وصل الباشا إلى ذلك المكان يسبقه خادمان ينيران له الطريق أحس بالغيرة تتملكه وصرخ: ما هذا؟ مشيرًا إلى العباءة. فأجاب ذلك الخصى التعيس: سيدى، إن الشركسية كان عندها رجل لا بد وأنه لاذ

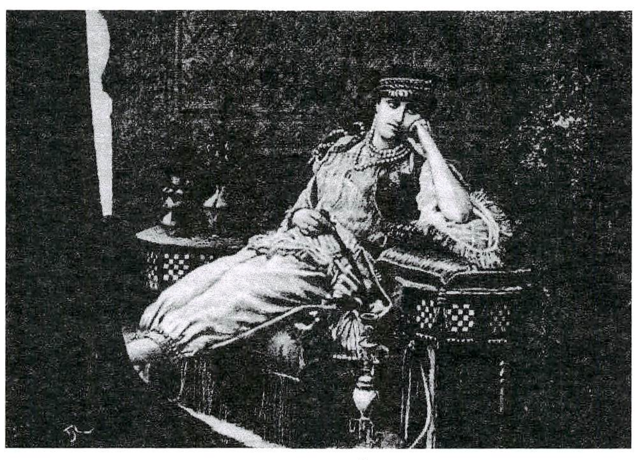
بالفرار عندما استشعر قدومك. فصاح إبراهيم بالخادمة أن تفتح الباب وأسقطها صريعة بطعنة من خنجره".

"وقدمت لنا وجبة باردة فاخرة ثم هبطنا إلى الحديقة مع زوجات الباشا اللاتى كن شركسيات ويونانيات كلهن، كنّ فاتنات جميلات لكن غير مهذّبات. ثم ذهبنا إلى حمام البخار حيث سرّت عنا بعض الجوارى بالرقص والغناء على نغمة الطبلة التى تسمى *دربُكة*".

"ولما جن علينا الليل عدنا إلى قصرنا حيث تسلينا بسماع النساء اللاتى يسردن القصص. وعند نازلى عشر من تلك النساء، تعرف كل واحدة منهن عدة قصص تكررها دون توقف. كما رأينا عرض الأراجوز أو عرض الظلال الصينية، الذى امتلأ بإشارات إلى أفعال الأميرة وحاشيتها. إنه مسرح الشرقيين.

ولن يمل قرائى أوصاف الحريم الأتراك فى مصر دون شك كما رأتها السيدة كبريزلى محمد منذ ثلاثين عامًا. ومنذ ذلك الوقت تغير إطار تلك اللوحة فقط لكن فحواها لم يتغير، مع القليل من الاستثناءات. وأحد تلك الاستثناءات هى ابنة الأميرة التى حكينا قصتها توًا وهى الأميرة نازلى الحالية التى خلعت عنها اليشمك والفرادجى بحزم كما خلعت ملحقات الزى التركى الأخرى غير المريحة واللازمة لغطاء الوجه والقامة وفتحت أبواب صالونها على مصراعيه للمجتمع الأجنبى. وجعلت من نفسها صورة حية للاعتراض على الوحدة والغموض المفروضين على الحريم بزيّها الأوربى ونظارتها الذهبية التى تُشبكها بأنفها وشعرها الأشقر الجميل المصفف على الطريقة الأوربية. وأثارت تصرفاتها معارضة كبيرة فى مجتمع

الصفوة التركى الذى ينبذ الأميرة الآن بالطبع، وحتى ابن عمها الخديو نفسه أعلن أنه لن يستقبل فى قصره من يزور نازلى، لكن هذا القرار التعسفى لم يلق ترحابًا كبيرًا.



الأميرة نازلى

وفقدت سيدات القاهرة ثروتهن منذ عزل إسماعيل باشا. ولما أُقصى الأتراك إلى مناصب ثانوية فى الحكومة أو أبعدوا عنها كلية لم تبق لديهم الثروة الكافية كى يعيشوا فى ترف ويبقوا على نزوات نسائهن، حتى إنه رؤيت سيدات أخيرًا محجور عليهن من قبل المحاكم بمقتضى دعاوى من الدائنين، بل إن صاحب بنك سويدى أعلن عن بيع كمية كبيرة من المجوهرات كانت رهنًا لدين لم يسدد. وكتب بحروف ظاهرة فى إعلانات المزاد أن هذه المجوهرات تنتمى للأميرة طوسون، وهذا يعنى أنها من أفراد العائلة الخديوية.

واعتاد المسافرون الأوربيون الذين لم يفقدوا سذاجتهم الملائكية عند قدومهم لبلاد الشرق أن يرجعوا لأوربا بحكايات عجيبة عن مغامرات حدثت لهم مع جوارى الحريم الأتراك. وطالما ضحكت عند قراءة قصة عجيبة حدثت على

ضفاف المحمودية أو على ضفاف النيل، أو بطولة بين جدران الحريم والتى يشترك فيها الحب والجرأة على السواء. إن هؤلاء المحظوظين الذى يحكون لنا هذه الأقاصيص خرجوا بسلام من تجاربهم لكنهم يتذكرون بنبرة من الأسى أن هناك من هم أقل منهم حظًا فاجأهم الباشا أو قبض عليهم الخصيان، وفقدوا حياتهم بحد السيف أو تم وضعهم فى جوال يغلق عليهم ثم يقذف بهم فى أمواج النهر المصرى العظيم.

هل يجب علىّ أن أرد على هذه المهاترات؟ إن التركى أو العربى أحيانًا يمكن أن يدخل عند حريم باشا تركى، لكن يستحيل دخول أجنبى عليهن. فالجارية التى تسهل دخول أجنبى عندها لن تكون إلا امرأة تهتم بنظافتها. لكنهن جاهلات وغير مهذبات ولسن على دراية بأذواقنا وما نهواه، ويبغضن سلالتنا. إذًا فلمَ تبحث تلك النسوة عن علاقة مع أحد منا؟

ومنذ أسابيع قليلة جلست مع بعض الشباب نتسلى بقصة رحلات إلى الشرق كتبها أحد المشتركين فى تحرير أشهر جرائد مدريد وأكثرها شعبية، وفى اليوم التالى ظهرت فى الجريدة حكاية غزو اثنتين من جوارى الحريم الشرقيات، وأضافت ظرافة اللغة بهجة على القصة هو أسلوب يتبعه أحد كتّابنا الأوائل. وإليكم القصة:

"ذات جمعة وعند انكسار موجة الحر حكى لنا هذا الرحالة أنه كان يتنزه مع صديقة على حصان فى طريق محفوفة بأشجار الحور الوارفة فى شبرا" ويكمل:

"عبرت بجوارنا عربة مسرعة يجرها حصانان أصيلان هائلان. يقودهما سائق أسود ويحرسها خصىّ. ولسبب ما كانت الستائر الحريرية مرفوعة فرأينا السيدتين اللتين بالداخل. أقصد أننا رأينا النصف العلوى من السيدتين وكل منهما تلبس اليشمك الذى غطى كل شيء عدا العينين، ويا لها من عيون، إنها سوداء كالليل فسيحة كالخلود".

"وتفادينا حراسة الخصى المرتاب ومررنا عدة مرات بجانب العربة وجُلنا بنظراتنا المتعطشة داخلها، نظراتٌ رُدت إلينا وبطريقة معبرة دون مبالغة أو زهو منا. ولم تسدل الستائر عقابًا لنا على قلة حيائنا. لكنهما لم يبد عليهما تلك اللهفة التى تشعر بها الجميلات عندما يُنظر إليهن، وأصلحنا من شأن اليشمك، ذلك الإصلاح الذى يسمح لمسيحى أن يتأمل موضعًا من جمال سليلات النبى الفاتنات وهو غائب عن الوجود. وما من شك أننا أثرنا اهتمامهما وأننا أصبناهما بسهامنا.

وتعقبنا العربة حتى عبرت الحى الأوربى ودخلت الحى التركى، وفتحت بوابة كانت هى الفتحة الوحيدة فى السور العالى المحيط بالبيت الكبير، ودلفت العربة إلى الداخل.

وكيف لنا أن نتغيب الجمعة التالية؟ كان من المحتمل أن تفكر تلك العيون فى أن تشرق على أشجار السنط والجميز العملاقة لطريق شبرا. لقد ذهبتا هناك فى نفس العربة ومع نفس السائق والخصى، باليشمك، وبدت العيون وكأنها تتحدث لغة الهوى العالمية، وتنامى لأسماعنا الصدى الرنان للضحكات اللعوب. ألم يكن يرانا الخصى فعلاً أم أن هذين الخائنين تظاهرا بذلك؟ وتبعنا العربة من بعيد حتى تركناها عند البيت ذى الأسوار العالية. وحسب هيئة العربة وفخامتها والبيت وعظمته أيقنّا أن محبوبتينا كانتا تابعتين لحريم أحد الباشاوات.

وقلنا: لا بد وأن نكتب إليهما، ولكن أتعرفان القراءة؟ إنهما ماكرتان فإن لم تكونا تعرفان القراءة فسوف تجدان من يعرف القراءة، بل ومن يكتب لهما الرد إذا أرادتا ذلك. لم تكن الكتابة بالعربية أمرًا سهلاً وبأسلوب يناسب الظروف وبتحفظ كامل. وفكرنا فى المترجم الخاص بى وهو شاب مفوّه فى العربية الفصحى والعامية واللهجات، وله أسلوب شعرى يتناسب تمامًا مع ما كنا نريده. ولكنه لسوء

الحظ كان خفيفًا كحصانه وثرثارًا كفيجارو[1]. وإذا حكينا له عن مغامرتنا لعرفت بها القاهرة بسكانها. فذهبنا لترجمان صديق وهو قبطى محترم، كتوم وصامت كالقبر. وكتب لنا العجوز الطيب خطابه الشهير:

"أيا فتنة الروح ونور العيون، يا محظيتين عند الإله، نحن عبدان لجمالكما، رُحْماكما بعبديكما. اسمحا لنا للحظة أن نجثيا عند أقدامكما، وأن نتمتع بزهور صداقتنا المقدسة وليقضِ علينا بعد ذلك ملك الموت".

وهكذا قطفنا كل أنواع زهور الشرق، وختمنا بعنوان البيت، وقائمة بالوسائل السرية التى يمكن عن طريقها استلام الرد أو مقابلتهما شخصيًا ولو للحظات قليلة، أو لمسات من الرحمة تبدل بيت خادمكم الذليل إلى بيت من بيوت اللـه.

وكان بيتى هذا عبارة عن فندق صغير تحيطه حديقة ويقع فى حى الفجالة، فرش بأحسن وأريح ما يمكن أن تجده من أثاث فى الحضارتين الشرقية والأوربية. وفى يوم الجمعة التالية عدنا إلى شبرا، ويا لحسن الطالع، ففى الساعة المعتادة ظهرت العربة وفيها السيدتان، وقذفت بالرسالة الملفوفة على شكل سيجارة، ويا لها من محظوظة فقد استقرت فى أحضان واحدة منهما.

وبعد برهة مررنا بالعربة من جديد وكانت السيدتان تقرآن الورقة وتعلقان عليها ضاحكتين. وكانت تلك علامة جيدة، فقد كانتا تعرفان القراءة.

ومر أسبوع دون جواب. واستشرنا مترجمنا فى ذلك، وبناءً على نصيحته كتبنا أو كتب هو من جديد خطابًا بائسًا وملتاعًا. ووصلنا حتى الشتائم التى هى طريقة لها حظ من التقدير طبقًا للقبطى بين العشاق فى الشرق فى مثل تلك الأحوال.

---

(١) فيجارو، شخصية من إبداع بومارشيه فى روايتى *"حلاق أشبيلية" و"زواج فيجارو"* وهو نموذج للخادم البارع المفوّه المدبر للمكائد. لاروس ص ١١٧٣ (المترجم).

وفى الجمعة التالية، تم وضع الرسالة بنفس طريقة الرسالة السابقة. ولم تكادا تقرآن حتى أسدلت الستائر بسرعة، ونظر الخصى إلينا مرتين أو ثلاث بارتياب، وأسرع السائق، ولاذوا بالفرار. وقلنا:

انتهى كل شيء، لقد خدعنا القبطى.

وكم كان الألم الذى أحسست به عميقا وأنا أقول ذلك لأنى كنت من يدعونه هائمًا بتلك العيون، العيون الأربع. كنت أحلم بهما وكنت أتأملهما بذهول فى الطبق عندما آكل، وفى الدفتر عندما أعمل.

وفى اليوم التالى، مر عبد يرتدى ثيابًا تركية غالية بجانب سور حديقتى وكان خادمى بالحديقة ورمى له جوابًا عليه عنوانى دون نظر أو كلام.

كان منهما. كان جوابهما، وقد كتب بأسلوب فصيح ورشيق وكانتا تقولان باختصار إنهما ليستا ملكًا لنفسيهما، وأنه ليس بإمكانهما الخروج والدخول برغبتهما وأنهما تعتقدان أن الثلاثاء القادم لن يشرفهما الباشا بالطلب. وأنهما تستطيعان حينئذٍ أن تستجيبا لدعوتنا بالصداقة، وأن تأتيا لتشرق نفساهما بحضورنا، وتعلنا نفسيهما جارتيين لكلينا، وتمنحاننا إياهما. وأن ذلك سيكون من الواحدة والنصف إلى الثانية فجرًا. وأن نقف على الباب لاستقبالهما، وأن نعطى حلوانًا كبيرًا للسائق والخصى اللذين ينتظران ذلك منا، ولأنهما يأمناهما على حياتهما.

وجن جنوننا لذلك الخطاب، أولاً بسبب الأسلوب الجميل الواعد الذى استخدمتاه، وثانيًا لأن يونانيًا كان قد أفلسنا الليلة السابقة فى لعبة " بكارات"، ولأن حياة هاتين المخلوقتين الطيبتين كانتا متوقفة على نقودنا.

ولم أتوقف على مدى يومين، وأصبحت حديقتى وبيتى عبارة عن جنة صغيرة. وجهز لى صاحب أحسن فنادق القاهرة عشاءً يليق بالوالى، من أطعمة باردة ولقم لذيذة ومرطبات مخصوصة وخمور مختارة. نعم خمور، والشمبانيا

بخاصة هى محل تقدير أولئك المؤمنين. فهم يحترمون القرآن لكنهم يصرون على أنها ليست خمرًا لكنها عصير ليمون.

وجاء يوم الثلاثاء، وصرفنا الخدم عند منتصف الليل وأطفأنا الأنوار، وأخذت وصديقى أتجول بعصبية، أعد الدقائق- وكلانا ملهوف- ينظر كلانا بلهفة إلى السور، نبحث فى الظلمات، ونسترق السمع للصمت السائد فى الشارع المهجور. وعند الواحدة والنصف زاد تحفُّزنا. ما هذا، ثمة صوت لعجل العربة يُسمع من بعيد. وقفز القلب من موضعه. واقترب الصوت، وتوقف الحصانان فجأة. ونهض الخصىّ من مقعد السائق ليفتح الباب الصغير، وتقدمت معبودتانا مشتاقتين ومرتبكتين إلى الحديقة. كل ذلك فى غمضة عين. وأعطيت للخصىّ عشرين جنيهًا إسترلينيًا، وانطلقت العربة كالبرق.

وكان صديقى أثناء ذلك قد عرّف السيدتين بنفسه وأوقد الأنوار. وللقارئ أن يتخيل العرفان الشديد الذى سيطر علينا. وعبرنا عن أنفسنا بخمس أو ست لغات خالصة وبخمسين مختلطة وبقيت السيدتان جالستين بدون حركة صامتتين، لا بد وأنهما لم تكونا تفهمان. لكن العيون- عيون المها النجلاء التى تحسدهما عليهما جونو[١] هوميروس- كانت تكتحل بالسواء كعادة العرب وكانت تنطق بما لا يقال. كان الجسد الملفوف يرتعش كأمواج البحر الهائج، وكان يُسمع ضجيج مكتوم لم أتبين هل كان ضحكًا أم بكاءً مريرًا. وتوسلنا إليهما أن تكشفا عن نفسيهما فرفضتا بإيماءة. وألححنا عليهما مرات عدة، واعذرونا فقد هددناهما تقريبًا، حينئذ نهضت السيدتان بشموخ مهيب ونظرتا إلينا نظرة العازف عنا، نظرة لم تخلُ من ازدراء، وبدأتا تنزع عنهما اليشمك.

(١) جونو: هى زوجة جوبيتر، وبنت ساتورنو فى إلياذة هوميروس وهى ربة الزواج، وهى تقابل هيرا عند الإغريق. لاروس، ص١٢٦٩ (المترجم).

وأرفض أن أصف حالة الحماسة التى انتابتنا أثناء هــذه التجربــة ومــرت اللحظات كالدهر، وسقطت الأقنعة.

يا إلهى! إنهما الممثلتان الإيطاليتان اللتان تعملان فى مسرح الأزبكية. لقد فاجأتانا فى حالة تلبس بالخيانة ولو بالنية على أقل تقدير".

وأكاد أجزم أن مغامرات الحريم التى يحكيها الرحالة كلها من نفس النوع.



فتاتان إيطاليتان

الفصل الرابع عشر

المجتمعات المشرقية فى القاهرة

عندما تحدثت عن السلالات المختلفة التى تسكن مصر، ذكرت الشرقيين بمدلولهم الشامل الذى يضم أبناء الأوربيين المولودين فى الشرق كما يضم المسيحيين القادمين من سواحل الأناضول وفينيقيا، والقادمين من ولايات تحت الحكم العثمانى. لكن عندما نتحدث عن المجتمع الشرقى فى مصر لا بد وأن أحدد موضوع الدراسة أكثر. فسوف أستبعد منه أولئك الذين تشبهوا منهم بالأوربيين تمامًا بسبب أصلهم أو مزاجهم أو شكلهم. حيث إن مجتمع الشرقيين الذى أقصده بالدراسة يُعنى فى المقام الأول بتلك الشريحة التى قوامها الأرمن والشوام.

إن هاتين السلالتين نمتا هناك فى ظل القهر حتى بدايات القرن الحالى. وعاشتا خاضعتين للعرب والأتراك. كان المسيحيون يحتقرونهم، وكانوا هدفًا للهجمات الملتهبة والشتائم المقذية، فانتهت بهم الحال إلى هذا الانصياع المخزى الذى يميز أولئك المظلومين الخانعين عادة. لقد فقد الأرمن والشوام فى مصر سماتهم الأخلاقية، ولم يذكروا بعد أصولهم، وتشبهوا بالعرب حتى ذابوا فى وسطهم.

أصبحت عاداتهم هى عادات محتليهم. غير أنه فى ركن معزول من البيت، وبعيدًا عن عيون الآخرين فى وحدة وعزلة عادة ما تميز حرم البيوت الشرقية حيث لا يسمح لأحد بالدخول، يمكن أن تأتيهم الجرأة على ممارسة شعائر أجدادهم على استحياء، وأن يهمسوا بصوت يخنقه الخوف بصلاة لمريم العذراء البتول وأن يطلبوا عونها ومواساتها فى المحن المستمرة التى تحيط بهم. وفيما عدا ذلك فإن حياتهم شرقية خالصة. فلا تخرج نساؤهم إلى الشارع إلا إذا غطت وجهها بالشال الأسود كالفلاحات. وحتى رجالهم يلفون العمائم على رؤوسهم ويلبسون الجلباب

الطويل مثل المصريين. ويلبسون باقي الملابس التي تحول دون تمييزهم. ويعيشون في بيوت عزّ أن تفتح أبوابها للصديق. ولا تفتح أبدًا للغريب، وتسد شبابيكها مشربيات سميكة كعادة العرب.

ونلاحظ هذه الحالة المزرية لكل الأرمن والشوام الذين ولدوا قبل انتصاف القرن الحالي. فلا تكاد تميزهم عن المسلمين في ملامحهم ولا عاداتهم وأهوائهم. ورغم أن الرجال استطاعوا التشبه قليلاً بحضارتنا فإن النساء ما زلن شرقيات تمامًا.

السوريون – طباعهم – نساؤهم

لم تستطع التيارات الفكرية الحديثة أن تؤثر على الشوام إلا قليلاً. ومن الواضح أن مواردهم نادرة وأن الشوام عامة فقراء، وأن أصلهم لا يبعد كثيرًا عن أصل الشعب العربي، فهم يتحدثون لغتهم. إن رجال هذه السلالة ليسوا أكفاء للعمل ولا هم متميزون في أي نوع من أنواع الدراسة. وتكمن سعادة الشامي في وظيفة صغيرة في مكاتب الحكومة أو في أي منشأة تجارية. يعيش على راتبه منها ويحاول بشتى الطرق المشروعة وغير المشروعة أن يزيد عليه، فهو مرتش، وأي عمل يطلب منه ينجزه بسعر زهيد، ولكن بعض الشوام أغنياء، كوّنوا ثروات طائلة ويتفاخرون بذلك أمام أصدقائهم فقط. فالشامي لا يظهر عليه الثراء. ويعيش غنيهم وفقيرهم عيش البؤساء. وقد أقلع نساؤهم عن ارتداء الحجاب العربي. وكشفن عن وجوههن وما زلن يلبسن العباءة السوداء الفضفاضة التي تغطي الجسم كله كنساء الحريم. وهن لا يتحدثن سوى العربية، ويقاومن أي تكيف مع العادات الأوربية التي يجدنها غير مريحة بسبب إهمالهن. وهن لا يحببن الاغتسال ويأكلن بأصابعهن، ويجلسن متربعات فوق سجادة يُدخنّ الغليون أو السيجار الورقي

ويفضلن ذلك على عبودية الخضوع- طبقا لما يعتقدن- لقواعدنا الاجتماعية. وتندر بينهن الذكيات. وحتى عندما توجد بينهن من لها وجه مليح وقدٌ مميز، فعـادة مـا تكون قليلة الجاذبية.

أخطاء تربيتهم

ارتكب الشوام خطأ فادحًا فى تربية أولادهم، خطأ أخذت بوادره فى الظهور الآن وينذر بعواقب وخيمة فى المستقبل القريب. فقد حملت حكومة إسماعيل باشـا السمحة إلى مصر كثيرًا من عناصر الثقافة التى لم تكن موجودة من قبـل. فبنـت المدارس والمعاهد فى أنحاء مدن الدلتا والصعيد. وظهـرت فـى نفـس الوقـت الإرساليات المسيحية وفرق الراهبات والرهبان والإخوة والرعاة الكنسيين، وأسسوا معاهد تعليمية بهدف تعليم الأطفال وإدخال أناس جـدد فـى عقائـدهم المختلفـة. وتستخدم الأقليات الأجنبية هذه المعاهد التعليمية لكنهم لن يحتملـوا كثيـرًا إذا لـم يساعدهم العنصر الشرقى. ويكوّن الأطفال الشوام أغلبية التلاميـذ فـى المـدارس الأوربية.

لكنهم لا يمكثون فيها وقتًا طويلاً، فبمجرد تعلم أوليـات التعلـيم الابتـدائى تضطرهم الحاجة إلى التفرغ للعمل الذى يبحثون عنه فى الأعمال المكتبية. وقلـيلاً ما يبرز من بينهم شخص ذكى فما بالك بشخصيات شهيرة، لذا فليس من الغريـب أن لا يأتى التعليم الأوربى بثماره. وتظهر الأزمة جلية بين النساء. فهن يتعلمن فى مدارس الراهبات التى تستقبلهن للعيش بها بأسعار زهيدة، وحياتهن داخـل الـدير منظمة ومنهجية وتتبع نفس التعاليم التى تسير عليها الأديرة فى أوربا، فهى تشبهها تمامًا. وفى حلقات الفتيات اللاتى يلعبن ويصحين فى ساعة الراحـة لا يمكـن أن تميز الشاميات إلا باللون الزيتونى الخاص بسلالتهن. يقبعن لبضع الـسنوات فـى

المدارس وحينما ينضجن- إذ تنتهى فترة المراهقة سريعًا بفعل طقس الشرق الحار- يشعرن بنفور من تلك العادات التى جعلتهن يشعرن بدونية تجاه الأوربيات، ومن هنا تتولد لديهن الرغبة فى مغادرة المكان الذى تربين فيه بأسرع ما يمكن والذى أحسسن فيه بالعبودية.

إن غاية ما يتمنين هو أن يتزوجن بشرقى متحضر. وإذا وجدن زوجًا أوربيًا فإنهن قد وجدن غاية السعادة تتحقق لهن على الأرض. ويتحقق أحيانًا لهن ذلك الحلم الذهبى. فيتزوج الفرنسيون أو الإيطاليون بالنساء الشاميات. ولمَ لا؟ فهن شابات جميلات على قدر من التربية، لهن عيون فاتنات تتلألأ تحت حواجبهن المقوَّسة. ولهن شعر حريرى كثيف على رؤوسهن الجميلة. وهن مدللات، تربيْن على الطريقة الأوربية. فمن يشك إذًا فى أن الشامية يمكن أن تجلب السعادة لمن يغرم بها؟ غير أنه تعيس من يقع فى تلك المظاهر المغرية، ففى العش الجديد تختفى الأوهام سريعًا ولا تلبث المرأة الشرقية أن تطل بوجهها من جديد. وتقضى على اللمعة التى تختفى تحتها شخصيتها الحقيقية وتظهر لزوجها. فهن بطبعهن كسولات، وليست لهن عزيمة ولا ثبات على فكر، فلا هنّ مسيحيات خالصات ولا عربيات فى عاداتهن. إن المجتمع الأوربى ينأى كثيرًا عن أن يقبلهن فى أحضانه. وهن لا يزلن يكرهن النساء من بنى جلدتهن. فهن سجينات الملل، يعشن فى عزلة جبرية، لا يبحثن عن عمل يسرين به عن أرواحهن ويشعرن بأنهن أجنبيات فى بيت لا يتحدث بلغتهن فيبدأن سريعًا ما تنتهى إليه بعض الأوربيات. تسمم المشاحنات الجو فى البيت. وتتباعد المسافة بين الأزواج وتتسع الهوة التى تفصلهما يومًا بعد يوم، ويلعن الزوج اللحظة التى وقعت فيها عيناه على زوجته، فى حين تنتظر هى اللحظة التى تسمع فيها صوت أول شرقى متحضر على شاكلتها وتنتظر منه كلمة حب حتى ترتمى بين أحضانه.

إن الجالية الشامية الخالصة تشبه قدس الأقداس الذى نادرا ما يدخله الأوربى. يروق لهم السَمَر والاجتماعات وحتى سهرات الرقص حيث تسود العادات الشرقية بكل خصائصها. فيجتمع الرجال فى حلقة منفصلة يدخنون ويلعبون أو يتكلمون فى السياسة. وتتجمع النساء يتسلين بالجلوس على سجادة مكونات حلقة واسعة تبرز فى وسطها أشكال مختلفة من الحلوى واللقم اللذيذة ويحكين النكات الخارجة. ويستمعن بمتعة خاصة إلى القصص الخرافية. وأحيانًا ترفع إحداهن صوتها بأغنية عربية تصحبها بالطبع فى ذلك الدربُكة. ولا تعيش المسلمات فى دنيا الحريم إلا بهذه الكيفية.

الأرمن

غير أن الجالية الأرمينية تتميز عن الشامية، وهذا ناتج عن أن أفراد هذه الأقلية أكثر ذكاء وحركة من الشوام. لكن يثقل كاهلهم نفس سمات الخضوع للعرب. فيبدو ظاهريًا أنهم استفادوا أكثر من تربيتنا، لكن عند التعمق قليلا فى شخصياتهم تجد الإنسان الشرقى. وتظهر الشابات الأرمن فى ظروف أسوأ من قريناتها الشرقيات. فعندما يكملن دراستهن يشعرن بالهوان فى بيوتهن. فهن يرغبن فى تحويلها إلى بيوت أوربية تشبه بيوتنا، وأن يستقبلن الأجانب ويتبادلن معهم الهدايا، لكن أسرهن تعارض أى تغير فى العادات، وبالطبع تشعر هؤلاء الفتيات برغبة فى مغادرتها فى أول فرصة تعِنّ لهن، فهن ذكيات كما قلت آنفا، يتحدثن بإتقان بعض اللغات ودائمًا ما يتعلمن لغات جديدة وهن فى خيالهن يتطلعن إلى عبور البحار والعيش فى بلاد أخرى يتمتعن فيها بحرية أكثر ويشعرن فيها بالسعادة. هل يكون زوجها أو محبوبها إنجليزيًا أم ألمانيًا أم فرنسيًا أم إيطاليًا؟ لا يعرفن. فهن يحلمن بإنجليزى ذى شعر أشقر ووجه أحمر يبرز جمال ملامحهن البيضاء وناصية شعورهن السوداء كالأبنوس. فإذا لم يظهر فتى أحلامهن سريعًا فإنهن يقبلن أول أجنبى يطلب أيديهن ولا يهمهن كثيرًا إذا كان يطلب اليد اليمنى أو حتى اليسرى.

وطالما بدت لى فتيات تلك الأقلية شديدة الظُّرف، وأحتفظ لهن بذكريات غالية لن تنسى مع مرور الزمن طوال حياتى. وعندما أمعِن النظر فى الماضى سأستدعى للذاكرة المعاملة الحسنة لمجتمعهن والساعات الطيبة التى قضيتها فى صحبتهن والتى أشعر بأسى لأننى سأفتقدها للأبد. وعند حكمى عليهن تحرَّيت الدقة رغمًا عنى. لكن الأرمينيات الفاتنات ذوات العيون السوداء والقد الممشوق سيستمعن لرجائى بأن يعذرننى لإعجابى الصادق بهن على كتابة السطور السابقة فى حقهن.

نوبار باشا

وبمصر بعض الأرمن الأغنياء من ذوى الأملاك والمرابين. لكن الشخصية الأبرز بينهم هو نوبار باشا رئيس مجلس الوزراء الحالى ووزير الدولة لصاحب المعالى الخديو، وهو الشخصية الأشهر فى السياسة المصرية المعاصرة. واسمحو لى أن أكتب بعض السطور فى هذا الموضوع.

إن نوبار رجل عصامى وربما كان ذلك هو أحسن ألقابه. خدمته السهولة التى يتمتع بها الأرمن فى تعلم اللغات فى أن يعمل مترجمًا فى القصر منذ صباه ثم بعد ذلك شمله الإنعام الخديوى فى تحسين مركزه الشرفى والمادى عدا فى أوقات قليلة من صروف الدهر. عرف كيف يحافظ على نفسه منذ سنين عديدة داخل الحكومة أو قريبًا منها. وربما أقف عنده كسياسى إذا توقفنا عند دراسة الوضع السياسى فى مصر، أما هنا فيكفى أن أسجل الدور الذى يلعبه فى المجتمع القاهرى.

والباشا – كما يدعونه فى القاهرة – يعيش فى وسط الحى الأوربى قرب محطة القطار. وبيته كبير وفخم يظهر علية الثراء والتناسق إلى حد ما، لكنه

يحتوى فى داخله على كل وسائل الراحة التى تتطلبها المعيشة فى الشرق؛ فالحديقة فسيحة وظليلة، يرتفع فيها النخيل سامقًا فيلف المكان بسحر لا يوصف. وتضفى زوجة نوبار بهجة على المكان، وهى أرمينية كزوجها. ولم تستطع تربيتها أن تخفى أصلها الشرقى تمامًا. وابنتها فتاة مليحة سافرت كثيرًا إلى الخارج واستوعبت عاداتنا بطريقة جيدة. وبالطبع فإن زوجة نوبار تؤثر فى السيدات الأرمينيات اللاتى يعشن بالقاهرة واللواتى يتُقن إلى زيارتها حتى يقلدنها فيما بعد.

كان نوبار باشا مفترى عليه دائمًا بسبب أولئك الذين لا ينجحون بجانبه فيما أعتقد. وهو على العكس متهم بأنه صديق صدوق أكثر من اللازم. وليس ذلك بالنسبة لبنى جلْدته من الأرمن، فكونك أرمنيًا ليس ميزة عند الباشا. والتعامل مع الباشا سهل، فأخلاقه تعجبك وكلامه معسول تميل إلى الاقتناع به. وهو يشد بكلتا يديه على أى يمين تمتد له ويوشك أن يقلد العرب ويحملها إلى قلبه وإلى شفتيه. وعندما يتحدث إليه شخص لأول مرة يعتقد أنه حاز عطفه لكنه مخدوع. ولنقل إن نوبار فكاهى ممتاز فى الصالونات. وهو حريص على مصالحه وشخصه ولا يهمه أحد ولا يتعاطف مع أحد. وإذا كان الأمر يخص مصلحته فإنه يترك أعز أصدقائه فى أكثر المآزق حرجًا. وهو يستقبل الناس فى بيته أيضا وليست له جلسات سمر، لكنه لا يستطيع التخلص من الزيارات الدبلوماسية ومن زيارات كبار الموظفين والأجانب. ولكى يختصر مدة بقاء الدخلاء المزعجين عنده اخترع طريقة شرقية خالصة، إذ يستقبلهم فى بهو بيته متعللاً بأن الجو هناك أقل حرارة. وتراه أحيانا جالسًا فى صالونات بيته المزينة بذوق نادر، وإذا أثنى أحدهم على قطعة أثاث غالية أو مرآة جميلة فإنه يجيب دائمًا بابتسامته العذبة المدروسة ويقول:

– إنه لا يساوى شيئًا، إنها مجرد قطعة رخيصة مذهبة.

حفل زواج - إيرانوى ميريديان -

هذا هو المجتمع الشرقى فى القاهرة، الضائع فى طموحه المثير للضحك لتقليد المجتمع الأوربى المجاور له والذى يقترب منه دون أن يختلط به أبدًا. خسارة ضياع هؤلاء القوم الطيبين، الذين رغم استطاعتهم أن يكونوا سعداء بالعيش على طريقتهم فإنهم يصممون على ألا يكونوا كذلك بتقليدهم لأناس غرباء. إن بعض الأرمن والشوام ما زالوا يحتفظون بالعادات والتقاليد الأسرية لسلالتهم لكنها أصبحت ذكرى مهملة ستزول سريعًا فى الجو الوهمى الذى يتحركون فيه. وسنحت لى الفرصة فى أبريل سنة ١٨٨٥، لحضور حفل خاص ببعض الشرقيين. فكان أن زوّج شامى ذو قدر فى البلاد ابنته لشاب من بنى جنسه، ولصلة الوالد بى بسبب بعض المواضيع الرسمية، واعتقادًا منه أنه سيروق لى استلام الدعوة المكتوبة فى مظروف فقد بعث لى بخطاب أترجمه نصيًا فيما يلى:

> **يتشرف السيد أفرو ساكى بدعوتكم للمشاركة فى حفل زواج ابنه فريد أفرو ساكى على الآنسة إيرانوى مريديان والذى سيتم فى بيته يوم ١٧من الشهر الجارى فى تمام الساعة السادسة مساءً. والحضور بالملابس الرسمية.**

ولقد جذبت هذه الدعوة انتباهى بسبب شىء عجيب، فقد لاحظت أن الدعوة لم توجه لشخصى فقط ولكن لسترة الاحتفالات العسكرية الخاصة بى أيضًا، تلك البدلة المطرزة على الظهر وعلى الصدر، والتى تجبرنا المراسم على ارتدائها ويدعونا الإتيكيت لاستعراضها فى الحفلات الكبرى. وعلاوة على ذلك فإن الدعوة راقت لى كثيرًا فقد لاقت رغبة عندى لرؤية ما لم أره من قبل، ألا وهو حفل زواج عند الشرقيين. علاوة على أنى كنت أعرف العروس وكانت تعدُّنى صديقًا لها،

فحين تعرفت إليها فى مناسبة أخرى قضيت خمس دقائق بجانبها ورأيتها بعد ذلــك ثلاث أو أربع مرات. صحيح أننى فى كل مرة كان يقــع علــىّ عــبء الحــديث بمفردى، إذ إن تلك الفتاة العاشقة والتى سريعًا ما سترى آفاق الزواج تنبسط أمامها كانت تجيب عن أسئلتى بكلمة واحدة دائمًا، ولم ترفع عينيها قط كــى تنظــر إلــى وجهى. إن الكلام القليل أمام الرجال يعد من حسن التربية بين الفتيات الشرقيات.

ولكن لماذا يريدون بدلتى الرسمية فى هذا البيت؟ ألكى يعرضــوها كــشىء عجيب؟ فهى توجد فى كل مكان هذه الأيام. هل ليلبسها خــادم مــن الخــدم؟ لــم يعاملونى بهذه البجاحة حتى تكون لهم جرأة فى فعل ذلك؟ لم أستطع أن أتبين. ربما فكروا فى أن أرتدى سترة الاحتفالات العسكرية بنفسى لكن هذا كان تضحية كبيرة فى جو كهذا. وبعد أن فكرت لحظات قررت أن ألبى الدعوة الموجهة لشخصى فقط وأن أستغنى عن الدعوة الموجهة إلى ملابسى العسكرية.

وصف الحفــــــــل

وارتديت بدلة سوداء وتوجهت ناحية البيت الذى فيه الاحتفال وتبينتــه مــن بعيد، فقد وضعت أكاليل الزهور وغصون الشجر والفــوانيس وكــرات الزجــاج الملونة تحت العقود أسفل البلكونات. ومثل ذلك من الزينة فى البهو وعلى السلالم. وعلى جانب من البهو فوق منصة خشبية جلس خمسة أو ستة موســيقيين عــرب كانت أدواتهم تقتصر على بواق وكلارينت وطبــل. وعنــد وصــول المــدعوين المميزين كانوا يحيُّونهم بعزف المارش الملكى. ولما أعلن عن مجيئى بهذه الجلبــة تقدمت إلى الحجرات التى سيعقد فيها الزواج رسميًا بعد لحظات.



الكاتب يتجه إلى بيت العروس

إن صالونات البيت يمكن أن تتسع بالكاد لخمسين شخصًا لكن المدعوين كانوا حوالى أربعمائة ولم يتخلف أحد منهم عن تلبية الدعوة، ولم يعد يتسع البيت لأحد فى أى من أركانه وقد امتلأت الحجرات عن بكرة أبيها، وكذلك الممرات ودرج السلم. وأعِدّت حجرة أخرجت منها السرائر لحفظ الملابس، فيسلِّم المدعوين معاطفهم مقابل أرقام تعطى لهم ويدفعون ريالين. ثم يبحث كل واحد عن مكان يجلس فيه أو يقف فيه حتى، لأن أولئك المحظوظين الذين وجدوا كراسى للجلوس لن يغادروها أبدًا.

تعذيب المدعوين

وتبعا لقواعد الذوق الشرقى فقد تجمعت السيدات فى أكبر صالونات البيت. ولكن يصارعن أيضا بسبب نقص الأماكن فكن كالسردين فى برميل. وبالرغم من هذه المشقة كن يتبارين فى الظهور لطيفات سعيدات مظهرات لمفاتنهن التى حبَتهن الطبيعة بها. ولقد طفت أنحاء العالم ورأيت ملابس غريبة وتقليدية لكنى أعترف

أنى لم أندهش كدهشتى عند رؤية هذا الحشد من الملابس غير المتناسقة ألوانها فى عرض الموضة لهاتيك السيدات الشرقيات. فلتعذرننى وليسامحنى الرب فإنه ليس من اللياقة الحديث بسوء عن النساء، لكنى لن أسكت عن البوح بما أفكر فيه لوصف ما رأيته. كانت وجوههن المصفرة السمراء تختفى تحت طبقة من الألوان تتبعثر بوفرة على البشرة. وكان اللحم يفيض من الصدر بدون لياقة، وكانت الأجسام ثقيلة والأيدى سمينة وقصيرة، كانت تبدو كأيدى غسّالات أكثر منها أيدى سيدات مميزات. كانت الملابس على شاكلة النساء اللاتى يرتدينها، صنعت من ألوان صارخة وغير متناسقة، فصَّلها خياطون عرب لا يفقهون عن الموضة شيئًا. آه يا صالون فريد بك، لن أنساك ما حييت كواحد من المناظر الأكثر عجبًا والتى أدهشتنى طوال حياتى.

وفى حجرة مجاورة للصالة كانت أبوابها مغلقة بإحكام تجمعت صديقات الأسرة ذوات الأصل التركى والعربى واللاتى دعين إلى الحفل. كن مغطيات من رأسهن إلى أخمص أقدامهن بثياب حريرية سوداء، ويغطى وجوههن حجاب أبيض شفاف. وكانت السيدات من الحريم اللاتى حضرن الحفل يميزهن الحديث الهامس والضحكات العالية. وقد حاولت مرة تلو الأخرى الاقتراب من الباب الذى تدخل منه المسيحيات ويخرجن إلى هذا المكان، وعوضنى النظر إلى العيون السوداء عن المضايقات والشدائد التى عانيتها حتى أتقدم من بين تلك الحشود المزدحمة.

وفى العاشرة مساء خرج الموكب للبحث عن العروس. ولأنها كانت تعيش بالقرب من بيت العريس حيث سيقام حفل الزواج فقد استغنوا عن العربات. وتحول الأمر إلى مسيرة حقيقية. وبدأ العزف بموسيقى عربية هى نفس الموسيقى التى تعزف لاستقبال الضيوف على السلم. وذهب حشد من الأطفال وأصدقاء العائلة من صفين يحملون الشموع فى أيديهم. وتقدمت خلفهم مجموعة من المدعوين ببطء تصحب العريس لإحضار "إيرانوى" الجميلة من بيت والدها. وأخذتُ شمعة

وانضممتُ للموكب كى أرى كل شىء. وسادت الجلبة والموسيقى والصراخ عندما وصلنا بيت العروس. وكانت فى انتظار الموكب بصحبة صديقاتها، وودعت والديها وأفرطت فى ذلك. وغطت رأسها ووجهها بطرحة واسعة غطت كل ملامحها. واتكأت على ذراع امرأتين ونزلت إلى الشارع ووقفت فى نهاية الموكب فى حين استدار الموكب متجها ناحية بيت العريس. وفى هذه الرحلة عدنا نتزاحم كما أتينا تصحبنا النساء اللاتى زدن من الجلبة والضجيج بالزغاريد التى تستطيع حنجرة النساء العربيات فقط أن تأتى بها.

ولما وصلنا فى النهاية إلى بيت فريد كشفت العروس عن وجهها، وبدأ الحفل الدينى مباشرة. فوُضع مذبح صغير فى وسط الصالون. وقام ثلاثة من القساوسة اليونانيين طوال القامة متباهين يلبسون عممًا سوداء وحللاً ثمينة يغطيها الذهب وأدوا الطقوس الدينية وطلبوا البركة من السماء للزوجين السعيدين اللذين سيجتمعان حتى الموت. ووقفت "إيرانوى" أمام القس الأرثوذكى وهى أكثر بياضًا من زهور البرتقال التى على رأسها. ولم ترفع عينيها عن الأرض. كانت الانفعالات تتملكها فيما يبدو. كان العريس يرتدى بدلة سوداء يلبسها الأتراك والمصريون، وعلى رأسه طربوش بدا لى مثيرًا للضحك.

كانت الصلوات قصيرة ومهيبة. وانتقل تاج من الفضة المرصَّعة بالأحجار الكريمة من رأس "إيرانوى" إلى رأس فريد. وبدا لى أن فضل أسرار الكنيسة يكمن فى هذا الطقس. ثم غنى القساوسة فى كورال. واشترك معهم الهواة من المؤمنين. وانتهى الحفل والصرخات التى تجاوزت حدود العقل من النساء اللواتى حولن المكان إلى اجتماع للساحرات على مدى خمس دقائق. وأراد الأجانب الحاضرون فى الحفل الانسحاب بسبب التعب والاعتقاد بأن أهل البيت سيشكروا لنا مغادرتنا أكثر من مكوثنا فى المكان. لكن الجواب جاء من صاحب الدار عندما أمر بغلق الأبواب فأجبرنا بذلك على البقاء، وجلست العروس على أريكة فى الصالة. وبدأ

المدعوون فى المرور أمامها، وكانت تجيب على بعضهم بانحناءة خفيفة من رأسها. بينما كانت تنهض وتسلم على البعض الآخر والذين هم بدون شك أكثر أهمية.

ولما تعبت من الوقوف لوقت طويل، وفقدت الأمل فى وجود كرسى أجلس عليه، استطعت الوصول إلى ركن بعد جهد وجلست القرفصاء كما يفعل الشرقيون. وذهلت وأنا فى ذلك الوضع عندما بدأت الوليمة، فلم تكن هناك صالة للطعام معدة لهذا الغرض ولا مائدة ولا شىء من هذا القبيل. فكان بعض العرب يمرون بصوانٍ كبيرة تمتلئ بشتى أنواع الحلوى والخمر والمرطبات وكانوا يعطون منها المعازيم، وهنا اكتسبت الحفلة حيوية أكثر.

وفى الواحدة صباحًا، فكرت جديًا فى الانسحاب، فكان الأمر أثقل من أن يسلِّى، وليست هناك أحداث جديدة. فاستطعت الخروج بعدما اعترضوا على ذلك، وعددت نفسى سعيدًا عندما ودعنى الموسيقيون على السلم بموسيقى التشريفات.

إنى أسامح الشرقيين من كل قلبى، فإذا كانوا سببًا لعذاب استمر ساعات إلا أنهم أعطونى فرصة حضور إحدى حفلاتهم الأصيلة.

الفصل الخامس عشر

المجتمع العربى فى القاهرة

وصفنا فيما سبق الجاليات المختلفة الموجودة فى مصر حاليا والتى يحتك بها الأوربى بطريقة مباشرة، ويبقى أن أتحدث عن المجتمع العربى وهو الوحيد ربما الذى يحتفظ بنفسه دون اختلاط مع الفرق السابقة مطلقا.

تعيش الأسرة العربية سجينة البيت ليس لها أى دور اجتماعى ولا يسمح نظامها بشىء غير ذلك، إذ إن الشخصية الغيورة بطبعها للأزواج العرب ترتبط بالاعتقاد الراسخ بأن النساء أقل ذكاء وإرادة وعاطفة، وأن المرأة ليست رفيقة الرجل, ولم تخلق على شاكلته لكنها تنتمى إلى جنس أدنى فى ترتيب المخلوقات التى تتكون منها البشرية طبقا لاعتقادهم أن كتاب المسلمين المقدس يحدد دور المرأة بوضوح شديد على أنها أنثى فقط فى الأسرة, وأنها ليست رفيقــة للرجل، وأنها ليست كذلك إلا بقدر الخدمات التى يمكن أن تقدمها له.

ولا تظهر المرأة العربية أبدا, ولا تُرى فى أى حفلة عامة ولا حتى فى المسجد ولا يسمح لها بالخروج إلى الشارع إلا عندما تكون لها حاجة تقضيها، وعندئذٍ تغطى وجهها بحجاب أسود يتــدلى من الرأس بأنبوب نحاسى, وعندما لا تتسنى لها عربة تركبها فى المدينة فإنها تستأجر حمارًا وتجلس القرفصاء فوق البرذعة، وتبقى فى ذلك الوضع غير المريح بمساعدة الحمّار الذى يمشى بجانبها طوال الوقت. وفى القرى الصغيرة والحقول تركب النساء دائمًا بهذه الطريقة المبتكرة.

ويرتدين الملابس بطريقة بسيطة. وهى عبارة عن خمار أسود أو أزرق يتدلى من الرأس ويلف الجسم كله ولا يترك سوى طرف السروال المطرز فقط ظاهرًا بمستوى الرسغ. غير أنه يروق لهن ارتداء أحذية ذات كعب عال على

الموضة الأوربية، غير أن ذوقها غريب، فهى مصنوعة عادة من أقمشة ملونة تزينها الورود الخضراء والزرقاء والصفراء. ويـتَـقُن إلى استخدام الحلى من الفضة، فيلبسن الخلخال فى الأرجل والأذرع، والأقراط الطويلة فى الأذن وفى الأنف أيضًا. وغالبًا ما تتلألأ فى أيديهن خواتم التركواز. ولا يستخدمن الدهانات على الوجه، لكن يتبعن فقط العادة المصرية القديمة التى ترجع إلى عصر الدولة القديمة بوضع الكحل على الرموش وهو مسحوق الأنتيمونيا. ويصبغن أيديهن وأرجلهن بالحناء حتى ترتسم أظافرهن بلون وردى؛ لكن غالبًا ما تترك هذه الخلطة بُقعًا قذرة على البشرة كالتى تتركها قشرة الرمان.

مراسم الزواج

تتزوج الفتاة العربية فى سن مبكرة، حيث إن القانون يسمح بالزواج إبتداءً من عشر سنوات. فتدخل فى أسرة الزوج لتكون جزءًا منها بمقتضى دفع أسرة العريس مهرًا أو مبلغًا من النقود معينًا يكون كالثمن الذى يدفعه الزوج حتى يحصل على المرأة كأى من الممتلكات الأخرى. وغنى عن القول إنه من النادر أن يرى الزوج زوجته قبل أن يعقد عليها، وهذا يحدث فقط فى الطبقات الدنيا من المجتمع، وكل ما يعرفه عنها يأتى عن طريق النساء العجائز بخاصة، وظيفتهن هى إيجاد العروس للشاب الذى يريد الزواج. إنهن سماسرة زواج بحق.

وعادة ما تتم مراسم الزواج ببذخ. ففى صباح اليوم المحدد، تتجه صديقات العروس إلى بيتها ويصطحبنها إلى الحمام وسط موكب صاخب يدعى زفة الحمَّام. ثم يخرجنها من هناك وهى فى كامل زينتها، وعادة ما تكون فستانًا غاليًا ذا لون أبيض أو أحمر مطرزًا بالذهب الكثير، وتيجانًا وعقودًا من العملات وأساور من الفضة. ولا ترى هذه الزينة فى الشارع، إذ إن العباءة المزدوجة من الكتان الخشن الأزرق تغطى به العروس جسمها ورأسها.

ثم يتجه الموكب النسائى الذى ينضم إليه موكب آخر من أصدقاء العريس فيتجهون إلى بيته وسط ضجيج وزغاريد الحضور، وغالبًا ما تصحب ذلك نغمات نشاز من الموسيقى العربية. وبدأ الأغنياء فى استخدام عربات فى هذه المواكب، والتى غالبًا ما تمتلئ بها شوارع المدن المصرية.

ثم ينتهى العرس باحتفالية تأتى أهميتها فى أنها تقيس مدى ثراء العائلات طبقًا للهدايا المقدمة من الأصدقاء. أتذكر أنى دعيت فى القاهرة إلى حفل من هذا النوع، واستنفذ صاحب الدار فيه كل قريحته كى يضفى عليه رونقًا كبيرًا. فخصص حجرات عدة للسيدات، وهن بالطبع منفصلات عن الرجال. وقد غطى بهو البيت الفسيح بأشكال من الأقمشة المطرزة، وامتلأ هذا الصالون المرتجل بألوان الزهور، والموائد الممتلئة بالحلوى واللقم اللذيذة والمشروبات من كل الأنواع. كانت الفرق الموسيقية تعزف فى جميع الأركان، بعضها يعزف موسيقى بلدية والبعض الآخر يغنى أحدث الأغانى الشعبية. وكيف لا وهذه الحفلات تنحدر إلى مستوى السهرات الحمراء ولا تنتهى حتى يطردهم صاحب البيت تقريبًا بعدما يمل منهم بأدب إلى الشارع.



عروس مصرية

الأســــــــرة

ويقتنى العربى الذى يتزوج فى مصر بيتًا مستقلاً تاركًا بيت والده، وهذه ليست عادة الشرقيين. فهناك شعوب فى بعض بلاد الشرق ترفض هذه التفرقة بين الأفراد المولودين تحت سقف واحد. وفى الصين - طالما كان أكبر أفراد الأسرة على قيد الحياة - لا يمكن أن يخرج أحد الأبناء من البيت أيًا كان وضعه أو مركزه فى الحياة الاجتماعية. فالعرب يدركون مثلنا أن الزواج يحرر الابن من وصاية الأب، مع احتفاظه فقط بروابط الاحترام والعطف الطبيعية.

مولد الأبنــــــــاء

ويعتبر العرب ميلاد الابن حدثًا سعيدًا، كما يعتبرون مولد البنت كارثة. على أنهم يقبلون بعضهن رضاءً بالقدر الذى يحترمه الجميع، ويعلنون بفرح قدوم المولود الجديد. ويعتقدون أن الطفل يستغرق سبعة أيام حتى يستقبل الانطباعات الأولى عن الحياه، ولهذا السبب فعندما يكتمل الأسبوع يدعون الأقارب والمعارف إلى حفل داخل البيت ويحرصون على قدوم قاض أو شيخ أو شخص آخر ذى شأن كى يشارك فى الاحتفال الذى يشبه التعميد عندنا.

وفى هذا الحفل يبلل القاضى رأس المولود بالمياه ويلعق قطعة من السكر ثم ينقل لعابه للمولود، ويعتقدون بذلك أن الطفل سوف يستقبل انطباعات حلــوة عــن الحياة ما دام حيًا. ثم يسمّى المولود حينئذٍ. ولا يــستخدم العــرب الألقــاب لكــنهم يستخدمون الأسماء الشخصية البسيطة والمركبة. ويكثــر بيــنهم اســم محمــد أو "ماهوما" كما ندعوه نحن الإسبان، أو أحمد أو سليم أو عبد اللــه، ومعنــاه خــادم الرب، أو عبد الرسول ومعناه خادم النبى...إلخ. ولأن استخدام الاســم الأول فقــط

يمكن أن يسبب اختلاطًا كبيرًا بين الأفراد الذين لهم نفس الاسم فيضاف اسم الأب إلى الابن كما لو كان لقبًا، فيقال فلان بن علان. ولتحرى الدقة فإن العرب يتميزون بأسماء الشهرة أكثر من الأسماء الشخصية, فمن النادر أن تجد فى هذه البلاد شرقيًا لا يُعرف بإحدى سماته الجسمانية أو بحرفته أو بحادث أصابه. وتنتشر الألقاب فى مصر كما فى ريف كاتالونيا والتى يندر أن تجد فيها أسرة بدون لقب معين.

وعندما يُكمل المولود أربعين يومًا يخرج لأول مرة من بيته فى معيّة أمه التى تذهب به إلى الحمّام كى تسكب على رأسه أربعين فنجانًا من الماء إذا كان المولود ذكرًا، أو أقل واحدًا إذا كانت بنتًا. ومنذ تلك اللحظة يُترك المولود وحظه، إذ إن العناية التى تتوفر له فى هذه السن الحرجة من الطفولة تعد قليلة وليست جيدة. وقد أدخل التطعيم إلى مصر منذ فترة وجيزة، وبرغم الجهود المضنية التى تبذلها الحكومة كى تفرض استخدامه، فإنها لا تستطيع السيطرة على المقاومة السلبية من جانب الأسر.

الطهـــــــور

وعند بلوغ السادسة أو السابعة تجرَى للطفل عملية الطهارة، ويقام فى البيت احتفال كبير بهذه المناسبة وتجرى العملية بطقوسها فى أحد المساجد. وتتكوّن مسيرة تعد موكبًا مهيبًا بحق كى ينقل إلى هناك, ويحمل جمع من الأطفال ومُرتدى الاسمال من العرب أوراق الخوص والأفرع الخضراء والمصابيح، ويصيحون فى الشوارع تتبعهم الفرقة البلدية التى لا غنى عنها والتى استبدَل موسيقيوها الأدوات الخاصة بهم بأخرى أوربية كى يحدثوا جلبة أكبر. ثم يأتى بعد ذلك الأطفال الذين ستُجرى لهم الطهارة فى عربة جميلة وهم يرتدون ملابس قيِّمة

وأزياء بكوات وباشاوات زاهية. وتتبع تلك العربة عربات أخرى مغلقة ومغطاة بشيلان من الكشمير، حيث تركب الأمهات وصديقاتهن المدعوات للحفل.

ويجرى العملية عادة أحد الحلاقين الذى يحرص دائمًا على أن يبرز جملة ما أو علامة المحل المميزة، وهى قطعة من الخشب المربعة طولها متر وتكسوها رقائق النحاس والزجاج الملون، ومشبوك بها عصا من طرفها كى تحمل كلافتة للإعلانات. ومنذ فترة وجيزة عُهِد بتلك العملية إلى أطباء مصريين درسوا المناهج المتبعة فى أوربا، للاعتقاد بأنهم يجرونها بأمان أكثر ويسببون ألمًا أقل للأطفال.

الوفـــــاة والعـــــزاء

والآن وجب أن أصف باختصار شديد الطقوس الجنائزية بين العرب المصريين والتى تنطبق على المسلمين عامة. فعندما يموت الفرد يسلّم جثمانه إلى النّدَّابات وهن مجموعة من النساء تستأجر للغُسل داخل البيت وللبكاء ساعة الدفن. ويقرأ إمام أو معلم بوقار بعض سور القرآن أمام الجثة التى يتم لفُّها فى قماشة بيضاء وتوضع فى صندوق خشبى يغطى بمفرش أخضر أو أحمر. ويرى فى الجزء العلوى منه عصا بطول شبرين توضع عليها عمة إذا كان الميت رجلاً أو قلنسوة إذا كانت امرأة.

ولا يحضر موكب الدفن المشايخ وإنما الأصدقاء والأقارب الذين يسيرون على الأقدام مكونين صفوفًا أمام النعش ينطقون بالشهادة وبعض آيات الحشر، وهى سورة تصف يوم القيامة, ويحمل الجثمان أصدقاء الميت الذين يتناوبون فيما بينهم. وتعتبر العقيدة الإسلامية خدمة من يفارقون الدنيا بهذه الطريقة عملاً محمودًا عند اللـــه.

وتسير نساء العائلة وراء الميت والنائحات المأجورات للسير فى الموكب. وإذا كُنّ فقيرات ذهبن على الأقدام، وعادة ما يركبن الحمير, ويكون تعبيرهن عن

الألم شديدًا ومثيرًا للصخب فيندبن الخسارة التى أصابتهن للتو، ويمدحن المميزات التى كان الميت يتمتع بها فى حياته مثل "يا جمل دارنا " عندما يسرن خلف رب الأسرة، ففى مصر يعتبر هذا الحيوان عائلاً للأسرة بعمله.

المقابر الإسلامية

وينتقل الجثمان من البيت إلى المسجد فيضعونه أمام قبر أحد الصالحين كى يصلوا عليه صلاة الميت، ثم يصطف الموكب من جديد ويتوجه إلى مثواه الأخير.

وتقع مقابر المسلمين خارج القرى لكنها تجاور أسوارها تقريبًا. ولها مظهر موحش وغريب، فعند رؤية تلك المساحات الشاسعة تغطيها القبور البيضاء المتشابهة وعلى واجهتها حفرت شواهد القبور تثور فى النفس مشاعر غريبة. ويتميز قبر الأغنياء أحيانًا ببيت خشبى صغير مشغول بدقة بالزخارف النباتية وملون باللون الأخضر فوق المقبرة. ولا يروق للعرب أن يزور الأجانب قبورهم، فقد قذفونى ذات مرة بالحجارة عند المقابر الممتدة تحت سفح المقطم شرقى القاهرة عندما دخلت أبحث عن نماذج من النقوش الجنائزية.

وتتكون المقابر الإسلامية من قباب كبيرة تنقسم إلى قسمين، وتغطيها كومة تراب أو كومة من الطوب اللبن أو الحجر أو الطين. ويدفن الأموات مستقبلين الشرق دائمًا، وعند إنزال الجثة إلى اللحد ينطق الحضور بالصلاة التالية.

"اللـــهم اغفر للمسلمين والمسلمات، المؤمنين والمؤمنات".

ويوجه أحد الشيوخ أو رجال الدين كلمة عندئذ للميت، يشرح له فيها كيف يواجه ملكى الموت اللذين يمتحنانه هذه الليلة فى القبر. ويصحب ذلك همس الحاضرين:

"بسم اللـــه الرحمن الرحيم" وعندما يغلق باب القبة يسلّمون على بعضهم بالأيدى كعلامة على المواساة ثم يتفرقون عن المكان، حتى يسمحوا للنساء بالاقتراب, فقد كـنّ حتى تلك اللحظة مبعدات عن الطقوس الجنائزية.

ويستمر الفصل بين الجنسين حتى بعد الموت، فقد يدفن الرجال تحت قباب القبور فى جزء والنساء فى جزء آخر. وتكون القباب عالية حتى تسمح للميت بالوقوف عندما يأتى الملكان - منكــر ونكير - لسؤاله، على فرض أن روحه لا تنفصل عن الجسد حتى بعد هذه المحكمة. وعلى الكومة الخارجية للقبر ينقش الشاهد على لوحة من الرخام، وعادة ما تحتوى على الشهادة واسم الميت مصحوبا بألقاب للتواضع مثل الفقير والمتواضع والبائس والشهيد.

وهناك ينتظر المسلمون البعث إلى رحاب اللـــه، والسعادة الأبدية فى الجنة بعد يوم الحساب العظيم فى الآخرة، وهذا من عقيدتهم. وفى هذا اليوم المشهود توزن أعمال من عاشوا على الأرض، فيظهر الملك إسرافيل وينفخ فى الصور مرتين، وعند النفخة الأولى يموت جميع الأحياء، وعند الثانية يبعث الموتى. ثم تعرض أعمال كل إنسان فى الكتب التى يكتبها الملكان, وتمر الأرواح فوق جسر من شعرة, وهو جسر تنجو منه تلك الأنفس التى لا تثقلها الذنوب فقط, أما تلك المذنبة فتتساقط فى جحيم النار.

وليست هناك حياة اجتماعية بين العرب. فلا يجب أن نعتبر هذه الاجتماعات الفاسدة فى المقاهى الشعبية حياة اجتماعية, حيث يجتمع مائتان من الرجال البؤساء كى يستمعوا لأغانى شاعر الغزل. فهم يجهلون الاجتماعات ودعوات الطعام وجلسات السمر ونوادى القمار والمسارح. وهم ككل الشرقيين يجهلون فائدة التنزه. ويجمعهم الدين فقط فى الأعياد والجمعيات الدينية التى سنصفها فيما بعد. أما بالنسبة للنساء فعدا الزيارات التى يقمن بها فى المناسبات لا يوجد مكان آخر يجتمعن فيه سوى الحمام.



تسلية الحريم

الحمـّـــــامات

وفى كل مدن مصر يوجد عدد كبير من الحمامات, مع الفصل بين أفراد الجنسين من المترددين عليها. وتتردد عليها النساء أكثر , ويقضين الصباح كله بين شئون الحمام المختلفة, وهى ليست بالقليلة, وفى الحديث مع صديقاتهن. والحمام العربى غنى عن أن أتوقف أمامه بالوصف. وهو عبارة عن مرور المستحم بصالات عدة يتم تسخينها بدرجات مختلفة, حتى يتعرض لحمام بخار حقيقى, ويتم تدليكه بعد ذلك بفوَط خشنة وألياف, ثم يخرج أخيرًا بنفس الطريقة تدريجيًا إلى الجو الخارجى. ومن يتعوّد على الحمام يجده مريحًا, أما من تعوّد منا على الغطس فى حمام السباحة البارد أو فى مياه البحر فيجده متعبًا وثقيلاً ومثيرًا للأعصاب.

وتتميز الحمامات العربية بالنقوش الملونة على أبوابها وبالفوط المعلقة على نوافذها. ويشاع أن بعض الخيَّاطات فى أوربا يستمتعن به, ويحكى أنها تنفع لإخفاء أسرار القلب الطائشة للمتزوجات اللاتى يردن التسلية على حساب الأزواج. وتعد حمامات الحريم مناطق محرمة بالنسبة للرجال, فلا يستطيعون دخولها تحت أى مسمًى. فتدخلها الزوجة الخائنة, ورغم وجود الخدم والحرس منتبهين بالخارج يحرسون الباب, فلن يمنعها أحد من تغيير ثيابها, فتغطى وجهها كالعادة وتتسلل من الباب الخلفى أو الباب الرئيسى نفسه على مرأى من عبدها الفتىّ. ولحسن الحظ أن الحمام يستمر لست ساعات، لذا فلديها وقت لكل شىء, للدخول والخروج والتجول والعودة للحمام ثم إلى البيت نظيفة الجسد, نظيفة الروح!

الموسيقى العربية

تكمن تسلية العرب الرئيسية فى الموسيقى التى يغرمون بها جدًّا. وعلاوة على الفرق الموسيقية والغنائية التى توجد فى كل المدن- وحتى فى القرى قليلة السكان والموسيقين المتجولين والعازفين فى المقاهى الذين وصفتهم من قبل- هناك أشخاص آخرون يمتهنون الموسيقى، ويمارسون وظيفتهم بخاصة أمام النساء. ومنهم " *العوالم*" وهن الفتيات اللاتى يغنين. ونعتقد نحن الأوربيين أن هذا الاسم الشاعرى يطلق على الراقصات، ولكن ذلك غير صحيح.

و" *الغوايش*" وهم الفتيان يرتدون ملابس النساء ويقلدونهم بسخرية ويؤتون أفعالاً غير مهذبة أثناء الرقص. و" *الغوازى*" وهن نساء يرقصن وأرجلهن عارية والعصا فى أيديهن.

ودائما ما يقترن الرقص والغناء بالموسيقى البلدى, وهى موسيقى مملة ذات رتم بطىء مزعجة بسبب التكرار الدائم للألحان بنغمات قليلة وبسبب عدم التوافق فى تأليفها. وغنى عن القول إن الأدوات المستخدمة أدوات فظة تخلو جميعها من العذوبة, قليلة الحساسية عند إصلاحها, ويعزف عليها عادة أناس لا يهتمون كثيرًا بالعزف الجماعى. ويستعمل العرب أساسًا آلات مثل الدربُكة، وهى طبلة خاصة على شكل قمع من الفخار تغطى الناحية الواسعة منها بجلد الكلاب.

والرَّق وهو الدُّف, ويشبه الذى نستعمله كثيرًا. والنقارة وهى طبلة إسطوانية لها رقعة توضع فى أحد أطرافها فقط. والطبل البلدى وهو نفير معدنى دون مفاتيح. والطبل الشامى أو الناى وهو مثل الذى نراه فى أفراح كاتالونيا الشعبية. والزمارة وهى الناى المزدوج. والناى وهو الناى البسيط. والكمنجة أو الكمان ذو الوترين المشدودين إلى جسم مربع من الخشب. والقانون وهو آله موسيقية ذات أوتار عديدة. والعود وهو الماندولينا.

الأغانى الشعبية المصرية

وقد تحدثت مرارًا عن شعراء الغزل العرب وعن ولع هؤلاء القوم بأغانيهم الشعبية. غير أن حالة الذل والبؤس المادى التى يعيشون فيها وموت الضمير لا تسمح لهم بالارتقاء إلى مراتب الشعر العليا الصافية التى يتغنى بها الأبطال, والإعلاء من شأن الفضائل والأمر بالبر.

إن السواد الأعظم من المصريين ليست له طموحات نبيلة ولا أفكار ترتقى به ولا مشاعر خلابة. والشعر العربى الحديث فقير متواضع, يولد بين الطبقات الدنيا من المجتمع, ينظمه شخص مريض أو هائج، يتنفس هواء مشبعًا برائحة الدخان والقهوة، يعيش فى الظلام حزينًا على إيقاع موسيقى نائحة، وقد يحكم عليه بالفناء مع موت الشاعر الذى ينظمه.



الراقصة

وغالبًا ما تكون هذه الأغانى الشعبية ذات طابع جنسى, تتحدث فقط عن الحب القائم على المتعة الحسية. وفيها تكون المرأة دائمًا البطل. بمعنى؛ أنها هى التى تتحدث وتستعرض مشاعرها وترجو الرجل أن يمنحها حبه. ومن وجهة نظر العادات العربية يعد هذا الوضع منطقيًا، حيث تُـنبَذُ المرأة فى الأسرة، تعيش مهجورة دائمًا, ويتمثل عطف الزوج أو العاشق عليها فقط فى نزوة عارضة عابرة وساعة حظ يقضيها معها.

الشائع منها الآن

وحسبت أن جمع الأغانى الشعبيه التى نالت الشهرة فى مصر اليوم سيكون مفيدًا. فخصصت الوقت الذى قضيته فى عاصمتها لذلك. فأمدتنى الزيارات الليلية لأحياء منسية وساعات الملل التى أمضيتها فى المقاهى والصحبة الطيبة التى كانت

ترافقنى فى تلك المهمة ببعض الأمثلة لتـلك الأغانى، والتى أختم بها هذا الفصل. وليس لأى قصيدة منها عنوان، وما العنوان الذى وضعته هنا ببساطة على رأس القصائد لتمييزها إلا الكلمات التى يبدأ بها البيت العربى. وفيما يلى الترجمة:

العفـــــــــو

العفـــو يـــــا زين الـــــمِلاح

قلبي عليك ولجل تشفى الجراح

اسمح وميّل ما فى غيرك طـــبيبي

قلبي انكـــوى بنـــار الهــــــوا

حن عليه لجل ما تشفى الجـــراح

ويلاحظ فى الشعر الشعبى العربى أن الحنين الذى تحسه المرأة بسبب غياب الحبيب هو الموضوع الشائع، وهناك مثال آخر:

إمتى تطفى نـــار حبى، بوصلك يا زهـــر الياسمين

قتلنى بعـــــــــدك كإنه حجر وصـــاب قـــلبى

خلانى حبك عدم، حِن عَليـــــاّ ربنا ينجيـــك.

وثمة خيط رفيع بين الغياب والهجر يقطعه العرب بكل سهولة، ومن هنا تنعى العاشقة فى أغانيها أنها ليس لها من صاحب فى الليالى الليلاء إلا الذكريات والآلام. وهناك مقطوعات من هذا النوع تمتلئ بالأحاسيس.

مين بده

ليه يهجـــر وطيفـــه ســـارق النـــوم من عـــينى

ولـــيه يهجر وكانـــــه بـيــــــقاسى من حـــبى

ولـــما أطلـــب وصــــاله بالصـــــد يجـــاوبنى

فــــاكـــر إن عطـــفى علـــيه وحبـــه ده ذنـــبى

علوك

يا بـــــو محيــّا نجـــــم بـــراق ســـاطع

النظره منه تنزل على قلبى ســـــيف قاطع

وتسيبـــــنى وحـــدى ولا تحـــس بـــعذابى

يا رب لو ما كان بيحبنى خليـــه ينـــصفنى

ارحـــم

ليه وأنا باحـــبك برضه تعذبنى

وإزاى لما رأيتنى بفرحـــه نادتنى

وليه بتكذب عليه وليه بتهجرنى

وليه يا غالى بقه هربت ليه منـــى؟

ولا يتم التعبير فى مصر عن خيبة الأمل التى يسببها الحب الضائع بطريقة تراجيدية. فالـمرأة الشرقية لم تلجأ للمسدس أو السم أو إلى جسر عال تنهى من فوقه حياتها البائسة لكنها أكثر وداعة وأقل عصبية، فتغسل مرارة حبها فى دموع عذبة لا تنتهى تجود بها عيناها السوداوان الجميلتان. وتكون شكواها نظمًا:

فى الهـــــــرم

آه يا قلبى يا للى مــــالك فى السعادة نصيب

راحت متع الحياة وما لقيــت لك حبـــــــيب

الكل معجب بك وما يرضى يـــكون لك قريب

غاب طيفك بودك عـــن عنيـــه وملتها الدموع

والحب عشش فى قلبى كما السيف وهواه قتلنى

سهري

لما لمحـــت طـــيفه, الحـــــب ملا قلـــبى

وشربت كاس الحنان ترياق وإيـــه ذنـــبى

أتجرع الحـــين بحبه من العـــذاب ألـــوان

والسهد أصبح جليسى وكل يوم سهران

اعطف وارحم دا قلبى عليل بقاله زمـــان

وتصف المرأة أحيانًا كيف أن الهوى يستولى على المشاعر, وتبدو للآخرين بذلك المظهر المضحك الذى لا يمكن أن يخطئه العشاق. فتغنى :

يا للى

اللـــى مجـــربش الهـــوى

ما يســـــخر يا ناس منى

دا القلب مجروح والروح

مـــا لهـــا إرادة عنـــــدى

وقليلاً ما يحدث ذلك التمرد من الروح والذى يفرض نفسه على المرأة فتبكى مشاعرها. فهذه الشابة المسكينة التى ربما جُرحت فى أعز شيء لقلبها، فثارت مغتاظة على حبيبها الذى تجاهلها لتقول له:

ما أرضى شي

ما أرضى شي بالذل يـــانى

حتى لو خســـرت روحى

لو مــــا رواها الحـــنان

الكـُـــــرْه لازم يـــوافى

غير أنه قليلاً ما توجد تلك الأغانى التى هى صدى حـلوًا للسعادة والسرور. فالعرب يتغنون بآلام الحب فقط ومراره، ويحلمون بامتلاك من يحبون، وهم يعيشون دائمًا بعيدًا عن واقعهم، وعندما يصلون إلى قمة هذيانهم فإنهم يملّون ويسارعون إلى كل غامض مجهول. وكانت الأغنية الفرحة الوحيدة التى سمعتها فى هذا الحشد من الأحزان هى الأغنية التالية:

كاس الهنا

شربت كأس الـــهنا جنبه

على بساط الزهور النادية

والدنيا راقت والحياة حلوة

لما حبيبى دعانى للهنا جـــنبه

وأخيرًا، فقد سمعت مرتين فقـــط أغانى غـــرام على لسان الرجل، وامتلأتا بالشكوى المرة التى تم التعبير عنها بإحساس كبير:

الليـــــــل

لـــيه يـــــــا ليل بتطوّل على العشاق

وليه ظلامك يعذب العاشـــق الغلـــبان

وكل ضوء النهار مـــا ينـــــهى تعذيبه

ترجع بكل أهـــوالك من جديد تكويه

بســـحر العيون

بسحر عـــينـــك مـــليق قـــلبى بالريبـــة

باحلم بكِ الليل بطوله وطيفك ما يفارقنى

ولما أفوق من منامى ما ألاقى إلا ســـراب

أهيم بك هيام مجنـــــــــــون ليلى بليلى

بسحر عــــــينك ولهـــــيب وجـــناتك

يشِـــت عــــــقلى كل يـــوم عـــن يوم

وإنت عمرك مــــــا توف أبـــدًا بوعودك

وتمـــد حبل الوصـــال ليـــه ولو ليـــلـــة

والإشارة التى سبقت إلى مجنون ليلى إنما هى قصة عشق أسطورى بين العرب, وفيها تلهب ليلى العامرية الجميلة مشاعر قيس بن الملوّح الذى جن جنونه عندما تلـــقى ردًّا إيجابيًا. ونظم القس أبو بكر من بنِى العلاقة فيهما شعرًا.

ويكفينا ما قدمنا كعينة لنأخذ فكرة عن الشعر الشعبى العربى. فهو يفتقر إلى الابتكار, خلو من الأفكار فى مؤلفاته, ويملؤه الشعور العميق بالألم والحزن سببه

الحب المستحيل أو المنسى. وكل الناس فى مصر شعراء. فالشاعر الغزلى المجهول الذى ينشد فى المقهى أو فى الشارع, فيخلط الموشحات ويؤلف فى الوقت ذاته موسيقاه الشاكية النائحة المملة، ولا يزال يكرر نفس الألحان لمدة نصف الساعة مستخدمًا نفس المقطع من البيت.



عبده الحامولى

وتوجد فى كل مدن مصر مهنة المغنى الشعبى. وفى القاهرة اثنان من هؤلاء المغنين الذين مارسوا هذا النوع بنجاح كبير حتى ذاع صيتهما ولم يمح الزمن ذكراهما. وأولهما امرأة تدعى ألمظ وكانت ذات صوت عذب ووجه مليح وعينين ناريتين ساعدتها فى أغانيها بجانب صوتها. ماتت منذ عدة سنوات لكن ذكراها ما زالت قائمة. واستطاعت أن تكوِّن بأسلوبها مدرسة فريدة. وغنىّ عن القول إن أتباعها لم يصلوا إلى مستوى معلمتهم. ومغنى شهير آخر هو عبده[1]،

---

(١) عبده الحامولى(١٨٣٦-١٩٠١) مطرب مصرى جدد الموسيقى العربية. أبرز اسم فى عالم الطرب فى القرن التاسع عشر, امتد أثره إلى مطربى القرن العشرين. ارتبط اسمه بالمطربة ألمظ التى تزوجها وقدما ثنائيًا ناجحًا ذاع صيته. موسوعة ويكيبيديا الحرة (المترجم).

وهو شيخ عربى استطاع صعود سلالم القصر الخديو فى السنين الأخيرة ليحوز الإعجاب فى صالوناته. وهو اليوم عجوز مقعد بائس يعيش فى كوخ متواضع من اللبن فى ضواحى الخليفة. ولما أردت التعرف إليه ذهبت لبيته ذات عصر ووجدت ما نراه عادة فى أوربا من فـــقـــر مدقع يحيط بحطام فنان.

ويجتمع المغنون المحترفون فى جماعات من خمسة إلى عشرة أشخاص ويعرضون خدمـــاتهم على الجمهور, وعندما يلقون نجاحًا يطالبون بعشرين إلى أربعين شلنًا لكل ليلة يحيونها. وهم يحملون الأدوات ويعزفون عليها بأنفسهم، ويستخدمون عامة الفيولا والجيتار والدربكة. وتشكل تلك الفرق جزءًا ضروريًا من برنامج احتفالات الباشاوات الأتراك ويحيى العرب الأغنياء بهم الليالى فى بيوتهم.

الفصل السادس عشر

الاحتفالات الشعبية

تمر ليلة رأس السنة التى يحتفل بها كثير كل شعوب الغرب وبعض شعوب الشرق دون أن يشعر بها أحد تقريبًا فى مصر. ففى ذلك اليوم ينصرف العرب إلى أعمالهم اليومية دون الاحتفال بالعام الجديد على المستوى العام أو الشخصى. ويفتح الخديو فقط صالونات قصر عابدين ولا يحضر الاحتفال سوى الأجانب.

ويشكل هذا الزهد فى مصر تناقضًا مع المظاهر التى ينخرط فيها شعوب الشرق الأخرى. وتستحق الأعياد الكبرى واحتفالات العام الجديد فى الهند والصين واليابان المشاهدة حقًا. فيرتدى هؤلاء القوم أحسن ثيابهم وينفقون ما يدخرون كى يشبعوا أهواءهم ونزواتهم، يجوبون الشوارع يتبادلون التهانى بفرح، ويتمنون أن يجلب العام الجديد معه أحداثًا سعيدة. فلا يمكن أن تبعث لصينى بخطاب عمل فى هذه الأيام، فخلال الإثنى عشر أو الخمسة عشر يومًا التى يخصصها للأعياد يرفض الكسب المادى حتى لو كان فيه حلم حياته. واعتاد اليابانيون تبادل بطاقات حمراء وقطع من الفضة على شكل كروت تهانٍ كفأل للحظ السعيد. وتجتمع التقاليد والدين والعادات فى تلك البلاد لتجعل من بداية العام أهم الأعياد الشعبية.

ولا نرى فى مصر شيئًا من هذا القبيل. فالدين الإسلامى لا يأخذ بداية العام فى الحسبان، ولا يكتسب هناك أى أهمية طالما لم يرد ذكره فى القرآن ولم يرد به نص. ومن العجيب أن تسأل أى عربى عن عمره، فهو لا يعرف أبدًا، فيحك رأسه ويحسب ذلك قائلاً إنه ولد قبل أو بعد الغزو الأجنبى لمحمد على أو الكوليرا التى خربت البلاد أيام عباس باشا بعام أو عامين، أى أنه يعرف سنة مولده بحادثة مهمة حدثت بالقرب من يوم مجيئه للدنيا حسبما حكى له أبواه. والعربى لا يهمه فى قليل أو كثير الدقة فى الحساب ولا يقيد ميلاده فى أى جهة، ولا يقيد أيضًا أى حدث آخر قامت به الكنيسة أو الدولة فى دول أخرى.

ويدخل العرب يوم الخامس من أغسطس لعام ١٨٨٨، عامهم الألف وثلاثمائة وستة من الهجرة أى من هجرة مُحمد من مكة إلى المدينة. ويحسب العرب السنين بالشهور القمرية، وبذلك فعندهم اثنا عشر شهرًا، شهر ٣٠ يومًا وآخر ٢٩ يومًا بالتناوب. وبهذا النظام يكون بالعام ٣٥٤ يومًا فقط، ولأنهم لا يعرفون الأعوام الكبيسة، فلا تعرف أعوامهم الفصول، ويضطرون دائمًا لإجراء حسابات معقدة لأى تقويم بسيط كمعرفة إذا ما كان شهر رمضان قد وقع فى الشتاء أو الصيف منذ مائة عام مثلاً. ويتسبب هذا النظام غير المتقن فى فوضى فى الحياة المدنية، ولتجنب ذلك يستعمل المصريون التقويم القبطى الذى يتكون من ٣٦٥ يومًا وربعًا. وينقسم إلى اثنى عشر شهرًا كل منها ثلاثون يومًا، وخمسة أيام تكميلية يضاف إليها يوم كل أربعة أعوام. ويبدأ العام عادة يوم ١٠ سبتمبر إذا كان عامًا عاديا ويوم ١١ سبتمبر، إذا كان عامًا كبيسًا. وهو بذلك يشبه العام الميلادى رغم أن تقويمه بدأ مع العام الأول من حكم دقلديانوس لمصر، أى يوم التاسع والعشرين من أغسطس لعام ٢٨٤م. ويعرف ذلك العصر بعصر الشهداء عند الأقباط والأحباش وهذا العام عندهم هو ١٦٠٥.

طريقة حساب الوقت فى مصر

على أية حال فالعام العربى الدينى الذى يستخدم فى التدوين هو الإسلامى أو الهجرى. ويدعى أول شهر فيه المحرم، ويقدس المسلمون اليوم العاشر فيه لإحياء ذكرى التقاء آدم بحواء لأول مرة بعدما طرد من الجنة. ونجاة سفينة نوح وعائلته بعد انتهاء الطوفان[1]. كما يحتفل الشيعة من المسلمين وأغلبهم من الفرس

(١) خلط الكاتب هنا بين أسباب إحتفاء المسلمين بيوم الجمعة من كل أسبوع ويوم عاشوراء (المترجم).

فى هذا اليوم بذكرى موت الحسن والحسين أولاد فاطمة وأحفاد مُحمّد اللذين اغتالهما يزيد فى حقول كربلاء[1].

عاشـــــــوراء

ولذا يحتفل فى ذلك اليوم بيوم عاشوراء أو اليوم العاشر من الشهر العربى[2]، والذى تقام فيه احتفالات دامية لا بد وأنها محط استنكار كل شعب عنده حد من الثقافة بالإجماع، لكن يسمح بها فى مصر حتى الآن لعدم استنفار التطرف الشعبى. وأعتقد أن هذا الاحتفال يقام فقط فى القاهرة لأن بقايا من جثمانى أميرى[3] هذه الأمة يرقدان تحت ضريح من المرمر فى أحد مساجدها وهو جامع سيدنا الحسين على يسار الموسكى وكانا قد قتلا على يد زنديق.

ويشترك كل المسلمين الأخيار فى إحياء ذكرى هذا الحدث المؤلم، والذى تحول بمرور أربعة عشر قرنًا إلى حفل تقيمه العائلات بإعداد أطعمة خاصة جدًا، كما يفعل الرومان فى ولائمهم والمسيحيون الأوائل فى أضحية إبراهيم. فيطبخ فى كل بيت حلوى خاصة من القمح ويبعث منها بأطباق ساخنة للأصدقاء والمعارف. وتعرض أصناف الحلوى الخاصة بالمناسبة فى فاترينات محلات الطعام. وأخيرًا يزيد المسلمون المتدينون على الصلوات الخمس اليومية ذكر أسماء اللـــه الحسنى التى يثنون فيها على أسمائه ويعظمون عدله. وهكذا يفعل الأحناف والشافعية والمالكية وكل المذاهب الإسلامية الأخرى تقريبًا.

---

(١) من المعروف أن الذى مات فى كربلاء هو سيدنا الحسين فقط (المترجم).

(٢) يقصد شهر المحرم (المترجم).

(٣) يقصد الحسن والحسين أبناء على بن أبى طالب وفاطمة الزهراء رضى اللـــه عنهم، وذلك لقول رسول اللـــه صلى اللـــه عليه وسلم لحذيفة "إن هذا ملَكٌ لم ينزل الأرض قط قبل هذه الليلة استأذن ربه أن يسلم على ويبشرنى بأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة، وأن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة" صحيح الترمذى – الجزء الثانى ص ٣٠٧.

اجتماع الشيعة فى مسجد سيدنا الحسين

وثمة شيء آخر يفعله الشيعة. فهم ما زالوا يعتقدون أن الدم يطلب دمًا، وأن الجريمة التى نفذت فى حق حفيدىّ النبى لا بد وأن تمحى بحيوات أخرى، باحتقار البدن، بالتوحش والهمجية الموجهة إلى أجسادهم. وينتظرون هذه المناسبة حتى يستغرقوا فى احتفالات فوضوية فظيعة فى الشوارع والميادين وسط إعجاب وتصفيق المسلمين المتدينين.

وتحوى القاهرة أربعمائة طائفة شيعية تجتمع فى سيدنا الحسين عصرًا، تملؤهم الحماسة بتأثير الصلاة وتأثير شرب العرق المتكرر والحشيش، وصرخاتهم الخارقة للعادة، ومظاهر الألم المغالى فيها، وسرعان ما يتم تحويل هذه المظاهرة الدينية إلى حلبة للمجانين أو المجاذيب.

الأضـــــــــحية

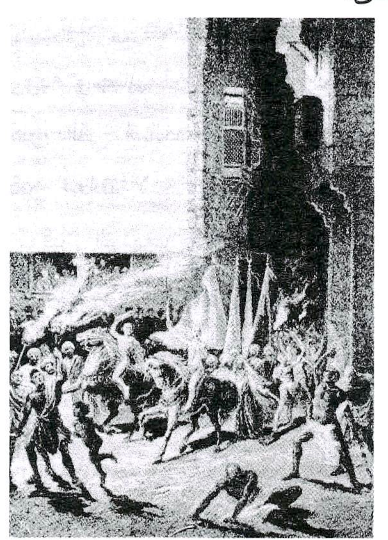
وأول الضحايا يكون خروفًا ذا صوف أبيض، يتم تطهيره عند ميضأة المسجد. ثم يلتف حوله فى دائرة ضيقة بعض العرب الذين يُخرجون من أغمادهم سيوفهم المحدبة والخناجر ذات السلاح العريض، ويتغنون فى نغم موزون آلاف المرات باسم الحسن والحسين بينما يجيب باقى الحضور من المؤمنين بابتهال متواضع "اللـــه أكبر". ثم يذبحون الخروف الذى يبدو أن المشاركين يصيبونه بطعنات خفيفة تجرحه ببطء.

وسرعان ما يغطى الدمُ الحيوانَ ويثير منظره والأبخرة المتصاعدة منه أولئك المتخبطين حتى يشتد غضبهم. ويتبعون ذلك برقصة حِداد، وأجسامهم ورؤوسهم عارية، وعيونهم خارج مُقلها، يريلون والسكاكين بأيديهم تهتز يجرحون

بها أنفسهم من الجبهة إلى القفا كى يفتحوا فى جلد رؤوسهم الحليقة شقوقًا واسعة يسيل منها الدم حتى يغمر وجوههم. وهذا العرض مقـــزز ومهيب فى نفس الوقت، ويتزايد هيجان أولئك المتعصبين حتى وقت العشاء عندما تفتح أبوب المسجد ويبدأ الموكب.

المواكب الدينية

وليس هذا هو العذاب الوحيد الذى يلحقه الشيعة بأنفسهم. فهناك آخرون يمزقون ثيابهم قطعًا ويضربون أجسادهم العارية تمامًا بالحجارة، فهدف أولئك المؤمنين وأمنيتهم هو رؤية الدم يسيل والإحساس بحرارة قطراته على أجسادهم آملين بذلك أن يميتوا شهواتهم بالصوم والتقشف كى يحصلوا على المتع الكبرى فى الحياة الآخرة، حيث يجدون الجنان الوارفة يتنزّهون فى جنباتها والينابيع الصافية ينهلون منها، والحور العين التى لم يمسسهن قبلهم إنسٌ ولا جانّ يتمتعون بصحبتهن فى النعيم الأبدى.



مولد الحسين

وبذلك الجسد المعذب وتلك الروح الهائمة يندفع أولئك التعساء إلى الشارع فى موكب صاخب يجوب أكثر مناطق الحى العربى ازدحامًا. ولا أدرى إن كان رسام هولندى يستطيع أن يرسم هذه اللوحة الخيالية بصبغة الدماء والوحل، والتى تذكرنا بصورة صادقة فى إطار لـــ "دانتى". ولا بد أن ذلك سيكون أصعب عليه عند الرسم بالريشة.

وينحدر الركب من المسجد بطول شارع الموسكى تقريبًا، وعلى جانبى الطريق عادة ما توضع أربعة أو خمسة صفوف من المصاطب يحتشد فوقها المتفرجون، بينما يغزو المشاة بحر الطريق، ويتقدمون فى حشود متزاحمة تجاه المساجد حيث يتم تنظيم الموكب. وعندما قُــدِّر لى رؤية هذا الاحتفال عام ١٨٨٥م، اصطدم الموكب بذلك الحاجز البشرى الذى لا يمكن تجاوزه والذى منعه من المرور، مما اضطر رجال البوليس إلى توزيع السيوف على الأفراد حتى يبدأ الاحتفال.

يتقدم المسيرة خمسة أو ستة من الشبان من حملة المشاعل أو شظيات الخشب المشربة بالراتنج، وامتطى طفلان صهوة جواد يمثلان الضحيتين اللذين يُحتفل بذكراهما، وعند رؤية وجهيهما الشاحبين- تغطيهما الدماء وتملأ رأسيهما الجراح، وبأيديهما السكاكين التى استخدماها لإسالة الدماء من رأسيهما- نتساءل نحن الأوربيين القلائل الذين أعانتنا شجاعتنا على حضور هذه الحفلة البربرية تلك الليلة كيف أن هذين المخلوقين الوديعين- اللذين بلغا بالكاد ثمانية أعوام- واتتهما الشجاعة على تحمّل يوم كامل من الصوم والصلاة والمعاناة الجسدية وفقدان الدم دون أن يسقطا مغشيًا عليهما.

إن الإيمان الذى يحطم الصخور ويحيى الأموات ما زال يؤتى ثماره فى تلك الأرض المليئة بخرافات الدين. ويسير الشيعة خلف الطفلين، تتقدمهم أعلامهم الخضراء وراياتهم المثلثة، وفى الأمام يسير حَمَلة السيوف المخضّبة أنصالها بالدماء تلمع على فترات بضوء الجمرات المشتعلة. وفى الخلف نرى التائبين

يجرون السلاسل على الأرض بعدما بلغ الإرهاق منهم مبلغه فلم يعودوا قادرين على ضرب أجسادهم بها. وتسير فى النهاية جماعات من المؤمنين يتزايدون بالمتفرجين الذين ينضمون إليهم كلما مروا بالشوارع فى حشود صاخبة وفوضى شديدة يسبحون باسم اللـــه والحسن والحسين وبكل أسماء الأولياء المسلمين.

وأضيف إلى ذلك المشهد الآن ما يلزمه من الرتوش. ففى الخلفيّة نرى الحى العربى بحاراته المتعرجة وبيوته البارزة ذات الأفاريز الضخمة والشبابيك المغطاة بسياج حديدى ومشارفها المكسوة بمشربيات ثرية، وصفوف من الفوانيس المعلقة على الأبواب والجدران ويغطى المشهد شريط ضيق أزرق من السماء يرى فوق الأسقف.

انتشر الموكب فى صحن بيت لثرى فارسى كان قد خصص بيته لهذه المناسبة، وكان الفناء قد زين بسجاجيد كثيرة وأنوار ومرايا، لكنه كان يخلو من الصور التى يرفضها الدين الإسلامى. وكانت مجموعة من المغنين تتمركز فى الطابق العلوى تتغنى بألحان حزينة حتى دخل الموكب، وعند وصوله لم تكن لثورة المحتشدين حدود. وعندما أُغشى على أحدهم من التعب سقط فى ركن وقد تملكته تشنجات فظيعة. واضطرت الشرطة للتدخل وإجبار هؤلاء المجانين على الانسحاب، وأقنعوهم أن أوان التضحية قد فات وأن موت الحسن والحسين قد سبق الانتقام له جيدًا.

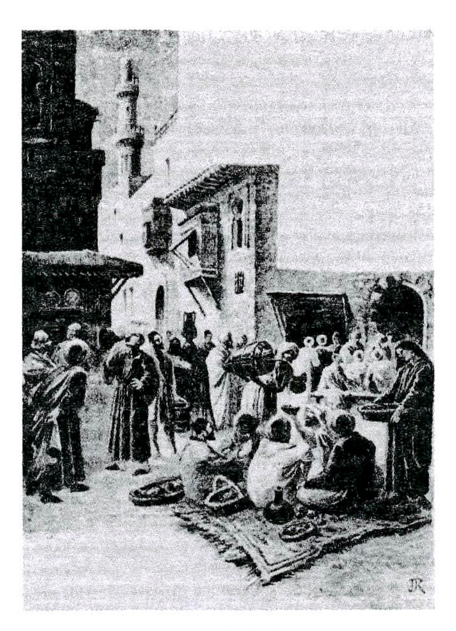
شهر رمضـــــــــــان

يُحتفل بعيد دينى آخر على درجه كبيرة من الأهمية فى الشهر التاسع من العام الهجرى. إنه شهر رمضان أو الشهر المقدس المخصص للصيام والصلاة. ويتطلب ذلك كل البطولة التى يلهمها التعصب للإنسان حتى يعانى العذاب والبؤس الناتجين عن طاعة هذا الأمر المحال. ويبعُد الصوم العربى كل البعد عن الصوم

الذى تفرضه الكنيسة الكاثوليكية، فيطلب الإسلام من أتباعه عدم تناول أى لقمة ولا تدخين سيجار ولا شرب نقطة واحدة من الماء ما دامت الشمس ساطعة فى الأفق. ولك أن تقدر فظاعة ذلك التحريم الأخير على أولئك التعساء من أتباع هذا الدين عندما يأتى رمضان فى أوج الصيف كما حدث فى السنوات الأخيرة. انظروا إلى العمال فى الشوارع قذرين يرتدون الأسمال منهكين لا يستطيعون تأجيل أعمالهم الشاقة، يتحدون قسوة الجو بمجهود يفوق طاقة البشر. إن عدد الذين يسقطون مرضى بالدوسنتاريا وأمراض المعدة الأخرى لا يحصى، وكان السبب المباشر للخسائر التى سببتها الكوليرا فى مصر عام ١٨٨٣م هو صوم رمضان.

وتنبه طلقة المدفع التى تنطلق عند ساعات الفجر الأولى المؤمنين بأن العذاب الجسدى قد بدأ، وطلقة أخرى عندما تغيب الشمس فى الأفق البعيد للبحر المتوسط تشير إلى انتهاء الصوم حتى اليوم التالى. وعندها نرى المسلمين يستقبلون الشرق ويركعون ثلاث مرات ويغمرون رؤوسهم مرات عدة فى التراب ويهمسون بالصلوات الإسلامية، ثم يتجهون بشفاه جافة من العطش تلمع من الحمى إلى أول موضع للماء ليفرغوا فى أمعائهم إناء كبيرًا. وفى شوارع المدن الأفريقية يوجد العديد من الأرفف الخشبية المحطمة المشققة التى تملؤها جرار الفخار الصغيرة المملوءة بمياه النيل المصفاة بطريقة مناسبة تبيعها نساء البدو بأسعار زهيدة.

وعندما يُروى العطش الذى هو أشد ما يضايقهم لا يضيع العرب الوقت قبل أن يلتهموا طعامهم الزهيد المعد آنفًا. إن طعام أولئك القوم العادى بسيط جدًا وغير لذيذ. فهو عبارة عن خبز مستدير وأرز مسلوق وفول وبعض الخضروات وخاصة الثوم والبصل والقرع الذى يأكلونه أخضر دائمًا. ونستطيع القول بأن المسلمين يقضون نصف الليل بين الأكل وشرب القهوة خلال شهر رمضان بأكمله. وعادة ما يأكلون ثلاث مرات، الأولى عند غروب الشمس والثانية عند منتصف الليل والأخيرة فى الثالثة فجرًا، ناهيك عن كمية القهوة الكبيرة التى يشربونها.



مائدة الرحمن

وتتخذ المدن المصرية خلال الساعات الأولى من الليل مظهرًا لا تعرفه بقية العام. فتضاء المقاهى والمطاعم بكثرة، ويطوف الباعة الجائلون الشوارع ينادون بصوت عال على بضائعهم، وتخرج الفلاحات من بيوتهن بحثًا عن الأطعمة، ويجلس جموع العمال فى الهواء الطلق فى حلقات تملؤها البهجة، فيجدون فى السمر والطعام تعويضًا عن الحرمان الذى عانوه خلال النهار. ثم ينامون لأن أعمالهم ستناديهم مرة أخرى عند طلوع الصبح لكنهم يستيقظون أيضًا خلال الليل ليأكلوا حتى تمتلئ قليلة الحساسية، لكنها سريعة الهضم أيضًا.

وما رمضان بالنسبة للأغنياء إلا تغيير فى العادات وليس عقابًا ولا تكفيرًا. فينام العرب الميسورون خلال النهار حيث لا يستطيعون إشباع حاجتهم الجسمانية، ثم يقضون الليل فى ولائم متصلة لا يقطعها سوى الوقت القليل الذى يستقطعونه لإنهاء أعمالهم. وحتى الوزراء ورجال البلاط يغيرون أوقات عملهم، ويستقبل الخديو نفسه الزيارات الرسمية فى ساعات متأخرة فقط من الليل.

أما الأوربيون المقيمون فى مصر فهم عرضة فى تلك الأيام لمضايقات تغيير وقت العمل بالنسبة لخدمهم المسلمين، فيتحول البيت ليلاً إلى حانة حيث يجتمع الخدم وأصحابهم يأكلون ويدخنون، وبعد ليلة ساهرة، فهم بالطبع لا ترجى منهم فائدة. لذلك يقال إن الأجانب أيضًا لا بد وأن يحافظوا على صوم رمضان.

الحج إلى مكة

وفى اليوم الخامس عشر من شهر شوال يحتفل فى القاهرة بخروج المحمل، وهو عبارة عن إرسال الكسوة التى يبعث بها المصريون كل عام إلى المدينة المقدسة فى السعودية، حتى تغطى بناء الكعبة الصغير من الخارج. وهى عبارة عن مقصورة مقدسة تمتلئ من الداخل بالقناديل الذهبية وعليها أبواب من الفضة وبداخلها الحجر المختار الذى حمله رئيس الملائكة جبريل إلى أبى الأنبياء إبراهيم ليبنى معبدًا يكرسه لعبادة الرب. إن الذهاب إلى مكة والسجود عند المسجد هو أمل كل مسلم مهما كانت مكانته الاجتماعية أينما كان.



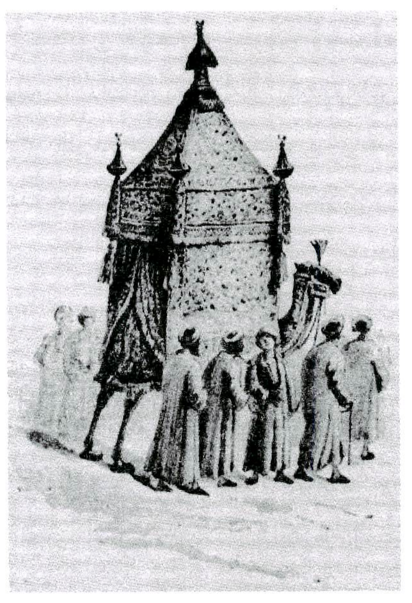
حاج إلى الكعبة

ولقد رأيتهم بنفسى فى مناطق كان يعتقد الأقدمون أنها ذات طبيعة وعرة وكانوا يحسبون أنها بلاد جهنم، هناك فى أقصى الشرق يهجرون ديارهم ويتركون أسرهم وأوطانهم كى يشدوا الرحال إلى مكة فى رحلة حج طويلة لا تقل عن عامين. ويعبر الحجاج الصينيون صحارى جوبى وسهول منغوليا الثلجية، يدفعهم إيمانهم ويصارعون وحوش الأداك، وتنفتح أمام أعينهم هاويات الهيمالايا ويسقطون منهكين بحمى مستنقعات الفرات، لكنهم يتقدمون رغم أن عصابات النشالين تهاجمهم هنا، ويُهلك الوباء منهم الكثير ويلاحقهم الجوع والفقر هناك، حتى يفوزوا بالزيارة التى ستمنحهم بعد ذلك فى الدنيا لقب الحاج المبجل وتعطيهم الحق بتزيين رؤوسهم بالعمّة الخضراء التى يرتديها أتباع النبى المفضلون.

وإذا كان ذلك هو حال إيمان المسلمين الذين يقطنون أراضى الشرق البعيدة فلكم أن تتخيلوا مدى حرارة الإيمان التى يتنسمها أولئك الذين يعيشون بالقرب من الأرض التى اختارها اللـــه لينزل بها وحيه على مُحَمّد. ويخرج من مصر باستمرار حجاج إلى مكة، وبالإضافة إلى تقوى الأفراد اعتادت الحكومة المصرية كل عام إرسال تلك الكسوة التى تصنع بأمر الحكومة وتضاف تكلفتها إلى الميزانية العامة للدولة.

وتصنع الكسوة من الحرير والذهب بأيدى عمال مهرة يملؤها التطريز وحواش مزخرفة بآيات من القرآن، وهى بالفعل عمل يليق بالغرض الذى صنعت من أجله. وكان تسليمها لقوافل الحجاج الذين يحملونها إلى مكة منذ زمن بعيد واحدًا من الأعياد الأكثر بهاءً وحيوية التى تقيمها عاصمة مصر المترفة، ولكن منذ عدة سنوات وحتى الآن تغير الأمر كثيرًا. وقد رأيت هذا الاحتفال آخر مرة منذ عامين. ففى التاسعة من صباح يوم مشرق من أيام شهر سبتمبر امتلأ ميدان الرميلة بجموع من الناس تتدافع فى هرج ومرج. وكان المنظر شيقًا. وعلى البعد كانت الصحراء الشاسعة تعكس أشعة الشمس على صفحة رمالها البيضاء، وتبدو هناك فى الأفق قبـــاب المساجد المملوكية، وعلى اليسار تبدو القلعة بأسوارها

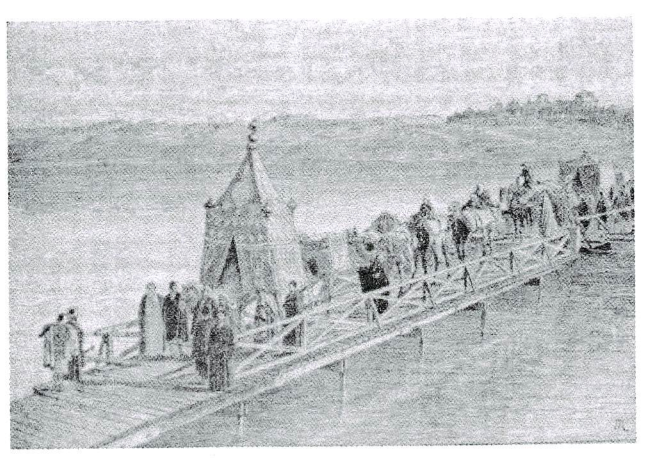
العتيقة من الحجر الداكن والتى ترى من فوقها فوهات المدافع وعقود الرايات السلطانية ومآذن مساجدها، وعلى اليمين مسجد السلطان حسن المهيب، كما توجد بعض البيوت العربية البائسة بين الأطلال المجاورة.



كسوة الكعبة

أضفى الحيوية على هذه اللوحة ثمانية إلى عشرة آلاف مصرى يتحركون من جانب إلى آخر منتظرين بفارغ الصبر وصول الخديو ليبدأوا الاحتفال. وانطلق مدفع القلعة فى التاسعة صباحًا وفتح الجنود الطريق أمام الخديو إلى سرادق صغير حيث جلس مع حاشيته. واجتمع حول محمد توفيق رئيس الوزارة نوبار باشا، وعبد القادر وخيرى باشا ومصطفى فهمى، ومحافظ القاهرة وفضيلة المفتى والقاضى والعلماء ورجال القانون، وجلس غير بعيد الجنرال ستيفنسن وبعض كبار ضباط الجيش الإنجليزى ليحضروا أيضًا الحفل.

بعد دقائق قليلة وصلت الكسوة محمّلة على ظهر جمل أُسرج بزينة نفيسة، وتبعت الجمل فرقة من العرب داروا جميعًا فى الميدان ثلاث مرات وسط هتاف الجموع، كما توقفوا أكثر من مرة أمام السرادق لتحية كبار موظفى الدولة. وأخيرًا أخذ الخديو بلجام الجمل وأسلمه إلى محافظ القاهرة الذى أسلمه بدوره إلى حسن بك الذى عين أميرًا للحج ذلك العام، أو رئيسًا لبعثة الحجيج التى تحمل الكسوة المشرفة.



المحمـــــل

وفى تلك اللحظة المهيبة أنطلق سيل من طلقات المدافع وصلت إحدى وعشرين طلقة، وحيا الشعبُ الملك واصطفت القوات فى حضرته، واتجه الجمل الذى يحمل الكسوة ناحية العباسية، ومن هناك يواصل السير ناحية مكة. وسار ستة من الجمال خلف الأول، وكان أحدهم يحمل شخصية أسطورية فى هذا الاحتفال، وهو عجوز مهمته الاعتناء بست من القطط اعتاد المؤمنون إرسالها إلى السعودية. وكان القط حيوانًا مقدسًا فى مصر قديمًا، وربما تكون عادة إرسال بعض من هذه الحيوانات إلى مكة متخذة من طقس دينى قديم.

وعند الرجوع إلى القاهرة بعد ثلاثة أو أربعة أشهر يستقبل الموكب الذى يحمل الكسوة باحتفالات تشبه تلك التى أقيمت عند رحيله. ويحضر معه الكسوة التى أرسلت فى العام السابق وتسلم أيضًا للخديو، ثم تقص بعد ذلك إلى قطع صغيرة يحتفظ بها المؤمنون للبركة.

مـــــــــولد النبى

يقيم المسلمون احتفالات محلية كثيرة ليست على قدر من الأهمية لإحياء ذكرى ميلاد أو وفاة أوليائهم أو أنبيائهم. غير أنه هناك احتفال يُدعى مولد النبى، ويتم الاحتفال به ببذخ كبير، وسوف أفصل القول فيه قبل أن أنهى هذا الفصل.

إنه حفل مولد النبى مُحَمّد والذى يتم الاحتفال به كل عام فى القاهرة لمدة أحد عشر يومًا ابتداء من يوم العاشر من ربيع الأول، وفيه تشترك الجماعات ذات المذهب الواحد والجماعات الدينية والحكومة والأغنياء والفقراء كعلامة على اشتراكهم فى الأفكار والمشاعر.

وألغت ضرورات العصر الحديث من هذا الاحتفال بعض التفاصيل التى تتسم بالقسوة والوحشية والتى كانت تمارس من قبل، إلا أنه ما زال يحفل بسماته المميزة والضوضاء التى تميز الاحتفالات الدينية للشعوب الشرقية. وقد أقيم الاحتفال فى مناطق عديدة من العاصمة، فى حى الاسماعيلية أولاً ثم فى العباسية وأخيرًا فى قصر العينى، وهو سهل كبير من القاهرة القديمة يقع أمام جزيرة الروضة وهو ليس بعيدًا عن المكان الذى وجدت فيه ابنة الملك- طبقًا للقصص المنقولة- السلة التى كان يسبح موسى فيها.

وذات مرة ذهبت لتفقد تجهيزات الحفل مع زميل لى كان قد أقام بالمغرب لسنوات طوال، ولذا فهو يتحدث العربية بطلاقة. وأثناء ذهابنا ضللنا الطريق ودخلنا متاهة من الشوارع العربية الضيقة لم نستطع الخروج منها. وعندئذٍ رأينا خمس من الفتيات العربيات يتقدمن ناحيتنا يلبسن عباءات بيضاء تغطيهن من رؤوسهن وحتى أخمص أقدامهن، ولم يتركن سوى جزء من الوجه الاسمر المألوف الملىء بالحيوية. فتوجه صاحبى إليهن بالكلام قائلاً:

- آه يا عينى، ناظرة وما شايفة، ممكن تقولولى يا صبايا من وين طريق المولد؟

- وأجابت أكثرهن جرأة:

- امشى على طول قدامك يا سيدى.

- صلاة النبى عليكى يا ورد العصارى النادى. فأجبن كلهن فى صوت واحد:

- اقبلنا جوارى فى حريمك.

وواصلن السير فى طريقهن، وتقدمنا نحن فى الطريق الذى وصفنه لنا، وعز علىّ أننا لم نأخذ مأخذ الجد ما قالته لنا تلك الفتيات الفاتنات من أتباع مُحَمّد ولم نحملهن معنا إلى الأراضى المسيحية ونحاول تنصيرهن.

فى أقصى جنوب القاهرة، قريبًا من حى قصور الباشاوات الأتراك تمتد ساحة قدرها أربعة آلاف متر مربع وهو مكان قفر ومنعزل عامة، لكنه تحول فى ذلك اليوم كما لو كان سحرًا إلى لوحة صاخبة بهيجة. فقبل أن تصل إلى الخلاء

يمكنك أن ترى أولى علامات المولد بعدد كبير من المحال والأكشاك تصطف على جانبى الطريق تباع فيها كل أنواع المأكولات. ولا يوجد بالتأكيد شعب فى الدنيا يهوى جميع أنواع الحلوى مثل الشعب العربى، وهكذا فإن أنواعًا عديدة من الحلويات تعرض فى مناضد عرض البضائع ودواليب تلك المحلات المرتجلة من اللقم وهى عجينة السكر واللوز المستورد من تركيا وحتى حلوى البندق وتماثيل الحلوى البيضاء والحمراء التى تمثل أشخاصًا مصريين.

وارتدى الميدان ثوب مهرجان شعبى، تملؤه الحيوية ويتدافع فيه جموع الناس الذين يتوافدون فى كل ساعات الليل والنهار. ويتوسط الميدان شارع ضيق، فترى خيام الجماعات الدينية على اليمين، وعلى اليسار ترى أماكن الطعام وأكشاك المسليات.

ولنبدأ من القسم الأخير، فرائحة الزيت المغلى تفوح من بعيد، حتى إنها تحدث دوارًا لأقوى الناس، والدخان لا يحتمل خاصة وأن المصريين يستخدمون روث البهائم والجمال الجاف وقودًا لكل شىء. والمطابخ والمطاعم فى كل مكان تعمل وتكسب جيدًا. ولا يوجد أبسط من معداتها فهى عبارة عن فرن من الطوب أو الطين ربما بناه الطباخ بنفسه، وسلتين أو ثلاث بها بعض القدور التى تعرض فيها المأكولات. وهى تتنوع بين لحم البقر المحشو ولحم الضأن المفروم- فلا يسمح الإسلام بأكل لحم الخنزير - وخليط من البيض وسمك النيل والصلصة البيضاء والأرز باللحم أو بدونه، وسلطات من ثلاثة أو أربعة أنواع من الخضروات، وأنواع شتى من العجائن يعدها عربى بائس رثّ الثياب بيديه الخشنتين دون أن تؤثر عدم نظافته فى زبائنه إطلاقًا. فاقتربنا من أحد هذه الدكاكين واعتقد صاحبه أن الحظ قد ابتسم له وأخذ يعرض مبتسمًا كل أنواع البضائع فى محله قائلاً:

- عندى بيض مقلى وزبد يا سيادى، لكما أن تجربا، وقد أتيتما للاستمتاع بالمولد. ولا تستمتع النفس إلا عند امتلاء المعدة.

فأجابه صاحبى:

- صلى على النبى واسكت.

فأجاب بسرعة بينما أخذ الحاضرون يضحكون مما حدث:

- عليه الصلاة والسلام.

- وواصلنا المسير، وغنى عن القول إنه لم يغونا أى من تلك المأكولات القذرة التى يغطيها الذباب.

وسرعان ما رأينا خيامًا عالية من القماش أبوابها نصف مفتوحة، وعليها حارس يدق الطبل كأنه يعلن عن شىء.

فسألنا:

– ما ذاك الذى بالداخل؟

– راقصات وعالمة يا سيادى.

عالمة.. عندما سمعنا ذلك الاسم العذب قفزت إلى مخيلتانا صورة كائن روحانى، رقيق تملؤ الشاقة حركاته، كما اعتاد الشعراء وصفها عندما يتخيلون العادات العربية، فقررنا الدخول. ولم تكن التذكرة غالية، كانت بأربعين بارًا أو ما يعادل ٢٥ سنتًا من عملتنا. وعندما رأينا الحضور وقد افترشوا بعض الأقفاص على شكل مقاعد، ودعونا للجلوس معهم. وكانت الفرقة عبارة عن ثلاثة موسيقيين بائسين يعزفون نايًا من البوص وربابة وطبلة. وكان المتفرجون من أكثر طبقات العرب فقرًا. ولك أن تتخيل خيبة أملنا.

وظهرت العالِمة، وتخيلوا امرأة فى الأربعين ذات بشرة خمرية ووجة مجعد فطساء وعينين ممتقعتين وشعر منكوش، كل زينتها هو عقد من العملات النحاسية، تغطى جسمها عباءة حمراء ممزقة، حافية القدمين تحمل عصًا فى يديها.

وبدأ الموسيقيون العزف. ووضعت العالمة طرف العصا على الأرض واتكأت برأسها على الطرف الآخر مكونة بجسمها زاويه قائمة، وهكذا بدأت نوعًا من الرقص. وأنأى عن وصف ما حدث ولا حتى باللاتينية. فهذه الرقصة الخليعة تخلو من رشاقة ولم ترقَ إلى مستوى الرقصات المماثلة فى اليابان والتى يكون الخروج فيها عن الأدب مبررًا.

وخرجنا. ومكث غير بعيد عن المكان حاوٍ أخذ يسلى بألعابه اليدوية جموع الناس التى التفت من حوله. وحضر جمع من الأطفال العرض وكانوا فى أول الصفوف وأخذوا يصفقون على وتيرة بطيئة ويكررون كلمة "دُور" بدون توقف. وعندما توقفنا أمام الجمع قام الحاوى بأداء لعبة جديدة ومثيرة. فقد أدخل حبلين فى ثلاث كرات خشبية مثقوبة ووضعها بحيث تترك فيما بينها فراغًا يكفى لإدخال رأسه. وعندما ربط رأسه هكذا أسلم أطراف الحبلين إلى أربعة من المتفرجين وأوصاهم بأن يشدوا بكل ما أوتوا من قوة. وكان يبدو لبعض الوقت كأنه يختنق تمامًا، حتى فصل الكرات عن بعضها بحركة من رأسه وأوقع من كانوا يخنقونه على ظهورهم. وكان قد بدل بمهارة ليس لها مثيل أطراف الحبلين حتى لا يكوّنا عقدة، وعند شد الأطراف لم تشكل الأحبال أى ضغط عليه.

وثمة مجموعة أخرى جذبت حولها كثيرًا من المتفرجين هم القرداتية أو المهرجون. ولا يوجد أحقر من هؤلاء البهلوانات العرب. فهم كبار السن عامة من العور والحدبان أو المشوهين بإعاقات أخرى وهم يقدمون عروضهم شبه عراة دائمًا فهم يلبسون طرطورًا مدببًا وسروالاً قصيرًا أبيض يضيفون إليه حبلا من الخلف على هيئة ذيل ودائمًا ما يكون معه سوط يستخدمه لتخويف مساعديه وهم ثلاثة أو أربعة يرقصون ويعزفون ويقلدون النساء ويحكون قصصًا بذيئة أو يحكون نكات خارجة.

ونجد المظاهر الدينية بجانب المظاهر الدنيوية. فإذا كان مولد النبى يُحتفل به لإحياء ذكرى ميلاد الرسول فمن العدل أن تكون الاحتفالات روحانية بغرض

السمو بالروح عن بؤس الدنيا وحضها على تأمل سيرة من كان يومًا خليل اللـــه في أرضه. لذا فقد ذكرت أن الجزء الأيمن من سهل قصر العيني قد حجز للجمعيات الدينية التي شكلت معسكرًا مبهجًا بخيامهم وأعلامهم وأنوارهم. وقد سبق تسوية الأرض حتى صارت فضاءً مستطيلا. وعلى الجانب الشرقي والجنوبي والغربي أقيمت خيام كثيفة للجمعيات الدينية من الخيش، وفرشت من الداخل بأقمشة ملونة عليها رسوم متعددة كانت كل واحدة منها تتسع لمائتي فرد يجلسون في صفوف طوال من المقاعد المتراصة بجانب الجدران. وفي صدر الخيمة توجد منصة عليها كراس ومناضد حجزت لرؤساء كل جماعة وأقيمت خيام الباشاوات في الجهة الشمالية من الميدان وهم الذين يريدون إظهار تدينهم بالإنفاق على جماعة من الجماعات. وتلك الخيام تمتلئ بالزخارف من السجاد الثري وأكاليل الزهور. وأحسنها بالطبع هي التي يـُنفق عليها الخديو فهي مكسوّة بالحرير الأحمر وبها قطع من الأثاث المذهب البهي نخص بالذكر منها كرسيًا عاليًا من القطيفة الخضراء محجوزًا لجلوس الخديو.

وفي وسط الميدان يرتفع صارٍ لعلم كبير تسنده أحبال شدت إلى أوتاد ثبتت في الأرض. وتعلق بهذه الأحبال الكثير من الزهور، وفي نهاية الصاري ترفرف راية الإسلام والتي يراد بها الرمز إلى قبر النبي في المدينة. ونصبت أربعة أعلام أخرى بالقرب منها تملؤها الزينة أيضًا بكثير من الفوانيس وتمثل مبنى الكعبة في مكة.

ولا يتوقف الزائرون العرب عن الوفود إلى هذا المكان خلال فترة المولد. ويســـارع الفلاحون صباحًا ومساءً إلى الميدان جماعات لأداء الصلوات، والنساء من كل الطبقات تحدوهن أحيانا أهداف أقل روحانية. وتدور في كل مكان عربات تجرها الخيل ذات أربعة مقاعد فاخرة تمتلئ بالجواري اللاتي يظهرن جمالهن السافر وعيونهن السوداء للناظرين من جموع الناس بحسد. وتعد الساعة الثامنة

مساء هى أفضل الأوقات لزيارة المولد، ففى هذا الوقت تضاء كل المصابيح حتى تجعل من المكان ميدانًا ممتدًا من الأنوار، وتحتفل الجمعيات الدينية بطريقتها، وتغزو جماعات الزوار الخيام المجاورة بحثًا عن مكان ترى منه الحفل وفنجان من القهوة لكسر جفاف حلوقهم بفعل الحر والأتربة. وتعد راية النبى هى مركز الحفل ويلتف حولها جموع المؤمنين حفاة جالسين على الأرض لأداء صلواتهم. وكثيرًا ما نرى الجماعات الدينية تخرج من خيامها حاملة أعلام ورايات يتجهون ناحية الراية المقدسة ثم يدورون حولها ثلاث مرات يتغنون بالشهادتين. وعلى البعد ترى مجموعات صغيرة من النساء الجالسات على الرمال يغطين وجوههن بحجاب أسود، متجهات بصلواتهن لله.

وتقام بداخل الخيام احتفالات خاصة تسمى ذكرًا، وهو عبارة عن ابتهالات متكررة باسم اللــــه. ويجتمع فيها ثلاثون أو أربعون فى حلقة أو فى صفين يقف فى نهايتهما منشد وشخص يقود الحلقة. وتبدأ بترتيل شجى لسورة من القرآن، وعندما يصفق القائد يحرك كل المتعبدين أجسامهم ورؤوسهم من اليمين إلى اليسار ناطقين بصوت جهورى مكررين اسم اللــــه. وتنتهى تلك الحركة التى تبدأ ببطء إلى حركة سريعة جدًا. ويكرر اسم اللــــه بثبات ودون توقف، ولأن الذكر طويل جدًا فإن كثيرًا من أولئك المتعصبين ينتهى به الأمر بإخراج رغوة من فمه وتخرج عيناه من حدقتيها ويرتمون على الأرض تنتابهم تشنجات من الصرع.

وعدا ذلك فإن تلك الصلوات تبدو ذات فائدة روحية كبيرة. ومهما كان الأمر فإنها تبعد كثيرًا عن تلك العادة البربرية التى ألغيت بأمر من الخديو منذ أربعة أعوام. وأعنى بها الحفل الشهير المدعو باسم الدوسة، وكانت تجرى فى هذا المولد أيضًا، وهى عبارة عن وصول الدراويش الصعاليك حتى راية النبى، وكان شيخهم يظهر ممتطيًا حصانًا أشقر هائلاً يدخل به الميدان، ولا بد أن يمر به من فوق أجسام المتعصبين الذين يرقدون على الأرض مكونين بساطًا متجانسًا من الآدميين.

أما اليوم فيسود التسامح الجم احتفال مولد النبى، وحتى السيدات الأوربيات يغامرن بزيارة مكان الاحتفال وتقدم فى الخيام الهدايا للأصدقاء، ويسمح بالتدخين والحديث فى شئون الدنيا. وبات جليًا أن الذين يمارسون الشعائر الدينية هم أكثر الناس تشددًا أو أكثرهم فقرًا روحيًا.

ومن المعتاد أن تفتح الخيام لكل الناس، غير أن الخدم يمنعون أحيانًا دخول الأغراب. وفى آخر يوم عندما أخذت الجماعات الدينية تنظم صفوفها كى تجول الميدان فى موكب مهيب كانت حشود الناس تجعل التقدم خطوات قليلة ضربًا من المستحيل، فدلفت أنا وصاحبى إلى إحدى خيام الباشاوات الأتراك التى كانت من أفضلها. وظهر فى الحال حارس أراد أن يمنعنا لكن صاحبى توجه إليه قائلاً له فى لهجه آمرة:

- باللـــه عليك، وسّع وصلّى إذا كنت تجهل ما يقوله القرآن. وعندما رؤى أجنبى يتحدث العربية اقترب الباشا وسألنا عما نريد.

- إن خادمك لا يعرف الأصول وأنت تتجاهلها يا باشا، فلا تسألنا قبل السلام، السلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة اللــه وبركاته، هل أنتما قادمان من المغرب أيها الغريبين النبيلين؟

- إن حلقى جاف يا باشا ولا أستطيع الإجابة.

فأرسل صاحب الخيمة فى طلب القهوة، ووجه إلينا تحية وهو يقرب فنجانه من فمه.

- هنيئًا.

- اللــه يهنيك.

وكان الموكب قد مر أمام الخيمة وعندما عبر أمام خيمة الخديو توقف ليشهد إطلاق سيل من الألعاب النارية. لكنّا لم تستهونا فكرة أن نرى الصلوات العربية تختلط بفرقعة الصواريخ الأوربية، فغادرنا خيمة الباشا متمنين له أيامًا هادئة وليالى سعيدة، وهذه هى الطريقة التى يحيِّى بها المسلمون بعضهم البعض فى هذه الأحوال.

الفصل السابع عشر

تدمير الآثار المصرية

طالما جذبت آثار مصر القديمة انتباه الناس. فقد أعجب الإغريق والرومان بتلك الشواهد الباقية على حضارة كانت آخذة فى الأفول. وحتى مسيحى الشرق أنفسهم- رغم عدم اهتمامهم بتلك الآثار- لم يفلتوا من أسر الإحساس بالاحترام عند تأملهم المعابد الكبرى والمقابر العميقة لمدينة طيبة. ولم يحمل العربَ حماسُهم المدمر أبعد من حدود الأهرام ومدن منطقة منف، وتركوا مبانى أعالى النيل الفخمة كما هى شاهقة والتى تركتها لنا الأسر الوثنية على مر التاريخ.

لا نريد بذلك القول بأن الآثار المصرية كانت محل احترام دائم فى أى حقبة من حقب التاريخ. وبرغم خضوعها لأهواء حكام جهلة، فإن متانة بنيانها هى التى جعلتها تصل إلى عصرنا الحالى وليس عناية البشر بها- رغم أنف المستعمرين الأوائل. ومن جانب آخر فكم من مستعمر مر على مصر وترك بصماته على تلك الآثار. فانتزع الإغريق والرومان والأقباط والعرب أجزاءً من تلك المبانى القديمة وأعادوا استخدامها فى مبانيهم، فتركوا لنا فقط تلك التى كان هدمها صعبًا ومكلفًا.

ويعد سكان القرى أشد الأعداء خطرًا بالنسبة للآثار المصرية. فلديهم اعتقاد راسخ بأن تلك الآثار- وخاصة المقابر- تحوى كنوزًا عظيمة مما أدى إلى تخريبها. ولم تثنهم خيبة الأمل، فتملكهم فى مختلف العصور هَوَس بنبش القبور وإخراج المومياوات فى الصحراء الغربية دون فائدة ولا مصلحة تعود على هؤلاء المخربين.

ومر على مصر مخربون آخرون للآثار. فمنذ نهايات القرن الماضى[١] أخذت هواية جمع المقتنيات القديمة فى الانتشار، فجمع عدد لا حصر له من الأحجار والبرونزيات والتماثيل والمومياوات المنهوبة من تلك المقابر وهى تملأ اليوم فتارين متاحفنا العامة والخاصة.

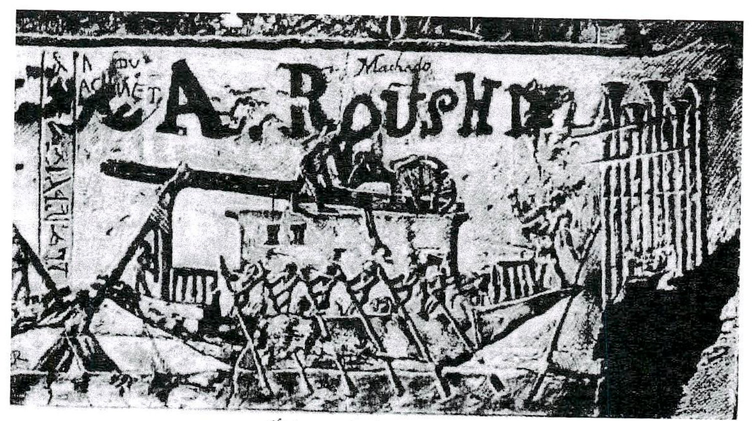
بعد أعوام طوال وفى منتصف القرن الحالى[٢]، كانت أفواج المنقِّبين تنبش القبور، وفى أوج اندفاعهم الطموح كانت تنشب بينهم معارك حقيقيه للاستيلاء على الآثار التى يعثرون عليها. وكان الإسبانى المدعو فرنانديز على رأس أحد تلك الأفواج وكان منزله بالجيزة يكتظ بتماثيل أبى الهول والآلهة واللوحات الحجرية المنقوشة، وكان هو بعينه من وقف فى طريق مارييت واعتبره عدوه اللدود.

إن زوار هذه الأيام يزورون الآثار المصرية بهدف وحيد هو تأملها، وغالبا ما يتسببون لها فى أضرار لا يمكن إصلاحها. فليس ثمة ما يثنى هؤلاء الرحالة عن كتابة أسمائهم على حوائط المعابد أو عن نقشها على جدران المقابر.

وحدث أن ذهب بعض البلهاء إلى صعيد مصر يحملون زجاجة من الحبر الأسود كى يتركوا ذكرى زيارتهم مكتوبة بأحرف كبيرة مرسومة بالفرشاة على أعمدة المعابد. وأود أن أوفى بواجب يمليه علىّ ضميرى بذكر اسم واحد من هؤلاء الحمقى لفضحه علنًا وهو المدعو رُشيْد؛ الذى كتب اسمه على أحد الحوائط يرى على الجزء المجاور لها مركب جنائزية غاية الجمال نحتت على جدران معبد الأقصر.

(١) يقصد بها نهايات القرن الثامن عشر (المترجم).

(٢) القرن التاسع عشر (المترجم).



جدار محطم لمعبد الأقصر

الاتجار فى المومياوات قديما

ومن المدهش أن نعرف أن الاتجاه المبنى على فهم خاطئ لعلوم الطب فى أوربا أدى فى القرنين - السادس عشر والسابع عشر - إلى تحطيم مقابر الإسكندرية بغرض إخراج المومياوات المصرية منها ثم بعثرتها فى أنحاء العالم، وأدى اعتقادهم بأن مواد تلك الأجساد لها فوائد طبية جمة إلى المتاجرة بها فى أوربا وبخاصة ما قام به يهود من مدينة "ليبانتى" الإسبانية. وقبل ذلك، حوالى عام ١٣٠٠م، استخدم يهودى سكندرى يدعى "الماجار" مسحوق مومياء علنًا كدواء فعال للجروح والكدمات، مؤكدًا كذلك أن النطرون والقار اللذين يخرجان من أجساد الموتى يعملان على استقرار الدورة الدموية كما يطردان الدم المتخثر من المعدة. وقد أخذت تلك التجارة- والتى سميت منذ ذلك الوقت عقاقير المومياء- أهمية كبيرة فى أوربا فى وقت قصير مما تسبب فى فتح ونبش كل المقابر القديمة فى مدينة الإسكندرية بحثًا عن أجساد الموتى، واعتبر الحكام العرب ذلك انتهاكًا للحرمات وتدنيسًا للمقدسات ومنعوه، لكنهم لم يمنعوا ذلك نهائيًا، مما أدى إلى ميلاد صناعة جديدة هى صناعة المومياوات المقلدة، والتى صنعها التجار اليهود من أجساد الفقراء والعبيد التى كانوا يحقنونها بالقار ويتركونها تجف فى الشمس لمدة معينة.

المومياوات فى الطب الإسبانى

وصنعت من المومياوات المساحيق والأصباغ والمراهم والزيوت الشائعة الاستخدام فى الطب حتى القرن الماضى، وفى كل كتب الصيدلة نجد الوصفات والأدوية التى تدخل فيها المومياء كعنصر أساسى، ولا نستثنى أنفسنا كإسبان من ذلك، فقد أدخلها أطباؤنا ربما فى الثلث الأخير من القرن السادس عشر. وفى تركيب أدوية ذلك العصر يرد ذكر استخدام المومياء. ويتحدث الدكتور خوان دى لونشه فى كتابه:

Tyrocinium Pharmaceaticum،theorico-practicum،galeno-chymicum.

طبعة خيرونا، دار نشر نارسيسى أوليفا دى فيتش، بيترى موريــرا لسنة ١٧٥٥م عن أربعة أنــواع مــن الموميــاوات وهــى: Arabum. و aegyptiorum وpisasphaltum و cadavera وينصح كتاب Pharmacopoeia Matritenseis Regii فى طبعته الثانية بمدريد، دار نشر بيريز سوتو، لعام ١٧٦٢، باستخدام المومياء السوداء الخفيفة الناصعة ذات الرائحة الطيبة.

آراء الدكتور فيليكس بالاثيوس

وبما أنه أورد ذلك بالإسبانية فسوف تروق لقرائى قراءة النص، وسأنقل حرفيًا ما كتبه الدكتور فيليكس بالاثيوس عن استخدام المومياء فى كتابه:

Palestra Pharmaceutica chimico- galenica طبعة مدريد، مطبعة أرملة خوان جارثيا إنفانثون ١٧٣٧م. ويذكر الكتاب فى فصل المومياء:

"المومياء هى مادة سوداء صلبة وصمغية، جاءت نتيجــة تحنــيط أجــساد الموتى بدهانات ومواد عطرية. إن بعض الكُتّاب يرى أن الموميــاوات الأصــلية

تستخرج من المقابر القديمة للمصريين والتى كانت تحت الأهرامات وما زالت منها بقايا حتى اليوم حول مدينة القاهرة الكبرى. وقد كان هؤلاء يحنطون الأجساد بدهانات وصمغ شجر الأرز والقار الفلسطينى والصبر والزفر ومواد عطرية أخرى ودهانات لها القدرة على حماية أجساد الموتى من الفساد، وكل ما يبقى من هذه الأجساد هو المومياء الحقيقية.

ويرى البعض الآخر أن الأجساد المحنطة والمجففة حتى تكتسب جفافًا وصلابة تجعلاها تبدو كالتماثيل، والتى كان المصريون يحفظونها فى توابيت، وبهذا يحفظ الأبناء أجساد الآباء الذين طالما اعتنوا بهم. وسمى آخرون الجثث البشرية التى وجدت فى ليبيا مجففة بين الرمال بسبب حر الشمس الشديد بالمومياوات البيضاء والتى كانت قد هلكت فى البحر ثم قذفها البحر إلى الشاطئ، وأيضًا جثث أولئك الذين يموتون فى الصحراء الكبرى حين يمرون فى تلك الأماكن بمفردهم، ثم يضلون الطريق ويهلكون عطشًا وجوعًا، ثم تجف أجسادهم بنفس طريقة مومياوات ليبيا. إن هذه الأجساد خفيفة جدًا وجلودها مثل الرق الملتصق بالعظم وتلك المومياوات لا تستخدم لغرابتها ولا تباع لكونها عديمة الفائدة. إن المومياء التى نستخدمها- طبقا لكل المؤلفين المثقفين- ليست إلا أجساد الموتى التى يجلبها اليهود وتجار الإسكندرية بمصر دون معالجة من مات منها بوباء أو بأى مرض آخر، فينتزعون أحشاءها ومخها ويملأون فتحاتها بمساحيق المر والزفر والكافالونو والقار الفلسطينى والقار الأسود وعقاقير أخرى رخيصة الثمن وغير متداولة، وهم يغلفونها فى لفافات مبللة براتينج البطم ومواد أخرى ثم يجففونها على النار حتى تخرج منها الرطوبة ثم يحفظونها ويبيعونها كالمومياوات الحقيقية.

ويذكر بدرو بوميث فى مؤلفه "المفردات" ص٦، "أن شخصًا ما فى الإسكندرية حدثه عن هذه الوصفة، وأنه قد رأى وسمع من يهودى أنه يتعجب من اعتبار المسيحيين لهذا الشيء العظيم شيئًا مهينًا ومحقرًا. كل هذا يجعلنا لا نعير اهتمامًا لما يجلبونه لنا على أنه مومياوات حقيقية، ويبرز مدى بطلان ما ينسب إليها من فوائد ليست فيها.

وعلى ذلك فيجب اختيارها لامعة وسوداء دون عظام ولا أتربة وذات رائحة طيبة، وألا تنبعث منها رائحة القار عند حرقها. ويظن أنها تستعمل لمقاومة الغرغرينا وعلاجها وللكدمات وتعالج تخثر الدم، كما يقال إنها مطهر نافع للجروح وأنها أيضا تداوى السُل والاختناق الرحمي ولعلاج أمراض أخرى كثيرة. ولذلك أدخلها القدماء فى تركيبات الأدوية وصنع المحدثون منها الخلاصات والأكاسير وأدوية أخرى".

متحف بولاق

وعندما انفتحت مصر على الحضارة الأوربية ظهرت الحاجة إلى حفظ الثروات الأثرية الباقية بالحفاظ على الآثار ما أمكن ونقل المقتنيات صغيرة الحجم فى متحفها. وبمباركة الخديو سعيد باشا أسس العالم مارييت عام ١٨٥٨، مقرًا فى بولاق ونظم مصلحة للكشف عن الآثار المصرية وصيانتها بنجاح كبير.

على أن مكان المتحف يعد كريهًا وكأنه اختير عن عمد فى مكان لا يوجد أسوأ منه، فالمبنى المستخدم سيئ و معيب وقديم، ويقع على شاطئ النيل مباشرة مما يجعله يتعرض دائمًا للرطوبة. كما أن مستواه المنخفض يعرضه لاجتياح مؤكد لتيار المياه ما دام للنيل فيضان منتظم. ويمثل ضعف الجدران والدعامات خطرًا حقيقيًا بأن يصبح نصف المتحف يومًا ما غارقًا فى مياه الفيضان، ومع ذلك فأحسن مجموعة تحف قديمة فى العالم محفوظة فيه وهى لا تخص مصر فقط لكونها أتت من آثارها، ولكنها تخص كل الشعوب التى لها فيها أول نتاج للجهد الإنسانى على طريق الحضارة. فقط عندما ستحدث كارثة سوف تطرح فكرة إنشاء مكان آخر أكثر أمانا لعرض ما يتبقى من هذه المقتنيات.

وينقسم المتحف إلى ممرين وسبع قاعات تمتلئ كلها بالآثار من كل حقب التاريخ المصرى، ولكى نبرز أهميتها فذلك يحتاج إلى جهد جهيد، ولكى نفصل القول فى المعروضات التى يحويها فذلك مستحيل فى إطار هذا الكتاب المحدود.

فهنا فى بولاق كل الحقب ممثلة منذ العصور الأولى للدولة القديمة حتى آخر أيام الغزو البيزنطى فى القطع الجميلة والتى ليس لها مثيل فى أى من متاحف أوربا. ويكفيك التجول فى هذا المبنى حتى تأخذ فكرة كاملة عن شكل الحياة المصرية حتى الفتح الإسلامى.

ولا شك أن القطعة الأثرية الأكثر أهمية فى بولاق هى تمثال شيخ البلد الذى يبلغ ١,١٠ متر، ويمثل شخصًا واقفًا ممسكًا بعصا، والتنورة تغطيه من الخصر وحتى الركبتين. وقد تم اكتشافه فى سقارة منذ عدة أعوام، ويبدو أنه يجسد مديرًا للأعمال فى الأهرامات(١). وفى الحقيقة أن تعبير الوجه يدعو للإعجاب وكذلك بريق العينين المصنوعة من حجر الكوارتز الأبيض غير الشفاف وفى وسط كليهما دائرة من البرونز تمثلان حدقة العين. ولا شك أن هذا العمل الفنى يجعل الزائر يقف مشدوهًا أمامه، وعمل كهذا ما كنا لنصنع اليوم أفضل منه رغم أن عمره الآن يزيد على ستة آلاف عام(٢).



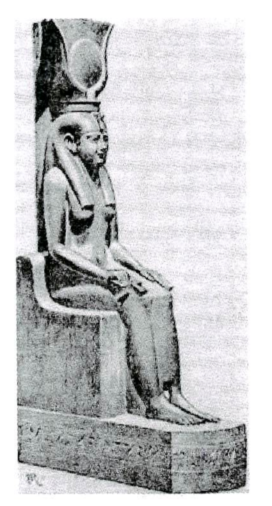
تمثال كا عبر "شيخ البلد"

---

(١) التمثال جسد شخصية "كا عبر" كبير كهنة رع فى الأسرة الخامسة -A guide to The .P32- Egyptian Museum, Cairo, 1988 (المترجم).

(٢) لا يزيد عمر التمثال على ٤٥٠٠عام طبقًا لمعظم كتب الآثار- المرجع السابق (المترجم).

وفى مواجهة هذا التمثال توجد مجموعة من ثلاث تماثيل فى القاعة الوسطى للمتحف مصنوعة من البازلت الأخضر يُمثل أحدها المعبودة الجميلة "نفتيس" أخت "إيزيس" والتى كان المصريون يعهدون إليها بحماية حياتهم فى الأبدية. وهى التى جمعت أعضاء "أوزوريس" المبعثرة عندما هزمه أخوه "ست" ومزق جسده. ولقد عرفت كإلهة مهيمنة فى مناطق أبيدوس وتاتو وكانت مهمتها الأساسية حماية رؤوس المومياوات.

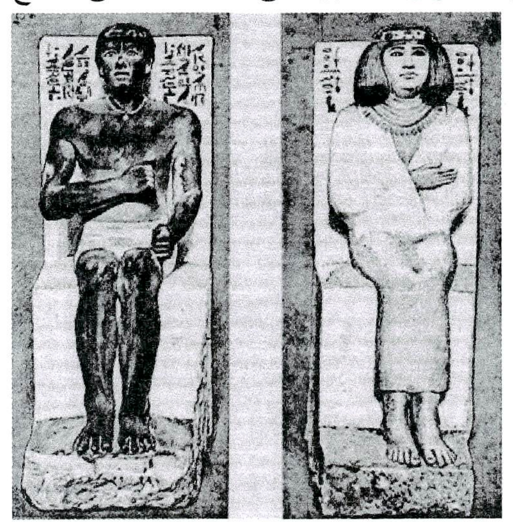


صورة المعبودة نفتيس

قاعة المومياوات الملكية

ثمة قاعة أخرى فى هذا المتحف تتعدى أهميتها بقية القاعات وهى قاعة المومياوات الملكية لاحتوائها على ٢٩ مومياء لملوك وملكات وأمراء وكبار الكهنة والتى وجدت عام ١٨٨١، فى خبيئة الدير البحرى. ونجد من بين هذه الأجساد الساكنة مومياء سنوسرت العظيم وسيتى ورمسيس الأول والتى تمثل مرجعًا مهمًا جدًا وغير قابل للتشكيك فيه مما يمكننا من إعادة كتابة تاريخ الملوك الذين حكموا مصر منذ القرن التاسع عشر وحتى القرن العاشر قبل الميلاد.

وتكتظ قاعة الدولة القديمة بمجموعات بديعة من التماثيل والتى نحتت إبان الأسرات الأولى، والتى عثر عليها فى المصاطب والمقاصير الجنائزية، ومقابر جبانة منف الفسيحة. وتحظى اثنتان من تلك التماثيل بأسلوب نحت بديع، وهى أحدث من تمثال شيخ البلد، فهى ترجع إلى عصر الأسرة الثالثة عشرة فقط[١] من العصر الوثنى، أى أن عمرها الآن ٤٧٠٠ عام، ولكنها لا تصل إلى الراتقان الذى تحظى به تلك الأخيرة. ولكنهما دون شك قطعتان أثريتان من أقيم قطع الآثار المصرية، وأقصد بهما تمثالى "بتاح حتب" وزوجته وابنة عمه الملكية الأميرة "نفرت" والتى وجدت فى حفائر ميدوم فى حالة جيدة، وهما يمثلان الأسلوب الغالب فى آثار الدولة القديمة، ويختلفان عن البقية بإتقان تفاصيلهما وقوة تعبيرهما، ويبدو التمثالان وكأنهما أحياء رغم كونهما مجرد تمثالان من الحجر إلا أنك تظن أن الروح قد هبطت لتبث فيهما الحياة، وبوجه هادئ وعينين مفتوحتين بينما اليد اليمنى على الصدر ينتظران جالسين على باب الجنة التى ستفتح لهما باب الخلود.



الأمير رع حوتب والأميرة نفرت

---

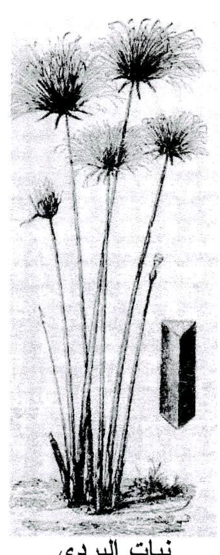
(١) التمثالان يرجعان لعصر الأسرة الرابعة وهما أقدم من تمثال كا عبر. (المترجم).

ولا يجب أن تفوت المسافر المتمدن زيارة متحف بولاق فسوف يحصل على العلم المفيد كى يفهم أفضل الآثار التى سوف يزورها فى صعيد مصر من خلال الوقت الذى يمضيه فى دراسة المعروضات الشيقة والمتعددة الموجودة بصالاته.

فالمعبد وحده لا يعنى كثيرًا. صحيح أنه مذهل ويدعو للإعجاب بحجمه الهائل وتناسق نسبه ونحته الراقى ولكنه من المناسب تصوره مع وجود الآلهة فى هياكلها والكهنة فى مقاصيرهم والمصلين فى الأفنية الخارجية الكبيرة، لذلك فالزيارة التى تقوم بها لبولاق مفيدة لتتعرف من خلالها ولو بشكل مختصر على ممارسة الشعائر المصرية والدور الذى كانت تلعبه تلك التماثيل فى حياة أولئك البشر وكذلك القرابين والتمائم والمعبودات وأشياء كثيرة أخرى مما تمتلئ بها القاعات التسع للمتحف.

أفكار مصرية حول السماء والموت

ومن الضرورى الآن أن نتطرق إلى نظريات هذا الدين الموغل فى القدم. ومن الواضح أنه منذ العصور البعيدة نشأت فى التصور البدائى لسكان مصر الفكرة الدينية الشائعة بين شعوب الأقدمين، وهى عبادة أشياء من العالم الحسى والتى تمدهم بالفائدة والمنفعة المباشرة، وشكلت الحيوانات الضرورية فى الحياة وثمار الحقول ونجوم السماء مجموع الآلهة الوثنية فى سماء مصر، والتى لم يستطيعوا القضاء عليها بالكامل ولا محوها من الضمير الشعبى والمذاهب التالية للمدارس اللاهوتية التى ضمتها معابد أون ومنف وطيبة.



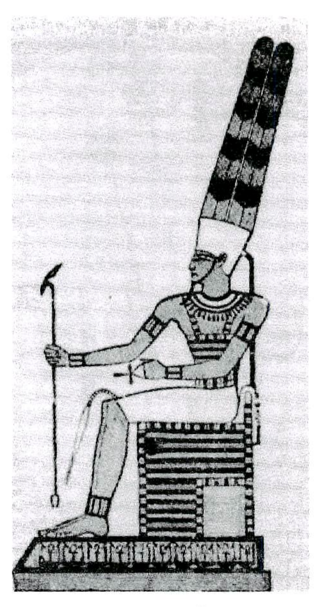
نبات البردى

وحتى فى أفضل أوقات العقيدة روحانية كان لكل إله رمزه الذى يتجسد فيه فى صورة عصفورة أو أحد الزواحف أو الطيور، فاللوتس والبردى النباتان الأكثر نضرة فى النباتات التى تنمو فى أحراش النيل كانا رمزين لإقليمى مصر، كما كان فى السماء الشكل الخفى لوجود الروح.

وأدى التطور الدينى فى العصر الطيبى إلى هيمنة الإله الأوحد آمون على جميع الآلهة المحلية المتعددة التى كان لها فى كل مدينة معبد وجماعة من الخدم، ومع ذلك فلم يكن آمون هو السيد المطلق بعد لسماء مصر، فكانت السماء مقسمة إلى منطقتين العلوية والسفلية، وفى الأولى يسكن ذلك الإله وموكبه ومعيته من الآلهة وسعداء الحظ الذين نالوا شرف الإبحار فى مركب الشمس، وفى الثانية والمخصصة للأموات الصالحين أو الذين أعلن أنهم "ماع خرو"[١]، كان يسود بقوته المطلقة الإله ذو الوجه الخفى أوزوريس.

---

(١) لفظ مصرى قديم معناه صادق القول، وهو ما يتمناه كل مصرى قديم (المترجم).



آمون رع

وكان لكل إله منهما صحبته من الآلهة الثانوية الذين كان عددهم كبيرًا وليس لهم فائدة تذكر، ولم يتم حصر صفاتهم وخصائصهم على وجه الدقة. وسوف أكتفى هنا بذكر الآلهة الرئيسية منهما فقط وهم رع وآتون وتوم وشو وجب ونوت ونو وحابى وإيزيس وحورس وآنوبيس ونفتيس بتاح وماعت، وسوف نتحدث عن خصائصهم فى محكمة الخلود وسوف نلقى عليهم الضوء أكثر عندما نجدهم على الآثار.

واعتقد المصريون فى سماء مادية خالصة أو قل إنهم كانوا يقبلون الموت فى الأرض رمزًا للفناء واعتقدوا على ما يبدو أن الإنسان تتغيّر حالته فقط، وأن وجوده لا ينقطع، وأنه يترك صحبة الأحياء كى يكمل حياته الأرضية بأخرى فى السماء وفى قبره. فأجزاء الفرد العديدة تتفكك ويبقى بعضها فى المقبرة كالمومياء والآخر يصعد للسماء مثل الروح التى تنزل بإرادتها للأرض. وتخضع الروح فى السماء لمحاكمة أمام محكمة أوزيريس، حتى تثبت أنها كانت طيبة وشريفة فى حياتها الدنيا بغرض التمتع بنعم السماء والاقتراب من مائدة الآلهة.

المومياوات

وكما قال هيرمس تريميجسترو: "كل ما ليس خالدًا فليس حقيقيًا" كان مفهومًا الديانة عند المصريين القدماء فيما يخص المصير النهائى للإنسان فى الخلق. ولا يشبه الإنسان أى كائن آخر فى ذلك، وبذلك يبقى الخلود محدودًا فى خياله. لذا فقد اتخذ المصريون احتياطات لحفظ تلك الأجساد التى نجدها اليوم فى مقابرها رغم مرور ثلاثة أو أربعة آلاف عام على دفنها. وتوجد أقدم المومياوات حاليًا فى متحف بولاق وترجع إلى الأسرة السادسة. وفى الدولاب الموضوع على يمين الدهليز التالى لصالة المومياوات الملكية نرى جثة غريبة يدعو مظهرها للاشمئزاز، لحمها المتليِّف الأسود عار ونزعت منه ضمادات القماش التى كانت تغطيه وقد فقدت فكها السفلى وفصلت إحدى الرجلين من الجذع. هذا هو كل ما بقى من جسد الملك "مرى إن رع سوكر إم ساف " ابن الملك بيبى الأول والأخ الأكبر لبيبى الثانى. وكلهم ينتمون إلى أسرة اليفنتين الذين حكموها بجانب "سينى"[١]، فى منطقة الشلال الأول حوالى عام ٢٦٩١ق.م.



مومياء

---

(١) أسوان الحالية (المترجم).

ملابسها

ويذكر هيرودوت أن المومياوات كانت فى مصر على ثلاثة أشكال تبعًا للثمن الذى يدفع فيها، على أنه فى عمليات التحنيط التى كانت تتم فى المعابد كانوا يتركون الأجساد لمدة سبعين يومًا فى حوض ملىء بالنطرون، وعند إخراجها كانت تلف بضمادات كنزة من القماش كانت تشد جيدًا على كل أجزاء الجسم حتى يأخذ الشكل المعروف للمومياء. وفوق اللفافات كانت توضع الطبقات المقواه وعليها الرسوم كرمز للحماية التى يرجو الميت الحصول عليها من آلهة الموتى. هذه الطبقات المقواه كانت تجسد فقط العقود والحلل التى كان من المفترض أنها تكمل ملابس المومياء، ومن حين لآخر تجد مومياء تحمل عقدًا عريضًا فى رقبتها من الخرز الأزرق يضمه خيط وعلى الصدر حلة ضيقة وطويلة تنتهى أطرافها بحاشية للزخرفة تزينها صور للجعران والجن الجنائزية الأربعة[١]، الموكلون بحفظ أحشاء الميت.

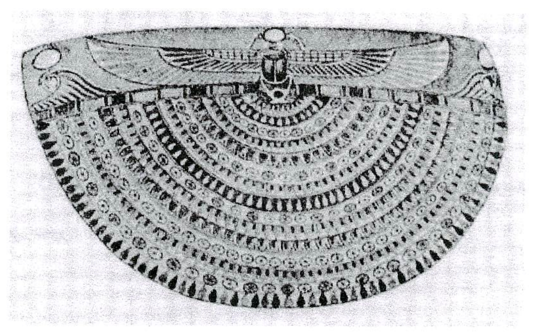
زينتهـــــــــا

ومن المعتاد أن نجد المومياء مغطاة بطبقة مقواه، وتكون على هيئة صندوق أحيانا وأحيانًا أخرى مقسمة إلى أربعة أجزاء ألا وهى القناع والعقد والصدرية والصندل. ويشمل القناع الوجه والباروكة المضفرة التقليدية للمصريين مكونة شكلاً من أشكال القبعات والتى يوضع فيها رأس الميت. أما الوجه فعادة ما يكون مذهبًا مع تحديد العينين الكبيرتين باللونين الأبيض والأسود، وعلى الجبهة يزهو الجعران رمز الوجود فى مصر الذى أوجد نفسه بنفسه، كما أنه أوجد الوجود بقوته.

---

(١) تشتهر تلك الآلهة بأنها آلهة حامية وليست من الجن وهم: قبح ســنو إف، ودوا مـوت إف، وإمـستى، وحابى. وهم أبناء حورس (المترجم).

وبالنسبة للعقد، فإنه على شكل نصف دائرة ويبلغ قطره حوالى شبرين. وفى الجزء الخاص بالقطع الأيمن يرسم الجعران المجنح ممسكا بين رجليه علامة هيروغليفية خاصة بالبعث. ويوجد رأسان يمثلان الصقر حورس على الجانبين- محاكاة للخاتمين اللذين يعلق منهما العقد- يتلألأ على كليهما قرص الشمس الذهبى رمز الإله رع- ثم يستمر الرسم على شكل أنصاف دوائر ذات مركز متحد باستخدام خيوط من الخرز بأشكال متعددة، غنية ألوانها وموضوعها وتختلط زهور البردى بزهور اللوتس فى تناغم جميل، كل ذلك دليل على الإبداع القوى والخيال الخصب لأولئك الفنانين المجهولين الذين استطاعوا إظهار عبقريتهم فقط فى أعمال الموتى.



عقد الجعران المجنح

وتعد الصدرية أو الجزء المقوّى المخصص لغطاء رأس الميت من مستوى النهدين وحتى الركبتين هى الجزء الأكثر أهمية من زينة المومياء. وهو يشبه فى مظهره درع المحاربين القدماء، ذو شكل بيضاوى يقطعه خط مستقيم فى الجزء العلوى منه، والذى تجلس عليه الإلهة "نوت" جاثية بجناحيها المفرودين وتحمل قرص الشمس على رأسها وتمسك بريشتى آمون كى تحمى قلب المتوفى ضد كل التأثيرات الضارة. ومن المألوف أن نرى فى حاشيتين خفيتين تمتدان فى الجانبين الجن الجنائزى[١]، والمعبودتين إيزيس ونفتيس حاميتا المتوفى واللاتى يُرى اسماهما مكتوبين بخط أسود على شريط عريض يتوسط الشكل البيضاوى.

---

(١) يقصد بها الآلهة الجنائزية، وهم أبناء حورس وأنوبيس وإيزيس ونفتيس (المترجم).

ومن بين نماذج هذه الرسوم الجنائزية توجد النسخة المصورة المرفقة هنا والتى - برغم هشاشتها - تمكنت من إحضارها إلى إسبانيا، وتحوى ثلاثة نقوش هيروغليفية. وعادة ما تكون كذلك مع تغيّر اسماء الأشخاص فقط التى تصاحب هذه الآثار. وتذكر الكتابة الموجودة على طول الشريط الرأسى للصدر:

يقول أوزيريس لكاهن خمب المدعو نيسحو سيرا بن نيس حمب المبرأ وابن المبرأة هيسيتور.

وبجانب رأس المعبودة نوت يوجد نقشان آخران، كل واحد منهما مكون من ثلاثة خطوط هيروغليفية. يقول النقش الأيمن:

تقول إيزيس الأم العظيمة المقدسة فى آبو بأخميم كلمات لتحمى بها كاهن خمب نيسحو سيرا بن نيس حمب.

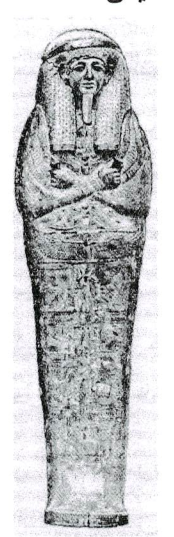
وفى الجانب الأيسر نجد:

تقول نفتيس المقدسة فى آبو كلمات لتحمى كاهن خمب نيسحو سيرا بن نيس حمب المبرأ.

توابيتهـــــــــا

ويكون صندل المومياء بطريقة شبه دائمة على شكل صندوق من الكرتون توضع بداخله قدما المتوفى، وترسمان بالخارج مع صرحين أو برجين للدخول فى السماء ويحرسهما حيوانان على شكل ابن آوى. وكانت المومياوات توضع فى القبور أحيانًا دون أى تابوت، ولكن عادة ما كانت توضع فى صناديق. أما أجساد الملوك والأمراء وكبار الموظفين للأسرات الأولى فكانت تحفظ فى قطع ضخمة من الأحجار، ملساء من الداخل وتزينها نقوش وكتابات من الخارج. ومنذ عصر الأسرة الرابعة استخدمت صناديق من خشب الأرز على وجه الخصوص أو من خشب السنط وكان غطاؤها على شكل جسم آدمى. ويحمل الوجه ملامح المتوفى، وعلى الصدر والسيقان ترسم تعاويذ الحماية الخاصة بنوت وصلوات المتوفى لحورس وآنوبيس. وتزين تلك الصناديق أيضًا مجموعة من الشعارات والتعاويذ

مثل الجعارين والثعابين "آريوس" وعلامات الحياة وريش وزهور خفية تزين أيضًا هذه الصناديق وفى الوسط نجد من الصدر وحتى الأرجل يمتد عمودان من اللغة الهيروغليفية تحتوى على اسم المتوفى الموجود بداخلها وألقابه مع ابتهالات لآلهة الموتى. ومنذ الأسرة التاسعة عشرة لم يكتفِ المصريون بحفظ الأجساد فى صندوق واحد ولكنهم وصلوا لاستخدام تابوتين وثلاثة أيضًا. وأثناء إقامتى فى الأقصر عام ١٨٨٦، حصلت على أحد هذه التوابيت الثنائية. وهو مصنوع فى طيبة وملـــىء بالنقوش على أحســن ما يكون وينتمى إلى الأسرة الثانية والعشرين ٩٨٠ ق م، وكان مخصصًا لدفن كاهن محلى لمعبد آمون وهو من كهنة المعبود المقدس أمنمحات[١]، ويتميز هذا التابوت بقصة ليست نادرة فى مصر بالتأكيد وهى أنه سرق وبيع بعد ذلك بمائتى عام للمدعو "آمون حال" رئيس خزانة ملابس آمون فى طيبة، ودفن به. وقد أحضرت جثته إلى إسبانيا. وعلى التابوت الخارجى نجد نقوشًا واضحة عليها ومكتملة بالرغم من أن اسم المالك الأول ليس واضحًا تمامًا، وتقسم إلى قسمين. نقرأ فى القسم الأيمن:



تابوت أمنمحات

---

(١) كان أمنمحات ملكًا من ملوك الدولة الوسطى عـبُـِد إبان العصر المتأخر (المترجم).

يقول أوزيريس سيد أبيدوس للمحترم أمنمحات صادق القول: أيا نوت، مدى ذراعيك فوقه حتى تحميه. أنتِ تقهرى الظلمات، افتحى الطريق للنور فى كل مكان يكون فيه واسمحى له أن يبعث حيًا إلى الشرق حيث الشمس.

وعلى العامود الأيسر نقرأ:

يقول أوزيريس سيد الخلود ورسول آمون رع ملك الآلهة لصادق القول أمنمحات: أيا نوت، احتضنيه بذراعيك، ثم احميه فى عالم الموتى المقدس. أرجو أن يبعث جسده فى نصف السماء السفلى وأنتِ وراءه تساعدينه. احم روحه من كل سوء فى نصف السماء العلوى.

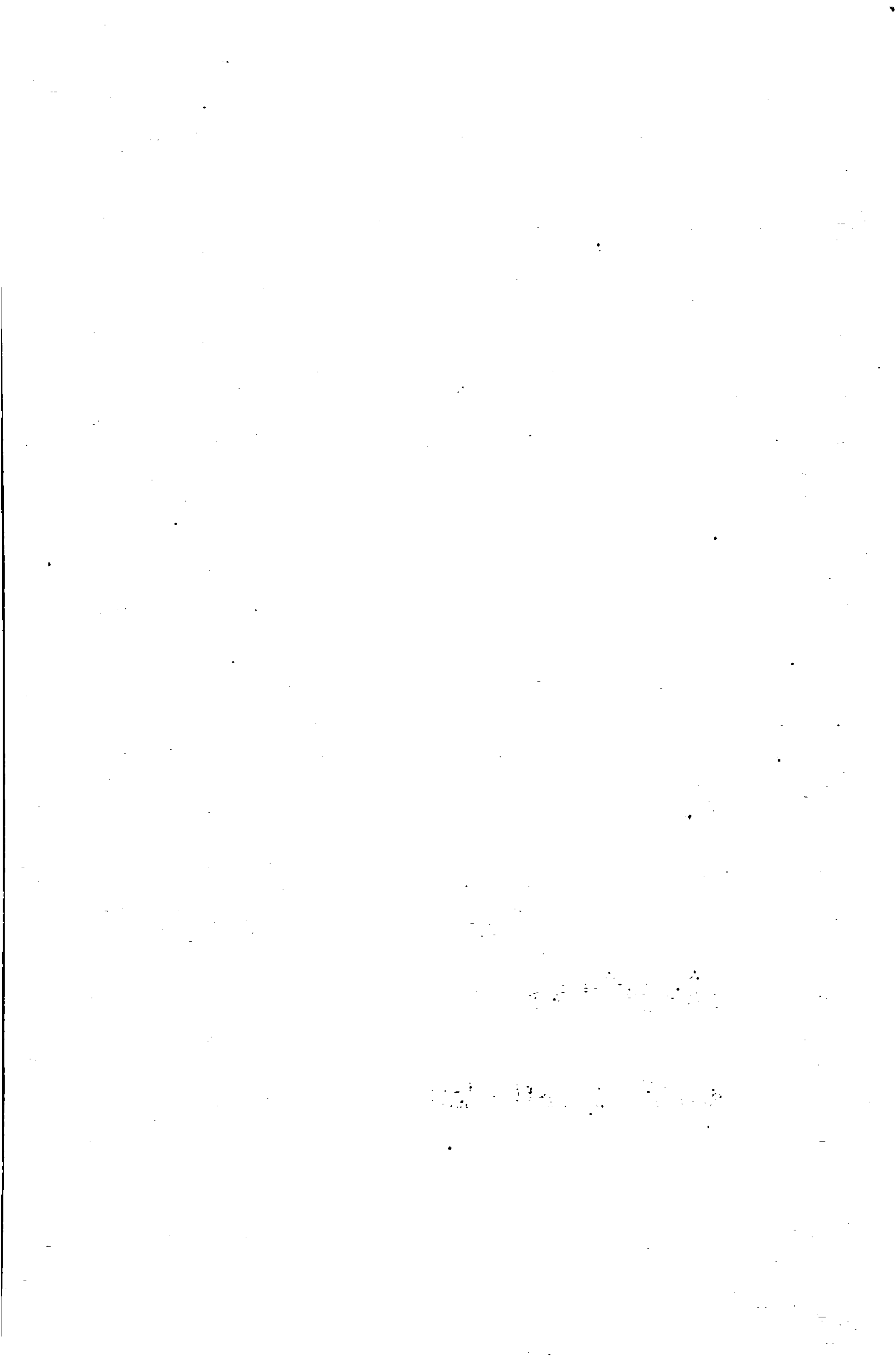
وينحدر الفن المتمثل فى بناء وتزيين التوابيت المصرية مع الوقت حتى ينحصر فى صناديق سيئة وفقيرة خالية من الذوق. حقيقى أنه فى العصر البطلمى انتعشت التقاليد الحسنة باتخاذ الأحجار الصلبة مثل الجرانيت الأسوانى والديورايت كمواد لصناعة توابيت فخمة على هيئة بشرية، لكن الانحطاط يعود فى العصر الرومانى ويحل الرخيص محل الثمين حتى نصل إلى الحالة المزرية فى القرن الأول بعد الميلاد، والتى صنعت فيها بالكاد صناديق للموتى ودفنوا فى حفر ضيقة صغيرة تنقر فى حوائط المقابر القديمة. ويعد جبل الكاب مثلاً لذلك بما يحويه من مقابر كثيرة جديدة قضت على مداخل المقابر المصرية القديمة.

على أنه من الغريب ثبوت أن المصريين المسيحيين كانوا يدفنون خلال القرون الأربعة الأولى من عصر الكنيسة بنفس طريقة المؤمنين بالديانة الأوزيرية بتحنيط أجسادهم ونقر مقابرهم والتى تختلف قليلاً – إن اختلفت– عن تلك التى استخدمت فى عصر الأسرة البطلمية. وفى الصالة المسماه بالصالة المسيحية

بمتحف بولاق توجد ثلاث أو أربع مومياوات من ذلك العصر والتى تحسبها بسهولة مصرية من عصر بطلميوس فيلوباتير أو عصر كليوباترا إذا غضضنا الطرف عن النقوش الأساسية التى أبدلت الأساطير الأوزيرية برموز الديانة الجديدة. وكذلك ترى الملاك الحارس- بدلاً من الإلهة نوت- والذى يحرس المتوفى فى رقاده الأبدى. وبدلاً من العجل آبيس تجد الكبش، وبدلاً من الصقر حورس تجد الحمامة تحمل غصن الزيتون بمنقارها. فكل التحولات بطيئة فى الشرق ولكن ليست مثل التحول الدينى الذى بدأته الديانة المسيحية.

الفصل الثامن عشر

المقابر المصرية القديمة



لم يعتبر المصريون القدماء مقابرهم أماكن حزن ووحشة تخصص لحفظ أجساد البشر لمدة معينة عندما تفارقها الروح ويعود للأرض الجسد الذى خلق منها، لكنهم جعلوا منها ديارًا للموتى على الأرض وملكية للروح فى العالم الآخر. وهى السكن الذى يكمل فيه الإنسان الحياة المادية بعد موته، وكانت عبارة عن أماكن إقامة أبدية للمومياء، وتماثيلها اللذين يستطيعان استقبال الزيارات التى تقوم بها الروح للجسد. أما الروح فهى السبب فى حياة فى الجسد فى الدنيا وعندما تنزل من السماء عند البعث.

كانت المدافن المصرية عبارة عن قبور حقيقية تحت الأرض، ففيها دفنت أجيال كاملة من نفس العائلة. تتكون من ثلاثة أجزاء مختلفة وهى المقصورة الجنائزية والبئر وغرفة الدفن. وتعد المقاصير الجنائزية المعروفة باسم "المصطبة" الجزء الخارجى للمقبرة. وهى جزء مفتوح دائمًا لمن يريد تقديم القرابين وتسليم العطايا تخليدًا لذكرى المدفونين بها. توضع فى المصطبة تماثيل للمتوفى تمثل جسده أو قرينه ويجب أن تحظى بالعناية والتبجيل تمامًا كالجسد الذى تمثله لأن الروح تبعث بداخلها إذا ما طالت المومياء يد الدمار فى قاع القبر. وإذا ركبنا النيل فنجد فى سقارة مصاطب مبهرة من بين آثار الجبانة الكثيرة، وسنرى كيف كان يزينها المصريون.

البئـــــــــر

فى ركن من المقصورة الجنائزية نجد البئر الموصلة للمقبرة، وتأخذ الحفرة شكل المربع أو هكذا كان على الأقل كل ما رأيته منها وهو عدد لا بأس به. ويكسو الجزء العلوى منها حائط من الطوب اللبن وضع بغرض منع انهيار التربة

الرملية المتحركة فى الصحراء الليبية. ونجد حفرات صغيرة فى جنبات البئر، وهى تسمح للعمال بالاستناد عليها بأرجلهم عند نزول المقبرة. ولا يوجد أى نموذج لحوائط منقوشة. ويتراوح اتساع البئر بين أربعة وثمانية أقدام، وعمقه بين ثلاثة أمتار وثلاثين، وتحوى جبانة منف أوسعها وأعمقها.

الغرف

وفى أسفل البئر تحفر الغرفة التى تحوى التابوت والمومياء. وتتكون عامة من صالة مستطيلة ليس بها فتحات سوى باب صغير للدخول وحوائط ملساء وسقف مربع أو منحوت أحيانًا على شكل قبة بدءًا من العصر الطيبى. وفى صدر الحجرة يوضع التابوت الحجرى الذى كان يحوى بداخله الصندوق الخشبى وفيه المومياء. وإذا خلت المقبرة من تابوت تترك المومياء على الأرض أو واقفة على قدميها ويستند ظهرها للحائط.

زخارف الجدران

وتزدان حوائط المقابر برسوم متقنة تحاكى مناظر الحياة اليومية فى الأرض أو فى السماء، وغالبًا ما ترسم المحاكمة التى تخضع لها الروح فى الأبدية. وكان آخر اكتشافات رسوم الحوائط المصرية فى فبراير لعام ١٨٨٦، وقامت به بعثة الآثار التى كنت عضوًا فيها فى جبانة طيبة وكانت عبارة عن رسوم مقبرة الكاهن "سن نجم" حارس مقابر وادى الملوك المجاورة. ويبلغ عمر تلك المقبرة حوالى ثلاثين قرنًا، وبرغم ذلك فإنها محفوظة تمامًا، فقد فعلت التربة والطقس فى مصر ما يستحيل حدوثه فى باقى أنحاء الكرة الأرضية. وينقسم الحائط الشرقى للمقبرة إلى ستة أجزاء أفقية. وتمثل هذه الأجزاء المنطقة السفلى من السماء كما تخيلها

المصريون، وأنه عند موتهم سيسكنونها برضاء الآلهة عنهم، وتحاكى بذلك ما اسموه بحقول أعالو[١]، وكانت هى نفسها حقول مصر بمناظر الريف التي اعتاد سكان البلاد على رؤيتها كل يوم. ويحيط النيل بلونه السماوى المنظر مشكلاً إطارًا بأمواجه. وعلى الجزء العلوى تطفو على الماء مركب الشمس ويجلس فى وسطها رع بوجه صقر وعلى رأسه تاج من قرص الشمس يحيطه ثعبان أوريوس الذى كان يزين رؤوس الآلهة والملوك فقط، وعقد الحياه[٢] فى يده الذى يخلد حياة سعداء الحظ فى الجنة. وعلى يمين قرص الشمس نجد هذا النقش الخاص بأوصاف الشمس يقول:

رع حور إم آخت، أتوم سيد الأرضين فى أون.

وعلى يساره نقرأ:

خبرى فى مركبه.

وطبقا للعقائد المصرية فإن خبرى أو خبرا- وهو الجعران الذى تظهر صوره فى التعاويذ الجنائزية أيضًا- له شكل مكون من جميع الآلهة ويرمز إلى الخلود. وعلى جانبى مركب الشمس يجلس قردان كبيران. والقرد حيوان يلعب دورًا مهمًا فى الأساطير المصرية، كما أنه عُبِدَ فى منف كإله. وفى هذا المنظر يمثلان الآخر والغروب فى السماء، كما نفهم من الكتابات المصاحبة، ويقول النص الموجود على اليمين:

صلوات لرع عندما يشرق فى الصباح.

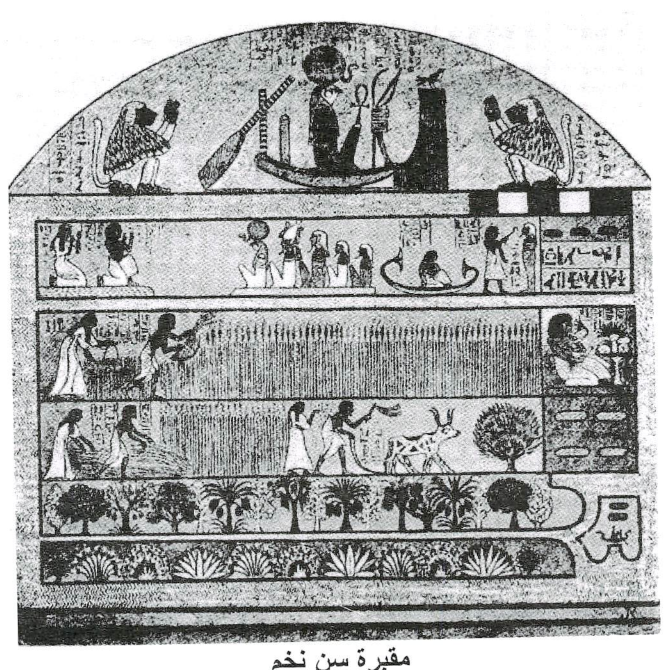
ويقول النص على اليسار:

أنت تنشر الهدوء على الأرض عندما تغرب عنها.

---

(١) حقول أعالو هى حقول الجنة عند المصريين القدماء وتدعى إيارو أيضًا (المترجم).

(٢) علامة الحياة (عنخ) فى اللغة المصرية القديمة (المترجم).



مقبرة سن نخم

وفى المنظر الثانى نرى "سن نخم" وزوجته جالسين على الأرض فى وضع تعبد لخمسة من المعبودات يتقدمون ناحيتهما على زورق مصرى عائم فى قنـــاة. ويمكننا التعرف من بين هؤلاء الآلهة على الأول وهو رع، والثانى وهو أوزيريس والثالث وهو بتاح. أما الاثنان الأخيران فلا يحملان على رأسيهما رمزا يميزهما. وتقول الكتابات التى نقشت أمامهما: صلوات لرع حور إم آخـــت، سـجود أمـــام أوزيريس فى الغرب حتى يهب بتاح- سيد الزورق- الحياة لمن يسمعان الدعاء فى صالة الحق المبرأ "سن نجم" وأخته المبرأة السيدة إى نفرتى.

وتتجه المركب التالية للآلهة ناحية:

ابنة المحب المبرأ رع حوتب.

ويمارس بجانب المركب طقس سرى معتاد بين المصريين القدماء. وتقف مومياء سن نجم ملفوفة بالشرائط وتستند إلى الحائط، ويقف أمامها ابن آخر من ابنائه وهو خنسو الذى ورث وظيفة أبيه كما تقول نصوص المقبرة، وهو يؤدى طقس فتح الفم والرئتين ببلطتين "نو" حتى يستطيع مواصلة حياته الحسية الأرضية فى المقبرة. ويوجد اسم الابن مكتوبًا:

ابنه الحبيب المبرأ خنسو.

وبين صورته وصورة أبيه نجد كتابة تفسر الرسم تقول:

إنى أفتح فم المرحوم المبرأ سن نجم.

وفى جزء صغير ينتهى به الرسم على اليمين نجد رسمًا لثلاث بحيرات مقدسة وبجانبها توجد نقوش هيروغليفية تمثل ألقاب صاحب المقبرة. وفى الشريحة الثالثة نرى "سن نجم" وزوجته يحصدان غلال المحاصيل الوفيرة التى حصداها من حقول أعالو. وفى جزء صغير كالذى علقنا عليه أيضًا يجلس نفس الشخص يتنسم بإستمتاع عبير زهرة اللوتس أمام مائدة مليئة بوافر القرابين.

وتتكرر مناظر الريف فى القسم الرابع، وعلى اليسار نرى الزوجين يحصدان سيقان القمح بعد فصل السنابل عنها. ثم يبدآن من جديد عملية الغرس فيقود "سن نجم" زوجًا من الثيران يجران المحراث وبيده سوط من قطع الجلد يحثهما على إسراع الخطى. وتمشى وراءه إى نفرتى تبذر الحبوب، وينتهى هذا الجزء بشجرة وارفة والبحيرات المقدسة الأربع التى كانت فى المنطقة السفلى من السماء. ويشير الجزءان الأخيران إلى حقول أعالو تشقها قناة. وتظهر فى الجزء العلوى منها النخل الوارف الأخضر النضر وفروعه مليئة بالثمار الصفراء والتى تجلب السعادة للمصريين فى هذه الدنيا وفى الآخرة. وفى الأسفل تخرج نباتات اللوتس والبردى من المياه وهى ذات نفع عظيم لهم. وفى الركن الأيمن نرى مركبًا

يطفو على شكل غير مستوٍ كونته منعطفات الأمواج، وهو بدون شـــك مخـــصص لحمل الأرواح عبر النهر الذى يعبر السماء التى تسبح فيها الشمس.

شــــواهد القبــــور

وقبل دفن الجثمان فى قبره كان المصرى يؤكد على شخصية المتوفى فيضع لوحة حجرية جنائزية منقوشة بخط هيروغليفى تحوى الاسم والحالـــة الاجتماعيـــة والوظيفة أو الحرفة، أو يطلبون من إله الموتى أن يمنحه المـــواد التـــى يحتاجهـــا لإعاشته فى الحياة الأخرى. ويقول النص الموجود على إحـــدى اللوحـــات التـــى وجدتها فى أسوان من العصر الصاوى:

> **"صلوات لحور إم آخت سيد السماء وأبى الآلهـــة كـــى يعطى القرابين والطعام اللذيذ وكل ما هو طيب وطاهر ويطعـــم منه الخالدون إلى المرحومة نيتيوس بنت أكنو المبرأة ساحتها".**

وكانوا يضعون اللوحات الحجرية خارج المقبرة.

القـــــرابين

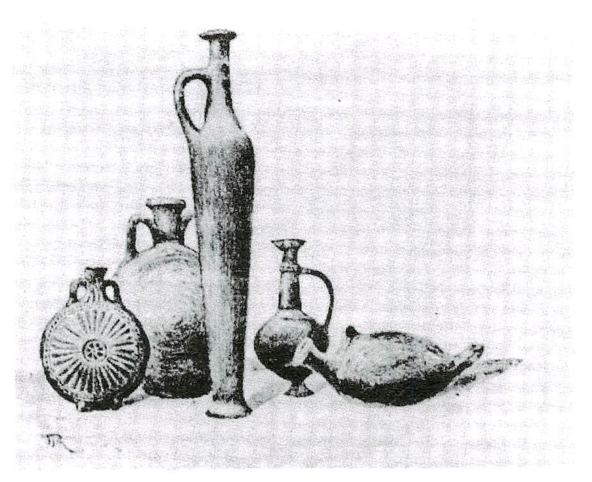
وبالداخل يضعون قرابين وفيرة تتكون من نفس الأغذية الضرورية لحفـــظ الحياة على الأرض. واعتقد المصريون أن الجثمان إذا نقصته المؤونة فى المقبـــرة فإنه يموت للمرة الثانية ميتة لا يعافى منها، وأنه إذا احتاج قرينـــه القـــرابين فـــى مقصورته فإنه سيضطر للعودة بين البشر ليتغذى على الفضلات.



لوحة جنائزية

الأوانى – الطعام – الأثاث

وكان مقدار القرابين مهمًا للغاية، وكان خبز القمح أساسيًا فيها ويعجن من الحبوب دون نزع لحائها. ويتنوع شكل الخبز بطريقة كبيرة فنجد منها الخبز المستدير، والمخروطى الصغير والفطائر المستوية والقطع المعجونة غير المستوية مختلفة الأطوار. كما كانت توضع القوارير والآنية المليئة بالخمر والماء والكحوليات كعطايا جنائزية مهمة للغاية. وبعض هذه القوارير غاية فى الأناقة خاصة تلك التى تنتمى إلى العصر الطيبى والبطلمى، وتوجد عليها أحيانًا رسوم جميلة وأشخاص وزينة. وكانوا يتركون فى مقابرهم مؤنًا أخرى مثل اللحم والبيض والفواكه وأعشابًا طبية موضوعة فى أطباق من الفخار ملونة بالأحمر أحيانًا وحافتها باللون الأبيض وفى جرار بدائية وأوان ذات أشكال رشيقة وسلال من الصفصاف صنعت بمهارة وأخرى صنعت من الأسل وجوارب من القش. اكتُشف بعض منها صغير الحجم فى جبل عين لم يحو مثلها أى متحف. ولقد حصلت على خمس ما زالت تمتلئ بالقرابين من العنب والأوراق العطرية التى وضعت بها عند دفنها بالمقبرة.



أوان فخارية

وكانت العصى والأسلحة والأثاث الذى استخدمه المتوفى فى حياتـــه تـــدفن معه فى مقبرته وفيها أيضًا يوضع مركب صغير أحيانًا. واعتقــد المــصريون أن السماء هى نيل أزرق تبحر فى مياهه الآلهة، وكان على المتوفى أن يبحر فى النيل حتى يصل إلى رع ليكون فى معيته إذا ما استحق ذلك. وثمة نوعان من المراكب:

نوع من الخشب يحمل الميت فى معية الآلهة، ونوع من نبات البردى تحمل فيه القرابين.

القـــــــرين

وتحسبًا لإمكانية تحطم المومياء الموضوعة بالقبر لتكون ملاذًا للروح كـــى تعود للبعث من جديد كانوا يضعون تمثالاً للمتوفى أطلقوا عليه اسم القــرين فـــى أوراق البردى. وكان التمثال تقليدا صادقًا لملامح وجه وجسم الإنسان فى أحــسن مراحل حياته. ونادرًا ما نرى جسمًا هزيلاً لعجوز أو صدرًا مترهلاً أو بطنًا كبيرًا لامرأة عجوز، فالرجل دائمًا ما يكون شابًا رشيقًا قويًا متين البنيان، وتظهر المرأة

بوجه جميل ونهدين مرتفعين وخصر نحيل كالعذارى. أما فى حالة التشوهات الخلقية فكان الفنان يبتعد عن هذه المثالية، ويعطى لتمثال القزم على سبيل المثال أبعاذا وتفاصيل حقيقية لجسمه.

التماثيل

وثمة نوع آخر من التماثيل التى درج المصريون على وضعها فى المقابر وهى التماثيل الأوزيرية؛ والتى تصور إله الموت والتى يعرف بها الجثمان عند دخوله منطقة السماء السفلى. وبمجرد إعلان براءة المومياء من قبل منصة القضاة فإنها تتحول إلى أوزيريس، لذا فمن المنطق أن يوضع تمثال له بجانب الجثة عند دفنها بالمقبرة. وتوضع تلك التماثيل الأوزيرية على قاعدة من الخشب وأمامها يوضع صقر يرمز للروح وينظر إليها كما لو كان يستحضر سلطانها فى يوم البعث. وتحمل ريشة آمون فوق قرص الشمس رع على الرأس. وملامح الوجه مذهبة. ويلف الجسم بضمادات رفيعة كالمومياء. وغالبًا ما يشير نقش عمودى مكتوب على الصدر إلى اسم وألقاب الشخص الذى يمثله التمثال. يذكر النص المكتوب على إحداها والذى أحضرته معى من مصر:

كلمات أوزيريس، خنت إمنتيو، الرب، سيد أبيدوس العظيم للمرحوم جحوت حتحور منيو ابن كيم تايس.

ويذكر نقش آخر منسوب لـ "*إيزيس*" *ورح* مكتوب على الظهر وهو ابتهال بديع لأوزيرس:

أيا واحبرا، أيتها السيدة التى تعزف على قيثارة خم ناسيت كم، العافية لك يا وريثة السلطة، هكذا قال توم، جسده كالكلب، أتى ليحيى إله ريفور الأعظم ويملأ الأوانى بالماء. أنت

مالك أكيرتى فى الليل، أتيت يا إلهى على الماء، وصلت فى مجد إلى روف والآلهة الأخرى فى معيتك. يجد الأخيمو فى السماء يسهرون على راحة سيدهم. وقرينه يحمى الأرضين من أجل المرحومة إيزيس ورح.

الأوشبتى أو المجيب

وأخيرًا توضع تماثيل أخرى جنائزية فى المقبرة وتدعى أوشبتى باللغة المصرية أو المجيبين. ويقومون بدور الخدم الذين يجيبون نداء المتوفى عندما يحتاج إليهم فى أشغاله فى الحياة الأخرى أو ربما يساعدونه فى الأعمال التى يطلبها منه أوزيريس. وعادة ما تكون صغيرة ومطلية، وتمثل الخادم ملفوفًا كالمومياء وعلى كتفه سلة مليئة بالحبوب والفأس فى يديه. ويكتب على حلته بخط هيروغليفى أو هيراطيقى اسم المتوفى وأحيانًا يكتب نص لرقية تكون دائمًا بنفس المعنى. ويحمل تمثالاً من البورسلين الأزرق ينتمى إلى الملكة تيو حتحور حنتوى زوجة الملك الكاهن بينوتمو الأول من أسرة حريحور الدينية، يحمل هذه النقوش:

وحى أوزيريس للملكة حنتوى. إن هذه التماثيل تدعى أوشبتى، عندما يذكر اسم الملك بتاح مس كى يقوم بأعمال العالم الآخر كلها "هو من حارب الأعداء برجولة". ويجب عليه زرع الحقول وملء الجداول وحمل حبوب الشرق للغرب، أجيبو: إنه أنا، إنى هنا. وأنت أيها التمثال كن مستعدًا للعمل فى كل ساعة وكل يوم.

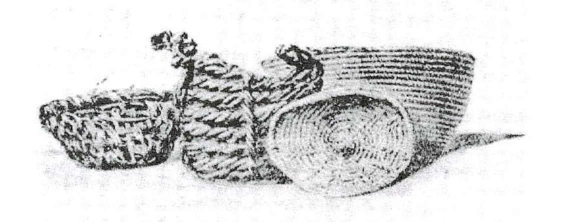
وكان من الضرورى إرشاد الموتى إلى طريق المنطقة السفلى من الـسماء وتعليمهم الردود التى يجيبون بها على الآلهة الذين يحكمون على أفعالهم، وتلقينهم التعاويذ المكتوبة فى الشعائر، وأخيرًا تزويدهم بالتمائم التى تنجيهم من الأخطار التى يتعرضون لها وهم فى طريقهم للخلود. وكم كان المصريون يسرفون فى ابتكار التمائم التى توجد على ألف لون فى كل المقابر وفى أطلال الجبانات وبين جدران البيوت القديمة التى كانوا يسكنونها بالمدن. وهذا يعنى أن التمائم لم تكن مقصورة على أغراض جنائزية فقط ولكنها استخدمت أثناء الحياة للوقاية من الحوادث، وكتعاويذ ضد الفأل السيئ ولجلب الحظ السعيد.

وتتكون التمائم الموجودة فى المقابر المصرية فى معظمها من أصنام صغيرة وأشياء مصنوعة من كل أنواع المواد. استخدم الذهب والنحاس والرصاص فى صناعتها كما استخدم العقيق الأحمر واللازورد والمرمر والديوريت والحجر السماقى والبوررسلين والقار والطين العادى والخشب، وصاغوها فى تصاوير لمجموعة الآلهة المتعددة لديهم فكانت على شكل حيوانات كثيرة وأشياء خفية عديدة والتى نجهل ما ترمز إليه بعضها حتى الآن. ويتراوح حجم هذه التمائم بين نصف بوصة وبوصتين.

وكانت المعبودات تمثل كثيرًا وتوضع فى المقابر لتمد حمايتها إلى أجساد الموتى. وكانت الآلهة الأكثر شيوعًا هى إيزيس وحورس وشو أو إله الشمس وخم وآنوبيس وبس وحتحور وريصيف وتوت ونفرتم وسلكت وموت وبتاح البتيكى وسكت.

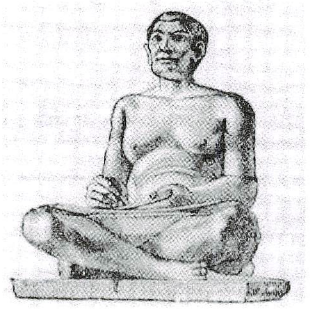
الحيـــــوانات

وكانت قائمة الحيوانات المكرسة للتمائم الجنائزية والتى كانت تتمتـــع بتـــأثير كبير على مصائر الموتى. ويأتى الجعران فى المقام الأول وسماه المصريون خبرى وخبيرى وخبر وخبرا، وهو رمز للحياة البشرية والتحولات المتتالية للروح فى العالم الآخر. وافترض المصريون أن هذا النوع ليس له أنثى وأن وظيفة التناســل يقــوم بــها الذكــر عندما يدفــع بكرة الــروث علــى الأرض واختــصوا بتاح بالجعران



سلال من الخوص

وهو إله أصل الخلق، وجعلوا رمزه خاصًا باللحظة التى يتم فيها بعــث الأجــساد ونزع قلوب المومياوات. واستخدموه كرمز للحياة الآخرة. وهكــذا كــان يوضــع جعران من الحجر على صدور الأموات ضعف حجم الجعران الحقيقــى، ويكتــب على الجزء المستوى منه. ومن بين الجعارين الكثيرة التى جلبتها من مصر هناك واحد ينتمى للعصر الصاوى ويحوى كتابات تقول:



الكاتب الملكى

الكاتب الملكى، الأب المقدس، كاتم الأسرار هودجا توهير.افتح لى يا حورس وامنح روحى التى فى جسدى الراحة الأبدية.

أبيت تويرى أو تو إيريس كما يسميها الإغريق هى معبودة بشكل فرس البحر لها رأس منفر وبطن كبير مستدير وثديان كبيران مترهلان، وذراعان يستندان إلى الفخذين، ورجلها اليسرى موضوعة على عقدة سحرية من الأحبال. وكانت هذه التميمة تحمى أرواح الأبرياء فى العالم الآخر، وتجعل الآلهة التى تمثلها والسكين فى يدها تحمى الأرواح الطيبة من اعتداء الأرواح الشريرة.

وللعيون معنى عظيم فى الطلسمات المصرية أيضًا وتدعى أودجا، ويظهر فى رسوم هؤلاء الفنانين العين اليمنى مختلفة عن اليسرى وفى كليهما دمعة تنسال من الحدقة. وكانوا يعدونها عينا رع الإله الأعلى الذى تضىء الشمس بعينه اليمنى والقمر بعينه اليسرى. هذا بالإضافة إلى العين المنفصلة عن الشخصية المقدسة التى تنتمى إليها وصارت مقدسة بذاتها وهى أودجا حور أو عين حورس التى كان لها وجودها المستقل ومعناها الواضح فى أسطورة أوزيريس، وكانت قد بكت فى مواطن عدة ومن دموعها وجدت كل السوائل الضرورية للإنسان كالخمر والزيت وغيرها.

والتات الذى يدعى بين العامة مقياس النيل هو رمز الاستقرار ويجسد مذبحًا من أربعة أو خمسة أجزاء بعضها فوق بعض. ورأى المصريون فى شكلها ما يشبه العمود الفقرى ولذا نادوها بالصيغة التالية: "إن عمودك الفقرى هو لك يا إلهى يا ذا القلب الثابت. نم على جنبك حتى أسكب الماء من تحتك وأحضر التات الذى يسعدك فى السماوات. وعندما تحمل المومياء هذه التميمة فى عنقها يسمح لها بعبور؛ "البوابات السماوية، وتقبل القرابين والمشروبات واللحوم على مذبح أوزيريس، وتحطم أعداءها الذين يجب أن تقهرهم.

ومن بين التمائم الجنائزية نجد أشكالاً كثيرة لحيوانات، فنجد الضفدعة التـــى كان لها معنى عميق خفى عند المصريين القدماء على أساس أنها كانت رمزًا آخر للبعث. والخنزير الذى نسبوا له فضائل عظيمة كتميمة تمنع الآثار السيئة للكسوف والخسوف. وكان الفيل طبعًا رمز القوة. وكان الميت يحتاج كل هـــذه الحيوانـــات حتى يكمل طريق الخلد فى سلام. كما كان يجب عليه التزود بأشياء معينة كـــالعنخ وهى رمز الحياة العادلة التى يتمنى الاستمتاع بها فى السماء. وهناك تمائم أخـــرى مجهولة المعنى وتدعى المخروطيات الجنائزية. وتوجد عادة فى منطقة طيبة وهى عبارة عن أشكال مخروطية من الطين يبلغ طولها شبرًا وعرضها بوصـــتين فـــى سطحها الأوسع وتوجد عليه نقوش باسم الميت الذى تخصه. وقد حـــصلت علـــى العديد منها والتى تظهر عليها كتابات محفوظة جيدًا، تقول إحداها:

المسئول عن مواشى معبد آمون، حارس بيت الرب ورسول قرين الملـــك. كاتب مذابح سيد الأرضين رع من خبرى سنب، المبرأ عند الرب العظيم.

ونجد أخرى تخص سليل عائلة ملكية ليبية تقول: جها حور ابـــن الأميـــر والقائد العظيم ماشواس، الرئيس الأول لرسل بنيت وابن الـــسيدة شـــيين ســـوبت. وكتب على أخرى:

دعوات لأوزيريس سيد أبدية النهار وأمير أبدية الليل،

يقولها جهاى رئيس التجار.

وسوف نسهب كثيرًا إذا فصلنا القول فى التمائم الأخـــرى الموجـــودة فـــى مصر، والتى نجهل معناها أو يمكننا تخمينه مـــن نـــصوص غامـــضة للطقـــوس الجنائزية.

الفصل التاسع عشر

نهـــــر النيـــــل

عند بداية رحلتنا إلى مناطق مصر الوسطى والعليا ليس لنا من سبيل إلا ركوب النيل الذى لا يعد فقط أكبر طريق اتصال فى هذا البلد بل الطريق الوحيدة فيه. ولا توجد بمصر مياه أكثر من مياه هذا النهر، ولذلك لا توجد حياة نباتية خارج الإطار الذى تغمره مياه الفيضان. وأما الأرض التى لا يصل إليها النيل أو التى لا تستفيد من قنواته فهى جافة ورملية حيث تسير فقط قوافل الجمال التى يقودها ابناء الصحراء وسط الصعوبات والموانع.

وطالما تكررت مقولة "إن مصر هبة النيل". وما زالت منابعه تمثل سرًا للجغرافيين الذين يعرفون جيدًا مناطق أفريقيا الوسطى التى لم تكتشف بعد، فلم يقتفِ أحد مجراه بالفعل إلا من منابع بحيرات نيانزا أو منابع بحيرة نياسا العظمى التى يجلب منها النهرُ الطميَ الذى يملأ مجراه ثم تجتمع مياهه فى مجريين هما النيل الأزرق والأبيض، ويأتى أحدهما من داخل القطر والآخر من سلسلة جبال الحبشة ثم يلتقيان على مشارف الخرطوم فى مجرى هائل ينساب حتى يصب فى البحر المتوسط.

وبدون النيل يستحيل العيش فى مصر مطلقًا. فهذه الجبال القفْراء وهذه السماء الصافية دائمًا هى سبب عدم سقوط المطر فى هذا البلد وفى خلو الحقول من عنصرها الرئيسى. وعندما يطلع النهار بحرارته التى لا ترحم وبكل رونقه يلهب الأرض بأشعته النارية، ويأتى الصيف فتذبل أوراق الشجر وتسقط، وتموت الزروع وتجف المحاصيل وتهاجر الطيور عابرة البحر بحثًا عن جو يتناسب أكثر وطبيعتها.

الفيضـــــــان

لكن الدمار الذى يبدو أنه يضرب مصر فى هذا الوقت من العام يتوقف سريعًا فى جزء كبير من البلاد. فيصعد مستوى النهر وتفيض مياهه من ضفتيه محوّلاً سهوله المجاورة إلى بحيرات كبيرة من الطين تظهر فوقها ديار الفلاحين المبنية فقط على تباب عالية، وأشجار النخيل التى تبدو جذوعها كأنها نبعت فى مياه النهر. ويستمر الفيضان أربعة أشهر ثم تنحسر مياهه قبل أكتوبر ونوفمبر إذا لم تكبحها السدود العديدة التى تنتشر فى البلاد. ومن مصلحة الفلاحين أن تغمر المياه الأرض أكبر وقت ممكن حتى تمدها بالطمى الذى يعد سمادًا يجعل الأرض نضرة حتى لحظة زراعتها. ومن فوائد النيل الأخرى السمك الذى يجلبه بكميات كبيرة ويغذيه بمياهه. وقد برع المصريون القدماء فى ابتكار شباك عجيبة لصيده والتى نراها فى مناظر من هذا النوع مرسومة فى المقابر. والحق يقال إن الناس لم تختلف كثيرًا مع مرور الزمن، فنظام الصيد مشابه تمامًا لما يستخدمه الصيادون المحدثون فى النهر العظيم.

أسباب الفيضان

ويرجع سبب فيضان النيل إلى كميات المطر الكبيرة التى تسقط خلال فصل الخريف فى مناطق أفريقيا الوسطى، فيزيد حينئذٍ كم المياه فى البحيرات، فتفيض وتصب مياهها فى مجرى الذراع الأيسر للنهر، وبالتزامن مع ذلك تزيد أمطارُ الحبشة تيارَ المياه فى الذراع الأيمن وفى ملتقى النيلين يتعاظم التيار.

هذا العرض لا بد وأنه كان سيجرح أحاسيس الساميين الذين سكنوا مصر القديمة. كانوا يرون أن النيل عناية إلهية بالبلاد، وجعلوا منه إلهًا. ولذا أقاموا الاحتفالات الدينية بمناسبة الفيضان ونسبوا هذه الظاهرة إلى دمعة إيزيس التى تسقط من السماء. وكان الملوك والكهنة والكتبة الحكوميون وجموع الشعب يحضرون إلى ضفافه كل عام فى فترة حدوثه ويجتمعون كلهم كى يتأملوا المعجزة، ويتوسلوا للسماء كى ترتفع مياهه إلى المستوى الضرورى لإخصاب هذه الحقول. وتوضح نقوش وجدت على أعمدة فى جبل السلسلة أنه منذ ٣٥ قرنًا كانت هذه الأعياد تقام، وحافظ عليها المصريون حتى عصر الثورات السياسية والدينية. ولم يلغها الرومان ولا البيزنطيون إبان حكمهم، وحرص العرب على تشجيعها وأضفوا عليها صفة مدنية ودينية فى نفس الوقت باحتفال يعرف اليوم باسم حفل فم الخليج.

فتح الخليج

وقد دعانى لحضور حفل العام الماضى عثمان غالب باشا، محافظ القاهرة. ونص خطاب الدعوة:

" بسم اللــــه الرحمن الرحيم

كانت إرادة اللــــه بلطف منه ليس له حدود وليس له نهاية كالبحار بوصول أمواج النيل هذا العام إلى الارتفاع المرجو. لذا ففى تمام الساعة الثانية من مساء يوم الأربعاء الموافق ٢٥ شوّال، تحت رعاية صاحب السموّ الخديو سنبدأ الاحتفال الذى يقام سنويًا. وعند الفجر سوف يتم فتح السد الذى يغلق مجرى النيل. نرجو تشريفنا بالحضور فى الوقت المذكور، وسأكون ممتنًا لكم على الدوام. تقبلوا احترامى المتواضع".

ويعد فتح السد الذى يشير إليه الخطاب السابق ذا أصل حديث نسبيًا. فعندما أسست القاهرة عاصمة للخلفاء أحاطها العرب بقناة تمد سكانها بالمياه الضرورية. ولحفظ هذه المياه فى مجراها أثناء الفترة التى يهبط فيها مستوى النيل يغلق مدخله بسد يفتح من جديد عندما يفيض النهر ويقام حينئذٍ الحفل التالى وصفه:

الاحتفال فى مصر القديمة

فى الثامنة مساء امتلأت الطرقات المؤدية إلى مصر القديمة بخلق كثيرين. وأمام برج العرب الذى يبدأ من عنده مجرى عيون الخلفاء أقيمت خيام فاخرة بُنيت من البساط وتملؤها الأنوار وموائد الحلوى والمرطبات. وكانت خيمة المحافظ هى ملتقى المدعوين الأجانب، وجلس الباشا وقورًا مهيبًا يستقبل مجاملات ضيوفه الذين يهنئونه بسقوط دمعة إيزيس المنسيـــة مرة أخرى كى تخصـــب أرض مصـــر. وما زال العرب يسمون أول ليلة يفيض فيها النيل "*ليلة النقطة*" أو ليلة سقوط الدمعة.

وعج الحفل بكثير من الغناء والموسيقى والسمر والألعاب النارية والمشاعل وحلقات المهرجين والنساء الراقصات والمغنيات. وعمت البهجة التى تميز الاحتفالات العربية عادة. وشوهدت بعض الجوارى مختبئات بين الأفواج بعيونهن السوداء وبشرتهن البيضاء واللائى جئن هاربات من حريم الباشوات ليسرِّين عن أنفسهن، وكنّ يرتدين الحجاب الأبيض من التـــُل الذى يدعى يشمك.

وكان أكثر ما أدهشنى فى هذا الحفل هو ما أثاره داخلى من أفكار. فقد قامت جماعة كبيرة من الشباب بالعصىّ والقفاف بهدم السد الرملى، وصاحب عملهم غناء رتيب ومتقطع فى حين كانت ترمى"العروس " من عند شاطئ النيل، وهى دمية بدائية من الطين ألبست أقمشة ثمينة وغـــُطِى وجهُها بالحجاب الأحمر الذى تلبسه المتزوجات، ومُلئت ساقاها ويداها بالجواهر، وألبست حذاء من الحرير. إنها عروس النهر التى ستتزوج من مياهه العكرة.

ويهدف هذا التقليد إلى جعل ذلك الاحتفال ذكرى لتقديم عذراء قربانًا في العصور السابقة. وليس ثمّة ما يؤكد هذا، فالعادة التي أتحدث عنها هي من أيام العرب، ولم يثبت قط أن العرب قدّموا أضحيات لإلههم. ولكن لكونه شعبًا يحيا كي يحب ويأخذ الحب بمدلوله الشهواني الحسي، فمن الجائز أن أحد سلاطين الفتح قدم للنيل دمية لامرأة بغرض إمداد المياه بهذه الطريقة بالمتعة المادية.

وفي بلاد بعيدة من الشرق الأقصى وجدت أثرًا لهذه العادة. فعندما كنت راكبًا ذات يوم النهر الأصفر في شمال الصين قصّ عليّ بحارة المركب أسطورة الإله هوبي، حامي هذا النهر، وذكروا أنه في سالف الأزمان كانوا يزوجونه بامرأة. وبطريقة الاكتتاب العام التي يقوم بها الكهنة ورجال الدين البوذيون كانت تجمع مبالغ كبيرة من المال تخصص للأعياد الدينية التي تتميز بكل ما يميز السهرات الحمراء الوثنية. وعندما يجد السحرة عذراء في البلاد ذات شباب وجمال كانوا يزينونها بأبهى الملابس كالعروس. وفي حفل خمر وشراب كانوا يسكرونها، وعندما يرون احمرار وجهها من المتعة والثمالة فاقدة وعيها يرمون بها إلى الماء ويخبرونها بأنها سوف تلقى زوجها النهر.

وعندما عيّن سيمن باو - وهو موظف صيني سامٍ له حسّ إنساني مرهف- محافظًا في "زيه" في بداية القرن الخامس ق.م، أحيط علمًا بالضحية التي يقدمها الكهنة كل عام للمعبود هوبي أمر بتغيير تلك العادة، وبدلاً من قذف عذراء اقترح الإلقاء برئيسة أي دير بوذي. وبذلك أنهى هذا الاقتراح للأبد هذا الاحتفال البربري. فلم توافق راهبات بوذا أبدًا أن يكنّ زوجات للنهر الأصفر.

ويعتبر طريق الفيضانات للنيل اليوم منظمًا تمامًا، فقد بنى الأقدمون مقاييس لقياس ارتفاع مياهه، ونجد اليوم أحدها في القاهرة والآخر في أسوان. كما أن التلغراف متاح للعوام كي يبلغوا عن الفيضان من أول النوبة حتى تعرف في مصر السفلى قبلها بوقت كافٍ لتتم صيانة السدود وغلق أو فتح أبوابها طبقًا لحجم المياه المعلن عنه. وما زاد من مياه الفيضان يفقد في الصحراء مكونًا بحيرات الفيوم التي أمر بحفرها أحد ملوك طيبة القدماء.

آراء غريبة حول أصول النيل

وقد أشيعت القصص الغـــريبة التـــى لا تصدّق عن منابع النيـــل، فكانت وما زالت مادة للخرافات الشعبية. وقد وقع فى يدى بطريق المصادفة كتاب باللغة الإسبانية قديم ونادر وهو "سرد حوليات مصر" كتبه المؤرخ التركى صالح جليل وترجمه للإسبانية السيد فيسنتى براتونى راجوسيس، مترجم كارلوس الثانى، طبعه ميلشور الفارس فى مدريد سنة ١٦٧٨م. ويضم الكتاب الكثير من هذه الحكايات، وسأنقل هنا نصها لتكون دليلاً صادقًا على حالة بعض المعارف العلمية منذ قرنين فقط من الزمان.

جبـــــل القمـــــــر

يقول المؤلف نقلاً عن راوٍ مجهول:

"يخرج من المحيط الذى يحيط العالم بحر الهند الذى ينقسم إلى جزأين أحدهما يدعى بحر السند الذى شطه مملكة اليمن والآخر يدعى بحر البربر ويحوى عدة جزر، تدعى إحداها جزيرة القُـــــمُر أو القـــــمَـــر وهى عظيمة الطول تستغرق أربعة أشهر لاجتيازها مشيًا، لكن عرضها لا يستغرق أكثر من عشرين يومًا. وتحدها سرنديب وبها مدن كثيرة من بينها القمرية حيث توجد بها طيور كثيرة تدعى طيور القمرى. وبها ما يسمى جبل القمر"

ثم يضيف:

"واتفق المؤرخون على القول بأن النيل يخرج من هذا الجبل، حيث توجد صخرة بيضاء تلمع كأنها الكريستال ويدعونها "صاحبة البخاتى" وأن من ينظر إليها يموت وهو يضحك ويلتصق بها عنوة ولا يستطيع أن يبتعد عنها حتى الموت ويدعونها حجر المغناطيس للبشر".

وعندما يخرج النيل منه ينساب فى البحر ثم يشقه ويخرج إلى الأرض التى كان ينساب منها بحُرية فى سالف الزمان. لكن عندما جاء "نقراوس السفيرى"[1] إلى مصر مع ابناء "خيرباب" وقرر العيش فيها وبنى مدينة إمسوس، واستطاع بالفن الهندسى أن يوجه مجرى النيل إلى الجهات والأماكن المناسبة، ولكى يستفيد من مياهه شق قنوات كثيرة وترعًا ما زالت تجرى اليوم فى ربوع مصر.

وفى عهد "البودسير"[2]، كان فى مصر عظيم يدعى هرمس[3]، بعث الرجال إلى جبل القمر وذهب بنفسه وأرشد عن منبع النيل ومجراه الذى يجرى دائمًا فى نفس الطريق دون ضلال ودون فيضان فى الصحراء. وشيّد هناك معبد التماثيل البرونزية الشهير، وأجرى النيل بداخله. ووضع ٨٥ تمثالاً فى قصر تلك التماثيل وأخرج مياه النيل من تحت جبل القمر وأجراها بطريقة معجزة. وفى أجزاء كثيرة يدخل فى تلك التماثيل ويخرج من أفواهها. لكنه يدخل ويخرج من كل تمثال

---

(١) قال المسعودى عنه إنه أول من ملك مصر بعد تبديل الألسن وكان عالمًا بالكهانة والطلسمات، ويقال إنه بنى مدينة إمسوس وعمل بها عجائب كثيرة. حسن الحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة-السيوطى - موقع الوراق للتراث ص ٩ (المترجم).

(٢) البودسير من أحفاد سام بن نوح عليه السلام، عمل أعمالاً عظيمة منها منار فوقه قبة لها أربعة أركان. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - المقريزى - موقع الوراق للتراث ص ١٧٠، وما بعدها (المترجم).

(٣) هرمس البابلى كان حكيم زمانه، ملك مصر وكان له أولاد منهم طا وصا وأشمن وأتريب، مات بمصر ودفن بأحد أهرامها. المرجع السابق ص ١٧٥ (المترجم).

بطريقة ومقياس بقدر ما هو ضرورى لأرض مصر. وهى للعلم ١٨ مرفقًا للمياه وكل منها يبلغ ٣٢ قيراطًا. وتصنع بطريقة تسمح بدخول وخروج تلك الكمية فقط من المياه، ويجرى ما يزيد من المياه داخل التمثالين ومنها إلى الرمال خلف "هاتسينيا" حيث تفقد فى الرمال دون فائدة، لأنه إذا لم تمر بتلك المراحل فسوف تغمر مياه النيل الأرض وتغرقها من حيث مرّت. أما المياه التى تخرج من أفواه تلك التماثيل فإنها تكوّن جداول تسرى فى مناطق عدة وتصب فى بحيرتين، وعندما تخرج منها تتساب وتنضم فى بحيرة عظيمة جدًا. وعندما تخرج منها من جديد فهناك نهر ذو حجم هائل يمر بمصر، وبعد ألف فرسخ من مجراه يصل إلى أسوان إحدى مدن المملكة. وتدعى هذه البحيرة العظيمة بحيرة تشيورى.

ويقولون إن النيل بعد أن يعبر هاتسينيا ينضم فرع من نهر مكران[١]، والذى يأتى من الهند وهو يفيض وتقل مياهه مرة فى السنة تمامًا كالنيل. وتوجد به التماسيح واسماك أخرى نيلية. ويشير بعض المؤرخين إلى وجود جسر فى نهر مكران هذا من حجر واحد، وأن أى شخص يمر عليه يبدل ما فى معدته وإذا وقف هناك وقتًا كبيرًا فإنه يتبدل كثيرًا حتى الموت. وأنه إذا مر ألف رجل فوقه فسوف يحدث ذلك لهم جميعًا".

وما يميز المترجم أنه يستمر فى ملاحظة الجهات التى تمنح النيل أصوله، ألا وهى معبد البرونز المشيد فى جبال القمر بتماثيله العديدة والتى تخرج من أفواهها تيارات المياه. كل هذا كان ممكنًا بالنسبة لهؤلاء البسطاء الذين رأوا فى فيضان النيل ظاهرة خارقة للطبيعة، وبالتالى غير مفهومة بالنسبة لمدى فهمهم الضعيف. وفى بعض الحوليات التى لم يذكر اسمها وجدت رواية أخرى لا تخلو من غرابة، أنشرها مع الرسم الموضح أعلاه تقول:

(١) وادى مكران يقع بأرض فارس إلى الشمال من بحر الفرس. أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم- المقدسى البشارى – موقع الوراق للتراث – ص ١٧٥ (المترجم).

"تخرج من جبل القمر عشرة أنهار من عشرة مواضع مختلفة، تتجه خمسة منها إلى حيث تصنع بحيرة عظيمة مستديرة، والخمسة الأخرى تتجه إلى مكان آخر لتصنع بحيرة عظيمة أخرى. ثم يخرج من كل بحيرة نهران ينقسمان إلى أربعة أنهار تجرى فى أربعة أماكن ثم تجتمع كلها لتصنع بحيرة عظيمة جدًا، وعند خروجها من البحيرة تكوِّن نهرًا كبيرًا ذا أمواج عظيمة يتجه ناحية مصر حيث ينقسم إلى فروع كثيرة، وعند اجتماعها مرة ثانية تصب فى مياه البحر المتوسط بالقرب من الإسكندرية. وتوصف تلك البحيرات كما يلى:

- **يشير بعض المؤرخين إلى أربعة أنهار تخرج من الجنة الأرضية وهى للعلم سيحون وجيحون والنيل والفرات، والتى تجرى عبر البحر المظلم وقبل أن تصل إليه تكون أحلى من العسل وتكون رائحتها أذكى من العنبر. وأن هايد بن شالوم – وهو أحد أبناء آيس بن النبى إسحاق – عبر البحر المظلم ووصل إلى المقصورة الشهيرة التى توجد بمكان ما فى الجنة. يقولون إن هايد هذا كان من الأنبياء وطلب من ربه أن يريه منبع النيل، ولما أعطاه اللـــه القوة والجبروت مر على بحر الظلمات دون أن تبتل قدماه ومشى زمنًا طويلاً اجتاز فيه الصحارى والبلاد، ثم رأى تلك المقصورة المصنوعة من الذهب والتوباز والتى توجد فى الجنة.**

- **تحكى القصص أن ملكًا مصريًا ذهب بجيشه ليكشف عن منابع النيل، وفى النهاية وصل إلى جبل كانت طرقاته من حديد، وتحكى رواية أخرى أنه كان أبيض وشفافًا، وعلى**

أية حال فعندما وصل الجيش إلى الجبل أشرقت الشمس والتهبت أشعتها حتى احترقوا جميعًا وتحولوا إلى رماد.

- **وهناك من يقول إن الأنهار الأربعة المشار إليها تنقسم إلى اثنين وسبعين فرعًا بعدد الأمم الاثنتين وسبعين التى تتحدث اثنتين وسبعين لغة. وكل فرع منها يجرى إلى بلد منها وأن جبل القمر به أكوام من الثلج تخرج منها هذه الأنهار الأربعة.**

- **عندما يجرى النيل فى البحر المظلم فإنه يعبر مناجم الذهب والياقوت والمرجان والزمرد. وإذا لم يمر بالبحر المالح أو يختلط ماؤه بأى شىء يغير من طعمه فإننا لا نستطيع أن نشرب من مائه لفرط حلاوته.**

وبعد هذه الأفكار العجيبة التى قرأناها للتوّ فلا غرو أن المصريين القدماء جعلوا من النيل إلهًا. وتقول نظرية الخلق الخاصة بطيبة بوجود نهر فى السماء يدعى "نوم" الذى كان سببًا فى وجود كل المخلوقات. وكان نوم هذا معبودًا حقيقيًا وله عقيدة وعبادة وتجسيد فى النيل ممثلاً كإله على شكل إنسان يحمل زهور اللوتس والبردى فوق رأسه، وزهورًا أخرى ونباتات وثمارًا فى يده. وتذكر صفات إله النيل على أحد حوائط معبد دندرة كالتالى:

"أيا صانع الرجال وخالق الآلهة وأبو الأسباب الأبدية، خالق المخلوقات ومنشئ الأجناس وبداية الأشكال، أبا الآباء وأم الأمهات، ومالك الأرباب، مبدع البشر وموجد الآلهة، أبا الآباء والأمهات المقدسة ومالك نفسه، خالق الشمس والأرض والنار والماء والجبال".

وأخيرًا، حتى على الوجه الآخر لكثير من الميداليات الإمبراطورية المصرية نجد صورة إله النيل يمثلها عجوز له ذقن طويلة ويحمل قرن الرخاء فى يده ويجثو فوق تمساح.

الصحراء المصرية

وحيث لا تصل مياه النيل نرى الصحراء المصرية. ولن أنسى أبدًا الانطباع الذى انتابنى عندما توغلت لأول مرة فى السهول الرملية للصحراء الغربية. كان يومًا حارًا من أيام شهر أبريل. وتركت ورائى مدينة القاهرة، ومررت بجوار قلعة صلاح الدين الشهيرة، وعبرت صحراء المماليك وجبانة عربية فقيرة توجد بجوارها. فظهرت لى صحراء مترامية الأطراف. وعندما توغل الجمل الذى كنت أركبه بخطاه المسرعة فى الرمال الملتهبة رأيت الأراضى الخضراء تتباعد حتى اختفت فى ضباب الأفق. واختفى كل شىء، كل شىء عدا السماء الضاربة إلى البياض من فوقى والرمل القفر من تحتى وحرارة الجو من حولى: سماء وأرض وهواء ليس لها ميزة وهى لا تحوى نباتًا ولا تطعم طيرًا، هى صورة حقيقية للوحشة والانعزال.

فهناك لا يوجد شىء، وبرغم ذلك يبهرك ما تراه. فهنالك على البعد ترى تعرجات خفيفة للأرض تظهر وتختفى مع هبوب الرياح، تشبه أمواج البحر. إن تلك الرحابة تبهرك، والصمت مهيب ولا يقطعه صدى صوت بشرى ولا رفرفة جناح لطير ولا أزيز حشرات ولا أى شىء دال على حياة أو حركة.

عواصف الرمال

فقط عندما تهب نسائم البحر فى فترات بعينها محملة بالبرودة ثم تتلاشى، أما أعمدة الهواء الساخنة التى ترتفع من الأرض وتؤدى بذلك إلى أقسى وأعنف

العواصف فى الصحراء التى يمكن أن يتعرض لها إنسان. إنها العاصفة الرملية، إنها فظيعة. تخيلوا موجة حر تصل إلى ٦٠° تتحرك، وهبَّات الرياح تتوالى واحدة تلو الأخرى بسرعة مذهلة تتسابق نحوكم وتثير أعمدة من الرمال تشكل طواحين هواء هائلة فتصطدم ببعضها وتتلاشى. وقبل كل شيء تفطن حيوانات الصحراء إلى الخطر المحدق من العاصفة، ويظهر ذلك التهيج البادى عليهما والكرب الذى يأسرهما. فالكلب المحلى ذو الشعر القصير واللون المائل للاحمرار والأذنين الصغيرتين، ورأس الذئب عندما يحس بأول هبّة للهواء الساخن يفتح أنفه، ويهم بالهروب دون أن يعير اهتمامًا لصاحبه الذى يناديه، واثقًا من النجاة بفضل سرعته التى تسبق سرعة الإعصار. والجمل الذى تنبهه الحاسة ذاتها يهرب أيضًا إذا لم يوقفه صاحبه أو تثقل الأحمال كاهله. وإذا فوجئت القافلة بإحدى هذه العواصف المسماة بالخماسين فى مصر فليس لها سبيل للنجاة سوى التوقف عن السير وتكوين مجموعة متماسكة من الرجال والحيوانات يمسكون ببعضهم البعض ويغطون أنفسهم بخيش الخيام. وبهذه الطريقة يمكن ألا تجرهم الرياح العنيفة، غير أن إمكانية دفنهم تحت الرمال المتحركة التى تتطاير بكميات كبيرة فى الهواء ما زالت قائمة.

الجمــــــــل

لقد عبرت الصحراء مرات عديدة فى أسفارى إلى المحاجر المصرية والآثار والواحات. وكنت أستخدم الجمل فى أسفارى، وهو الحيوان الوحيد الذى يتحمل الحر والتعب المحتملين للرحلة، ولذا سُمى عن جدارة سفينة الصحراء. وهو بالطبع كذلك لفائدته من ناحية ولحركاته القوية من ناحية أخرى أثناء السير. ولكن كما ذكرت صفاته الحسنة فى التحمل سأذكر أيضًا أن هذا الحيوان كريه وكسول وصعب المِراس، ويستطيع العرب والبدو فقط التعامل معه.

خذ حذرك جيدًا فى القوافل التى تعبر الصحراء الليبية، وتأكد من وجود المياه التى يمكنك حملها فى قِرَب من الجلد أو أوانى الفخار فإن نقصها يفضى إلى الموت المحقق للمسافرين. فلا يوجد جسم بشرى يستطيع تحمل يومين من عذاب العطش المهين فى الصحراء المصرية. عند الحديث عن منف سوف أذكر لكم باقتضاب نوع الحياة التى عشتها عندما حملنى شغفى لاستطلاع الجبانة أن أهيم عدة أيام فى الصحراء الليبية.

الفصل العشرون

أهـرامات الجـــيزة

عندما يصل المسافر للقاهرة يتملكه الشغف القوى لتفقد الآثار القديمة بأسرع ما يمكن والتى توجد بالقرب من هذه المدينة. ومن الطبيعى أن يُرضى رغبته فى الحال. فمن العاصمة يمكن أن ترى أهرامات الجيزة الشهيرة التى تبعد فقط مسافة ساعة سير، كما يوجد أبو الهول ومعبده المجاور والمقابر والمصاطب التى لا تحصى لجبانة منف.

الطـــــريق إليها

وكى تقوم بهذه الزيارة عليك أن تعبر إلى الضفة اليسرى للنيل، وتعبر الكوبرى الحديدى العظيم[١] أولاً، وهو بناء بديع يمجد عبقرية الفرنسيين الصناعية. وعلى الجانب الآخر من الكوبرى تمتد "الجزيرة " الصغيرة والتى تملؤها الحدائق، وبها طريق مرصوفة فاخرة يمكنك من التنزه على عربة، وقصر عظيم شيده الخديو إسماعيل، كما يوجد بها ميدان لسباق الخيل فى حالة سيئة بنى منذ سنوات لإدخال سباقات الخيل إلى مصر لكنها لم تستمر لأن أهل البلد لا تستهويهم مثل هذه الألعاب، كما أنه لا توجد بمصر جياد مخصصة للسباق. أما ما يحكى عن الجياد العربية التى لا تُقهر والتى تسابق الريح عبر الوديان عندما يمتطيها ابن الصحراء فليس لها وجود إلا فى خيال الشعراء.

---

(١) كوبرى قصر النيل حاليًا. (المترجم).



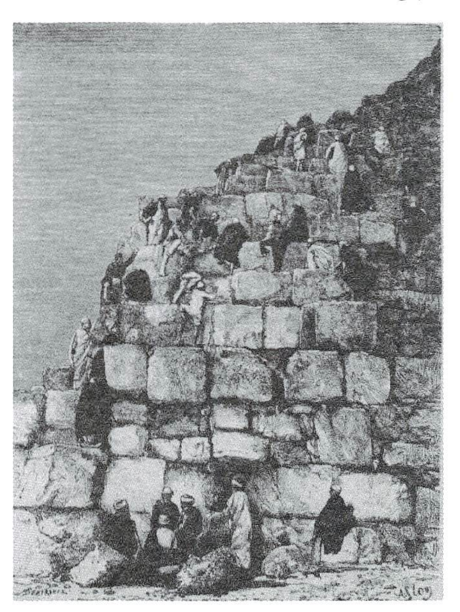
قصر الخديو إسماعيل بالجيزة

ويربط كوبرى ثانٍ يمتد على فرع النيل الأيسر الجزيرة وحى الجيزة، والذى كان حكرًا لبكوات المماليك. ويشغله الآن المزارعون البسطاء، وهو حى القصور الملكية بما فيها قصر هائل ناقص البنيان وعدة قصور أخرى صغيرة لإقامة أمراء العائلة الخديوية. وغنى عن الذكر أن كل هذه المبانى يرجع إلى إسراف إسماعيل باشا الجنونى المتعمد.

وعلى مدى ستة كيلو مترات، هى المسافة من الجيزة وحتى الأهرامات توجد طريق بديعة تحفها الأشجار الضخمة. ولم تكن هناك طريق موصل لهذه الآثار منذ بضعة أعوام، ولكن بمناسبة زيارة الإمبراطورة أوجينى لمصر عام ١٨٦٠، ورغبتها فى زيارة الآثار أمر إسماعيل بإنشاء طريق مرصوفة. وأجبر سكان القرى المجاورة كلهم على العمل فى الحال، بدون راحة أو أجر تقريبًا. وبعد ثمانية أيام من بدء العمل كانت المركبة الملكية تسير من القاهرة إلى سفح هرم خوفو العظيم.

وقد بنيت الأهرامات فوق هضبة ممتدة من التلال التى تفصل الصحراء الليبية عن الأراضى الزراعية من تلك الناحية. ولكن قبل أن يصل الزائر إليها، وهو ما زال على الطريق يرى فجأة كيف تبرز من الأرض أشباح سوداء تلفها عباءات بيضاء فتحييك فى صمت وتسير إلى جوارك. إنهم بدو ينصبون خيامهم فى تجمعات صغيرة

فى النواحى القريبة، عملهم الوحيد هو اصطحاب زوار الأهرامات ومساعدتهم فى صعود قممها أو النزول إلى الممرات الداخلية لتلك الآثار.



تسلق الهرم الأكبر

ويا له من منظر موحش فى هذا المكان. تظهر مجموعة الأهرامات فى رونق تام وخلفية صافية ساطعة لهذا الطقس الاستوائى، فرمال الصحراء البيضاء تعكس أشعة الشمس كما لو كانت مرآة بيضاء، وتغطيها أطلال المقابر والمعابد والأصنام والمبانى المرتفعة فى أقدم قرى مصر. وفى وسط هذه العزلة لا تجد شجرة واحدة ولا عشبًا ولا قطرة ماء تطفئ حر الأرض الملتهبة.

الآثـــــــــــار

وهناك، ما زالت تقف شامخة بعد ستين قرنًا من الزمان تلك الآثار التى ربما تكون أول ما شيد الإنسان على سطح الأرض. وما من شىء يضاهى

الأهرامات فى قدميا. فلا غابات أمريكا البكر بقدمها ولا وديان قارة آسيا الشاسعة، ولا الجزر الكثيرة فى عرض البحار، ولا الصخور الكثيرة المحتشدة فى الجبال عمرها من الأعوام ستة آلاف[١]، كالتى مرت على الأهرامات.

لم أحس قط بالضآلة التى أحسستها عندما زرتها على ضوء القمر فى الليلة الأولى وعندما تأملت ذلك الأثر الذى بناه خوفو ليكون قبرًا له كنت جالسًا على الرمال أسند رأسى على راحتىّ مسندًا مرفقىّ إلى ركبتىّ. فقد عمل ١٥٠ ألفًا من العبيد على مدى ثلاثين عامًا يضعون الحجر فوق الآخر حتى كوّنوا بناءً عظيمًا خصص لتغطية الممر الضيق المظلم الذى كان بمثابة قبر لمومياء الملك المصرى. وأدركت سخرية القدر الأليم التى تجعل عملاً شيد ليكون خالدًا يخصص لحفظ أهش وأتعس ما فى الطبيعة ألا وهو جسم الإنسان.

وعلى الضفة اليسرى للنيل ترى أهرامات أخرى كثيرة ولكن أهرامات الجيزة الثلاثة هى أفضلها. أما الهرم التالى من حيث الحجم فهو هرم خفرع ابن خوفو أو أخوه والذى خلفه على عرش منف حوالى ٤٢٠٠ ق م[٢]. وهو الهرم الوحيد الذى ما زال يحتفظ فى قمته بأحجار الكسوة الخارجية المتقنة. والثالث هو هرم الملك منكريس أو منقرع. وهناك ثلاثة أهرامات أخرى مجاورة أصغر بكثير من الأولى، ومن المفترض أنها كانت مقابر لثلاث ملكات. ويحكى أن صاحبة أحد هذه الأهرامات بنته فى حياتها كأجر لنزواتها العاطفية.

الأهرام كما رآها عبد اللطيف فى القرن الثانى عشر

وترك لنا عبد اللطيف – وهو طبيب وكاتب فارسى أقام بمصر فى القرن الثانى عشر الميلادى إبان حكم السلطان صلاح الدين – كتابًا عجيبًا عنوانه

---

(١) طبقًا لمعظم المصادر لم يمض على بناء أهرامات الجيزة سوى ٤٦٠٠ عام (المترجم).

(٢) حكم خفرع مصر بين عامى (٢٥٥٩ – ٢٥٣٥ ق.م)- مصر الفرعونية – أحمد فخرى – مكتبة الأنجلو المصرية-القاهرة-٢٠٠٦ (المترجم).

"اعتبارات مفيدة حضارية من الأشياء التى رأيتها والأحداث التى عاصرتها فى مصر". ويتحدث الفصل الرابع عن الآثار التى استطاع المؤلف أن يراها حينئذٍ فى أرض الفراعنة، وقد كرّس بالطبع جزءًا كبيرًا منه للأهرامات.

تدمير سلاطين مصر لها

ولم تكن يد الدمار العربية فى هذا الوقت قد امتدت إلى تلك القبور الملكية، لذا فقد استطاع عبد اللطيف تأملها وهى مختلفة تمامًا عما هى عليه الآن. لذا فلا يخلو ما كتبه العالم الفارسى الشهير من طرافة. يقول:

> **"والأهرامات كثيرة جدًا ومنها الكبير والصغير، بعضها بنى من الطوب اللبن والبعض الآخر من الطين، أما معظمها فصنع من الحجر. بعض منها بنى على شكل سلالم ولكن معظمها على شكل هرم مستوٍ من الخارج".**

لكن لا يوجد هرم واحد يحتفظ بسطحه الأملس حتى الآن فقد اختفت الكسوة الخارجية منه باستثناء قمة هرم خفرع التى تحدثت عنها آنفًا. وكان هوس السلاطين المصريين بالهرم ما زال مستمرًا حتى وصول الكاتب الفارسى إلى القاهرة طبقًا لما يحكيه بنفسه. فيقول:

> **"وكان بالجيزة عدد لا بأس به من الأهرامات فى عصور سابقة، كلها صغيرة الحجم وقد هدمت فى عصر صلاح الدين يوسف بن أيوب. وكان قراقوش وهو خصىّ يونانى صاحب فكرة هذا التدمير. وكان قائدًا لجيوش هذا الأمير. وكان من مهامه الحفاظ على المبانى العامة فى العاصمة، وهو الذى قام ببناء السور الحجرى الذى يحيط بالفسطاط والقاهرة وقلعة**

المقطم، لذا فقد استفاد بالأحجار المنزوعة من الأهرامات الصغيرة لهذا الغرض. وما زلنا نرى حتى اليوم آثــار تلك المبانى التى هدمها قراقوش".

وبعد سبعة قرون أى فى أيامنا الحالية لم نعد حتى نرى الأطلال التى كان يراها عبد اللطيف. ويواصل المؤلف حديثه عن الأهرامات العظمى التى حازت إعجابه وحماسته، وعندما رأى هرمى خوفو وخفرع متجاورين وترتفع قمتاهما فى الأفق وتتلاشى بضخامتها عندما يبدأ الليل فى إرخاء سدوله، فقد شبهها الشاعر بنهدى مصر. وهى ما زالت هناك حتى اليوم وحجمها الهائل يملؤها شموخ العظمة والثقة، تتحدى عواصف الصحراء الغاضبة التى تلهب ظهورها تمامًا كغضب الرجال الذين أرادوا تحطيمها ولم يتمكنوا إلا من سلبها جزءًا من كسوتها الخارجية، وقد رآها عبد اللطيف وهى لا تزال كاملة، وكانت درجات السلم غير المنتظمة التى نراها اليوم ما زالت مغطاة بطبقة من الحجارة، وكانت عليها نقوش هيروغليفية، ويقول الكاتب مشيرًا إلى بناء هذا العمل:

"لم أستطع إدخال دبوس أو شعرة بين هذه الأحجار، فهى ملتصقة ببعضها بنوع من الملاط لا يترك بينها سُمك ورقة. وهذه الأحجار تمتلئ بنقوش خطية قديمة مجهولة فى مصر كلها، وهى كثيرة جدًا لدرجه أنه إذا حاولنا نقل ما هو موجود منها على هذين الهرمين لملأت أكثر من ألفى صفحة". ولا نجد الآن واحدًا من تلك الأحجار، والأعجب أنه لم يوجد ولا حجر منها فى المبانى التى استخدمت فى بنائها. ومن المحتمل أن تكون فى أساس قلعة القاهرة.

وأيقظ الجشع العربى سريعًا فى النفوس حلم فتح الأهرامات والتوغــل فى داخلها، حيث كانوا يعتقدون بوجود كنوز ثمينة أخفاها ملوك الأسر الفرعونية. ولم يتردد السلاطين أنفسهم فى تخصيص مبالغ معتبرة من المال والجهد حتى يفتحوا فى جسم هرم خوفو المسمّط فتحة قادتهم المصادفة منها إلى بهو المدخل المؤدى إلى حجرات الدفن، وغنى عن القول إن هذا التخريب لم ينتج عنه سوى وجود جثامين الملوك القدامى التى انتزعت من سباتها الأبدى.

خـــــــــرافات

ويتحدث عبد اللطيف عما بداخل الأهرامات بلهجة مليئة بالخرافات كانت من سمات العصر الذى عاش فيه. واستمعوا إليه من جديد وهو يقول:

"وأحد هذين الهرمين مفتوح ويفضى بابه إلى ممرات ضيقة ودهاليز تنحدر إلى عمق كبير وإلى آبار وهاويات طبقًا لما أكده أولئك الذين واتتهم الشجاعة للتجول بداخله. وهناك العديد من الأشخاص الذين يحركهم طمعهم الزائد أو أملهم الوهمى فيدخلون فى تلك الفجوات العميقة ويصلون إلى أماكن مسدودة. ويعد المكان الأكثر زيارة هو ممر ضيق يؤدى إلى الجزء العلوى للهرم، حيث توجد حجرة مربعة فى وسطها تابوت حجرى. وهذا الباب الذى يستعمل فى دخول الهرم اليوم ليس هو الباب الذى صمم عند البناء، لكنه ثقب فُتح بجهد عظيم. ويقال إن الخليفة المأمون هو الذى أعطى الأمر بذلك".

"وقد دخله العديد من رفاقنا وصعدوا إلى حجرة الهرم العلوية وعندما نزلوا أخبرونى بالعجائب التى رأوها فقالوا: إن البهو امتلأ بالوطاويط وفضلاتها لدرجة استحال معها المرور من هناك، وأن هذه الحيوانات كان حجمها كبيرًا كالحمام وأنهم رأوا بداخل الهرم أبوابًا وفتحات صممت بدون شك لتهوية وإضاءة الهرم. وفى زيارة أخرى للأهرامات حاولت الدخول مما جعلنى أفقد الوعى وأخرجونى ميتًا تقريبًا".

أما اليوم فدخول الأهرامات مسأله قوة بدنية وقدرة جيدة على التنفس فقط. وقد دخلت إلى هرم خوفو الذى يشير إليه عبد اللطيف بالتأكيد إليه مع بعض الشباب والزوار إلى نفس الحجرة الجنائزية التى أشار إليها كاتبنا وشربوا نخب كأس من الشمبانيا. ولم نجد هناك الوطاويط الكبيرة التى فى حجم الحمائم.

ولن نترك الكاتب العربى قبل أن نترجم قطعة أخرى من كتابه العجيب. يقول:

> **"إن الطريقة التى استخدموها فى بناء هذه الآثار وصلابتها جديرة بكل إعجاب. ويرجع الفضل لشكلها فى مقاومة عوامل الزمن حتى يبدو أن الزمن هو الذى قاوم نقل هذه المبانى الخالدة. وعندما نعمل الفكر فى طريقة بناء الأهرامات لا نستطيع إلا أن نعترف بأن أعظم العباقرة لم يدخر جهدًا فى بنائها، وأن أكثر الرجال نشاطًا لم يبخل عليها بمجهوداته، وأن أكثر الأرواح إشراقًا سخرت مواهبها، وأن أكثر النظريات دقة استنفذت كل إمكانياتها لتنتج لنا كل تلك العجائب، وهى آخر ما توصلت إليه الصناعة البشرية. وبذلك نستطيع القول إن هذه المبانى ما زالت تحدثنا حتى اليوم عن الرجال الذين شيدوها وتعلمنا تاريخهم وتحكى لنا طريقة واضحة عن التقدم الذى وصلوا إليه فى العلوم وعن نبوغهم الواضح. فهى باختصار تصف لنا حياتهم وأعمالهم عبر القرون".**

اكتشافات فى الجيزة

عندما كنت فى الجيزة فى أبريل من عام ١٨٨٥، حضرت اكتشاف مقبرة فى عمق بئر بجانب الهرم الأكبر قام به البدو الذين يؤجرهم مدير متحف بولاق

فى تنقيباته. وتنسب هذه المقبرة إلى "كم كا إف" وهو أمير ملكى من أسرة منف الرابعة وكانت قد نهبت منذ القدم إذ وجدنا تابوته المصنوع من الجرانيت الأسوانى العظيم مكسورًا والمومياء ممزقة فى ركن من البئر. وعلى التابوت الحجرى رأينا بعض النقوش الهيروغليفية التى دلتنا على ألقاب صاحبه وهى:

كم كا إف ابن الملوك مسئول الأعياد الدينية وكاتب حورس.

ولم يُمكننى ضوء شمعتى الخافت من قراءة أكثر من ذلك واضطررت إلى الخروج بسرعة من هذا القبر الذى يصل عمقه إلى ١٦مترًا وهو منحوت فى صخر الجبل الليبى الذى هددنى الحر الزائد فيه ونقص التهوية بالاختناق. وبالقرب من هرم خوفو أيضًا وعند جانبه الغربى نجد تمثال أبى الهول الحجرى الشهير الذى طالما جذب انتباه كل الرحالة. وقد استغل المصريون القدماء حجر الجبل الطبيعى فى بنائه ونحتوه على شكل حيوان جالس برأسه المنتصبة ورجليه الأماميتان تمتدان ناحية الصحراء. وأبعاده كما يلى: الارتفاع ١٩,٨ متر، الأذن ١,٩٧ متر، والفم ٢,٣ متر، وطول الوجه ٤,١٥ متر.

أبو الهـــــــــول

إذًا فمن هو أبو الهول؟ يشير نقش على لوحة حجرية فى متحف بولاق إلى أنه أثناء بناء الهرم الأكبر منذ ٦٠٠٠ عام(١)، أمر خوفو بترميم ذلك التمثال الذى كان فى حالة سيئة بسبب القدم. لذا فإن بناءه يرجع إلى عصر الأسرة الأولى الثينية

---

(١) بنى الهرم الأكبر بين عامى (٢٦٥٦ – ٢٦٣٣ ق.م) تقريبا. مصر الفرعونية-أحمد فخرى- مكتبة الأنجلو المصرية-القاهرة-٢٠٠٦ (المترجم).

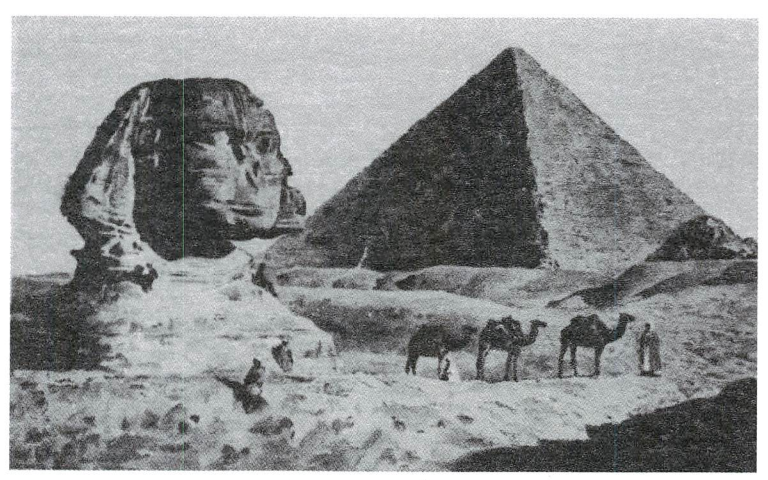
على أقل تقدير والتى بدأ حكمها لمصر منذ ٥٠٠٠ عام قبل الميلاد[١]. لذا فإن تمثال أبى الهول بالجيزة والهرم المدرج فى سقارة هما أقدم أثرين صنعتهما يد البشر على الأرض. ولا نعرف ما يمثله ذلك الحيوان الضخم ذو الرأس البشرية التى يزينها غطاء الرأس المسمى شنت. ومن المفترض أنه كان يمثل أحد الملوك المصريين الأوائل الذين ألّـــهُوا بسبب الذكرى الحسنة لحكمهم، لكن هذا الرأى لا يعتمد على أساس ثابت، لأنه ليس من المعقول أن يكونوا قد وضعوا تلك المقدسات فى الجبانة التى هى مكان للنسيان واحترام للإله "حور إم أخت" الذى يمثل الشمس وهى تشرق على الأرض من مشرقها والتى تقول عنه النصوص الهيروغليفية القديمة هذه الكلمات فى الدعوات التى يدعونه بها الأموات:

"التحية لك يا حورم آخت يا من صورت نفسك. إن
إشراقك فى الأفق مدعاة للعجب عندما تبث الأرضين بأشعتك.
تهلل الآلهة فرحًا لرؤياك يا ملك السموات والتاج على جبهتك
أوريوس وأنت على مقدمة مركبك مستعد للفتك بكل أعدائك".

وما زالت التقاليد العربية تذكر البطولات التى حققها حوار ام آخت فى سحق أعداء الألهة وربما لذلك أطلقوا عليه اسم أبو الهول الذى ميز الرحالة الأوائل والكتاب المسلمين به هذا التمثال عندما رأوه بعد الفتح. أما اليوم فيبدو أبو الهول فى حالة سيئة جدًا وهو يقع فى مكان منخفض كثيرًا عن سهول الصحراء المتاخمة التى تحمل عواصف من الربيع رمالها ثم تجمعها حول التمثال وعادة ما تُرى رأسُه فقط. وكان وجهه – الذى ما زال يحتفظ ببقايا اللون الأحمر الذى كان قد لُوِّن به – يستعمل هدفًا للرماية لجيش المماليك الذين كانوا يعسكرون فى الأراضى القريبة منها، وغنى عن القول إن ملامحه محطمة بالكامل.

---

(١) تعود الأسرة الأولى إلى سنة ٣٢٣٠ ق. م، على أرجح الأقوال. (المترجم).



أبو الهول

وتم اكتشاف تمثال أبى الهول فى ثلاث مناسبات كما أزيلت الرمال التى كانت تغطيه. كانت المرة الأولى فى عصر تحتمس الثالث[١]، وهو ملك مصرى من الأسرة الثامنة عشرة كان قد أمر بترميم ذلك التمثال المقدس بعد رؤيا رآها، فوضع لوحه تذكارية من الحجر نحتها بارتفاع صدر التمثال ونقش عليها الأعمال التى أنجزها. ولم تلبث أن هاجمته عواصف الصحراء الرملية من جديد حتى دفن فيها التمثال إلى أن أمر "ماريت" بالتنقيب عنده سنة ١٨٥٧، كى يرى النقوش الموجودة على لوحاته الحجرية. وقد اقتنى الإنجليز بعضًا من هذه اللوحات وهى موجودة الآن فى المتحف البريطانى. وأخيرًا فقد بدأت أعمال استخراج التمثال الضخم العام الماضى وما زال العمل قائمًا به حتى خرجتُ من مصر، وهو عمل مكلف وغير مفيد على الإطلاق. فعلاوة على عدم أهمية كشف التمثال أو تغطيته فلا توجد قوة بشرية قادرة على منع الرمال من تغطية أبى الهول عندما تثور عاصفة فى صحراء ليبيا.

---

(١) من المعروف أن هذه القصة تُنسب إلى تحتمس الرابع صاحب لوحة الحلم الموجودة أمام أبى الهول – مصر الفرعونية – أحمد فخرى – مكتبة الأنجلو المصرية–القاهرة–٢٠٠٦ (المترجم).

وبالقرب من تمثال أبى الهول يُرى بناء حجرى مغطى أيضًا بالرمال الناعمة، درج البدو ومرشدو الصحراء على تسميته معبدًا. فهل هو كذلك فى الحقيقه؟ إن التأكيد على ذلك هو مجرد رأى بدون أساس. فهو عبارة عن أطلال من عصر قديم جدًا ولذلك فلا يعرفُ عنه إلا القليل وتنقصنا دلائل حتى نرجح احتمالاً على آخر. والمبنى الذى نتحدث عنه يمكن أن يكون معبدًا كما يمكن أن يكون قصرًا أو قلعة. وتحيط به أسوار عالية سميكة بنيت من كتل الحجر الجيرى الضخم من محاجر طرة ومن كتل حجر الجرانيت الأسوانى الأحمر القادم من محاجر الشلال الأول البعيدة عند الفنتين.

ويوجد بداخله فناء تحده أعمدة مربعة هى عبارة عن كتل كبيرة من الحجر أقيمت كى يستند عليها السقف المحطم حاليًا. وبجانب الفناء نجد صالة مستطيلة ضيقة تفضى إلى حجرة صغيرة مظلمة بها ستة محاريب من البازلت الأبيض الذى استخدم فيما يبدو لحفظ الجثث. ويعد مظهر الصالة الثانية قبرًا أكثر منه معبدًا.

وفى أجزاء متفرقة من المبنى نرى أجزاء من تماثيل وتوابيت ملقاة على الأرض، أما الجدران الملساء تمامًا فلا ولم تحتوِ على نقوش أو رسوم من أى نوع، ويشبه الأثر فى مجمله مقبرة تى فى سقارة إلى حد كبير، رغم أن أبعاده أكبر بكثير.

لماذا إذًا لم يكن المبنى معبدًا وقبرًا فى نفس الوقت؟ إن أصله القديم جدًا ليس موضع شك، فيكفى أن نرى بناء جدرانه حتى نقتنع أننا أمام عمل معاصر للهرم الأكبر على الأقل. ولا نعرف فى مصر أى معبد يرجع إلى هذا العصر، ولدينا أسباب للافتراض بأن موظفى الدولة الكبار كانوا يدفنون بداخله، وربما أيضًا

هم وزراء الأسرة الملكية. ويمكن أن يكون تمثال أبى الهول القريب منه هو معبود هذا المكان، وأن المبنى كان يستعمل لإقامة الكهنة، وأنه كان ملاذهم الذى يلجأ إليه أصدقاؤهم ومساعدوهم حتى يناموا فى خلود. أليست كنائسنا تمتلئ بالجثث المدفونة بها أيضًا؟

المصـــاطب

ونرى حول الأهرامات أطلال مقابر صغيرة والمصاطب والكهوف لا حصر لها. كان المصريون يستعملونها لدفن موتاهم. إلا أنها ليست جميعًا بنفس القدم ، فقد حدث هناك كما حدث فى كل جبّانات الإمبراطورية، فيزيح أموات اليوم موتى الأمس من مقابرهم حتى يتجنبوا بذلك تكدس الجثث وحتى يتسنى لهم مكان يُدفنون به. وقد عُثر حديثًا على معلومات غريبة وشيقة جدًا حول طريقة إدارة الجبّانات؛ وهذا ما سوف أشرحه حتى نستطيع فهم سبب الفوضى والإهمال اللذين نلاحظهما فى جميع المقابر المصرية.

طريقة إدارة المقابر المصرية القديمة

وطبقًا للعادة القديمة المتأصلة فإن الأغنياء فقط هم الذين لهم الحق فى حجرة مستقلة للدفن، وكانوا يضمنون صلوات كاهن ملحق خصيصًا بمقبرتهم عن طريق أوقاف خيرية، وكان الأغنياء يوكلون بجثامين أقاربهم إلى وسطاء ينتسبون إلى الكهنوت، وكان أولئك يضعونها فى أماكن مخصصة لذلك ويتعهدون بحفظها وإقامة الطقوس الدينية فى الأيام المحددة شرعًا مقابل مرتب سنوى أو مبلغ مناسب يدفع مرة واحدة فى العمر.

وكانت المخازن ملكيات خاصة يمكن أن تباع وتشترى كأى ممتلكات أخرى وكان يضاف إلى العقد فقط قائمة باسماء المومياوات الموجودة، وكانت كل واحدة منها تمثل قيمة متزايدة طبقًا لشروط إيداعها والمكانة الاجتماعية للعائلة التى تنتسب إليها.

واندثرت العائلات التى وضعت مومياواتها فى هذه المخازن مع الوقت أو غيّرت محل إقامتها، أو لم يريدوا دفع إيجارات لصالح أسلافهم الذين لم يعرفوهم. ولأن المخازن كان يجب أن تُـملأ بدون توقف بالجثامين حديثة الوفاة فقد بدأوا بتكويم المومياوات القديمة فى ركن حتى يدفنوها نهائيًا فى أى مكان باعتناء يقل ويكثر تبعًا لمراكزهم التى كانوا يشغلونها أثناء حياتهم. فكانت المومياوات المنتسبة إلى أسر غنية تنزل عبر الآبار إلى حجرات خاصة، أما مومياوات العائلات الفقيرة فكانت تذهب إلى مقابر جماعية، ويتم تكويمها هناك فى أكوام كبيرة كما يحدث تمامًا مع البالات والصناديق فى قاع السفن.

وبرغم تلك المعوقات فإن الجبانات المصرية هى المكان الأفضل الذى يمكن أن تجمع منه معلومات دقيقة ومهمة للتعرف على حياة هذا الشعب. إن الكنز الذى تحويه له قيمة تفوق الحصر، وسوف يمضى زمن طويل قبل أن يعلن علماء المصريات أنهم أجهزوا على هذا الكنز.

الفصل الحادى والعشرون

أطـــــــــلال منـــف

تقع عاصمة مصر بالقرب من آثار منف العظيمة. وخلال إقامتى بها سنحت لى الفرصة لزيارة المكان الذى شيدت عليه منف بين سهول ميت رهينة، كما زرت سلسلة مرتفعات الصحراء المجاورة والتى حفظت مومياوات سكان أهم وأقدم عاصمة فى البلاد على مر ستين قرنًا من الزمان[1]. وفى رحلتى الأولى كنت فى جمع من الأصدقاء فى قافلة تعج بالمرح يملؤها الغلمان والصبايا الملاح. ولقد أحيا التفقد السريع للآثار التى تمتلئ بها جوانب الجبانة فى نفسى رغبة العودة إلى هذه المنطقة التى تمتلئ بذكريات أقدم حضارة مصرية بهدوء ودون عجلة من أمرى. ولما انشغلت برحلاتى إلى المدن الإغريقية فى دلتا النيل لم أتمكن من العودة إلى منف حتى يوم السابع عشر من شهر فبراير. ولعام١٨٨٥. وخرجت من القاهرة فى الثامنة صباحًا يقلُّنى قطار الصعيد. وغادرت القطار بعد أربعين دقيقة فى محطة البدرشين حيث كانت فى انتظارى قافلة من البدو مخصصين لمرافقتى وخدمتى. ووقف اثنا عشر زنجيًا أقوياء البنية طوال القامة يلبسون قمصانًا بيضاء طويلة ومعاطف سوداء واسعة وعمم تغطى الرؤوس، يحملون بنادقهم معمرة بالرش معلقة فى أحزمتهم، وقفوا ينتظرون أوامرى حتى يرفعوا الأحمال على أربعة جمال كانت معهم.

وكان من الضرورى حمل كل شىء. فلما نويت أن أقضى بعض الوقت فى الصحراء الليبية وأن أستخدم الكوخ الذى بناه "مارييت" من الطين والخشب عند اكتشافه السيرابيوم، ولأنه كان لا يسكنه سوى حارس بائس فقد استلزم الأمر أن أحمل معى ملابس وكتبًا وسلاحًا وسرير المعسكرات وخيمة والمأكولات

(١) كان تأسيس منف فى عام ٣٢٣٠ ق.م، على أرجح الأقوال، وبذلك يكون قد مر عليها حوالى اثنين وخمسين قرنًا فقط. المترجم

الضرورية، وحملت حتى الماء والفحم وأدوات الطبخ. وبعد وقت لـيس بالقـصير بدأت القافله المسير، وامتطيت حصانًا وتبعت الـدليل البـدوى المـدعو عثمـان، متجهين إلى الصحراء عابرين سهول ميت رهينة الخضراء.

بعد نصف ساعة من السير بين النخيل الذى يمد ظلاله على السهول الخصبة وصلنا إلى أطلال ديار منف المبعثرة. ولم يبق سوى القليل من المدينة الشهيرة التى أسسها ملوك الأسرة الثالثة أو مينا منذ ستين قرنًا كما يذكر الإغريق، ويذكر بعض المؤرخين أنها سميت "*من نفرى*" فى البداية وتعنى المكان الطيب، وكانت مركزًا لعبادة الإله بتاح وسميت "جاكو بتاح" المقدسة أو بيت بتاح. وكانت منف مركزًا للحضارة والثقافة القومية فى العصور الأولى من التاريخ المصرى. ففى ربوعها ازدهر الأدب وتطورت العلوم، وأنتجت الفنون الجميلة خلال الدولة القديمة أعمالاً كاملة نتأملها اليوم فى المتحف وفى جبانة سقارة ذاتها. ومع نهاية الأسرة الثامنة، تخلت منف عن دورها كعاصمة للإمبراطورية منذ خمسين قرنًا، ومنذ ذلك الوقت أخذت فى التدهور لتصل إلى الأطلال الحالية. وقد هجرها ملوك هيراكليوبوليس وديوس بوليس من العصور الأولى، وظلت منسية لسنوات طويلة حتى رممها ملوك أسرات طيبة العظام وأعادوا إليها جزءًا كبيرًا من أمجادها. لكنها عانت كثيرًا خلال فترات عدم الاستقرار المتعاقبة. وخربها الغزو الآشورى ثم الإثيوبى ثم الفارسى. ثم عاد البطالمة وعمروها، وكما يروى المؤرخون كانت هناك أحياء مهمة يسكنها الفينيقيون وجاليات أخرى من الأجانب. وشاهدها سترابون مهدَّمة رغم ذلك. ومنذ ذلك الوقت صدقت فيها نبوءة إرميا[1]، المشئومة التى يقول فيها: يا بنت مصر جهزى ما ينفعك فى أسرك لأن منف ستكون صحراء جرداء وسوف يهجرها سكانها.

---

(١) هو أحد الرسل الأربعة العظام (٦٥٠- ٥٨٠ ق.م) ترك لنا التنبؤات ومـــرثياته الـشهيرة. لاروس، ص ١٢٦٢ (المترجم).

من بين أعمال الترميم التى جرت فى منف على يد ملوك طيبة لا بد من ذكر أعمال رمسيس الثانى التى وصلت إلينا منها آثار كثيرة. وتؤكد بقايا الأسوار التى تسمى اليوم "خُنّ أبو خنزير" امتداد أعمال البناء التى أمر بها هذا الملك فى معبد بتاح والذى أسماه الإغريق معبد البركان. وبالقرب من المنخفض الذى ما زال يحدد مكان البحيرة المقدسة يرقد تمثال ضخم يبلغ طوله ١٤ مترًا، يمثل الملك واقفًا بين المعبودين بتاح وسخت[١]. وتشير كتابات هيروغليفية على عقد يزين صدر رمسيس الثانى- الذى سماه الإغريق سيزوستريس[٢]- وتحمل ألقاب "إله الشمس، سيد العدالة، المفضل لدى رع". وكان التمثال قد أقيم أمام أحد أبواب المعبد، ومن المحتمل أن إحدى الغزوات الكثيرة التى تعرضت لها منف عبر تاريخها الطويل أسقطت التمثال أرضًا. وثمة تمثال آخر لنفس الملك نُحت من صخر الجرانيت تم كشفه منذ سنوات قلائل فى عاصمة مصر القديمة.

وإذا أعرنا اهتمامًا للحكايات فى مصر القديمة عن معابد الإمبراطورية الشهيرة فإننا نعرف أن تماثيل تشبه ذلك التمثال قد أقيمت كقرابين قدمها رمسيس الثانى شكرًا للآلهة الذين أنقذوا حياته فى "بيلوزا". ويحكى هيرودوت وتيودور الصقلى أنه عند وجود الملك فى هذا الثغر عائدًا من حملته ضد الليبيين، دُعى مع امرأته وأولاده إلى مأدبة أعدها له أحد إخوته. وكان ذلك الأخ يريد اغتيال رمسيس، ولذا فكر فى إدخاله فى خيمة وإحاطتها بحزم من القش، وأمر خدمه بأن يشعلوها، لكنه دعاهم للشراب قبل ذلك، ولذا فقد نفذوا الخطة على وجه غير صحيح، وعند ارتفاع ألسنة اللــــهب الأولى رفع الملك يديه طالبًا عون السماء وتمكن من النجاة من الحريق مع كل أسرته. ولما أراد أن يتذكر هذه المعجزة ويرى الشعب أنه كان يتلقى العون مباشرة من الآلهة، أخذ يضع التماثيل الملكية فى المعابد المصرية.

---

(١) الإلهة سخمت هى زوجة بتاح وأم نفرتم، كانت تعبد فى منف ضمن ثالوثها، وهى إلهة الحــرب عنــد المصريين وتمثل على هيئة امرأة لها رأس لبؤة (المترجم).

(٢) دعاه الإغريق رمسيس الثانى، لكن سيزوستريس هو الملك سنوسرت من الدوله الوسطى (المترجم).

على أن منف لم تندثر مع الحضارة المصرية. فقد زارها عبد اللطيف فى القرن الثانى عشر الميلادى وتمكن من رؤية الآثار التى كانت لا تزال باقية إبان الفتح العربى لمصر، يقول: "لقد رأيت تماثيل جالسة على قواعد ضخمة وتمتلئ الأطلال ببقايا المبانى من الأحجار، وترى اللوحات الجدارية هنا وهناك... لقد رأيت عَقدًا لباب مرتفع جدًا، يتكون جانباه من صخرة كبيرة على كل جانب، أما الجزء العلوى للبوابة وهو عبارة عن حجر واحد أيضًا فيرى ملقيًا على الأرض أمام المدخل. أما عن تماثيل المعبودات التى توجد بين الأطلال- وأعتقد أنها كذلك نسبة لحجمها الهائل وعددها- فلا يمكن وصفها ولا تكوين فكرة كاملة عنها. لكن ما يذهل حقًا هو هيئتها المتقنة، وأبعادها المتناسقة وشدة الشبه بينها وبين الحقيقة. وقد وجدت تمثالاً يبلغ طوله ثلاثين ذراعًا بدون القاعدة. وكان من الجرانيت الوردى مطليًا بورنيش أحمر، بدا وكأنه نحت حديثًا برغم قدمه. ورأيت أسدين متواجهين بالقرب من بعضهما، يقذف منظرهما الرعب فى القلوب، وبالرغم من حجميهما الهائل فإن هيئتهما وأبعادهما متقنة. وهما محطمان الآن ويغطيهما الطين".

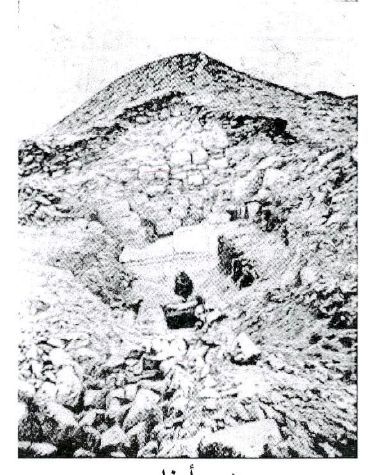
ولقد قضت القاهرة على منف التى هدمت مبانيها كى تستغل أحجارها فى بناء عاصمة البلاد الحديثة واليوم نجد بعضًا من جدرانها التى حولتها شمس إفريقيا الملتهبة إلى اللون الأسود، وتناثرت بين غابة من النخيل الذى يخفيها، كما نجد لوحات جدارية مدفونة عليها بقايا نقوش غير واضحة يصعب قراءتها، ومعبودات وآلهة سقطت من مقاصيرها وفصلت رؤوسها عن أجسادها وهشمت أجسادها. هذا هو كل ما بقى من العاصمة الشهيرة منف. وبعد أن تفقدت هذه الأطلال توجهت إلى الصحراء الليبية. وعلى أطرافها ترى العديد من الأهرامات المهدمة المتراصة بدون نظام معين، بنيت لتكون قبورًا لملوك منف الأوائل. يبرز من بينها الهرم المدرج وسمى كذلك بسبب الدرجات الخمس التى يحويها[1]، ولا يحتوى على أى

---

(١) هرم سقارة المدرج، يتكون من ست درجات أو مصاطب (المترجم).

نقوش بداخله. وكل ما نعرفه عنه هو أنه بناه أحد ملوك الأسرة الأولى المجهولين، وقد يكون "ون نفس"[١]، وهو بذلك يبلغ حوالى سبعة آلاف سنة من القدم[٢]، وربما يكون هو أقدم أثر تركه الإنسان على الأرض وما زال يحتفظ بشكله الأصلى.

ولا تقل الأهرامات الأخرى شهرة عن ذلك الهرم بعمرها الذى يناهز أربعة آلاف عام، وهى تقف شاهقة بجانب أخيها الأكبر، وكانت عبارة عن مقابر للملوك أوناس وتيتى وببيى وملوك آخرين من الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة. وكان من المعتقد أن هذه الأهرامات لم تتعرض للنهب فى العصور القديمة، ولذا أمر البروفسير "*ماسبيرو*" بتسجيلها. وتم فتح الهرم الأول –هرم أوناس– عام ١٨٨٣م وعند رفع الحطام الذى يغطى كسوته الخارجية ظهرت آثار ممر شقَّه العرب كى يصلوا إلى حجرة الدفن التى يرقد فيها الملك وقد نهب الهرم بالكامل، وهو يحوى غرفتين محفوظتين تمامًا أولاهما خالية، وتزين جدرانه نقوش كثيرة باللون الأزرق على خلفية الجدران الحجرية البيضاء، وهى عبارة عن مدائح للملك. وفى الغرفة الثانية نجد تابوت الملك أوناس وغطاءه ملقيين علـــى الأرض.



هرم أوناس

---

(١) بنى هذا الهرم الملك زوسر، وهو من ملوك الأسرة الثالثة حوالى ٢٨٠٠ق م (المترجم).

(٢) الأسرة الأولى ترجع إلى سنة ٣٢٠٠ق. م فقط (المترجم).

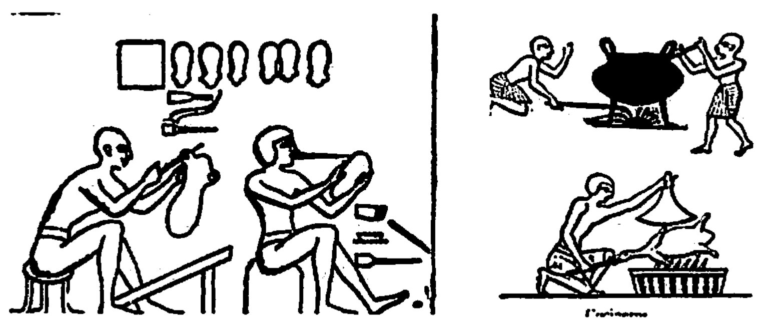
وهو عبارة عن صخرة هائلة من البازلت المصقل الملمع بإتقان. وتمتلئ جدران هذه الصالة أيضًا بنقوش هيروغليفيلة جميلة من حول التابوت. ولا بد أن الأهرامات الأخرى دمرها العرب أنفسهم لأنه لم يبق منها سوى بقايا مومياوات وأثاث وقرابين جنائزية، أما النقوش التى بها فتخلو من أى قيمة تاريخية لكونها نصوصًا دينية سبق معرفتها من وثائق أخرى.

وقد كرست نفسى لزيارة مقابر مقاصير جنائزية منذ وصولى إلى صحراء سقارة. ويوجد أكثر من ألف من المقابر القديمة على امتداد الحزام الطويل الضيق من الأرض الواصلة بين الجيزة ودهشور والذى استخدم كجبانة لمنف. وتوجد بينها حجرات دفن ذات قيمة هائلة. نذكر منها حجرات بتاح حتب تى وحابو وشخصيات أخرى من كبار الموظفين الذين عاشوا فى عصر الأسرة الخامسة، والتى على جدرانها نرى نقوشًا متقنة لمناظر من حياة الريف المصرى.

ومثالاً لهذا النوع من نقوش المقابر تبرز مصطبة "تى". ونرى دائمًا هذا الرجل ممثلاً على الجدران تارة يقف مستندًا على عصا الحكم أو ماشيًا وابنه إلى جواره، وتارة يقف فى أبهة بجانب زوجته التى تظهر فى حجم أقل منه، وغالبا ما تلف ذراعها حول إحدى رجلى زوجها. ويظهر الموتى فى الهيئة التى كانوا عليها أثناء حياتهم من ناحية ملامحهم وتمثيلهم الصادق لأصحابهم. وجميعم يرتدى العقد أو يحمل عصا تدل على العظمة إذا كانوا من أهل السلطة، ويرتدون نفس الحلل التى اعتادوا ارتداءها أثناء شغلهم لتلك الوظائف، وتدور فى فلك هؤلاء الأشخاص المناظر اليومية للحقل والقرية المصرية منذ أكثر من خمسة آلاف عام. وعلى يسار المدخل يرى بحارة يتصارعون يستخدمون المجاديف كأسلحة. وفى المنظر المرسوم أعلى المدخل والذى ينقصه بعض التفاصيل نرى بعض البهلوانات يستعرضون مواهبهم وقدراتهم على التوازن واتخاذ أوضاع صعبة. وفى الأسفل نرى عدة ثيران يتم تقطيعها والماشية متوجهة إلى الحقول أو الحيوانات تعبر نهر

النيل. وفى النهر نشاهد مناظر عديدة للصيد، وصراعات بين التماسيح وأفراس النهر، والفيضانات تمتد لتغمر الحقول. وعلى الجانب نرى نجارى المدينة ينشرون الخشب ويصنعون الصناديق والأثاث بينما يثنى نجاروا السواحل كتل الخشب ليصنعوا منها البواخر الراسخات لتبحر فى النيل حتى السودان أو فى البحر حتى سوريا واليونان.

وتمثِّل المناظر المألوفة لحياة المنزل بوضوح وإتقان فى مناظر الحائط فى المقابر المصرية، وهى طريقة جيدة لتوضيح عادات ذلك الشعب العريق بكل تفاصيله. ولا بد أن المطابخ كانت تلعب دورًا مهمًا فى مصر القديمة نظرًا لتكرار وجود القدور التى يطبخ فيها الأرز أو الأفران التى تشوى فيها الطيور. كما تمثل الصناعات أيضا بطريقة متكررة حيث نرى الصناع من صانع الأحذية المعدم الذى يخيط الصنادل للفلاحين والجند وحتى الصائغ الغنى الذى يشكل العقود الثمينة من المعادن النفيسة والأحجار الثمينة. كما نجد الفلاحين يركبون الحمير ويتهادوْن على ضفاف النيل، وهو منظر يتكرر حتى اليوم. ونرى العامل الفقير الأقل حظًا من سابقيه يمشى محملاً بسن الفيل والعقود المصنوعة من الحجر الأخضر والذى كان بكل تأكيد يحملها كقربان لحاكم إقليم إذا لم يكن يحملها إلى الفرعون فى بلاطه الكائن بمنف أو طيبة.



الطباخون وصانعو الأحذية

وهناك مناظر أخرى من الحياة المصرية فى المقابر، وهى تمثل عادات العمال والسلطان فى ذلك العصر. وربما كان أغربها منظر يمثل طريقة تطبيق العدالة فى البلاد بمعاقبة المجرمين بالأداة المفضلة عند الشرقيين وهى العصا أو بتهديد الشهود الذين يمثلون أمام القاضى للإدلاء بشهادته. ورغم تغير أسماء الممالك والأجناس الحاكمة فإن هذه العادات لم تختف أبدا ويبدو أنها تجرى فى عروق أبناء هذه الأرض البؤساء.



أنواع العقاب فى مصر القديمة

وكشفت التنقيبات التى أجراها المتحف المصرى فى سقارة عام ١٨٨٤، عن وجود جبانة ترجع إلى الأسرة الثانية عشرة وهى تعد مرجعًا غاية فى الأهمية يوضح لنا مكانة وأهمية منف فى أكثر اللحظات ظلامًا فى تاريخها. وكانت إحدى المقابر المكتشفة فى شهر أبريل من هذا العام هى مقبرة كوبير كيرى، وقد وجدت كاملة وعثر فيها على خمس قوارب خشبية صغيرة ببحاريها كما عثر على ثلاثة توابيت خشبية كبيرة نقشت عليها نصوص دينية مطولة. كما اكتشف فى سقارة عام ١٩٨٥م، قبر آخر لشخصية مهمة من طيبة. وتظهر منها بئر النزول فقط والكائن على يسار مدخل هرم أوناس ويصل عمقه إلى ١٨ مترًا. ويوجد فى أسفل البئر أربع أو خمس حجرات جنائزية فى حالة سيئة وتخلو من الرسوم والنقوش أو

النصوص، غير أننا نجد تابوتًا عظيمًا من الجرانيت الأحمر تم نقله من مكانه، وهو مفتوح وبدون مومياء فقد هبط المخربون اليونانيون إلى هذا القبر ونهبوا كل شيء حتى الجثث.

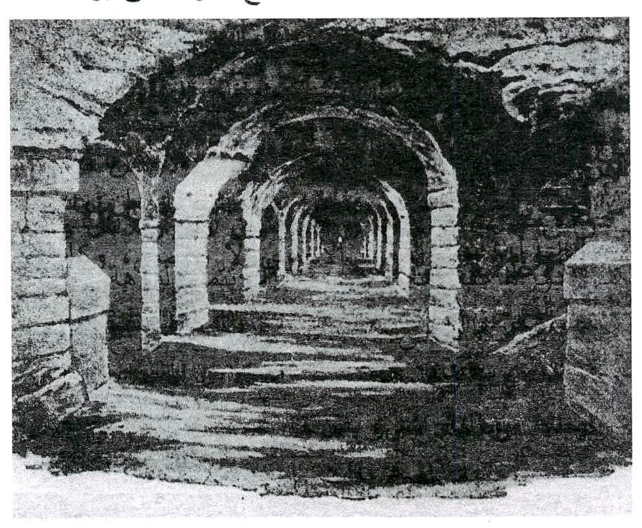
ولنتحدث الآن عن الأثر الأكثر أهمية فى جبانة منف وهو السرابيوم. ويقول إسترابون فى وصفه لمنف:

"ونجد معبد سرابيس فى مكان معرض للرياح، حتى إن جبال الرمل تتراكم عنده وقد رأينا تحتها تماثيل أبى الهول مدفون بعضها حتى المنتصف، وأخرى حتى الرأس، لذا فقد قدرت أن زيارة هذا المعبد ستكون خطرة على حياة أى زائر تفاجئه الرياح الشديدة.

واصل أوجاست ماريت - وهو شاب مهتم بالدراسات الشرقية - دراساته وسط العديد من الصعوبات والمعوقات، وحصل فى عام ١٨٥٠م، على منحة من الحكومة الفرنسية لدراسة الأديرة القبطية فى مصر وجرد المخطوطات الشرقية. وقد حكى فى أكثر من مناسبة أنه رأى بنفسه ستة تماثيل لأبى الهول فى حديقة السيد زيزينيا بالإسكندرية. كما وجد تماثيل أخرى مشابهة فى حدائق كلوت بك بالقاهرة، كما تنامى إلى علمه أن الإسبانى "فرناندث" كان عنده العديد منها فى الجيزة. وعندما كان يومًا فى سقارة يواصل دراساته عن المصريات رأى رأسًا لأبى الهول تشبه تمامًا التماثيل سالفة الذكر تبرز من بين أكوام الرمال، كما وجد بجانبها مائدة قرابين كتب عليها اسم أوزير- أبيس. عندئذ تذكر الطريق التى وصفها إسترابون ولم يشك فى أن ما اكتشفه للتو هى طريق السرابيوم المفقود.

رغم أن "مارييت" أرسِل إلى مصر لجرد المخطوطات وليس للتنقيب عن المعابد فإنه قرر القيام بالحفريات، وجمَع بعض العمال سرًا وبعد جهد جهيد ومشقة عثر على المعبد. فعثر على تماثيل الأسود والطواويس والتماثيل الإغريقية ولوحات "نختنبو" الحجرية بين الرمال. عندئذ أعلم الرحالة الشهير الجرىء

الحكومة الفرنسية باكتشاف السرابيوم وإجمالى تكلفة المصاريف المخصصة للمخطوطات المسيحية. فبعثت له الحكومة بمبالغ أخرى كى يواصل التنقيب.



السرابيوم

وأبيس؛ ثور يمثل الصورة الحية لأوزيريس على الأرض وكان معبده فى منف وقبره فى سقارة. وكان القصر الذى يسكنه فى العاصمة المصرية القديمة يدعى الأبيوم، وكان قبره يدعى باسم السرابيوم. وبالجزء الخارجى من المقبرة وُجد معبد حقيقى بصروحه وتماثيل أبى الهول الخاصة به ومقاصيره وأسواره الخارجية، لكن لم يبق شىء من هذه المبانى اليوم. والشىء الوحيد الذى يراه الزائر هو الأنفاق المنحوتة فى الصخر والتى دفنت فيها ثيران أبيس. وتتكون هذه الأنفاق من ثلاثة أجزاء لا يوجد بينها أى وجه للشبه.

ويرجع النفق الأول وهو الأقدم إلى فترة حكم أمنحتب الثالث، أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة، واستخدم كمقبرة لأبيس حتى أواخر الأسرة العشرين. ويوجد به الكثير من غرف الدفن كما يوجد به عجول أبيس مدفونة كلٌّ فى قبر نحت فى الصخر، وتستحيل زيارتها الآن لامتلائها بالرمال.

أما فى الجزء الثانى من السرابيوم فيضم مقابر عجول أبيس التى ماتت منذ حكم الملك شاشانق الأول من الأسرة الثانية والعشرين وحتى حكم طهرقا آخر ملوك الأسرة الخامسة والعشرين. وفى هذا الجزء فإن المقابر ليست معزولة عن بعضها البعض ولكن نحتت المقاصير على جانبى ممر طويل لدفن أبيس بها.

أما الجزء الثالث فهو الأشهر والأكثر زيارة من جانب الرحالة وبدأ فى عصر بسماتيك الأول من الأسرة السادسة والعشرين، وانتهى استخدامه مع أخر ملوك البطالمة. وقد نـــُزعت خمسمائة لوحة جدارية ونقوش كان المؤمنون بعقيدة أوزيريس قد رسموها على جدران تلك المقبرة، نزعها مارييت وحملها إلى باريس حيث تعد من أهم آثار متحف اللوفر الغنى. وعند ناحية الجنوب فى اتجاه دهشور نجد الأرض وقد ملئت بالمقابر المهدمة. فتحت كلها فى العصور القديمة بسبب أطماع أولئك الذين كانوا يحلمون بالعثور على الجثث التى تحتوى على الكنوز الثمينة من الأحجار والمعادن التى من المفترض أنها دفنت بها. وكم تحزن النفس لأعمال النهب هذه لأنها تبين مدى الاستهزاء بعقائد هؤلاء الذين كوّموا الجبال فوق مقابرهم أو شقوا حجراتها الجنائزية فى الصخور معتقدين أنهم بذلك قد نـــجَـــوْا بها من السلب.

وكان أكثر ما أثـــّـر فىَّ خلال إقامتى فى تلك المنطقة هو؛ جولاتى الليلية فى الصحراء حول المعسكر وحيدًا لا أسمع أى صوت ولا أرى أى كائن حى اللـــهم إلا حيوان ابن آوى يهجر مخابئه فى المقابر لكى يدلف إلى الوادى الأخضر. وكنت أجتمع مع جماعة البدو المكلفين بحمايتى أحيانًا بعد تناول الطعام، وكان شيوخ وعمد البلدان المجاورة يبعثون كل ليلة بأربعة أو ستة خفراء لتعزيز الحراس التابعين لى، وكانوا يجتمعون فى الفناء الخارجى للمعسكر ليلاً بجانب ضوء الشعلة الموقدة فى قارورة إغريقية وضِع عليها براد القهوة النحاسى. كانت

لوحة جميلة تلك التى يشكلها أولاد الصحراء الرائعون السود كالكهرمان، يرتدون ثيابهم البيضاء فتصعب رؤيتهم فى الليالى المظلمة لكنهم يتلألأون أحيانًا بفعل ضوء القمر الذى يبعث بأشعته الصافية البيضاء عبر سماء مصر الصافية.

وكانوا دائما ما يدعوننى لتناول قدح من القهوة اللذيذة، وكنت أقبل أكثر من مرة كى أجلس بينهم وأستمع إلى حكاياتهم عن الأشباح واللصوص. وعندما كنت أرى حرصهم علىَّ كنت أحس بالأمان وأنام ملء الجفون فهم يحرسون وكل منهم كان يحمل ترسانة من جميع أنواع الأسلحة من بنادق ورماح وخناجر وطبنجات، فلم يكن ينقص أحزمتهم شىء على كونهم حراسًا متواضعين. غير أننى كنت أتمنى ألا أحتاج إليهم أبدًا، فقد كفانى رؤية مدى الجزع والجبن اللذين أظهروهما ذات ليلة عندما وجدوا حيوانين من فصيلة ابن آوى كانا يأكلان بقايا عشائى بجوار الكوخ على استحياء. فعندما نهضت مفزوعًا من سريرى على الضوضاء التى أحدثها إطلاق النيران على هذين الحيوانين اعتقدت أننى سأجد جماعة من رجال المهدى على باب الكوخ.

كانت رمية حجر تكفى لإبعاد هذين الحيوانين عديمى الأذى، إلا أن جماعتى من البدو شنوا حربًا شعواء عليهما ثم جلسوا وكلهم رضا معتقدين أنهم أنقذونى من خطر عظيم. وذات يوم بدأت المسير ناحية دهشور عن طريق الصحراء، وبعدما عبرت سهول الرمال البيضاء الناعمة والتى لا تقطعها سوى حوائط المبانى القديمة وأكوام الحطام التى يرفعها المنقبون عند تنظيف المقابر، وجدت صحراء لم أرَ مثلها من قبل، تملؤها الحجارة الصغيرة السوداء المستديرة الناعمة والتى ترهق من يسير عليها وتتعب النظر ببريقها. كان السير على تلك الأحجار مؤلما جدًا بالنسبة لى بالإضافة إلى الإرهاق الذى تسببه لى أشعة الشمس الحارقة. وكم كان يحلو لى أن أكمل الرحلة على جمل لو حملت الأقدار لى أحدها فى وحدتى هذه. وبعد وقت طويل فى هذه الأجواء الصعبة وصلت إلى جبانة دهشور القديمة. وتدلنا بعض

الأهرامات شبه المهدمة الموجودة بها أن ملوك منف اختاروا هذا المكان المقابل للجيزة لبناء أضرحتهم. ونرى بقايا بنايات من العصر الطيبى فوق مقابر العصور الأولى، كما نرى بيوتا من الطوب اللبن ترجع فى مجملها إلى العصر البطلمى. ويمكن القول بأن الصحراء ساعدت فى حفظ الآثار حيث تغطيها وتحفظها من عوادى الزمن وأطماع البشر. وغالبا ما نرى مجموعات من العمال تنقب بهمة فى الآبار وحجر الدفن بحثًا عن الآثار بين المقابر المصرية المهجورة. ما أشنع فعلتهم وما أقل ما يحصلون عليه أحيانا كثيرة لأن عمالاً آخرين سبقوهم إلى ذلك على مدى ثلاثة آلاف عام، وقد أصبح من الصعب العثور على أشياء ذات قيمة جوهرية أو حتى أثرية. وتسمح حكومة الخديو لهم بممارسة هذه الأعمال غير أنها تشترط عليهم تقسيم ما يجدونه من آثار مع متحف القاهرة. وبذلك يسمح لهم ببيع نصيبهم إلى جامعى التحف والزوار ويتم إنقاذ الآثار من عمليات تخزين لا جدوى منها.

وقابلت فى طريقى إحدى جماعات التنقيب هذه، وتصادفت لحظة وصولى مع لحظة العثور على مومياء دفنت بدون صندوق ولا كفن تحت الرمال، وكانت لامرأة ما زالت تحتفظ بشعر الرأس والعيون السوداء وقد حرق ما تحت الجفن الأيسر. وبضربة من فأسه شقها بدوى إلى نصفين واندفع الآخرون عليها كى ينزعوا ما عليها من لفائف القماش التى تغطى الصدر. وهممت بتجنب هذا الانتهاك للحرمات الذى حسبته بدون هدف لكنهم أفهمونى أنهم يبحثون عن تمائم أو تماثيل لمعبودات داخل المومياء، وبالفعل وجدوا جعرانًا ثمينًا من الحجر اليَشْب فى تجويف الصدر وقد ضممته إلى مجموعة مقتنياتى.

وعند منتصف النهار بدأت رحلتى من جديد سيرًا على الأقدام عبر الجبل الكبير متجهًا لواحة سقارة، التى كان عمدتها قد دعانى لتناول الغداء فى بيته. وهو يقع عند أطـــراف الوادى من ناحية الصحراء فى وسط غابة بهية من أشجار النخيل. ويفضى باب البيت الرئيسى إلى صحن فسيح مربع ترتفع فى وسطه شجرة

جميز ضخمة لها جذع أخضر وأفرع وارفة تملأ هذا المكان بالظلال الظليلة. وعلى اليسار يوجد مبنى من الطوب اللبن ربما كان مخصصًا لإقامة الشيخ لاحتوائه على مشربيات كثيفة تغطى النوافذ والتى تستخدم أيضًا لمنع العبث مع فاتنات صديقى ذوات اللون النحاسى واللاتى لا بد وأنهن كن قريبات من هذا المكان. وفى صدر الفناء توجد مقصورة متواضعة ترتفع فى وسطها قبة عربية تنتهى بهلال. وكان ولىّ من أجداد العمدة قد دفن فى هذه المقصورة، وخارج هذا المكان المقدس دفنت فى مقبرة متواضعة مطلية باللون الأبيض مَن كانت زوجة الولىّ الأولى أثناء حياته. حزين هو مصير المرأة فى الشرق، فهى لا تتساوى بالرجل ولا حتى فى الموت، ولا ينتهى تعاليه عليها ولا حتى فى القبر.

واستقبلنى الشيخ علىّ – عمدة البلدة – استقبالاً حافلاً. وفى الظل الممتد على صحن الدار وضعت كنبة يعلوها بساط عربى جميل خصصت لمجلسى وحدى، بينما جلس الشيخ علىّ وأربعة من أعيان القبيلة دُعوا إلى الحفل فوق منصة أخرى تبعد حوالى ثلاثة أمتار عن مجلسى. وغنى عن القول إن وصولى هناك كان حدثًا جللاً، فعندما تركت بندقيتى خارج المنزل هَمّ البدو ناحية الباب وحيونى بعبارة "*نهارك سعيد*" التى يحيى بها المسلمون المسيحيين، وأخذوا يمينى ليضعوها على جباههم. وجلسنا فى الأماكن المخصصة لنا نحتسى كئوس الشربات الأحمر وندخن السجائر ونتسامر حول الطقس كالمعتاد وعن المحاصيل، بينما كان الخدم يعدون الطعام.

ولم يدهشنى ذلك، فقد اعتدت حينئذٍ على المجاملات الشرقية. ووُضعت المائدة فى حجرة صغيرة مظلمة ومتسخة على يسار الفناء. وعند دخولى قدم لى أعرابى يقف إلى جوار المدخل ماء وجفنة وفوطة حتى أغسل يدىّ. وعلى المائدة وضع طاقم من أدوات المائدة لشخص واحد وكرسى للجلوس. فجلست على ذلك الكرسى ونظرت سريعًا إلى المائدة التى أعدها لى الشيخ. وكالمعتاد وجدت حساء

الأرز مع ملوخية وحمامة وطبقًا من البيض المسلوق ودجاجة وفخذ ماعز ولحم البقر مع أرز، وطبقًا آخر من الأرز الأبيض وشواء من لحم العجل. وتشوّقت للنبيذ الغائب الذى لم يحرّمه رسول الإسلام هباءً، وكان علَـــىّ الاكتفاء بزجاجة من المياة تملؤها الشوائب. ولم تكن على المائدة أطباق ولا سكاكين ولا شوك ولا مفرش سفرة أو فوط ولا أى شىء سوى الطعام الذى كان علىّ التهامه بيَدَىّ. ولا شك أنهم جعلونى أغسل يدى عند الدخول لذلك.

ولم يدّخر الشيخ ولا أصحابه جهدًا من حولى يحثوننى على الأكل ويعرضون علىَّ شتى أنواع الطعام حتى إنهم كانوا يمسكون بأصابعهم قطع الطعام التى يحسبون أنها ستروق لى كى يدفعوا بها إلىّ. وبالطبع فقد أعلنت شبعى سريعًا وغسلت يدىّ من جديد وخرجت إلى الفناء لتناول القهوة، عندئذٍ جلس علىّ وأصدقاؤه إلى المائدة وفى دقائق قليلة التهموا كل الطعام.

وددت العودة إلى المعسكر قبل أن يظلم الليل لأننى اقتنعت فى مناسبة أخرى أن السير فى الصحراء ليلاً غاية فى الصعوبة. وأمدنى الشيخ بجواد ودليلين للعودة، وفى ساعات قليلة كنت بجوار المعسكر عند أهرامات سقارة. وعبرت من جديد جبانة منف وتوقفت أكثر من مرة كى أتأمل هذا المضمار الهائل الملىء بالموتى، والذى اكتظ بالمقابر والأطلال واكتسى بالبياض من كثرة عظام الموتى على مدى ثلاثة آلاف عام. وعندما وصلت آخر اليوم أحسست بالإرهاق الشديد، لذا آويت إلى فراشى دون إبطاء، وأعتقد أننى حال نومى على سرير المعسكرات البائس الذى تملؤه الرمال بدا لى وكأنه فراش النعيم صُنع من الريش الوثير. ولا أذكر أننى أكلت أقل ولا مشيت أكثر ولا نمت أفضل من ذلك اليوم.

الفصل الثانى والعشرون

نظرة عامة للنيل

يعد الشكل العام للنيل منظرًا تقليديًا لمعظم الأنهار الشهيرة فى العالم. فنرى نفس شكل الأرض منذ الخروج من منف حتى منطقة الشلالات. النهر يتهادى بأمواجه ومياهه العكرة الصفراء التى تدفعها الرياح من حين لآخر مكونًا أمواجًا صغيرة. وعلى ضفتيه بنيت جسور من الرمال تعمل على احتواء مياهه فى مجرى عميق، إلا أنها تعلو وتفيض فى وقت الفيضان. وعلى الجانب الآخر من الجسر تمتد السهول الخضراء يملؤها القمح والقصب والبرسيم، ومن آن لآخر نرى بينها مجموعات من أشجار النخيل الشاعرية أو أشجار جميز متفرقه ذات الفروع الوارفة. وأخيرًا تمتد بمحاذاة النيل سلسلتان عاليتان من الجبال تشكل حدود الصحراء من الجانبين.

لكن مع ارتفاع مياه النهر تضيق البلاد ويمكن للزائر أن يلحظ الشبكة الهائلة للقنوات التى تشق البلاد بشكل أفضل، وهى عنصر لا غنى عنه بالنسبة للزراعة. وأهم هذه القنوات هو ما يسمى "بحر يوسف" الذى يمتد من النيل حتى أطراف الصحراء الليبية. وكثيرًا ما تبقى مجارى تلك الترع جافة بسبب عدم تنظيفها أو بسبب مستوى النيل المنخفض. وفى أحوال كهذه يستخدم العرب نظامًا للرى على ضفاف النيل وأعنى به الشادوف. فيضعون عارضة أفقية فوق عمودين من الطوب اللبن وعادة ما تتكون من جذع نخلة منزوع الجريد. وفى منتصفه يكون محور الارتكاز لعصا تدور حول الثلث الأول من طولها. ويربط فى الطرف الأطول دلو من الجلد يتدلى حتى مستوى المياه، وفى الطرف الآخر يتدلى حجر ويعمل كثقل موازن للدلو. وبهذه الآلة البدائية يعمل الفلاحون أنصاف عرايا دون راحة طوال اليوم كى يرفعوا كمية قليلة من الماء إلى مستوى مترين أو ثلاثه أمتار. وكم تدهشك رؤيتهم فى منظومة لا تنتهى على طول ضفاف النيل، ويتسامر هؤلاء الرجال بحيوية واستمرار أثناء عملهم على الشادوف. ويحكى عنهم أنهم وسيلة لنقل الأخبار السريعة إلى مسافات طويلة دون التحرك من أماكنهم.

وتسير أمواج النهر بشكل منحدر دائمًا من الشلالات وحتى الدلتا، وهى سريعة فى بعض الأجزاء حيث لا تقل سرعتها عن أربعة أو خمسة أميال فى الساعة. وعندما يعترضه جسر أو عائق آخر فى أجزاء بعينها فإنه يحدث دوامات شديدة الاندفاع. وعلى مياه النهر تتهادى المراكب المصرية الخفيفة بشراعها الكبير الأبيض فتبدو كأنها طيور عملاقة. ولبعض تلك المراكب شراعان على شكل مثلث ينفردان معًا عندما تأتى الريح من الخلف، وبفضل إعدادها الخاص تعطيك انطباعًا رائعًا بأنها مقصات عملاقة تشق بطرفيها الآفاق.

وعندما تنام الريح – كما يقول أهل الشرق – تلف الشراع حول السارى ويبدأ العربى الذى يرقد متكاسلاً فى أحد جوانب المركب فى الجلوس على دكة خاصة ويهز مجدافه. وتأخذ جماعة المجدفين المكونة من ستة أو ثمانية رجال فى الاصطفاف على جانبى المركب ويرتجلون أغنية يضبطون على إيقاعها حركة المجاديف. وكم من مرة سمعت من شفاه هؤلاء البحارة وأنا متكئ على جانب المركب أغانى رقيقة حزينة مليئة بمشاعر الألم. ودائمًا ما تكون كلمات الأغانى من أشعار الحب. وهى مع ذلك ترتفع بها الأصوات دون نشاز، ذات رعشة بطيئة جمعتها نوتة موسيقية واحدة تعزف بلا نهاية.

وليس هناك فى العالم ما هو أجمل من رؤية النيل عند الغروب. فعلى البُعد يتلاشى الغناء المصاحب لصوت مجاديف تتهادى على صفحة المياه، بينما ترى الشمس تجرى على عجل ناحية السهول الليبية لتلتحف برمال الصحراء. وكم تذكرت فى أكثر من مناسبة هذه اللوحة العذبة الهادئة التى تغمر الروح بمتعة لا توصف، لا تقطعها الانفعالات.

إن الهدوء والوحدة والانعزال تسيطر على الطبيعة وعلى الإنسان الذى يتأملها. إن كل شيء إلى زوال وهذا العالم الهرم سيفنى كسابقيه من العوالم دون مشقة أو تعب.

ميـــــــــدوم

وبعد الخروج من منف بمدة قصيرة جهة مجرى النيل تقع عين الزائر على هرم عجيب، إنه هرم ميدوم والذى يدعوه العرب الهرم الكذاب أو الهرم الزائــف. ونحن نجهل أصله رغم قدمه الظاهر للعيون، ويقال إن سنفرو بناه، وهو من ملوك الأسرة الرابعة وهو سلف خوفو. وقد فتح هذا الهرم منذ أربعة أعوام بأمر الـسيد ماسبيرو، ولا يوجد به أى من الأغرض الجنائزية إلا أن به علامات واضحة تـدل على أنه نهب فى سالف الزمان، وقد تم العثور حوله على تمثالين مشهورين بجمال النحت يرجعان إلى خمسة آلاف عام، وهما موجودان بمتحف بولاق.

اللشـــــــت

وبالقرب من ميدوم تقع اللشت، التى زرتها فى يناير مــن عــام ١٨٨٦م. وبها هرمان متحاذيان من الشمال إلى الجنوب، ونادرًا جدًا مــا يزورهــا زائــر، ويرجع تاريخها إلى عصر الأسرة الثانية عشرة، وقد تم فتحها أيــضًا منــذ ثلاثــة أعوام بفضل الجهود العظيمة للسيد ماسبيرو. ويختص الهرم الجنوبى الذى تفقدتــه بأناة بميزتين؛ الأولى: أن بابه مسدود بمسلة تم إدخالها من قمتهــا فــى المــدخل، والثانية: أن المياه تغمر داخله وحتى نهاية الممر البالغ من الطول سبعين مترًا مما يجعل الدخول إلى غرفة الدفن الملكية شيئًا مستحيلاً. ويصعب علينا تخيل كيف بنى هذا الهرم فى تلك الظروف مع الأخذ فى الاعتبار الأفكار المصرية التــى كانــت تحبذ حفظ الجسم البشرى كى تكتب له الحياة فى عالم الخلود. وعلى ذلــك يمكننــا افتراض أن زلزال عام ٢٧ق.م، رفع مستوى مياه النيــل أو أهــبط ضــفتيه فــى محافظة الفيوم.

آثار المنيا – بنى حسن

وتوجد فى بنى حسن مقابر عظيمة للعديد من كبار الموظفين الذين عاشوا فى عصر الأسرة الثانية عشرة، والذين تشتهر مقابرهم بالثراء وإتقان الرسوم، والأهمية القصوى لنصوصها الهيروغليفية وحتى وقت قريب كانت تلك الكهوف هى الوحيدة المعروفة التى ترجع إلى ثمانية وعشرين قرنًا ق.م، وبذلك فهى تمثل حلقة الوصل الوحيدة التى تربط عصر الدولة القديمة بالعصر الطيبى. إن التفاصيل الكثيرة المرسومة على حوائط تلك المقابر لتكتسب أهمية كبرى فى رسم صور الحياة اليومية فى عصر أمنمحات المظلم. وهى أيضًا عبارة عن صفحة جميلة من الفن المصرى لأنها تكشف لنا أن عبقرية المصرى لم تتأثر سلبًا بخطوب الدهر المفجعة من الحروب الخارجية والصراعات الداخلية. وقد اشتهر عازف الهارب فى بنى حسن بسبب إتقانه العجيب ووضوح خطوطه.

وتستحق مقبرة قائد المشاة المدعو أمينى أمنمحات دراسة خاصة من بين هذه المقابر والذى ذهب لحرب قبائل الآبو والإثيوبيين، وقد كوفئ بمنصب حاكم "صاه" كما أجزل له الملك العطايا. وثمة قبر آخر لحاكم صاه أيضًا ويدعى خنوم حتب، والذى تعاقد عند بناء القبر مع الكهنة لحماية المقبرة وإقامة الصلوات والحفلات فى الأعياد الدينية والجنائزية أمام مقبرته. وقد وجد نص بهذا المعنى على حوائط المقبره يحكى هذا النص البالغ التشويق:

> "يقول خنوم حتب ابن نحرى إن الملك أمنمحات الثانى عيننى أميرًا فى العام التاسع عشر على بلدة منية خوفو. ومنذ ذلك الحين أردت أن أمجد اسم أبوى ببناء مقاصير لهما،

وحملت تمثاليهما إلى معبد البلدة، وقدمت لهم الخبز والحلوى والقرابين من الماء والبخور واللحم المقدس وبحثت عن كاهن الكا ومنحته الأراضى والخدم، وأعطيت أوامرى بتجهيز المؤن الجنائزية من الخبز والقرابين الأخرى التى تقدم فى أعياد الموتى، أى فى أعياد العام الجديد والعيد الكبير والصغير وعيد آخر العام وعيد العام الأكبر وعيد الحر الأعظم والأصغر وأعياد الأيام الخمسة الإضافية وعيدا لقاء الرمال وعيد الشهور الاثنا عشر وأعياد منتصف الشهر الاثنى عشر وكل أعياد الأحياء والموتى. وإذا نسى الكاهن أو أى شخص مسئول هذا مرة من المرات فليعدم وجوده فى الحال ولا يخلفه ابنه فى ذلك العمل".

تل العمارنة

ويعج النيل بالحركة فى هذه المنطقة. وتظهر فى مدينة الروضة المداخن الشاهقة لمعامل السكر الممتدة على شاطئيها والمشيدة على أراض كانت قديمًا أملاكًا خديوية. تختص المدينة بصناعة السكر ويخرج بانتظام من مينائها المطل على النهر المراكب المحملة به متجهة إلى القاهرة. وبالقرب منها نجد أطلال تل العمارنة وهى مدينة قديمة كانت عاصمة للإمبراطورية، وشهدت عصر ازدهار فى فترة من الفترات. وقد شيدت بناء على رغبة أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة، والذى غادر طيبة منذ ثلاثة آلاف وأربعمائة عام حاملاً أحلامه بإعادة تنظيم البلاد وفق مبادئ جديدة.

ويدعى هذا الملك حورو فى النصوص الإغريقية، ويسمى "نفر خبــرو رع" فى النصوص المصرية. وكان يريد القضاء على النفوذ المتزايد لكهنة آمــون فــى عاصمة الإمبراطورية عندما فرض عبادة إلهه وحده بالقوة. وكانت طائفــة كهنــة القداس والكهنة الأتباع تتطلع حينئذٍ إلى ما وصلت إليه فيما بعد وهو تكوين حكومة رجال دين تهيمن على السلطة الملكية وتمارس سلطتها باسم آمون الذى كان يعــده الشعب المصرى أصلاً للحكم، ولذلك فقد الملك حقوقه وامتيازاتــه واســتمتع بهــا الكهنة الذين تكفلوا بإدارة شئون البلاد.

لكن أمنحتب الرابع ثار ضد هذا النفوذ وطارد طائفة الكهنة فى عقر دارهم، بل إنه شرع فى إصلاح شامل لديانة البلاد. وقد أضحى جليًا أن المعتقدات الأصلية قد حُرِّفــت، وأن الإله الذى ثار أتباعه على السلطة الملكية لم يعد يوجه من عليائه مصائر البشر على الأرض. وأعلن فى البلاد أن آمون أصبح إلها عديم الفائدة بــل ومؤذيًا، وألغيت عبادته. وأصدر مرسومًا يستند إلى قوة الملك وعزيمته المطلقة فى إنفاذ ما يريد بأنه من الآن فصاعدًا سوف يُعبد قرص الــشمس فــى هيئتــه عنــد الغروب، إنه الإله آتون، وكانت لتلك الثورة الدينية نتائجها الخطيرة على طيبة التى فقدت أهميتها كعاصمة للبلاد.

أسس الملك مدينة جميلة أسماها "خون آتون" أو أفق قرص الشمس. ونقل إليهــا حاشيته وشيد المعابد والقصور وأمر بشق مقبرة له. وتلقَّى نفوذ أتباع آمــون ضــربة قاسية لم يفيقوا منها لعدة سنوات. ولكن بموت الملك بدأت أحقادهم فى إشعال الغــضب الشعبى وأشعلوا الثورات فى أنحاء البلاد. وزالت عن العرش تلك الأسرة التى شــملت التحامسة الفاتحين والمناتحة ضمن ملوكها العظام. وانقسمت الإمبراطورية إلى فصائل متنازعة لم يحفظ لنا التاريخ أسماءهم، لكنهم دخلوا صــراعًا دمويًــا عقيمًــا لفــرض سيطرتهم وولدت أسرة الرعامسة من رحم هذه الفوضى.

ولم يبق من تل العمارنة سوى القليل فى أيامنا هذه لأن العرب نبشوها حتى خربوا أطلالها. واكتشفت جبانتها سنة ١٨٨٥، وقد سجلت ملاحظات مهمة عليها. فنلاحظ وجود سلسلة من الحجرات الجنائزية المحفورة أسفل منها. وهى تنتمى إلى جماعة من العمال نحتوها بأنفسهم وزينوها من الخارج، لكنهم كانوا يزينون داخلها تبعًا لذوق أصحابها الذين سيدفنون بها. وتقع بلدة ملوى الصغيرة على الضفة اليسرى للنيل أعلى تل العمارنة. ولا يُلقى المسافرُ عادة لها بالاً، لكن لا يجب أن يحدث ذلك لنا خاصة إذا علِمنا أن جالية من الإسبان تستقر فيها، فقد هاجر جماعة من جزر الباليار ينتمون إلى بلدة مينوركا فى أوائل القرن الحالى، واحترفوا التجارة واعتادوا على ممارستها بين جزرنا وميناء الإسكندرية، وصعدوا فى النيل حتى استقروا فى ملوى حيث يملكون أملاكًا عظيمة، وهم يحتفظون هناك بجانب من روح الوطن. فأسماؤهم تدل على أصلهم مثل "فيفو، بونس، بيكو". اللغة القطالانية لغتهم اليومية والكتب المطبوعة فى مدريد وبرشلونة هى طريقهم للمعرفة. وهم مواطنون أخيار، فلم تمحُ الغربة من أذهانهم ذكريات الوطن، وهم أول من يعرض المساعدة لكل من أصابته خطوب الدهر فى بلادنا. تعرفت إلى بعض أفراد تلك العائلة الكبيرة وبدا لى ظرفهم من الوهلة الأولى. وكنت أود من كل قلبى قضاء بعض الأيام فى مزارعهم عند مرورى بملوى لأستقصى محاصيل الأرز والقطن والقصب الوفيرة التى يقومون بتصديرها إلى أوربا، لكنى لم أستطع بسبب المركب التى كانت تنتظرنى فى أسيوط لتقلّنى إلى صعيد مصر. وإنى نادم الآن أكثر لأننى لا أعتقد أنه من اليسير العودة إلى تلك المنطقة ثانية. وبالقرب من ملوى على الضفة الأخرى للنيل نجد كهوف المعابد الشهيرة والتى تكتظ بموميات التماسيح. كيف وُجِدَتْ هناك؟ من المحتمل أن تكون قرابين لإله النيل أو أنها كانت مخازن لتلك الحيوانات التى كانت ذات أهمية دينية، وكانت تُحنَّط عند موتها وتلف بضمادات كما لو كانت مومياوات بشرية.

منفلوط

وحيث إننا نتحدث عن التماسيح فمن المناسب أن نضيف؛ أننا لا نرى حاليًا تلك الحيوانات فى ماء النهر ولا على ضفافه الرملية. فقد اختفت مع ظهور المراكب البخارية وليس بسبب الصيد. ويحكى "لينانت" باشا أنه بعد فيضان عام١٨٢٧، رأى تمساحًا فى بركة الأزبكية أى فى قلب القاهرة. ويحكى لنا مارييت أنه فى كهوف أبو الفدا بالقرب من مغارات معابدها كان كثيرًا ما يرى التماسيح تتمدد على الصخور وتظهر للعيان كأنها جذوع أشجار. وكانت المنطقة الواقعة بين ملوى والشلال الأول تمتلئ بالتماسيح، وبرغم ذلك فإن المسافر الذى لا يعبر حدود النوبة لا يرى إلا تلك التماسيح المجففة المحشوة بالتبن التى يعلقها العرب على أبواب منازلهم لتجلب لهم الحظ السعيد. وعندما نصعد فى النهر نجد بلدة منفلوط التى تشتهر بنشاطها التجارى فى الجنوب والسكر على ضفافها. وتعد من البلدان الأصيلة فى مصر. فلم تشوهها بعد البدع الأوربية. تحتفظ بأسواقها الضيقة وشوارعها الملتوية ومبانيها التى تزينها المشربيات الخشبية ومآذنها المطلية باللون الأحمر والأبيض، وكل ما يميز المبانى العربية إجمالاً.

أسيوط

وأخيرًا نصل إلى أسيوط، المدينة التى تفصل صعيد مصر عن مصر السفلى، وهى تبعد حوالى ٤٠٠ كم عن القاهرة. وهى تعج بالحركة، أحياؤها بديعة غير أنها تتميز من داخلها بما يميز المدن العربية؛ أقصد الشوارع الضيقة الملتوية سيئة الرصف، وتمتد فى ضواحيها الأبنية الشاهقة والبيوت المريحة والحدائق الخضراء. ولا تنقصها الأماكن شديدة البهاء بفضل الأشجار المنتشرة هنا وهناك.

ولن تسترعى اهتمام المسافر بلدة أسيوط ذاتها لكن اهتمامه سيتجه إلـــى الفـــضاء المجاور الذى يسمونه "الجبل" وهو يمتلئ بالكهوف التى كانت مقـــابر للمـــصريين القدماء منذ عصر الدولة القديمة. ولقد زرت أكبرها التى تغطى جدرانها النقـــوش الهيروغليفية وهى شبه محطمة ولا يمكن قراءتها بسهولة. وهـــى تقـــع بمواجهـــة حوض يمتلئ بمياه النهر. وقد درج الأولون على تسميتها "إسطبل عنتر" وهو اســـم بطل بدوى فى قصص ألف ليلة وليلة. وتنتشر المومياوات والعظام وقطع القمـــاش والتوابيت فى أنحاء الجبل. وما يستحوذ الإعجاب حقيقة من أعلى الجبل هو منظر أسيوط حيث يمكن تأمل المدينة بمآذنها العديدة وسهولها الخـــضراء الممتـــدة إلـــى ضفاف النهر حتى تختلط بتخوم الشرق.

أخمـــــــــيم

وإلى الجنوب من أسيوط نجد أخميم. وهى قرية مصرية ذات أهميـــة قليلـــة تعيش على ما تنتجه أراضيها. ولم يكن لها ذكرٌ حتى نهاية عام ١٨٨٤، عندما تـــم اكتشاف جبانتها القديمة. وفى هذا المكان شيدت مدينة خمنيس التى أطلـــق عليهـــا الإغريق إسم بانوبوليس. ولاحظ ماسبيرو عندما تفقد القرى العربية الواقعة علـــى الضفة الشرقية للنيل ابتداء من عام ١٨٨١، أن كل البيوت كانـــت بهـــا أحـــواض للماشية عبارة عن توابيت من الحجر الأبيض بعضها مستطيل والبعض الآخر على هيئة بشرية. ويبدو أن هؤلاء القوم لم يعيروا هذه الآثار أهمية تذكر. وبمجـــرد أن يحتاجوا إلى حوض جديد يتجهون إلى الجبل مباشرة. وهم يجربون حظهم بـــالحفر واثقين أنهم سيجدون إحداها. وقد كلف رئيسُ متاحف مصر الريس "خليل ســـاخاز" الرجال بجس نبض الأراضى الواقعة أمام قرية الحواويش، وكان حدسه ممتـــازًا، ففى غضون أسبوعين كان قد فتح عشرين مقبرة تحتوى على أكثر مـــن ثمانمائـــة مومياء.

ولا تستحق أى مقابر قديمة لقب جبانة مثل التى بأخميم. فهى مدينة يعد سكانها بالآلاف، وما زالت تكتشف بها مقابر جديدة منذ خمسة أشهر دون أن ينتقص ذلك من عدد المومياوات الموجودة بها. وتمتلئ سلسلة الجبال الممتدة لثلاثة كيلومترات بالمومياوات والبقايا البشرية. وهى لا تقتصر على وجود الآبار وحجر الدفن التى نحتها المصريون القدماء، ولكنها تحتوى على فراغات وكهوف فى الجبل استخدمت أيضًا لدفن الموتى. وعادة ما تكون الآبار عميقة جدًا، يصل بعضها إلى خمسة عشر أو عشرين مترًا وهى مقسمة إلى طوابق تصل أحيانًا إلى ثمانية أو عشرة طوابق يحتوى كل منها على عشرة توابيت، وللوهلة الأولى تعتقد أن هذه القبور تخص عائلة واحدة، لكن الأسماء والألقاب وسلسلة النسب المكتوب على التوابيت تبين لنا أن الأسر كثيرة بعدد الموميات ويمكن أن تجد أجيالاً مختلفة من أسرة واحدة فى أجزاء متفرقة من الجبانة.

وتشبه الكهوف والمغارات المقابر الجماعية حيث تتكدس المومياوات الملفوفة بالقماش من الأرض وحتى السقف وكأنها كتل من الخشب. ووضعت الأجساد فوق الأكوام وعليها توابيت أو صناديق الكرتون ووضعت القرابين فى الفراغات التى بين الأجساد دون أدنى عناية، ومن بينها كراس بدون مسند ومساند الرأس والأحذية وصناديق العطور وأوانى القطرة. وكانت أوائل المومياوات المكتشفة بمواجهة قرية الحواويش تنتمى إلى العصر الإغريقى مما جعل ماسبيرو يعتقد أن كل الجبانة ترجع إلى ذلك العصر. ولكن مع تطور أبحاثه وجد مقابر أقدم حتى إنه عثر على واحدة من الأسرة الرابعة والعديد من مقابرالأسرة ١٨، وعلى بعض مقابر الملوك المغتصبين والتى نبشت فى العصور القديمة.

وإلى الجنوب من أخميم على طريق النيل نجد المعابد الضخمة التى شيدها ملوك طيبة. وبدءًا من هنا نادرًا ما نمر على مدينة أو نقف أمام أثر دون أن نجد أحد المعابد الفخمة التى شيدها إيمان المصرى وكأنه كان يريد تجسيد فكرة الخلود والعظمة الخاصتين بالآلهة بتشييد المعابد الحجرية.

وسنذكر هنا فى عجالة سبب وجود تلك المبانى الدينية الفخمة التى تمتلئ بها البلاد. فبالنسبة لشعب كالشعب المصرى القديم الذى كان ضَيّق الأفق أكثر منه متحضرًا فكان يستوعب الأفكار المادية فقط وببطء[1]، وبالتالى أصبح مناسبًا لعقليته تشييد معابد ضخمة لتمثل بضخامتها وفخامتها مقرًا للآلهة على الأرض. فكان للمبانى الدينية تأثير على الناس بضخامة أبعادها ولكن كان التأثير الأكبر نابعًا من الغموض الذى كان يصعب اختراقه لأن أبوابها الحصينة لم تكن لتفتح على مصراعيها أمام المصلين ولم يكن حتى يُسمح لشعاع الشمس بتبديد ظلمات قدس الأقداس الذى كان يُسمح برؤية معبوده السرى للكهنة المطلعين على كل أسرار المعبد وهم راكعون فقط. وكان المصلون يجتمعون فى الفناء الأمامى للمعبد كى يستشيروا العرّافين ويستمعوا إلى مواعظهم ويشتروا التمائم ويتزودوا بالطلاسم ولكنهم لم يتخطوا أبدًا أعتاب المقاصير التى كانت تحفظ بداخلها محاريب حجرية تحتوى على تماثيل للآلهة المعبودة بها.

وأول هذه المبانى التى نقابلها فى طريقنا هو معبد "أبيدوس" بالقرب من البلينا، وهو مكان مقدس، كان المصريون جميعهم يتوقون لأن يدفنوا فيه لأنهم كانوا يعتقدون بوجود قبر الإله ذى الوجه الخفى أوزيريس هناك. وخصص سيتى الأول معبدًا فخمًا لإله الموت هذا. وأضاف ابنه رمسيس صالات أخرى للأبنية الأولى وهى اليوم مهدمة بالكامل، فالأعمدة التى تقسمها يصل ارتفاعها بالكاد إلى متر ونصف المتر. واشترك فى هذا التخريب الكثيرون، بداية من البربر فى العصور القديمة الذين نفّثوا عن غضبهم بتحطيم المعبودات المصرية ووصولاً إلى الأثريين المحدثين الذين ينتزعون الأحجار المنقوشة لينقلوها إلى متاحف أوربا. أما معبد سيتى الأول فيوجد فى حالة أحسن ويتكون من سبع مقاصير مخصصة على

(١) حكم المؤلف على المصرى القديم بضيق الأفق يخلو من الدقة إذ أنه كان من أكثر شعوب الأرض إيمانًا بالغيب واليوم الآخر (المترجم).

ما يبدو لآلهة أخرى، وما زالت الصالات الصغيرة التى تحيط بها قائمة. وتوجد فى أحد ممرات هذا المعبد قائمة أبيدوس الشهيرة، وهى عبارة عن حجر شديد الأهمية تاريخيًا فيظهر فيها الملك وابنة سيزوستريس[1]، يتعبدون أمام ست، وسبعون ملكًا مصريًا كتبت أسماؤهم بترتيب تاريخى. وعلى المذبح الحجرى بإحدى الصالات يُرى الملك وهو يقدم القرابين إلى إله الموت. وكانت جبانة أبيدوس الأكثر ازدحامًا من بين جبانات مصر بسبب العقيدة الشعبية بأن الإله أوزيريس مدفون أيضًا بها، ولهذا السبب كانت الرغبة الدائمة لكل المتدينين أن يتمكنوا من الدفن بالقرب من الإله.

"بدأ رحلته صوب أبيدوس، فله مقبرة فى هذه الجبانة
وسوف يستريح بجانب رفات إله الموتى".

هكذا تقول النصوص الموجودة بمقابر مصر العليا والسفلى، ولكن هذا لا يعنى أن كل المصريين كانوا يدفنون بالفعل فى هذه المدينة المقدسة، ربما أكثرهم ثروه أو تقوى هم الذين كانوا يرتبون لذلك. ولكن غالبًا ما كان يحتوى الأثاث الجنائزى للمتوفى على قرابين من المراكب التى كان يتمكن بها من القيام بالرحلة من مقبرته أو يبعث بلوحة حجرية تمثله مدفونًا إلى جوار معبد أوزيريس بجبانة أبيدوس.

ولزيارة أبيدوس اعتاد المسافرون التوقف فى بلدة على الضفة اليسرى للنيل تكتسب فى أيامنا الحالية أهمية كبرى، وأقصد بها جرجا. غير أن الطريق التى تبدأ من هذه النقطة والمؤدية إلى المعبد المصرى القديم تبلغ عشرين كيلو مترًا، وهى صحراوية فى معظم أجزائها، ولذا فالقوافل الحديثة ترسوا فى البلينا التى تبعد عن أبيدوس نصف هذه المسافة فقط.

غير أن جرجا تستحق الزيارة فهى بلدة عربية شيقة للغاية. ولقد قضيت أربعة أو خمسة أيام بها فى صحبة بهيجة، ولأول مرة رأيت فيها العيد العربى

---

(١) يقصد به رمسيس الثانى (المترجم).

المسمى بعيد البارود، وفيه يطلق الفرسان نيران أسلحتهم تاركين العنان لجيادهم مرتدين عباءات خاصة.

وقبل الوصول إلى طيبة نجد بلدة قنا العربية ذات الشهرة الخاصة فى مصر الحديثة لكونها مقرًا للمحافظ، كما أنها مركز للحياة الرسمية فى هذه المنطقة من البلاد، وهى بلدة تقليدية مثل كل البلدان التى تقع على ضفتى النهر الكبير والتى لم تتأثر بالنفوذ الخارجى بطريقة مباشرة، لذا فما زالت تُرى فى شوارعها مبان ذات ذوق رفيع، وتعد من معالم هذه المدينة. ولا يتوقف الزائر الأوربى فى قنا أكثر من الوقت اللازم لنزوله من المركب والعبور إلى الضفة الأخرى للنيل، حيث يوجد معبد دندرة، وهو أحد أكثر المعابد المصرية احتفاظًا بحالته. وهو معبد حديث نسبيًا، فقد بدأ فى عصر بطليموس الحادى عشر الإسكندر، قبل ميلاد المسيح بمائة عام، ولم ينته بناؤه حتى عصر نيرون. وقد كرِّس لعبادة حتحور أو الإلهة أفروديت أو فينوس فى الكتابات الكلاسيكية، وطبقًا للديانة المصرية كانت تمثل الحب والجمال وكانت رمزًا للانسجام العام فى العالم أيضًا. ويلاحظ فى هذا المبنى العظيم أكثر من أى معبد آخر كم النقوش المحفورة على جدرانه. فهى تملأ جدران كل الصالات وكل الممرات، لكن هذه النقوش للأسف لا تمدنا بجديد، كأنها لم تأخذ فى الاعتبار التحول إلى الأفكار التى طورها الأفلاطونيون الجدد فى الإسكندرية. ويعد معبد دندرة آخر صحفات الفن المصرى. ولم يكن بناؤه قد انتهى عندما كان المسيح يعيش فى القدس.

الفصل الثالث والعشرون

الوصـــول إلى طيبـــة

وأخيرًا نصل إلى طيبة الشهيرة، التى سميت قديمًا "بر إمن" أو مدينة آمون، أما الإغريق فدعوها ديوسبوليس، وما زالت تحتفظ فى ربوعها بأكثر المبانى أهمية حتى الآن. ويرجع الفضل فى بنائها لملوك الدولة الوسطى. ونسمع عن مدينة طيبة للمرة الأولى فى التاريخ فى عصر الأسرة الحادية عشرة، حوالى ثلاثين قرنًا قبل الميلاد(١)، عندما اتخذت كعاصمة للمملكة. وسرعان ما زال سلطانها أمام غزو الملوك الرعاة الذين أخفوا بريق الحضارة المتألقة بفضل أبنـــاء "*أوزيرتاس*(٢)"، ولكن بعد تولى أحمس الأول ومن بعده الرعامسة حوالى عام ١٧٠٠ق.م. بدت المدينة الكبيرة كمسرح لكل تطور فى مصر، فحُوّلت إلى أجمل وأبهى عاصمة وملأتها المعابد التى عُبدت فيها الآلهة المهمة. كما دوّن الملوك العظام على جدران معابدها وصفًا لمعاركهم ونتائج انتصاراتهم. وبنيت طيبة بجانب نهر النيل الذى يشقها إلى نصفين كجميع المدن الكبيرة المشيدة فى القدم وكثير من المدن الحديثة، فعلى الضفة الشرقية توجد مدينة الأحياء ومعابد آمون وضاحية الكرنك ذات الصبغة الدينية. وعلى الضفة الغربية نجد حى مدينة هابو، والتماثيل الضخمة والمعابد الجنائزية والجبانات المختلفة.

تـــــاريخها

إن تاريخ طيبة يمكن أن يملأ صفحات كثيرة بالرغم من أننا سنقتصر على الآثار التى شيدت فى ربوعها. وأقدم تلك الآثار هى بعض الآبار والمقابر

---

(١) شغلت الأسرة الحادية عشرة الفترة من (٢٠٦٠ - ١٩٠٠ ق.م)- حكام مصر من الفراعنة حتى اليوم- ناصر الأنصارى- دار الشرق ١٩٨٧- ص٢٧ (المترجم).

(٢) يقصد به الملك سنوسرت الأول الذى كان يـــُقرأ اسمه قديمًا بهذه الطريقة (المترجم).

المحفورة إبان عصر الأسرتين، الحادية عشرة والثانية عشرة، فى الجبانة المعروفة اليوم باسم دراع أبو النجا. ونلاحظ أثر غزو الهكسوس فى طيبة أكثر منه فى أى مكان آخر، وذلك لانعدام الآثار التى تسمح لنا ملء هذه الصفحة الخالية من التاريخ المصرى. ولم يرد ذكر اسمهم فى أى من مبانى طيبة حتى هزيمتهم وطردهم.

ويبدأ عصر النهضة فى عصر الأسرة الثامنة عشرة وملوكها البناة العظام مثل المناتحة والتحامسة، والذين بدأ فى عصرهم تشييدُ المبانى الضخمة التى برغم كونها محطمة اليوم تقف شاهدًا لايمكن التشكيك فيه على حياة مترفة وحضارة عظيمة. وتوسع الرعامسة فى عاصمتهم المفضلة ببناء آثار لم تستطع يد الإنسان أن تبنى مثلها بعد ذلك فى ربوع الأرض، بل إنه يستحيل على أى مؤسسة بشرية فى ظروفنا الاجتماعية والسياسية الحالية أن تجمع هذا الكم من الحجارة وأن تضفى عليها هذا التعبير للفن الدينى الذى تميز بالحس المرهف على مر العصور.

تدهورهـــا ودمـــارها

وعندما فقدت طيبة أهميتها كعاصمة قبل عشرة قرون من ميلاد المسيح لم يزل الملوك المصريون يشيدون معابد جديدة داخل أسوارها ويوسّعون معابدها القديمة ويزينون شوارعها. فشيد ملوك الأسرة الثانية والعشرين وعاصمتهم "بوباسيتس" الفناء الكبير الذى يسبق معبد الكرنك، كما أمر الملك طهرقا بنقش اسمه على جدران نفس المعبد وعلى جدران مدينة هابو. كما شيد ملوك العصر الصاوى فى الأسرة السادسة والعشرين معابد مختلفة محطم جميعها الآن. كما ترك البطالمة بصماتهم فى طيبة ببناء معبد دير المدينة والصروح الضخمة فى الكرنك.

لكن أيام مجد طيبة كانت قد انتهت فى تلك العصور المتأخرة. وبموت إسرحادون[١] استولى ساردانوبالو[٢]، على المدينة وخربها. ورغم أن طيرقا أعاد بناءها ورممها فإن ذلك المحارب القادم من نينوى دخلها للمرة الثانية كفاتح. ولا توجد دلائل مادية على همجيته أكثر من الروايات التى ربما تكون بها مغالاة وتنسب هذا الدمار إلى قمبيز، ومن المحتمل أن هذا الملك نهب بعض مقابر باب الملوك، كما كان لجبانة طيبة خاصة حظًا وافرًا من التخريب. أما حصار بطلميوس لاثيرو وتخريبه للعاصمة طيبة فكان آخر الممارسات العنيفة عليها. ومنذ تلك اللحظة انتهى تاريخ طيبة. وكان تدهورها قد بدأ باستيلاء الكينة العظام للأسرة الحادية والعشرين عليها، وتم لها الانحطاط فى عهد المسيح، وحينئذ لم يرَ سترابون فى العاصمة العتيقة أكثر من بعض القرى التى تبرز من بين الأطلال.

معبـــــد آمــــــون

وسوف نمر مرور الكرام على الآثار الموجودة حاليًا فى طيبة القديمة. وسنبدأ بالضفة اليمنى أو بمدينة الأقصر. ولم يبق من البيوت البدائية التى كونت هذا الحى الآهل بالسكان - والذى يعد ميناء للمدينة - أى أثر، فلقد سويت أطلاله بالأرض كى تبنى عليها بلدة عربية بائسة، كانت حتى وقت قريب محطة يتوقف

---

(١) إسرحادون (٦٨١-٦٦٩ ق.م) ملك آشورى، حارب الملك طيرقا عام ٦٧١ ق.م، ولقب نفسه بحاكم مصر وقوش وعاد إلى بلده محملاً بالغنائم من مدن الدلتا. ولما ثار المصريون على أتباعه عاد بنفسه ليفرض سلطانه على البلاد لكنه مات فجأة فى ربيع عام ٦٦٩ق.م، وخلفه آشور بانيبال فى الحكم. (http://www.biographybase.com/biography/Esarhaddon.html) (المترجم).

(٢) ساردانوبالو (٦٦٨-٦٢٧ ق.م) ملك آشورى وهو يعد مزيجًا لشخصيات ملوك آشور المتأخرين من أمثال آشور بانيبال وسن شار أشكون.
(http://www.britannica.com/EBchecked/topic/524121/Sardanapalus) (المترجم).

بها الرحالة الذين أتوا لزيارة طيبة. ومعبدها المخصص لعبادة الإله آمون رع الذى يشغل مساحة تزيد على ٢ كيلومتر مربع، وكان يمتلئ بالأطلال حتى مستوى تيجان أعمدته والتى علقت عليها أبراج حمام البيوت الفقيرة للعرب المحدثين.

وأسس معبد آمون أمنحوتب الثالث الذى أمر بتشييد الجزء الجنوبى كاملاً حتى صالة الأعمدة الكبرى التى يمكن رؤيتها من النيل. وشيد رمسيس الثانى المسلتين القائمتين على باب المعبد وقد نزعت المسلة اليمنى وبعث بها إلى باريس. كما شيد صرح المدخل العظيم وصالة الأعمدة الصغيرة المتاخمة له. صحيح أنه توجد نقوش بأسماء بعض ملوك مصر فى أماكن عديدة مثل الإسكندر الثانى وتوت عنخ آمون وحور وأوسركن وبسماتيك، لكن هؤلاء الملوك لم يشيدوا أيًا من هذه الأجزاء فى المعبد، واقتصروا على تسجيل أسمائهم على جدران المعبد على هيئة قرابين مقدمة لآلهة المعبد أو ربما كتذكار لزيارتهم للمعبد. وطالما سبب معبد الأقصر خيبة أمل للرحالة الذين لم يستطيعوا زيارته كونه مكدسًا بالأطلال كما ذكرت والتى بنيت عليها قرية صغيرة.

التنقيب

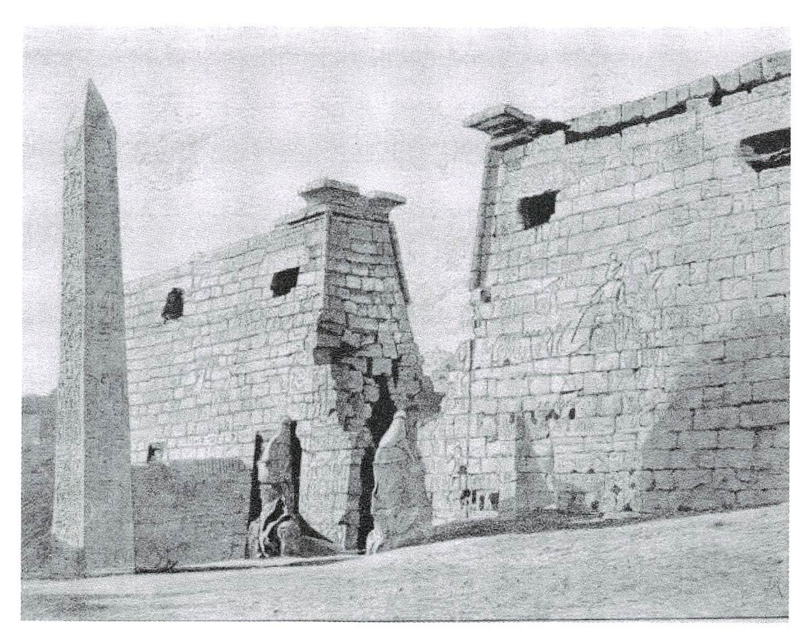
عندما عين السيد "جاستون ماسبيرو" أستاذ المصريات فى المدرسة الفرنسية مديرًا عامًا لمتاحف مصر عام ١٨٨١م، اقترح التنقيب فى هذه الأطلال ورفع البقايا للكشف عن الأعمدة والمبانى حتى الوصول لأرضية المعبد. كان هذا العمل مهمًا ومكلفًا ولكن عبقرية الأستاذ الشهير استطاعت التغلب على العقبات الكبرى. ولم يغادر مصر فى عام ١٨٨٦م، حتى رأى هذا العمل على وشك الانتهاء، وكانت أول عقبة واجهته هى إيجاد الأموال اللازمة لتوفير العمالة. وقد خصصت الحكومة المصرية لمدير المتحف مبلغًا سنويًا، قدره ستة آلاف جنيه مصرى، أى ما يعادل

٣٥٦ ألف بسيتا[١]، لتغطية كل الأعمال والاكتشافات والحفاظ على المتاحف والآثار وشراء الآثار. وهذا المبلغ غير كاف للصرف على الأغراض التى خصص من أجلها، ولم يفكر أحد ولو للحظة فى تخصيص جزء من هذا المبلغ للصرف على الأعمال فى الأقصر. واستطاع ماسبيرو أن يفتح باب الاكتتاب فى أوربا، يعاونه فى ذلك الكولونيل الإنجليزى المحب لمصر الذكى السيد سكوت مونت كويف، وبدأ الاكتتاب فى فرنسا فى جريدة الديبات، وفى إنجلترا جريدة التايمز وبدأوا بهذه الحصيلة أعمالاً مهمة جدًا بالنسبة لعلم المصريات. ولكن سرعان ما نشبت الصراعات، فقام سكان الأقصر على قلب رجل واحد ضد مشروع مدير الآثار متحدّين إياه أن يمس لبنة من بيوتهم. وفى البداية لم تُـجدِ معهم محاولة تعويض كلٍ منهم ببيت جديد فى مكان أفضل عوضًا عن بيته القديم، أو دفع تعويض مالى لهم إذا فضلوا ذلك. وأعلن سكان الأقصر أنهم يودون الموت حيث ولدوا، وأن عمّال المتحف سيمرون على أجسادهم قبل أن يدخلوا إلى البيوت. وكنت شاهدًا على مشاهد فريدة عندما زرت الأقصر. فذات مرة جاء لمقابلتنا بعض النساء البائسات وارتمين تحت أقدامنا يقبلن أحذيتنا ويستحلفننا باللـــه أن نتركين يَمْثُن فى بيوتهن. وفى مناسبات عديدة عجبنا لعناد بعض الجيران الذين كانوا قد تسلموا بيوتًا جديدة لكنهم يصرون على عدم مغادرة القديمة فقبعوا فيها ولم ينقلوا أثاثهم منها على الرغم من أن عمال المتحف كانوا قد أزالوا الأسقف وهدموا بعض الجدران. حتى الذين وافقوا على المقايضة طلبوا مقابل بيوتهم عشرة أمثال ما تساويه بالفعل، وطلب تاجر آثار– وهو عميل قنصلى لعديد من الدول الأوربية – اثنى عشر ألف شلن فى بيت يقدر بمائتى شلن فقط. وأصبح تدخل المدير أو محافظ قنا العسكرى أمرًا مهمًا للتغلب على شتى الصعاب التى تسببت فيها سوء نية سكان الأقصر الذين عارضوا إخلاء معبد كانوا قد سكنوه دون وجه حق.

---

(١) عملة إسبانية – المراجع.

لكن هذه السلطة اقتصرت على حل مسائل خاصة تاركين نزاعًا أكثر أهمية وأصعب فى الحل ما زال قائمًا، فعلى يسار المدخل الرئيسى للمعبد كان يوجد مسجد يشغل حيزًا كبيرًا من المكان ولا بد أنه موجود حتى الآن. فاحترام الدين يفرض اعتبارات كبيرة فى كل الشعوب الشرقية. لذلك لزم إجراء مفاوضات صعبة مع القائمين على المسجد حتى يتم نقله. وتعدى سوء النية من جانبهم كل وصف، فقد كان لزامًا علينا رشوتهم واحدًا تلو الآخر وتلبية كل طلباتهم، وبناء مسجد آخر على ضعف مساحة المسجد القديم. وكلما بدا أننا وصلنا لاتفاق فرضوا شروطًا جديدة كان من بينها أن تبنى مئذنتان بدلاً من واحدة كانت للمسجد القديم. وأخيرًا تغلب بأس ماسبيرو وصلابته على تلك الصعاب بوعدهم ألا يهدم المسجد القديم حتى يتم بناء وتشغيل المسجد الجديد. وثمة عقبات أكبر تمثلت فى نقل ضريح صغير دفن فيه أحد سكان المكان وهو مسلم عجوز مات وله سيط قداسة. وتمتلئ كل القرى الإسلامية بهذا النوع من الأضرحة ويعتبرون الأرض التى بنى عليها مقدسة، ولذلك فالدين يحميها. وليس من المُجدى محاولة هدم الجدران التى تحيط بهذه الأضرحة. وهى مهجورة دائمًا ويمكن تحقيق ذلك فقط عندما يرى أحدُ أعضاء أسرة المتوفى فى المنام الميتَ الذى يُـعْلمه بعدم ارتياحه فى مقبرته الحالية. وكان لزامًا علينا أن نبحث عن قريب لولى الأقصر هذا حتى نتفق معه على المبلغ اللازم لمثل هذه الرؤيا، وبالطبع لم يحدث ذلك إلا بعد مساومة كبيرة. وبذلك تمت إزالة البيوت الصغيرة التى كانت تتعدى على المعبد المصرى. وكانت عقبة إيجاد أى من سكان الأقصر للقيام بإزالة البيوت أو الحفر فى الأطلال. حينئذ تم اللجوء إلى البلدان المجاورة التى وافق سكانها مرحبين طمعًا فى الأجر الكبير، وتم تنظيم العمل معهم وبسرعة بدءًا بإظهار السور الجنوبى للمبنى وقد سهل قرب النيل من المكان العمل به، فقد حـُملت إليه الرمال والحطام من خارج المعبد وبفضل ذلك تم الوصول إلى المستوى الأصلى للجدران وفى وقت قصير.



معبد الأقصر

ويتكون معبد الأقصر من جزأين، الجزء الجنوبى وهو الأقدم يضم مجموعة مبان وفناء تحيطه الأعمدة الطويلة المستديرة التى بناها أمنحتب وقد بدأ العمل بإزالة كل البيوت العربية الحديثة، وتم الكشف عن المبنى القديم وهو فى حالة جيدة رغم التخريب الذى تعرض له فى عصور مختلفة. وعلى إحدى صالاته نجد رسومًا جدارية لمذبح المسيح من الواضح أنه تم نقشها بواسطة مسيحيى طيبة فى القرنين الخامس أو السادس بعد الميلاد.

اكتشاف تمثال سيزوستريس

ويرجع تاريخ آخر مرة كنت فيها فى الأقصر إلى مارس من العام الماضى. وكانت الحفائر قد بدأت حينئذٍ فى الجانب الشمالى حيث توجد مسلة واقفة وهى

أخت المسلة الأخرى التى حُمِلت لباريس، وقد عثر بجانبها على أربعة تماثيل ضخمة مكسورة الرأس، وكشف عن قواعد برجى المدخل التى نقشت على جدرانها الفسيحة قصيدة شهيرة يمدح فيها "بنتا أور" الانتصارات التى حققها رمسيس فى حروبة خارج البلاد. وداخل المكان الذى تحيط به الأبراج وجد المنقبون أعمدة معبد آخر شيده نفس الملك وبعض التماثيل التى حُطِّمَت بوحشية، وأخيرًا تمثالاً ملكيًا نجا بأعجوبة من كيد المدمرين للمعبد، وقد وُجِد سليمًا واقفًا ما بين الأعمدة التى كان قد أقيم بينها، ويظهر على ملامحه ذلك الهدوء الذى استطاع النحاتون المصريون فقط أن يصبغوا تماثيلهم به.

وقد عوض هذا الاكتشاف كل الأعمال والمصاعب والمعاناة التى سبقت الشعور بالرضا عند رؤية معبد الأقصر يظهر مرة أخرى إلى الوجود. والتمثال مصنوع من جرانيت أسوان الوردى الذى كان يقطعه المصريون من الشلال الأول عند الفنتين، وهو يمثل رمسيس الذى نقش اسمه الملكى على الحزام يلف خصره ويمسك بتنورة المُلك. أما باقى الجسم فعار وكذلك الساقين والقدمين. وبجانب ساقه اليسرى نرى صورة لامرأة ربما كانت زوجته، ويصل رأسُها إلى مستوى خصره فقط. ويبلغ طول التمثال ١٦ قدمًا إنجليزيًا، وهو منحوت مع القاعدة التى تبلغ من ٢ إلى ٣ أقدام من حجر واحد، وقد كُسر فقط تاج مصر العليا الملكى المصنوع أيضا من الجرانيت من فوق الرأس، وهو ملقى على الأرض.

أما أكثر آثار المعبد أهمية فهو برج المدخل الذى نقش على جدرانه نص القصيدة الشهيرة التى كتبها "*بنتا أور*" مادحًا مآثر رمسيس الثانى فى لحظة حرجة من غزوه لفينيقيا. وقد أجبره التآمر من جانب الأمراء الآسيويين فى العام الخامس من حكمه على حمل السلاح ليصد الغزو الذى يهدد حدود مملكته. ودعا ملك الحيثيين المدعو "خيتى سار" شعبه وحلفاءه وأعلن الحرب على مصر. وانضم للمؤامرة نهارين وعاصمتها جرجاميش وآراد وفينيقيا الجنوبية وكودسو وبلاد أماو

وكيدى ومجموعة الليثيين. ودفع الأمل بنهب ثروات مصر أو على الاقل أقاليميا فى سوريا شعوب إليون وبيداسوس وجرجس والميثيين والدردانيين إلى الانضمام للحيثيين ضد رمسيس، وترى جماعات من الطروادين يجولون شبه الجزيرة بطولها كى يعسكروا فى وادى نهر العاصى على بعد ثلاثمائة فرسخ من وطنهم. وتقدم رمسيس بجيشه حتى ضفاف نهر العاصى حيث انفصل عن معظم جيشه واتجه إلى جنوب مدينة قادش التى اعتقد أنها مهجورة. وفجأة برز الثوار من كل حدب وصوب. وفنى الفيلق المصرى بقيادة بهرا، ووجد الملك العظيم نفسه وحيدًا وحربته فى يده فى وسط أعدائه. ولنترك الشاعر يتحدث:

يروى بنتا أور:

"حينئذ يهب جلالته كالإله منتو ويحمل درعه الحربى ويشق بعجلته الحربية صفوف جيش خيتى اللئيم، وهو وحيد لا يصحبه أحد. وقد حارب جلالته فى المعركة أمام ذويه. ووجد نفسه محاطًا بألف وخمسمائة عربة قتال، وتسارع إليه أكثر المحاربين خفة من أعوان الخسيس خيتى ومن الشعوب التى تناصره. وتحمل كل عربة ثلاثة من الأعداء، ولم يكن الأمراء مع الملك ولا كان قواد الجيش ولا قادة الرماة أو العجلات معه".

كان الخطر عظيمًا. إن الملك سيفنى إذا تخلت الآلهة عنه كما فعل جيشه معه. ويطلب الشاعر هنا العون من السماء ويحكى على لسان رمسيس الدعاء التالى:

"لقد هجرنى الرماة والفرسان، لا أرى هنا أحدهم كى يحارب فى معيتى. ترى ما هى نوايا أبى آمون؟ هل هو ذاك الأب الذى يتخلى عن ولده؟ ألم أتبع كلمتك يا أبى؟ ألم يرشدنى

فوك خلال حملاتى، ألم توجهنى نصائحك فى تصرفاتى؟ ألم أقم الاحتفالات البهيجة مرارًا من أجلك، وأملأ معبدك بالغنائم التى حصّلتها من الأعداء؟ إن العالم أجمع يجتمع كى يقدم لك القرابين. لقد وسعتُ نفوذك وضحيتُ لك بثلاثين ألف ثور مع كل الأعشاب ذات الرائحة الطيبة وأزكى العطور. لقد بنيت لك معابد من كتل الأحجار، وزرعت من أجلك أشجار الخلد. قطعتُ المسلات من الفنيتين، وبأمرى أقيمت معابد من الحجر الخالد. وأبحرتُ السفن على صفحات البحر كى تنقل لك غنائم الشعوب. إنى أدعوك يا أبتى، إنى أرانى وحيدًا أمامك لا يصحبنى أحد من رماتى، وفرسانى لم يلبوا النداء ولم ينجدونى إذ استنجدتهم. لكنك عندى خيرًا من ألف رامٍ ومن آلاف الفرسان ومن آلاف الأبطال من الشباب حتى لو اجتمعوا كافة"

إن دعاء بلغ من الفصاحة هذا الحد لا بد وأن يستجيبَ له إلهُ طيبة. ويبادر الشاعر إلى إشراكه فى المشهد، ناظمًا على لسانه الكلمات التالية:

"أى رمسيس، إن صدى صلواتك قد سُمِع فى إرمونتيس، إنى بجوارك، إنى أبوك الشمس. إن يدى بيدك وهى تساوى آلاف الرجال يجمعهم جيش واحد. إن الألفين وخمسمائة عربة سوف أقطعُها إربًا، سوف ألقى الوهن فى قلوب أعدائك التى فى صدورهم، لن يعرفوا كيف يرمون بسهم ولن يقووا على الإمساك برمح. سوف ألقى بهم فى الماء كى تأكلهم التماسيح، وسوف. يقعون بعضهم على بعض وسوف يقتل بعضُهم بعضًا. لن يقدر أحدُهم على النظر خلفه. ومن يقع منهم فلن تقوم له قائمة".

ويشن رمسيس بعربته الحربية هجومًا على الأعداء، ويقطع صفوفهم ست مرات متتالية مسببًا بها خسائر فادحة، وتم له النصر. ويصل الجيش المصرى ليلاً:

"وجدت القوات المنطقة التى يمشون عليها مغطاة بالجثث التى تسبح فى دمائها. ولم يوجد موطئ لقدم لأن الأموات كانوا يملأون الأرض عن آخرها".

وأحاط قواد رمسيس بمليكهم كى يهنئوه على انتصاره، يقولون له:

"أيها المحارب العظيم ذو القلب الشجاع، لقد فعلت ما وجب فعله على الرماة والفرسان. يا ابن الإله توم، يا من خُلقت من جسدة، لقد محوت بسيفك ذكر الحيثيين من على وجه الأرض. إنك أنت المحارب العظيم سيد القوة، لا يوجد ملك يشبهك فى إرادتك حيث قمت بعمل جنودك جميعهم يوم المعركة. كنت أنت الملك ذو القلب الكبير، كنت فى المواجهة حين المعركة أشجع من فى جيشك الذى أدهش العالم".

وبعد أن شكر رمسيس هذا التملق، أخذ يوبخ أتباعه بعنف بسبب الخطأ الذى ارتكبوه عندما تركوه وحيدًا وسط أعدائه، فهو يرد عليهم كما يلى:

"إن أحدًا منكم لم يتصرف بكياسة عندما تركتمونى وحيدًا بين الأعداء. إن الأمراء والقواد لم يضعوا أيديهم فى يدى. لقد حاربت، وقاومت الآلاف وأنا وحيد، إن الجوادين اللذين حملانى كانا سلطان طيبة والرضاء الأعلى، وعليهما اعتمد ساعداى عندما وجدت نفسى بين الأعداء".

ويستمر الشاعر فى سرد مآثر الملك، ومن ذلك:

"وفى اليوم التالى عندما ملأ الأرض الضياءُ، بدأ رمسيس المعركة مندفعًا إلى القتال كالثور الذى ينقضُ على قطيع من الغزلان. واندفع الشجعان بدورهم فى المعركة كالنسور تهاجم حمامات. كما قاتل الأسد العظيم الذى كان بجوار خيول الملك، فقد بلغ الغيظ حلقومه وكان يلتهم كل من يقترب منهم فى الحال. وكان الملك يحطمهم قبل أن يستطيع أحدُهم الفرار. وكانت الأشلاء الدامية من أجسادهم تشكل أكوامًا على الأرض أمام العربة الملكية".

وتوجد هذه القصيدة نفسها "*لبنتا أور*" على جدران معبد الرمسيوم المجاور وفى أبى سمبل وعلى أحد صروح معبد الكرنك الذى سوف نزوره فى الحال.

الكـــــــرنك

والكرنك ليس مجرد معبد، بل إننا يمكننا وصفه بأنه مدينة مقدسة تحفظ جنباتها معابد شيدت لآلهة السماء بفضل تديُّن الملوك المصريين. وهو يبعد مسافة كيلو مترين عن الأقصر، وهو اليوم عبارة عن حقول خصيبة أو فلاة مهجورة. والأراضى التى كانت تشغلها شوارع العاصمة طيبة فى عصر الأسرات الوطنية العظيمة.

وأول ما يسترعى انتباه الزائر الذى يطأ أعتاب الكرنك هى حالة التدهور التى عليها آثاره الهامة. فالأحجار تتراكم فى فوضى غريبة، وصروحه مهدمة وصالاته محطمة وكذلك تماثيله الجرانيتية الضخمة. وجدرانه مقلوبة ومشققة، وتماثيل الآلهة محطمة. هل يمكن أن يكون الغضب البشرى هو الذى تسبب فى كل

هذا الحطام؟ والإجابة هى لا. فنحن نعرف جيدًا أن مئات الغزوات قصدت الكرنك، وأن كل الغزاة استولوا على هذه المدينة كى يملأوا عرباتهم بالغنائم ويصبون جامّ غضبهم على الجدران، إن الحروب الأهلية جلبت له فترات من الحصار بفصولها المرعبة التى لا تنتهى. لكن مبانيه بالغة القوة وجدرانه الحصينة وأسواره المنيعة لم يكن ليحطمها بالشكل التى هى عليه اليوم سوى إحدى الظواهر الطبيعية.

ويرجع هدم معبد الكرنك إلى سببين لا ثالث لهما. أول هذه الأسباب وأهمها هو الزلزال الفظيع الذى ضرب كل أراضى الشرق عام ٢٧ قبل الميلاد. ولقد ترك لنا "يوسيبو" روايته عن الأضرار التى خلفها هذا الحادث الجيولوجى المشئوم الذى تسبب فى دمار بابيلونيا ونينوى وبالميرا والكرنك وتمثالى ممنون. وثمة سبب آخر لتدمير الكرنك وهو حالة الأرض السيئة التى بنيت عليها هذه المعابد. فقد غطت المياه الجوفية للنيل أساسات المعبد وتسببت المياه المشبعة بالنطرون فى تآكل الكتل المقطوعة من الحجر الجيرى حتى أتلفتها. ولم تلبث المبانى المعلقة فوق أرض غير ثابتة أن فقدت توازنها وانهارت إلى أطلال متناثرة.



معبد الكرنك

إن ثمانية أيام من الإقامة فى الكرنك ليست كافية لأكثر الزوار نشاطا كى يرى كل الآثار التى تضمها جدرانه. فقد قضيت أسبوعين بين تلك الأطلال استطعت بالكاد أن أتبيَّن هيئته وأصله والغرض منه، ورغم ذلك لا أستطيع أن أكتب وصفًا له فى هذه الصفحات القلائل. فلا يمكن استيعاب الكرنك إلا بزيارته. إن الأوصاف والصور والمناظر والكروكيات والرسوم البيانية ليست كافية لإعطاء فكرة كافية عن عظمته.

وسوف نرى من الكرنك بعض التفاصيل، تلك التى تجذب الأنظار أو الأكثر أهمية من الناحية التاريخية. والدخول إليه يكون عبر طريق واسعة تصله مباشرة بالنيل، وفى طرفه الشمالى يرتفع حصنان يؤديان إلى معبد آمون الذى شيد فى عصر أمنحتب الثالث. ومن هذا المعبد بقى فقط المكان الذى بنى عليه، وعلى الرغم من أنه تم ترميمه فى عصر البطالمة بطريقة مناسبة فإنه عانى كثيرًا فى عصور لاحقة، ولا تبلغ جدرانه الحالية مترًا من الارتفاع.

ويجذب انتباهنا عند الدخول مباشرة إلى مجموعة معابد الكرنك الوسطى معبد سيتى الكبير، وهذا الأثر الدينى يذهل الزائر الذى يتأمله نظرًا لحجمه الهائل، فيوجد فيه صالة الأعمدة الشهيرة التى وصفها كل الرحالة. ويبلغ قطره عند المحور الرئيسى ٨٠٨ أمتار، ويبلغ المبنى الرئيسى المستطيل الشكل ٣٦٦ مترًا طولاً و١٠٦ أمتار عرضًا. وكان سقفها مغطى بالأحجار الضخمة التى تتكئ على ٢٣٤ عامودًا هى أكبر ما شُيِّد من الأعمدة فى مصر. بنى رمسيس الثانى منها ١٥٦ عامودًا كما أمر بنحت ونقش كل جدران المعبد تاركًا فى الجانب الشمالى وصفًا لانتصاراته يحكيها "بنتا أور".

وفى الحائط الجنوبى للصالة نقشت لوحة شيقة تصف الحملات التى قام بها أول ملوك الأسرة الثانية والعشرين شاشانق على فلسطين. وعلى اليمين يُـرى الملك يقطع رأس مجموعة من الأسرى الراكعين أمامه، وفى مواجهته يُرى الإله

آمون وإلهة طيبة ممثلة على شكل امرأة وهما يقابلان الملك يحملان إليه ١٥٠ مدينة كان قد فتحها فى آسيا ممثلة على شكل رؤوس للأسرى. وعلى جدار آخر وصف لحملات سيتى والد رمسيس وهى للأسف فى حالة سيئة. ونرى فيها وصفا للحروب التى قام بها الفاتح المصرى العظيم ضد الأرمن وعرب الصحراء والأشوريين والحيثيين التى أسعده الحظ بالنصر المبين فيها جميعًا. وعلاوة على أهمية هذه اللوحة التاريخية الكبرى والتى لا تشرح فقط الأعمال الشخصية لهؤلاء الزعماء المشهورين لكنها أيضا توضح توزيع السلالات القديمة التى سكنت آسيا الصغرى وهجراتها وممالك أعالى النيل لذا فإنها تعتبر فى وجهة نظرى ذات أهمية قصوى خاصة الحائط الصغير المحفوظ داخل هذه الصالة لاحتوائه على مثال واضح للأفكار البشرية المتحضرة التى كانت تُفرض بالقوة الجبرية على البربر كمواد لقانون الغزو، وأقصد بذلك معاهدة السلام التى وقعت بين رمسيس وملك الحيثيين فى أعقاب موقعة قادش التى وصفها "بنتا أور". تلك الأحجار غير المكتملة التى نراها هى الوثيقة الحقيقية والأصلية للمعاهدة التى وقعت وتشتمل على امتيازات لكلا الطرفين وأيضًا للحرب المدمرة التى دارت على مر سنوات كثيرة. والمعاهدة ترسى مبادئ السلام الدائم والصداقة بين الشعبين وتضيف:

> **"إذا ثار العدو ضد البلاد الخاضعة لسلطان ملك مصر العظيم فله أن يأمر أمير الحيثيين العظيم أن يأتى ليقود القوات ضده. وسيقوم أمير الحيثيين العظيم بما يأمر به ملك مصر العظيم ويقضى على أعدائه. وإذا لم يرُد أمير الحيثيين المبجل أن يأتى شخصيًا فعليه أن يبعث الرماة والعربات الحربية الخاصة به إلى ملك مصر العظيم كى يدحر أعداءه".**

وتؤكد مادة شبيهة للحيثيين الإجراءات التى يقوم بها الجيش المصرى إذا تعرضت أراضيهم للعدوان. ثم تأتى المواد الخاصة بحماية التجارة والصناعة لكلا البلدين الحليفين ولتحقيق العدالة.

كل مجرم يلجأ إلى البلد الآخر يُسَلَّـم لسلطات بلده، كما يسلم الهاربون من غير المجرمين ومن أجبروا على ترك بيوتهم والعمال الذين يهربون من البلاد إلى بلادهم، لكنهم لا يخضعون لأى عقاب

يطرد كذلك فلا يعاقب على خطئه ولا يهدم بيته ولا يؤذى فى زوجة ولا أولاده ولا تقتل أمه ولا يضرب على عينه ولا على فمه ولا على رجليه ولا تقام ضده أى دعوة إجرامية".

وكما نرى فإن المعاهدة متقنة، فالمساواة والمعاملة بالمثل مكفولة لكلا الشعبين، والتحالف موجود فى الدفاع وفى الهجوم وتسليم المجرمين والهاربين. تلك هى المبادئ والشروط الأساسية لهذه المعاهدة التى تعد أقدم أثر فى علوم الدبلوماسية.

وتتوالى المعابد والأعمدة والمسلات دون نظام مما يستحيل معه الوصف. ونرى فى بعض الأجزاء بقايا جديرة بالمشاهدة مثل صرح البطالمة وهو ذو شكل جميل ونحت بديع ويعرف باسم قوس كليوباترا، وفى الركن الجنوبى من الكرنك بجانب البحيرة البديعة التى خصصت للطقوس الدينية قديمًا نرى معبد موت أو سخمت تملؤه الحشائش وهو مهدم أكثر من المعابد السابقة. ولم يبق فى المكان سوى ٦٠ تمثالاً يمثلون الإلهة موت. وهى كل ما بقى من ٥٠٠ تمثال كانت تزين المكان، وتمثل مُوت على شكل لبؤة تحمل قرص الشمس جالسة على العرش ويداها فوق رجليها، وصنعت كل التماثيل من الجرانيت الأسود ويبدو أن نفس الفنان هو الذى صنعها جميعًا بسبب التطابق الشديد بينها.

فى عصر سنوسرت الأول من الأسرة الثانية عشرة بدأ بناء معابد الكرنك وانتهى فى عصر آخر البطالمة الذين حكموا مصر. وبهذا فإن تلك المعابد تمثل ٢٨٠٠ عام من تاريخ البلاد، وهذه المعلومة أكثر من غيرها تعطينا فكرة عن أهميتها.

الفصل الرابع والعشرون

الضفة الشمالية للنيل فى طيبة

ويمكن الوصول إلى مخيمات البدو العربية بالأقصر عن طريق البواخر التى تذهب إلى طيبة بمحاذاة شاطئ النيل الشرقى، ومن يود العبور إلى الضفة الغربية لا يجد أمامه سوى استخدام وسائل النقل القليلة المعدة لعبور النيل، وعادة ما تكون مراكب عربية سيئة الإعداد تسير عكس التيار فتتأخر أكثر من نصف ساعة للعبور إلى الضفة الأخرى.

ولا توجد مراسٍ هنا تمامًا كالضفة الشرقية، وتمتد أكوام الرمل على النهر عندما يهبط مستواه، لذا ترسوا المراكب قبل ثلاثين أو أربعين مترًا من البر، ويضطر الزائر إلى أن يصل إلى البر فوق أكتاف أحد البحارة. ثم تظهر للعيان أرض رملية جدبة يغطيها النيل بمياهه خلال الصيف، ولا بد من المشى فوقها لمسافة نصف ساعة أخرى حتى نصل إلى السهول الطبيعية الخصبة المتاخمة للصحراء الليبية. وهنا يتغير المنظر كليًا. فالحقول ليست متشابهة مثل البلاد الأخرى، والأشجار الكثيفة التى تنمو على حواف القنوات تفصلها عن بعضها البعض. وتبدو الحقول جميلة وبهية على عكس سكانها والقرى التى يسكنونها.

وفى وسط السهل الأخضر الخصب، وبجانب إحدى ترع النيل التى تجف فيه المياه خلال نصف العام بنيت أكواخ بائسة لإحدى قبائل الفلاحين. ولا يوجد أغرب من قرية عربية من قرى صعيد مصر. تبدو بيوتها على البعد كأنها أبراج حمام وهى بالفعل كذلك، فدائما ما تعلو أسقفها أشكالا مخروطية من الطين تمتلئ بالفتحات التى يعيش بها الحمام البرى.

وحجرات أولئك العمال البؤساء مصنوعة من الطوب اللبن، وهى مستوية وصغيرة ومربعة ذات جدران عريضة تقى حر الصيف، لكنها قذرة ومقززة أكثر مما تتخيل. ولا تصدق أن الحياة البشرية يمكن أن تستقيم فى هذه البيئة النتنة دائمًا، غير أننى رأيت كبار السن الذين من المؤكد أنهم لم يستخدموا قط مياهًا أخرى غير تلك الضرورية لشربهم. أما المسلمون المتاخمون للصحراء فهم يتيمَّمون بالرمال يوميًا قبل بداية صلواتهم كما أمر نبيهم.

دوار عبد القرنة

وثمة مخيم آخر ليس للفلاحين إنما للبدو ناحية الغرب، هو نجع شيخ عبد القرنة. وسكانه ممن يعملون بالرعى، ويسرقون أحيانًا، وينقبون عن الآثار عندما يتمون بيع مواشيهم فى الأسواق، وليس لهم عمل ولا يحتاجون للمال. وفى المرة الأخيرة ذهب بعضهم مزودين بالفئوس والقفف إلى المقابر المصرية القريبة، وفتحوا ونهبوا ونبشوا الأطلال أكثر من أى وقت مضى بحثًا عن تماثيل صغيرة أو تماثيل منسية. وأحيانًا قد يجدون أشياء، ولكل شىء صغير يعثرون عليه سريعًا ما يجدون له مشتريًا من بين الرحالة الذين يجوبون النيل.

تمثـــالا ممنون

وبعد السهول الطبيعية وعند التقائها بالصحراء نجد التمثالين اللذين أسماهما الإغريق تمثالى ممنون، وهما تصوير لملك مصرى، وقد وضعا لتزيين مدخل قصره[١]. وهما عبارة عن حجرين كبيرين يبلغ ارتفاعهما عشرين مترًا، وقد أبدعتهما أيدى المثَّالين فى هيئة بشرية، وكلاهما يمثل الملك أمنحتب الثالث جالسًا

---

(١) كان التمثالان منصوبين أمام المعبد الجنائزى لأمنحتب الثالث وليس قصره (المترجم).

على عرشه الذى يزينه البردى واللوتس، وينظر وجاهيما الوديعان ناحية الشرق، وتتكئ الأيدى على الأرجل، ونحت تمثالا أمه وزوجته تحت الكرسى فى نفس الحجر ولكن بحجم أقل. ونقشت أعمدة طويلة من الكتابات الهيروغليفية على الجانبين وفى الخلف، وهى تحكى عن عظمة هذا الملك سيد الأرضين اللتين يرويهما النيل.

وكان أمنحتب يعيش فى حوالى ١٥٠٠ ق.م، عندما كانت الأسر الوثنية تملأ البلاد بالأمجاد. وكان عظيمًا فى الحرب، فقاد جيوشه المنتصرة حتى حدود السودان ولم يكن أقل عظمة فى السلام، فقد شيد معابد الأقصر والكرنك العظيمة من أجل الآلهة.

وعلى الضفة الغربية للنيل شيد قصرًا مخصصًا لإقامته وربما كان معبدًا ينوى الملك أن يسكنه مع الإلهة، فكان يذهب إليه أمنحتب لدراسة خططه الحربية، وربما رسم فيه تخطيط الأبنية الضخمة التى ارتبطت باسمه. ويرجع هدم هذا القصر إلى عصور قديمة. بعضهم يرجعه إلى قمبيز وآخرون إلى بطلميوس لاتيروس. وربما يرجع إلى غارات الجنوبيين. فحدود النوبة لا تبعد كثيرًا عن طيبة. ولا بد أن كنوز العاصمة المصرية كانت تثير كثيرًا أطماع البليميين المتوحشين الذين كانوا يعيشون وراء الشلالات. ولكن التمثالين نجيا من هذا التخريب. وهما أقرب ما يكون لحالتهم الأصلية لأنهما دُمِّرا جزئيًا، وإذا كنا نراهما الآن بعيدين عن حالتهما الأصلية فإن ذلك يرجع أساسًا إلى الزلزال الشهير الذى وقع عام ٢٧م.

وبعد ذلك جرت تغيرات كبيرة على الأراضى المصرية. فقد رأينا كيف أن روما جاءت إلى هنا بأسلحتها. وثمة لغة غريبة كانت تستخدم فى أنحاء البلاد، ثم اندثرت الكتابة القديمة المقدسة وأضيفت إلى المعتقدات القديمة عناصر ذات أصول غريبة مما أفقدها طبيعتها بالكامل.

وبينما كانت مصر تصدر آلهتها للغرب من ناحية، كانت تستقبل من ناحية أخرى المعتقدات الجديدة التى حاولت هباء الحضارة الإغريقية فرضها على البلاد. وفى القرن الأول من الغزو عندما بدأ الولاة الرومان تفقد سهول النيل أذهلتهم رؤية الآثار المصرية العظيمة، ورأوا عظمة الديانة والمعتقدات الثابتة التى لم تكن المسيحية قد أضعفتها بعد، فصدروا الآلهة إيزيس إلى روما حيث شيدت لها معابد ومقاصير.

وفى مواجهة طيبة ذهل الغزاة من ظاهرة غريبة نسبوها حينئذٍ إلى معجزة. فقد كان أحد تمثالى أمنحتب المكسورى الرأس وهو التمثال الأيمن والذى كان قد حطم طرفه يصدر أنينًا خفيفًا شجيًا كصوت اليـــارْبْ.

وكان ذلك التمثال منزوع الرأس ويتجه إلى الشرق فيبدو كأنه يحيى ظهور نجم النهار، وكان هذا كافيا كى يعتقد الرومان الذين كانوا يحكمون البلاد والإغريق الذين دائمًا ما صاحبوهم أن هذا التمثال كان للإله ممنون ابن إلهة الفجر التى كانت تسهر من أجل جلب الحظ السعيد للبلاد.

وفى عصر الإمبراطور "نيرون" بدأت ملاحظة الظاهرة التى تحدث كل صباح للتمثال، ومنذ ذلك الحين بدأت وفود من المؤمنين فى عبور سهول طيبة كل مساء لمشاهدة المعجزة فى الصباح التالي. ولذلك السبب فقد سجدوا أمام هذا المعبود جميعهم من الحاكم الرومانى حتى آخر الجنود الرومان، وسجلوا حَجَـــهم بنقش أسمائهم على قاعدة التمثال وعلى أرجل ممنون ذاته. وهذه الجرافيتى[(١)] كثيرة ويمكن رؤيتها بوضوح للآن وهى مكتوبة باليونانية واللاتينية. وبعضها عبارة عن أشعار قصيرة مليئة بالأحاسيس. وتدهشنا قراءة تلك السطور التى نقشها سن سكين على الحجر فى يد المؤمنين بعقيدة اندثرت، ولم تبق منهم ذكرى سوى النقوش التى يغطيها التراب وتحرقها أشعة الشمس، والتى هجرها الجميع فى السهل الفسيح.

---

(١) كتابات تذكارية كتبها السياح القدامى لتسجيل زيارتهم للمكان (المترجم).

ويعد الكثير من تلك الكتابات مشوقًا، فقد كتب يونانى متزوج من رومانية وهو موظف عام السطور التالية:

"إن فوبيسولانو تشاريسيو مخطط أرمنت ولاتو بوليس[1] تصحبه امرأته فولفيا قد سمعك يا ممنون وأنت تطلق صوتك المتناسق فى اللحظة التى غمرت أمك جسدك بالنور. وإن تشاريسيو قدم لك قربانه وصلواته الورعة وكتب فى حمدك هذه الأبيات".

وترك وال مصرى على جسم التمثال هذا النقش باللاتينية:

"أنا تيتو فلافيو تيتيانو حاكم مصر المستمع إلى ممنون فى الثالث عشر من إبريل فى عهد القنصل فيرو أمبيبولو".

وهذا التاريخ يوافق يوم٢٠ مارس عام ١٢٦م. وبجانب قاعدة التمثال ترى أبياتًا يونانية أخرى شبه مغطاة بالرمال التى كدسها النيل بجانب التمثال، تقول:

"إن أمك ربة الفجر أصابعها من الورد، لقد سمحت لك يا ممنون أن تتحدث أمامى، ولقد أتيت لأسمعك. وفى العام الثانى عشر من حكم أنتونيتو الشهير لثلاثة عشر يومًا مضت من شهر باتشون، وللمرة الثانية آتيك أيها الكائن المقدس، لقد سمعت صوتك عند شروق الشمس البهية كأمواج البحر. لقد نادى بك جوبيتر من قبلُ ملكًا للشروق يا بن زحل، والآن وأنت حارس قُـدَّ من حجر يخرج صوتك من ذلك الحجر. كتب هذه الأبيات خميلو وهو يتذكر أبناءه وزوجته المحبوبة روفيلا".

---

(١) إسنا الحالية (المترجم).

ويشعر حَاجٌ يدعى تريبولا بمشاعر الطفولة الحانية تحيا فى قلبه عند سماع صوت الإله. ويترك ذلك التذكار منقوشاً على الحجر:

"لقد تذكرتك يا أمى عندما سمعت صوت ممنون المقدس

وتمنيت لك أن تسمعيه أيضًا".

ويتذكر زائر آخر زوجته التى تركها فى وطنه ويكتب تلك السطور:

"أنا أبونيو، سمعت ممنون فى الفجر، وأكتب هنا

صلوات أفروديتاريا زوجتي. لم لا تحضرها إلىّ يا إلهى يا من

تتكلم".

وترك لنا شاعر حقيقى يدعى "أسكيلبيبو دوتو" على الجزء الأمامى من قاعدة التمثال قصيدة مفعمة بالأحاسيس. مركزا على فكرة أن ممنون كان يحيى أورورا[1] كل صباح، بينما لم تستطع تيتس[2] أن تقدر رفات أكيليس[3] فيقول:

"أتعــرفين يا تيتــس يا من تسكنين البحار أن ممنون

ما زال يتنفس، وأن لهيب الحب لأمه يخرج صوته الرنان

بالقرب من جبال الغرب المصرية فى مدينة طيبة ذات المائة

بوابة لا يفصله عنها سوى النيل. بينما بقى أكيليس صامتًا للأبد

فى تيساليا بميادين طرواده وهو من كان تواقًا للمعارك".

---

(١) أورورا فى الأساطير اليونانية هى ربة الصباح. وكانت تفتح للشمس أبواب الشرق.لاروس – طبعة ١٩٨٨، ص ١٠٠٨(المترجم)

(٢) تيتس هى ربة البحار حفيده تيتس أيضًا، وزوجة بيليو، وأم أكيليس، غمرته وهى ممسكة به من كعب رجله فى بحيرة أستيجيا حتى تجعله معصومًا من الجروح. المرجع السابق، ص١٥٠٠(المترجم).

(٣) أكيليس بن تيتس وبيليو، وهو ملك المرامدة. وهو أشهر أبطال الإلياذة الإغريق. قتل هكتور أثناء حصار طرواده لكنه جرح جرحًا مميتًا فى كعبه بسهم مسموم أطلقه باريس. وقد ارتبط اسم أكيليس فى كل اللغات بالشجاعة– المرجع السابق، ص٩٩٢(المترجم).

زيارة الإمبراطور هادريان

وهكذا تتوالى النقوش التى تربو على مئة نقش منحوتة عند أرجل التمثال وعلى جانبى قاعدته. ومن أهم تلك النقوش التى لم نذكرها بعد تلك التى تتحدث عن زيارة الإمبراطور هادريان وزوجته سابينا عام ١٣٠ م ويصحبهم رجال البلاط إلى التمثال. وقد وصفت الزيارة شاعرة تدعى "جوليا بلبيليا" باللهجة الدورية، تقول:

> **"كنت أعرف أن المصرى ممنون كان يطلق صوته من الحجر الطيبى عندما تلهبه أشعة الشمس. لكنه بمجرد أن رأى ملك الكون هادريان قبل شروق الشمس نطق بالتحية فى صوت واضح رخيم. لكن عندما نشر تيتان[1] فى الجو أذناب النيازك البيضاء وملأ الساعة الثانية مساءً أطلق ممنون صوتًا حادًا من جديد كأصوات الآلات النحاسية، وتكلم للمرة الثالثة والفرحة تملؤه. ولقد حيا الإمبراطور هادريان ممنون مرات ثلاث. وكتبت بالبيليا هذه الأبيات بنفسها لتسجيل ما شاهدته وسمعته ولقد تجلى للعيان تقدير الآلهة للإمبراطور. لقد حياك أجدادى الورعون من قبل الحكيم بلبيليو وأنتيوكو. ولدت بالبيليا فى أكمة، من سلالة ملكية كان الملك أنتيوكو جدها لوالدها، ومنه أتى الدم الملكى الذى يجرى فى عروقى.إقرأ هذه السطور أيها الزائر فقد كتبتها بلبيليا".**

(١) تيثان هو ابن أورانوس وجيا، ثاروا ضد الآلهة وحاولوا الصعود إلى السماء بوضع الجبال فوق بعضها. ولكن زيوس دمرهم -المرجع السابق، ص ١٥٠٤ (المترجم).

وفى هذا النقش تصف المرأة نفسها، فهى بلبيليا وتنتمى لحاشية الملك، وربما كانت إحدى الشخصيات الحكيمة التى درجت على مصاحبة الأباطرة الرومان. وفى الجزء الأول من النص الشعرى تصف معجزة الإله الذى يتحدث ثلاث مرات حتى يدخل السرور على هادريان. وتسرد لنا فى زهو صبيانى نسبها العالى والدم الملكى الذى يجرى فى عروقها. إلا أنها لا تفصح عن كيفية زوال ملك أجدادها اللوماجين بسبب بطش روما به، وكيف تحولت أميرات البلاط من الأسرة الأنتيوكية- أو على الأقل والدتها- إلى ابنة وضيعة تتبناها الأسرة الكلودية. وتحولت بلبيليا إلى امرأة لامعة فى هذه الفترة التى بدأ فيها عصر تدهور الإمبراطورية بفضل حسها الأدبى وعلمها اللغوى.

ويلاحظ فى أشعارها الحس البلاغى، والأسلوب الغامض، وما تركز عليه الشاعرة فى النص هما نقطتان أساسيتان وهما مدح الأسرة الملكية التى كانت فى خدمتها والإطراء على شخصيتها هى.

مكث أدريان فى طيبة القديمة لمدة شهر على الأقل زار خلاله الإله الحجرى على الضفة الغربية للنيل مرات عدة. وتحكى لنا بلبيليا نفسها فى قصيدة أخرى أن ممنون ظل صامتًا ذات صباح مما أقلق الإمبراطورة وأحزن زوجها لكن الإله تعاطف معهما. وتقول الأبيات التى نقشت على إحدى سيقان التمثال:

> **"لما لم نسمع بالأمس صوت ممنون دعوناه ألا يظهر النفور منا مرة أخرى لأن الهوان ظهر على وجه الإمبراطور الملكى، ورجوناه أن يُسمعه صوته السماوى حتى لا يبتئس الملك ولا تحزن زوجته الملكية. وخشى ممنون من إهانة الأمراء الخالدين، فأسمعنا صوته العذب، مظهرًا بذلك الرضا بمعية الأباطرة".**

واستمر تمثال ممنون يتحدث لأكثر من قرن ونصف قرن. ومن الواضح أن المعجزة كانت تتكرر كل صباح تقريبًا. ويبدو أن الشمس التى تشرق على جبال الضفة الغربية للنيل كانت تبعث فى الجسد ناقص الرأس صوتًا فريدًا يشبه القرع على النحاس كما قالت الشاعرة، وأن خيال الإغريق والرومان المُـتـّـــقد فى ذلك الحين اعتبره صوتًا لممنون.

وغنىّ عن القول إن أصل هذه الظاهرة كان ماديا صرفًا، ففى بلد يسقط فيه الندى بغزارة أثناء الليل ويجف فجأة عند شروق الشمس، من المحتمل أن تبخر الندى فى مسام الحجر الجيرى كان يسبب تلك الضوضاء. ولا يمكن القول بأن هذا الغموض كان خدعة من الكهنة المصريين لأنهم لم يخلطوا أبدًا هذا التمثال بآلهتهم ولم يعبدوا ممنون، ولم يروا فى ذلك التمثال ذى الرأس المكسور سوى ملكًا من ملوكهم القدامى. والدليل على أن المصريين لم يعترفوا بفكرة الرومان الخرافية أننا لا نجد من بين الأسماء التى تملأ التمثال اسمًا لمصرى واحد.

كانت الوثنية الرومانية فى حاجة إلى معجزة فى ذلك العصر لأنها وجدت نفسها مهددة بالديانة التى كان يبشر بها رسول *الناصرة*، ولذلك فقد أولوا ذلك الحديث أهمية كبرى خاصة وأنه ظهر خارقًا لقوانين الطبيعة. وقضت الرغبة فى رؤية حجر يجسد إلهًا- وأنه يشرف دائمًا من يزوره - على المعجزة كلها. ففى عام ٢٠٠م، اقترح الإمبراطور سبتميوس سيفروس ترميم التمثال بإكمال جسده وإضافة الرأس الذى كان ينقصه. فوضع فوق التمثال خمسة صفوف من الأحجار الضخمة والتى قلدوا بها الخطوط العامة للتمثال المجاور. فمات ممنون فى ذلك اليوم. وحتى الآن يذكرنا البدو الذين يحكون قصة التمثال بأسطورة الإله المتكلم. وهذا هو كل ما بقى من تلك العقيدة القديمة.

وابتداء من تمثالى ممنون نجد جزءًا كبيرًا من سلسلة الجبال الليبية، حيث حفرت المقابر القديمة فى طيبة. وتمتلئ الجبال بالفتحات التى تؤدى إلى المقابر، وتغطى الآثار الروابى المجاورة. وترى من بينها الصخور السوداء المشققة كالأشباح الصامتة غامضة المعالم تتصدر هذا المشهد من العزلة والفناء. وتتناثر الأوانى والتماثيل واللوحات الحجرية على الأرض وتختلط بخرق القماش الصفراء التى كانت أكفانًا للمومياوات. وما يصدم وينفر أكثر هى الرفات البشرية المبعثرة فى الرمال، والجماجم المحطمة والتى تحتفظ مُقلها بعيون الموتى مفقوءة، والأفواه التى مازالت تحتفظ بالأسنان داخلها، وبقايا بشرية مقززة من حياة كانت، هى الآن صيد للضباع ومأدبة لحيوان ابن آوى القادم من الصحراء.

الرمسيوم

وعلى يمين التمثالين يقف مبنى شاهق، رغم أنه تظهر عليه آثار الأضرار العظيمة التى خلفها الدهر ويد البشر سويًا. ويطلق عليه علماء المصريات حديثًا اسم الرمسيوم، وكان الرومان والإغريق يسمونه قصر ممنون أو قبر أوسمانديس. وقد شيد بالقرب من تمثالى ممنون لتخليد ذكرى انتصارات رمسيس فى حروبه السورية فى العام الخامس من حكمه، وقد كتبت على جدرانه القصيدة نفسها للشاعر "بنتا أور" التى تكررت فى معابد الأقصر والكرنك وأبو سمبل. وعلى يسار الأبراج التى تكتنف مدخل الرمسيوم يرقد تمثال هائل للملك، وجهه محطم وجسمه مكسر إلى كتل كثيرة. كان هذا هو أكبر تمثال أبدعته أيدى المصريين، فيبلغ ارتفاعه سبعة أمتار ونصف المتر، ويزن أكثر من مليون ومائتى ألف كيلو جرام. وعند تأمله الآن وهو محطم إلى قطع غير متساوية لم تعد له هيئة الجسم البشرى بعدما عانى من دمار. ويساورك بالطبع نفس الشك الذى ساور "مارييت" من قبل فى تحديد أي العملين كان أكبر، هل هو العمل الدؤوب والصبر على قطع الحجر من المحاجر فى أسوان وتزيين المعبد به، أم عمل المخربين الذين لم يألوا جهدًا وتمتعوا بصبر الأولين فى تحطيم التمثال وتكسيره إلى آلاف القطع؟

ويمكن رؤية صالة قدس الأقدس من عند حطام الصرحين، تغطيها الأعمدة المربعة ألرشيقه تتكئ عليها تماثيل رمسيس واقفًا برداء المومياء ممسكًا بيده رموز أوزيريس. وغنى عن الذكر أن هذه التماثيل مكسورة الرأس أيضا، وعلى جزء من الجدران التى ما زالت سليمة نرى أبيات "بنتا أور" الشعرية التى تصف مشاهد تاريخية يبدو فيها الملك وهو يدحر أعداءه. وعلى الجدران الأخرى توجد بعض المناظر الدينية التى تمثل رمسيس متعبدًا أمام الآلهة، وأخيرًا نقشت على الحجر قوائم طويلة بأسماء أمراء وأميرات العائلة الملكية، وجدول ملكى عظيم الأهمية لفهم العلوم الفلكية فى القدم.

وخلف المعبد توجد صالة أخرى تزينها الأعمدة الرشيقة تمثل تيجانها زهور اللوتس المتفتحة. ولم يكن ذلك الشكل جديدًا بالنسبة للفنانين، فقد سبق نحته فى إحدى صالات معبد الكرنك. لكن كلاً من أعمدة معبد الكرنك وأعمدة معبد فيلة التى نحتت فيما بعد تبعد كثيرًا عن التناسق الجميل ومتانة الخطوط التى نراها فى أعمدة الرمسيوم.

ولم يستخدم ذلك المبنى أبدًا كمعبد. ولم يُـرد له الفرعون أن يكون كذلك. فبفضل مبادرة خاصة من رمسيس لبنائه وإكماله خلال حياته، استطاع أن يفى بالغرض الذى أنشئ من أجله وهو حماية اسمه من أن ينساه البشر. فوصف حملاته العسكرية على جدرانه مادحًا أعماله البطولية وفتوحاته وكتب حتى شجرة العائلة، وطلب من رجال الدين تحويله من ضريح رمزى إلى معبد، وبذلك تأكد رمسيس من أن موميائه ساكنة ستنتظر فى وحشة القبر ساعة البعث، وهناك فى الأرض التى ينشدها ببطولاته سوف تذكره الناس وسوف يعيش حياة الخلد بينهم. ولذا كان الرمسيوم أهم الآثار إن لم يكن أعظم ما خلَّفه الفرعون الشهير لبلاده.

معـــــبد القـــرنة

وإلى الشمال من سهول طيبة وعلى حدود الصحراء مع الحقول الخضراء نجد معبد القرنه الذى بدأ بناءه سيتى الأول كأثر يخلد به أكثر حملات أبيه شهرة، لكن الموت فاجأ الملك قبل إتمام البناء. وأتمه رمسيس بدأب حتى رآه قائمًا كمعبد، وقد نال شهرة فى العصور القديمة، ونرى اليوم جدرانه مشوهة وأعمدته ناقصة، وهجرت صالاته وسقطت آلهته بجانب نجع عبد القرنه. وهذا الأثر يعد من أكثر المعابد التى ترجع إلى العصر الوثنى تخريبًا، ومن السهل أن يتهدم بالكامل الجزء الذى بقى فيه فى وقت قليل.

دير المـــــــدينة

وخلف سلسلة الجبال الأولى من الجبال الإفريقية حول القرنه وملاصقًا لجانب سلسلة أخرى نرى مبنى غريب ولهذا يسترعى انتباه الزوار. ويظهر بالخارج باب مصرى غير مستوٍ ومحطم، وسور عال من الطوب اللبن كســـتــه الشمس بالسواد. وهو يشبه أسوار الأديرة، وفى الواقع فإن المبنى استــعمل كثيرًا فى عصر الموحدين المسيحيين الذين عاشوا فى هذا المكان من طيبة والذى سوف نزوره الآن.

من المعروف أنه عند انتشار مبادئ المسيحية فى مصر احتضن جموع الجهلاء الذين كانوا يتبعون التعاليم الأوزيرية، الدين الجديد بشوق، وفى غمرة حماستهم أسهموا كثيرًا فى تحطيم المبانى الدينية فى المدن، والمبانى الجنائزية فى الجبانات.

وأغرت الصحراء المؤمنين الجدد والذين اعتبروا الحياة اختبارًا مليئًا بالآلام لكسب حياة السماء. وكانت كهوف المقابر القديمة هي المكان الملائم كملاذ لأولئك الزاهدين الذين هجروا الدنيا كي يهبطوا القبر أحياء. واشتهر كثيرٌ منهم بالعلم والأنـفـة والفضيلة، ولكن كان منهم أيضًا رجالٌ من الطبقات الدنيا من الرعاة غير المتعلمين وعمال المراكب في النيل أو الفلاحين على ضفتيه، فأقاموا في الجبانات المصرية أديرتهم التي كانت أماكن لتجمعهم والاحتفال بمناسبات معينة، مفضلين قضاء أيامهم وهم يحتمون في الكهوف المعزولة للمقابر القديمة. وعاش هؤلاء الزهاد هناك على صدقات المحسنين ومن بيع رماد الأحجار التي يقطعونها ويباركونها ومن بيع الحصير والقفف المصنوعة من القماش والتي كانوا يخيطونها في أوقات فراغهم الكثيرة. كما يجب الاعتراف بأنهم كانوا يعيشون على رفاة وبقايا المقابر التي كانوا يخرجونها من المقابر المجاورة. والمبنى الذي نحن بصدده الآن كان مصيره التحول إلى دير على مدى عدة قرون.

وهو معروف باسم دير المدينة. وقد بني في عصر الأسرة ١٨، وبناه الملك أمنحتب وكرّسه لعبادة ربّة العدالة. ولما هُدِم بسبب الثورات السياسية المتتالية في عصر الإمبراطورية أمر بطليموس فيلوباتير بإعادة بنائه. فبُني حينئذٍ المبنى الصغير داخل الأسوار، وهو ذو تصميم هندسي غاية في الروعة ونقوش قيـمة. ويُرى اسم المؤسس القديم للمعبد مكتوبًا في أنحاء المعبد.

وفي الجزء العلوي من المعبد على السقف الحجري الذي يغطيه لاحظتُ للمرة الأولى عدة أشياء أخذت ألاحظها فيما بعد في المباني الدينية لصعيد مصر. وهو أن المؤمنين الذين كانوا يذهبون للصلاة في المعابد كانوا يحددون حول أرجلهم العارية بسكين على الحجر، تاركين بذلك رسمًا غليظًا لباطن الرجل التي درجوا على إضافة نقش إليها يقول:

"أنا فلان بن فلان، جئت هنا لأطلب الرحمة من الرب

في يوم كذا من شهر كذا".

وكان معبد دير المدينة شهيرًا في جبانة طيبة كلها لأن مواكب الجنازات جميعها كانت تتوقف به. وكانت المومياوات لا بد وأن تدخل بداخله وتبقى لبعض الوقت قبل إن تُحمَل إلى المقبرة، على فرض أن طقوس محاكمة الروح التي تحدثت عنها الطقوس القديمة كانت تجرى على بابه. وهى تشرح نسب الآلهة المصرية التي تحضر أمام المحكمة الأوزيرية بصعود الميت إلى السماء كي يجيب عن أفعالة على الارض. وهذا النقش يوجد في صالة الحق والتي يرى فيها أوزيريس جالسًا على عرشه وفي صف طويل من خلفه يظهر القضاة الاثنان والأربعون للمحكمة العليا، والذين يحاكمون الميت. وفي كفة من كفتي الميزان يوضع قلب الميت وعلى الجانب الآخر صورة له أو ريشة العدالة. ويقدم أنوبيس الميت ويساعده في وزن روحه، بينما يدفع حورس وله رأس صقر بالميزان كي يميل إلى الناحية الحسنى. ويكتب تحوت وله رأس أبيس نتيجة المحاكمة ويقرأ الحكم. بينما يدافع الميت عن نفسه أمام القضاه بجُمل رشيدة، وتضمه الآلهة بلطف إلى أحضانها، ثم يعلن عن براءته ويتحول إلى أحد مجدافي مركب الشمس.

من النادر أن نجد قبرًا مصريًا- حتى لو كان غير كامل النقوش- يخلو من هذا المنظر مرسومًا أو منقوشًا على حوائطه الداخلية. وفي بعضها يتم الاستغناء عن صف القضاة الطويل المصاحبين لأوزيريس، ولكن لا بد من رسم صورة الإله جالسًا على عرشه بالسوط وعصا الراعي وهما رمزا السلطة في يده، ويترأس عملية وزن القلب للميت بينما يقف الميت أمام الحضرة الإلهية ويطلب فيها أن يذهب إلى السماء وأن ينضم إلى قافلة السعداء الذين يسكنون العالم الآخر.

الفصل الخامس والعشرون

وادى الملوك أو باب الملوك

إن وصف الآثار المصرية المنتشرة على الضفة الغربية للنيل فى منطقة طيبة ليمتد كثيرًا رغم الإيجاز والاختصار، ولا نستطيع أن نوجزه فى فصل واحد من هذا الكتاب. وعند وصف المعابد الرئيسية والمقابر تنقصنا المساحة التى تتطلبها أهمية تلك الابنية والتى ترتبط بالتاريخ بروابط لا يمكن فكها، لأنها تمثل الشواهد التى تقوم عليها مصداقية تواريخ طيبة.

ونبدأ بوادى الملوك والمعروف بين العرب باسم باب الملوك. وتقودنا إليه طريق قفر ومعزولة مغطاة بأحجار متهدلة من الجبال المجاورة وفى بعض مواضعها مقطوع بالمـِـغـــول على شكل أزقة صغيرة حيث لا تهْبُ عليه النسائم وجوُه حار خانق، ويبدأ من خلف الرمسيوم ويتجه ناحية واد صخرى كان محجرًا من قبل، وهو طريق مغلقة تحيط بها الجبال العالية. وترتبط فتحة فى الجانب الشرقى الطريق مع هذا الوادى، الذى اختاره منذ ثلاثة آلاف وخمسمائة عام ملوكُ الوثنية للأسرة التاسعة عشرة والأسرة العشرين كمكان لإقامة جباناتهم.

دفن ملوك مصر

وقد تغير أسلوب دفن الملوك فى هذه الحقبة فى مصر. فلم يعد المصريون يبنون أهرامات كالتى رأيناها فى الجيزة وسقارة، ولم يبنوا مقابرهم فى أماكن ظاهرة ومرئية للعيان تسمح للناس بالعثور عليها بسهولة وإهداء التذكارات لهم والصلاة عليهم. وقد يقال إن ملوك طيبة كانوا يبحثون عن مخبأ منعزل فى الجبال كى يختفوا فيه ويفروا من الأحياء حين يبدأون رحلتهم إلى السماء مثلهم فى ذلك مثل الملوك الآخرين الذين خلفوا أسرة مينا. وحفرت مقابر باب الملوك جميعها فى

صخور الجبال، ورغم كونها فسيحة وممتدة فى داخلها فإن أبوابها صغيرة جدًا بالقدر الذى يسمح للتابوت الذى سيدفن فيها بالدخول. وعندما يموت الملك ويدخل الجثمان إلى مثواه الأخير كان مدخل المقبرة يُغلق بجدار سميك من الحجر، وتُـهال عليه الأحجار الناتجة عن الحفر حتى مستوى السطح محاولين إخفاء كل أثر يدل على موضع باب المقبرة.

لصوص المقابر

وكان السبب الذى جعل الملوك العظام يعملون بهذا الشكل محزنًا جدًا. إذ إن الملوك الشجعان الذين فتحوا بلاد الشرق وكانت الشعوب ترتجف لسماع اسمائهم من جبال الثور حتى شاطئ البحر الأحمر والصحراء الإثيوبية لم يستطيعوا أبدًا فرض احترام المقابر التى تؤوى أجسادهم. وفى هذه العصور البعيدة ولمدة عصور كثيرة تالية كانت هناك فى مصر عصابات من اللصوص التى تشكلت خصيصًا من أجل نبش القبور. فكانوا يسرقون كل شىء من الجثامين التى كانوا يجردونها من زينتها إلى الأقمشة والرسوم وكذلك والتوابيت بغرض بيعها إلى أشخاص آخرين، والأثاث الجنائزى الذى يخرجون منه بأى فائدة. وكانت هذه الجماعات تتكون من أنفار وتجار وعمال وصغار الموظفين والنساء، ولم يقف طمعهم عند المقابر الخاصة ولكنه وصل إلى المقابر الملكية أيضًا، فنهبوا مقابر أكثر ملوك الأسر الطيبية احترامًا.

وتعطينا بردية "*أبوت*" فكرة كاملة عن تنظيم تلك الجماعات، والتى أشرت إليها فى دراسة عن رمسيس، وهى تحكى ملخص تحقيق أجرى مع ثمانية لصوص كانوا قد سرقوا بعض المقابر الملكية فى العام السادس عشر من حكم رمسيس التاسع. ونجد فى تلك البردية اعترافات أحد اللصوص أمام أعضاء لجنة ملكية، يقول:

فتحنا توابيت الملك سرخ إم سا إف وزوجته الملكية نوب خاس كما فتحنا النعشين اللذين كانا يحويان جسديهما. فوجدنا مومياء الملك المعظم وسيفه بجانبه مع عدد لا بأس به من التعاويذ والزخارف الذهبية فى رقبته. وكانت الرأس مغطاة بالذهب وكذلك جسم المومياء. كانت الصناديق مزينة بالفضة والذهب من الداخل والخارج، والأحجار الكريمة المختلفة ترصع الرسومات. فأخذنا كل الذهب الذى كان يغطى المومياء والتعاويذ والزينة التى فى الرقبة والمعادن التى على التوابيت. فأخذنا كل ما وجدنا على الزوجة الملكية أيضًا ثم أحرقنا التوابيت الجنائزية وسرقنا الأثاث الذى يحتوى على أوان ذهبية وفضية ونحاسية وقسمنا كل ذلك بين الثمانية.

اهتمت الحكومة المصرية جديًا بإنقاذ المومياوات الملكية ولخوفها من نهب اللصوص عينت حراسة جادة على المقابر وكونت لجانًا خاصة لزيارة الأضرحة الملكية للوقوف على ما إذا كان أحدها قد نُـبِـش. غير أن هذه الإجراءات الوقائية لم تمنع وصول تلك العصابات أكثر من مرة إلى التوابيت الملكية وجعلها صيدًا ثمينًا لهم. حدث ذلك مع الملكة "نوت ميت" والدة الملك الكاهن "حرى حور" والذى توجد مومياؤه وتابوته المنهوبان فى متحف بولاق حاليًا. فالتابوت لا بد وأنه كان بديعًا مكسوًا من الخارج كله برقائق من الذهب وفوقها نقوش الهيروغليفية البهية، أما ألاجزاء الرئيسية من الزينة فكانت من الأحجار الكريمة والطلاءات أيضًا يكسوها الذهب. وبسبب نهم اللصوص للاستيلاء على هذه الثروات حطموا كل الزينة التى تغطى التابوت تاركين فقط بقايا قليلة من العمل القديم والتى تمكننا من تخيل ما كان عليه هذا التابوت الذى يعد أبهى ما أنتجه الفن المصرى دون جدال.

ومثال عجيب آخر لسرقة المقابر الملكية نجده فى مقبرة الملكة إياح حتب زوجة الملك كاموس وربما والدة الملك أحمس الأول، وقد وجد على موميائها الجزء الأكبر من الجواهر التى كانت تكون المجموعة الثمينة لجواهر الملكة، وهى الآن ملك متحف القاهرة. وكان مكتوبا أن هذه الملكة لا بد وأنها سرقت. وكان اللصوص الذين تمكنوا من سرقة المقبرة قد انتزعوا مومياءها من التابوت وأخفوها فى الرمال بالقرب من دراع أبو النجا، لكن يحتمل أنهم قبض عليهم وأعدموا قبل أن يتمكنوا من فتح المومياء التى ظلت مخفية عن الجميع حتى اكتشفها مجموعة من العرب منذ عدة سنوات، كانوا ينقبون فى هذا الموضع من جبانة طيبة. وعندما أُحيط حاكم المديرية إذ ذاك علمًا بالعثور على المومياء مع كنز أمر بإحضار المكتشفين وأخذ منهم المومياء والجواهر التى كانت بين اللفائف المحيطة بها. ولما علم بذلك السيد ماربيت مدير المتحف آنذاك أجبر الحاكم الخائن على رد الجثمان وما معه. ولكن بعضًا من هذه الكنوز كان قد تم صهره للاستفادة بقيمته البسيطة كمعدن فقط.

من المفترض أنه عندما بدأ سلطان طيبة فى الانحدار أواخر الأسرة العشرين أهملت الحراسة التى كانت على الجبانة. فأطلقت تلك العصابات غيظها فى المقابر المهجورة وجرأوا على دخول الوادى المقدس الذى كان الملوك الأقدمون قد حفروا مقابرهم فيه. ولما وجدت الحكومة نفسها عاجزة عن إنقاذ المقابر من ذلك التخريب قررت إنقاذ ولو مومياوات الملوك. وبدأت تخرجهم من مقابرهم البهية وتنقلهم من مقبرة إلى أخرى واستطاعت بهذه التنقلات أن تخفيها عن يد السلب وألا يعرف أفراد تلك العصابات المكان الذى أخفيت فيه.

مقبرة سيتى الأول

وكان مندوبو الملك يزورون مومياوات الملوك من وقت لآخر، ويكتبون على لفائف القماش تاريخ اليوم الذى فتشوا فيه. وبفضل ذلك عرفنا أن مومياوات

رمسيس الأول وسيتى الأول ورمسيس الثانى كانت قد جمعت فى بادئ الأمر فى مقبرة سيتى، لكنها نقلت بعد ذلك إلى مقبرة أمنحتب الأول، وكان بها أصلاً مومياوات أمراء وأميرات من الأسرتين السابعة عشرة والثامنة عشرة. وأخيرًا جمع كاهن ملك من الأسرة الثانية والعشرين البوباستيين ربما يكون "أوابوت" كل المومياوات الملكية فى بئر تم حفرها فى الدير البحرى والذى وضع فيه أيضًا كبار كهنة آمون فى طيبة أفرادًا من أسرهم. وهناك تم الكشف عن المومياوات الملكية عام ١٨٨١. وتم نقلها فى الحال إلى متحف بولاق. ويرجع الفضل لهذه الظروف فى وجود هذه المومياوات المبجلة لأولئك الملوك لأنها لو بقيت فى مقابر باب الملوك لكانت قد نهبت منذ زمن وربما حطمت. ولقد فُتِحت جميع المقابر الموجودة فى الوادى قديمًا، وعددها خمس عشرة. ويوضح ذلك الكتابات الإغريقية العديدة من الجرافيتى التى تمتلئ بها جدران الممرات.

وصفـــــــــها

ونبدأ بوصف مقبرة سيتى الأول والد رمسيس الثانى. وهى أفضل مقابر باب الملوك ولذلك فهى تفرض احترامها نسبة لحجم الممرات الهائل وروعة النقوش على جدرانها لو لم تخربها الأيادى البربرية التى وجدت فى انتزاع اسماء الملك المكتوبة بالحروف الهيروغليفية تسلية لها. هذا التدمير الذى طال مئات الأمتار من النقوش على جدران دهليز المدخل يرجع على أرجح الأقوال إلى مجموعة الإيطاليين من "اللجنة العلمية" المبعوثة إلى مصر منذ أعوام كثيرة. ومن المخزى أن نرى كيف تغلبت البربرية على أولئك القادمين من الشمال.

ونلاحظ أن الموت فاجأ سيتى قبل أن يتم قبره، ولا بد أن نعترف أن الملك العجوز كان مفعمًا بالأمل لأنه اقترب من المئة عام من العمر عندما مات لكنه كان يأمل أن يعيش أعوامًا كثيرة أخرى. صحيح أنه تم الانتهاء من معظم المقبرة لكن بعض صالاتها بها تحديد للرسوم فقط. وفى العمق نرى ممرًا واسعًا منحوتًا بشكل منحنٍ يتعمق فى الجبال. ورغم أن المقبرة فتحت عدة مرات فإن الجزء الأخير فيها لم يُكتشف، ولا نعرف ما هو الغرض منه. يعتقد البعض أنه حُفر بغرض أن يوصل إلى وادى الملكات لكن انهيار السقف فيه أدى إلى انسداده، ويعتقد البعض الآخر أنه عمل لم يكتمل وأنه نحت فى الصخر لبناء الحجرة الجنائزية للمقبرة فى آخره. ومن الصعب تحديد الغرض من هذا الممر خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار صعوبة استطلاعه بسبب الكم الهائل من الوطاويط التى تعيش فيه والتى تهدد فضلاتها النتنة من يغامر بالدخول حتى آخر الممر بالاختناق.

ويعد الجزء المنقوش من مقبرة سيتى رائعًا. فقد نقشت على جدرانه النصوص الدينية والمناظر والرسومات، لكن تلك المناظر لا تمثل الحياة اليومية للبشر على الأرض أو لسعداء الحظ فى الجنة مثل مصاطب الدولة القديمة. فيغلب الدين هنا على كل شيء ويجعل من جدران المقبرة صفحات تنقش عليها كل أهوال ومخاطر الموت.

وتمثل المناظر التى على جدران المقبرة آلهة غريبة، آلهة حامية برأس ثعبان ورأس أسد تنتظر والسكاكين فى أيديهم فى طريق الأرواح التى تذهب للجنة كى يرهبوها. كما تُرى بكثرة مناظر الجحيم والعذاب الجسدى. ويُرى بعض التعساء يمشون مقطوعى الرءوس، وآخرون يعكسون استخدام أطرافهم فيمشون على أيديهم، وآخرون يسرعون إلى ألسنة اللهب التى تمثل الجحيم. وفى جانب الملعونين ترى ثعابين الأوريوس- مبعوثى عدالة رع- وهم يسكبون ألسنة اللهب على المذنبين.

ونرى فى عمق المقبرة حجرًا أبيضا كبير كان تابوت الدفن للملك. وهو محطم ومقلوب على جانبه وغطاؤه مهشم إلى أجزاء. وكان بداخله تابوت بديع من البازلت استولى عليه الإنجليز منذ عدة سنوات. وبالقرب من الحجرة السابقة نجد حجرة الدفن لرمسيس، ورغم كونها كبيرة الحجم فإن نحتها ونقشها لا يتناسبان مع اسم الملك الذى حكم مصر أطول فترة فى أبهى عصورها. وتعد مقبرة رمسيس الثانى قليلة الأهمية إذا ما قورنت بمقبرتى أبيه وجده، وربما كان هذا هو السبب فى عدم دفن المومياء بها حيث وضعت عند موته فى مقبرة سيتى.

مقبرة رمسيس الثالث

وتعد مقبرة رمسيس الثالث عجيبة أكثر منها متقنة فنيا، فيظهر فى نقوشها التدهور الذى سقط فيه الفن المصرى. وعلى جانبى ممر الدخول توجد ست حجرات صغيرة لا بد وأنها كانت تستخدم فى تخزين الأثاث الجنائزى، وهى خالية حاليًا إلا أن جدرانها تمتلئ بالرسوم الشيقة. وفى إحدى الحجرات نرى كل الأسلحة والأزياء الحربية التى كانت تستخدم فى عصر الملك. وفى أخرى نجد الموسيقيين يعزفون على آله الهارب والآلات الأخرى. ولذلك يطلق على هذه المقبرة اسم مقبرة عازفى الهارب.

اكتشاف مقبرة سن نجم

ونترك وادى الملوك ونعبر الجبانة بطولها. وهى تبدو للوهلة الأولى كجميع جبانات مصر، فرفات الأموات تغطى الأرض، والآبار والمقابر والآثار ترى هنا وهناك. وقد أسفر نشاط المخربين القدامى والمحدثين عن نبش الأرض بطريقة يصعب معها إيجاد مقبرة سليمة، ولو كشف عن إحداها اليوم لأفشت لنا أسرار

الحياة لذلك الشعب. ويمثل العثور على مقبرة سليمة ثروة كبيرة، وقد شاركــت فى اكتشاف إحداها فى فبراير من عام ١٨٨٦، عندما كنت فى الأقصر عضوًا فى اللجنة العلمية المصرية، عندما عثر بدو القرنة بالقرب من بيوتهم على قبر لأحد كبار كينة طيبة وحارس جبانة باب الملوك التى وصفتها آنفًا. ولقد أخبرت أكاديمية التاريخ الملكية بهذا الاكتشاف فى فبراير من العام الماضى، ويمثل الاكتشاف سبقًا جديدًا فى الأعمال الأثرية فى مصر مما يدعونا إلى تخصيص بعض السطور للحديث عنه هنا.

فى الخامسة من عصر غرة فبراير ١٨٨٦، وفى طريق عودتنا من زيارة لآثار الكرنك مع أعضاء الوفد المذكور، اقترب منا رجل بدوى يبدو عليه البؤس، لفحته أشعة الشمس ولا يكاد يستره القميص الأبيض المتسخ الممزق. وجاء ليشركنا فى الاكتشاف الذى حققه قبل ساعات فى جبانة طيبة، وهو قبر سليم ما زال مغلقًا بنفس الباب الخشبى الذى وضعه قدماء المصريين على المدخل بعد أن دفنوا فيه صاحبه.

والرجل يدعى سلام أبو ضاحى وهو من سكان القُــرنــة. وكان قد طلب مع ثلاثة من أصدقائه تصريحًا بالتنقيب فى المنطقة المجاورة للبلدة التى يقطنها، وقد أُعْطِى له التصريح دون جهد كبير لعدم وجود آثار مهمة فى هذه الأماكن. وبعد سبعة أيام من العمل بين الأطلال وجد بئر المقبرة الجديدة الذى نجا من سلب كل من نهبوا المقابر المصرية فى حقب مختلفة بسبب أنقاض المقابر المجاورة التى غطته.

وانتقل فى التــوْ رَيـّــس أو حارس المتحف بالمركب المخصص لنا إلى مكان الاكتشاف حتى نمنع سرقة المقبرة ليلاً أو أن ينهب المكتشفون المومياوات بحثًا عن جواهر أو كنوز بداخلها، ولأننا علمنا بالاكتشاف فى الوقت المناسب فقد وجب علينا اتخاذ الإجراءات الوقائية المناسبة للتأكد من الحفاظ على الجثامين والأثاث الجنائزى حتى يتمكن مدير المتحف من تولى مسئولية المقبرة.

وفى اليوم التالى انتقلنا إلى مكان الكشف. فعبرنا النيل ووادى طيبة الأخضر ثم دلفنا إلى الصحراء بعد تجاوز القرنة، وبعد مسيرة نصف ساعة وصلنا إلى موقع المقبرة. وتفصل النجع عن السلسلة المجاورة المتصلة ببعضها هــوّة جافة شكــــلها انحدار الأرض لتفصلها عن سلسلة أخرى أعلى تتاخم الصحراء الليبية. ويجرى فى هذا المنخفض الطريق التى توصلنا إلى آثار مدينة هابو ومعبد دير المدينة. وعلى بعد كيلو متر من الدير وفى منتصف الطريق تسلّقنا السلسلة التى تغطيها الأنقاض والتى تمتلئ بالآبار التى جعلت من مسيرتنا خلالها مهمة صعبة.

وفى تلك الهوة وجدنا مجموعة من البدو ينتظرون حول المقبرة الجديدة. وكان الشكل الغريب لهؤلاء القوم العراة الجامدين يبدو وكأنه نقش على جدران إحدى المقابر الحجرية أو كتماثيل سوداء من المرمر نسى أن يدفنها الموكب الجنائزى مع المومياء. كان أولئك هم مكتشفى المقبرة من منقبى القرنة، وكانوا ينتظرون وصولنا لينالوا التعويض المناسب. وفهمنا من كلامهم أنهم يعملون هنا منذ أسبوع، وأنهم اتبعوا أربع أو خمس طرق وهمية قبل أن يصلوا إلى الطريق الصحيحة المؤدية إلى المقبرة. ووجدوا إلى جانبها حجرة جنائزية أخرى نهبت منذ قرون عديدة، وأن الأنقاض المجاورة مع رمال الصحراء حجبت المقبرة بالكامل عن الأنظار.

واختفت المصطبة أو المقصورة الجنائزية الخارجية للمقبرة الجديدة. ولم نجد لوحات حجرية من أى نوع. ورأينا فقط مدخل البئر من بين أكوام الحطام بفوهته المربعة، عرضه متر ومكسُوٌّ فى جزئه الأعلى بقوالب الطوب اللبن الكبيرة المعجونة بالتبن. ويبلغ عمق البئر حوالى أربعة أمتار، وقد حفرت فى الحجر الجيرى الأبيض الذى يكوّن سلسلة جبال الغرب، وتتجه جدرانه إلى الجهات الأصلية الأربع تماما. وقد دهشنا لضحالة البئر لأن المعتاد فى آبار جبانة طيبة وجبانة منف أن يكون عمق البئر بين عشرة وعشرين مترًا. وفى الحائط الشمالى

والجنوبى توجد فتحات صغيرة منتظمة كى تسهل هبوط العمال إلى القبر. وفى عمق البئر ناحية الغرب ترى مدخل الممر الذى يهبط مستويا لمسافة مترين. وقد غطت الرمال أرضية الممر، ولأن البدو لم يكلفوا أنفسهم عناء إزالتها فقـــد تعين علينا أن نعبره زاحفين على بطوننا.

وفى نهاية ذلك الممر نجد حجرة عبارة عن ٣×٥ أمتار، وارتفاع خمسة أمتار نحتت فى صخر الجبل الصلد وتخلو من أى زينة. ربما أراد البناءون تخصيص هذه الحجرة للدفن، لكنهم لم يستطيعوا بسبب سوء مادة عرق كبير من الحجر الهش غير المقوى والذى يمر بطول المقبرة. لذا فقد حفروا بئرًا أخرى بعمق متر جهة الجدار الغربى وفى طرفه فتحوا ممرًا آخر يتجه ناحية اليمين، حتى وجدوا حجرًا من مادة أفضل على بعد ثلاثة أو أربعة أمتار يصلح للنحت ولرسم المناظر الجنائزية التى لا يمكن الاستغناء عنها لتزيين المقابر المصرية. وقد انفعلنا بشدة عند العثور على مدخل الحجرة الجنائزية فى نهاية الممر الأخير، ووجدنا عليه الباب الخشبى سليمًا وضعه الكاهن الذى دفن بيده آخر الجثامين. وظهر جليًا أمامنا واحدٌ من القبور النادرة فى جبانة طيبة والتى نجت من سلب الرومان والأقباط والعرب

ورأينا فى الجزء العلوى للباب رسمًا على الحجر يمثل مركب الشمس، والتى يسيرها أحد الآلهة. صنع الباب من الخشب الأبيض على شكل مستطيل غير مستوٍ يسنده لحاف أو عارضة أُضيفت إلى الجانب الأيسر ثبتت فى أحجار المدخل والعتبة عن طريق فتحتين. وفى وسطه يوجد مزلاج من الخشب يشبه تمامًا ما يستعمله فلاحو مصر حتى اليوم، وبه أيضًا دبوس من الخشب مختوم بنقش لأنوبيس على قطعة من الطين ويبلغ طول الباب مترًا ونصف المتر. وبلغت بنا رغبتنا فى إنقاذ هذا الباب الخشب- الذى يعد مثالاً فريدًا فى العالم- أن كسرنا إفريز الباب الحجرى الذى كان يحتوى على بعض النقوش. ودلفنا إلى الحجرة

الجنائزية التى كان منظرها مهيبًا فى الحقيقة. وكانت الجثامين تغطى الأرض. وكانت تسعة منها موضوعة فى توابيتها المصنوعة من الجميز بينما وضعت إحدى عشرة مومياء مباشرة على الرمال. وفى الأركان وجدنا أكوامًا من أوانى الفخار، والخبز والفواكه والأثاث وأكاليل الزهور الجافة الذابلة. ووجدنا عربتين جنائزيتين تستندان إلى الحائط ربما نسيَهُما هناك موكب الدفن الأخير لرغبتهم فى الخروج من المقبرة بسرعة. لكن ما جذب اهتمامنا أساسًا كانت النقوش التى على الجدران الأربعة وسقف المقبرة، والتى كانت سليمة ونضرة كما لو كانت رُسمَت فى اليوم السابق على الاكتشاف. وفى الصالة التى تبلغ ٥ أمتار طولاً ×٥,٢ متر عرضًا تغطيها قبة على شكل عقد مدبب منحوتة فى الصخر. ولم يخل شبر من الجدران من الرسوم أو النقوش.

وشرعنا فى تنظيم العملية فى أول الأمر فأمرنا بأن ينقل عمال المتحف وبدو القرنة كل الجثامين والأثاث والقرابين التى بالمقبرة إلى مركبنا الراسية فى الأقصر. وهكذا رأت النور من جديد تلك الرفات التى بقيت حبيسة لأكثر من ثلاثين قرنًا فى ظلال النسيان. ورغم اهتمامنا بإحاطتها والحرص عليها ما أمكن فى طريقها عبر الصحراء والسهول الطيبية فإن إهمال القوم الذى جُبِـلُـوا عليه تسبب فى فقد بعض الأشياء والإضرار بالبعض الآخر. فتحطم كرسى رائع مرسوم بألوان لامعة ورسوم جريئة إلى شظايا قبل أن يصل إلى المركب. ومن المومياوات العشرين التى وجدت داخل المقبرة تم نقل المومياوات التسع التى كانت فى صناديقها الخشبية إلى المركب دون عناء يذكر وكانت فى حالة ممتازة. ولم يحدث ذلك مع المومياوات الإحدى عشرة الباقية، فتم جرها بدون حرص على الأرض، وربما لكونها رممت بطريقة سيئة ولأن لفائف القماش التى عليها كانت ممزقة فقد تحطمت فى أيدى الأعراب عند محاولتهم رفعها. واحتفظتُ فقط بالرءوس لاهتمامى بتوصيف الأجناس البشرية

ولأهمية الجماجم بالنسبة لذلك. وكانت المومياوات التى نقلت على متن المركب تنتمى إلى الأشخاص التالى ذكرُهم:

١- سن نجم، والذى وصف فى النقوش التى على تابوته بأنه sotem ash im أو ast ma "من يستمع إلى الابتهالات فى صالة الحق" وهذا اللقب كان يخص كبار الموظفين فى السلك الكينوتى، والذين يكلفهم الملك بتأمين وحراسة المقابر الملكية.

٢ - خنسو، وكان تابوته يحتوى على كتابات هيروغليفية شبيهة بالسابق.

٣ - ثاماك، وهو رجل.

٤ - بارا حتب، وهو رجل.

٥ - تاع آش إنس، وهى امرأة.

٦ - إى نفر تى، وهى زوجة سن نجم.

٧ - إيزيس، وهى من كاهنات آمون.

٨ - رع مس، وهو رجل.

٩ - حتحور، وهو طفل.

تلك هى الأسماء التى قرأناها من النقوش المكتوبة على التوابيت المزينة على أحسن ما يكون. كما وجدنا تابوتين صغيرين ملونين باللون الأصفر دون أن نجد عليهما أى أسماء، وهما بدون شك كانا يحويان جنينين أو مومياوين لأطفال حديثى الولادة. كان القبر يمتلئ بالقرابين والأوانى والأثاث وأشياء كثيرة استخدمها أصحابها أثناء حياتهم. وعلى جدرانها رسمت لوحات عديدة عن الموت والبعث

بطريقة رائعة، منذ تحويل الجثمان إلى مومياء ونزوله إلى مثواه الأخير حتى تعلن براءته ويعيش في السماء يزرع حقول "أعالو" في صُحْبَــة زوجته.

مدينة هـــــابو

لا تبعد مقبرة سن نخم عن آثار مدينة هابو كثيرًا. وقد عُبِّـد طريق الزوار القادمين من دير المدينة إلى المعبد المهجور ويقطعونه في حوالي نصف ساعة على ظهر الحمير. ويعتبر معبد مدينة هابو هو أهم المعابد المصرية من وجهة النظر التاريخية. فمساحته شاسعة، وبالإضافة إلى الحيرة التي تغمر الزائر عند سيْره لأول مرة في هذه المتاهة من الأطلال التي يجهلها، هناك أثر سيئ يسببه وجود بيوت قرية قبطية مهجورة تُــرى معلقة فوق ربْوة مجاورة للصالة الكبرى للمعبد. وشيد تلك المجموعة من المنازل المؤمنون من أهل طيبة في القرون الأولى للمسيحية. لكن ظروف البلاد السيئة ونقص المياه والحر المفرط في بلد معلَّق فوق معبد تسببت في هجرانه تاركين البيوت التي ظلت سليمة حتى أيامنا الحالية، فلم تُــزل منها إلا تلك التي كانت مبنية داخل المعبد نفسه.

وثمة نوعان من الأبنية مختلفان تمامًا في مدينة هابو. فنرى على يمين المكان بعض المباني الصغيرة مستطيلة الشكل وتغطي النقوش والرسومات جدرانها واسماء الملك من العصور المختلفة. ويبدو أنها كانت معبدًا مخصصًا للأموات المدفونين في الجبانة المجاورة لأن الملوك كانوا يخفون مقابرهم تحت الجبل دون تحديد المكان، ولذا كانوا يبنون المقاصير الجنائزية في مكان آخر حتى تستقبل روحه ومومياؤه القرابين والتمجيد من الأحياء.

وفي الوسط شيد رمسيس الثالث المبنى الرائع الذي يشتمل على المعبد والقصر الخاصين بجلالته. ولنبدأ بالأول: تسبق بعض الأفنية المزينة بالأعمدة

الرشيقة والأعمدة المنحوتة على شكل تماثيل الصروح الأربعة التى تمثل أبواب الدخول للمعبد. وعلى جدران تلك الصروح نقشت لوحات عظيمة تصف الحملات العسكرية المنتصرة لرمسيس الثالث ضد الليبيين والماشواش فى العام الحادى عشر والعام الثانى عشر من حكمه (١٢٧٦ ، ١٢٧٥ق.م). ويعد النقش الموجود على واجهة الصرح الشمالى عجيبًا وشاعريًا، فنرى فيه الملك يضرب بدبوس قتاله مجموعة من الأسرى الجاثين على الأقدام، بينما يقدم له الإله حور إم آخت بلطة قتال، ويوجه إلى الملك الحديث التالى:

"أى بنى، يا من خرجت من ظهرى، يا حبيبى، يا سيد العالمين، رمسيس الثالث يا من ملكت حكم الأرض، إن شعوب البتى النوبيين يضرعون عند قدميك.

لقد أحضرت لك رؤساء الإمارات الجنوبية الذين يحملون أولادهم على ظهورهم ويحملون خيرات بلادهم الغالية. استحيى من شئت منهم، واقتل من شئت.

إنى لأتجه بوجهى إلى الشمال كى أغدق عليك المعجزات، أضع الأرض الحمراء تحت رجليك، وأريد أن تبطش بالحمقى وأن تحطم بسيفك شعب الهيروشا. سأجعل الأمم التى تجهل مكانة مصر تأتيك بصناديق مليئة بالذهب والفضة وكل أنواع الأحجار الكريمة. وسوف يعرض أمام ناظريك كل ما تنتجه الأرض.

وأتجه بوجهى إلى الشرق كى أغدق عليك المعجزات، وأسلسل كل أعدائك تحت يديك، سأجمع لك خيرات بُـنت، والكامى، والقبضة الثمينة والنباتات العطرية وأضعها أمامك. وأتجه بوجهى إلى الغرب كى أغدق عليك المعجزات، حطم بلاد التحنو، واجعل سكانها يأتون إليك خاضعين لعبادتك وإلا لاذوا بالفرار لسماع صوتك الجهورى".

ويمتد فناء آخر بين الصرح الثانى ومبنى المعبد الرئيسى والذى يتصل به عن طريق بوابة عظيمة من الجرانيت. وتشكل الصالة التى كانت مخصصة لسكن الإله لوحة عظيمة تحت ضوء النهار وتحيطها الممرات المغطاة بسقف يتكئ على أعمدة جميلة على شكل زهرة اللوتس. ويُعد هذا الفناء أحسن أجزاء معبد مدينة هابو من حيث الحفظ وواحدًا من الآثار الأكثر روعة فى الفن المصرى.

ولا ينقص الفناء سوى جزء من أحد جوانبه والذى بنى ناحية الشمال مع بقايا مذبح مسيحى، وحتى هيئة الفناء نفسها تبدو مشوهة بسبب وجود صف من أعمدة الجرانيت نحتت بفظاظة، ولم تشكل أبدًا جزءًا من المعبد الأساسى. وأضاف سكان المكان من الأقباط تلك الزيادات، ولم يجدوا غضاضة من إنشاء كنيستهم داخل معبد وثنى.

إن هذه المجموعة رائعة الجمال. فالجدران التى فى المواجهة تغطيها لوحات توضح الحملات الحربية وحياة رمسيس الثالث. وقد خضع شعوب جنوب النيل البربرية وشعوب آسيا الصغرى المحاربون وشعوب ليبيا لسلطان الملك أو عوقبوا بقوة سلاحه. ويشكل التعداد الذى تذكره النقوش فقط فى مدينة هابو صفحة شديدة الأهمية للتاريخ ولعلم السلالات البشرية فى ذلك الزمن السحيق.

وعلى الجانب الأيسر يرتفع برجا رمسيس، وهما عبارة عن مبنيين مصمتين من الحجر شـيِّدا لتزيين أحد بوابات المعبد. والغرض واضح من تلك المبانى، فلابد وأنها كانت قصرًا للملك الذى أمر بإنشاء هذا المعبد الهائل، وهى محتفظة بهيئتها وتوجد على جدرانها لوحات ومناظر تشبه تلك التى وصفتـــها آنفا.

وعند الخروج من مدينة هابو فى آخر زياراتى لها توقفت عند هذه البوابة من المعبد وأحسست بألم عميق لمغادرة تلك الأماكن التى لن أعود لزيارتها، وحتى إذا زرتها فبعد وقت طويل. وقضيت ساعات بهيجة فى المعبد، وتعودت على رؤية أطلالة، ولمعرفتى جيدًا بأركانه كنت أود البقاء هناك ما شئت من الوقت حتى أدرسه بتأن. لكن عملى ومتطلباته العاجلة ومواعـــيده الحتمية منعتنـــى من ذلك. فما زالت الحكومة الإسبانية على غير وفاق مع علم الآثار.

الفصل السادس والعشرون

مدينة الموتى فى جبيلين

قبل أن نواصل رحلتنا عبر النيل لا بد أن أنوه عن إحدى الجبانات المصرية التى اكتشفها منذ شهور قليلة البروفيسير ماسبيرو وهى جبانة جبيلين. وهذه القرية التى يعنى اسمها جـبـلـيْن فى العربية هى حاليًا عبارة عن مكان عربى صغير ليس له من الأهمية سوى أنه بنى فوق أطلال مدينة أفروديت بولس الإغريقية القديمة، أو با نبت باحى من إقليم ميحى فى مصر القديمة. وطبقًا لملحوظات ماسبيرو نفسه عن المكان فإن النيل كان ينقسم هنا إلى فرعين، ويمر فى قناة تملؤها الآن رواسب النهر، وهى جافة تمامًا. وفى الجزيرة البارزة فى وسط أمواج النهر نرى الجزء المخصص لدفن كهنة آمون رع من وسط الجبانة، ومنشدات الإله، والأغنياء من أهل القرية الصغيرة. ومقابرهم عبارة عن زنازين تخلو من الزينة، والتى تتراكم فيها المومياوات فى أكوام من عشرين أو ثلاثين تابوتًا نحتت على شكل بشرى، وهى تشبه إلى حد كبير توابيت طيبة التى كانت تصنع إبان القرن السابع قبل الميلاد. وتحمل الرأس التى نحتت أحيانًا بإتقان شديد تاجًا من الزهور التى يتدلى منها زهرة لوتس زرقاء على الجبهة. أما بقية التوابيت فتغطيها طبقة من الطلاء الأصفر لحماية النقوش واللوحات تم تلوينها بالأزرق والأسود والأحمر والأخضر. وكل التوابيت من هذا النوع لا تحمل اسما لمالكيها ولا تنتمى إلى أشخاص آمنوا بعبادة آمون فى طيبة.

وتقودنا هذه الملاحظات إلى الإعتقاد بأن تلك التوابيت لم تصنع فى أفروديت بولس ولكن فى طيبة نفسها ثم تباع بعد ذلك فى أنحاء الإمبراطورية لإرضاء أذواق الموضة أو لمعالجة التقصير فى الصناعة الإقليمية. فى حين أنّ توابـيت أخرى من المفترض أنها صنعت فى ورش القرية نلاحظ فيها فظاظة أسلوبية غير معقولة. فملامح الوجه نحتت بضربات من فأس النحات، ونقش

الرسامون الكتابات بخط هيروغليفى أسوأ من أعمال كيرتشر وبابلو لوكاس. والكثير من التوابيت ليست إلا صناديق فقيرة من خشب النخيل، تخلو تمامًا من الزينة والنقوش. كما توجد أيضا جثث لأطفال فقراء ملفوفين فى حصائر خشنة أو فى ألياف النخيل. والمومياوات تبدو هشة وصفراء وملفوفة بكثافة وبدون رقائق كرتونية أو عقود أو تمائم أو أزهار، لكنها تلبس أحذية وتحمل عصيًا لخدمة الميت فى رحلته للعالم الآخر، ويبدو الحذاء خشنًا صُنع من نعل غليظ وجلد أحمر أو أسود ممزق، وهو بالفعل مستعمل واختير من أسوأ ما كان لدى الميت. ونادرًا ما تجد صنادل جديدة زُيِّنَتْ بذوق.

ونعود الآن لسرد رحلتنا. فبالقرب من طيبة وعلى الضفة اليسرى للنيل نجد مكانًا يشتهر باسم "إرمونتيس" والذى يرجع تاريخه إلى عصر ما قبل التاريخ تقريبًا. وهناك شيدت واحدة من أوئل المدن المصرية لكن لم يبق أى شىء فيها على الإطلاق فى الوقت الحالى. وحتى الأحجار التى خرجت من أطلالها استعملت فى أفران الجير التى بنيت فى ضواحيها واستغلها العرب لعدة قرون. وبسبب نقص الأحجار فى المناطق المجاورة انتزعت كتل الأحجار من المعابد وتم تقطيعها واستخدامها فى أماكن قريبة.

إسنا ومعبدها الرومانى

ونزور الآن إسنا التى سميت قديمًا "سنى" وهى مدينة عربية مهمة فى صعيد مصر، شوارعها جميلة، وبيوتها تقليدية وبها سوق للحبوب ذات شهرة واسعة فى المنطقة. لكن شهرتها الأساسية تكمن فى أن جزءًا منها بنى على بوائك من أعمدة المعبد المصرى الملىء بالآثار.

وتبدو مجموعة البيوت العربية من بعيد وكأنها تحتل قمة جبل- وهذا هو الحال فى الواقع - غير أن الجبل كونته الأنقاض المتراكمة على مر عشرين قرنا. وتعد إسنا مثالاً واضحًا لاحتفاظ بعض المعابد المصرية بحالتها، رغم كونها مبنية فى الهواء الطلق ومعرضة للهدم والسقوط بسهولة. ولا يجب لأى رحالة أن تفوته زيارة معبدها.

وبالصعود إلى قمة المدينة يمكننا أن نهبط على منحدر شديد البروز ينتهى عند سلم منحدر لمسافة ٢٥ أو ٣٠ مترًا ويصل إلى مستوى أرضية المعبد. ولم تتظف من المعبد سوى صالة واحدة وهى صالة الأعمدة وهى الوحيدة التى يمكن رؤيتها. وهى ترجع إلى العصر الرومانى، وتحمل كل النقوش التى على جدرانها أسماء كلوديوس ودومنيسيان، وكومودو وسبتيميوس سفيروس وكاركالا وجيتا. ويرى فقط فى الحائط الخلفى اسم أحد الملوك المصريين وهو بطليموس فيلوباتير [١].

وتمثل الصالة تناقضًا عجيبًا وتعد علامة مهمة فى تاريخ الفن المصرى، فالخطوط المعمارية مذهلة. وتقف الأعمدة رشيقة وتتصل بالسقف بتيجان بديعة من زهور اللوتس. وعلى عكس ذلك فإن الرسوم لا يوجد أسوأ منها، ورسم الأشخاص بفظاظة والنقوش غير حقيقية، والكتابات مشوهة ويصعب فهمها. ففى الحقبة المتأخرة من التاريخ المصرى بدأ التدهور يغزو الرسم والنحت عندما زال تميزهما بطبيعة الحال.

وكما ذكرت آنفًا فإن بقية المعبد مدفون تحت البيوت ولكى يتم الكشف عنه يتحتم علينا إزالة نصف بيوت القرية. وسوف تقوم الحكومة المصرية بهذا العمل يومًا من الأيام، وما ينقصها فقط هو التمويل الذى أعاقها حتى الآن عن ذلك.

---

(١) لم يكن بطليموس مصريًا ولكن إغريقيًا من سلالة بطليموس الأول سوتير الذى كان أحد قواد الإسكندر الأكبر وصديقه وجاء لمصر عام ٣٣٢ ق.م (المترجم).

وللوهلة الأولى يصعب علينا فهم كيف أن معابد كتلك ملئت بالأنقاض والأطلال وتظل مبانيها قائمة بمساحتها التى تصل إلى اثنين أو ثلاثة كيلو مترات مربعة ومبانيها الشاهقة الارتفاع. ويرجع ذلك إلى طريقة حياة الأقباط فى القرون الأولى للمسيحية والتى يتبعها العرب أيضًا فى الوقت الراهن. فقد اعتاد أهل القرى على بناء البيوت على أساسات عريضة من الطوب اللبن وأسقف مستوية تستند على جذوع النخيل الضعيف. ومبنى بهذه الأوصاف لا بد وأن يكون ضعيفًا وهشًا، لذا فعندما أراد الأقباط والعرب تعضيد مبانيهم بحثوا دئمًا عن المعابد الحجرية التى بناها المصريون. وبذلك نجد قرى حديثة كثيرة فى أماكن المعابد القديمة.

ورغم الاحتياطات المذكورة فإن هذه المبانى الطينية لم تـعـمَّر كثيرًا، وعندما أخذت فى الانهيار أزالوها تاركين حطامها على الأرض، ويبنون عليه البيت الجديد. وبذلك بدأ مستوى البيوت فى الصعود دون قصد حتى وصل إلى الارتفاع الذى كان يرى فى الأقصر منذ عامين أو الارتفاع الحالى لإسنا، وذلك لأن البيوت معلقة فوق بوائك أعمدة المعبد.

معابد ومقابر، هذا هو الشيء الوحيد الذى تراه فى رحلتك إلى تلك المنطقة من مصر. هنا تحتاج لأن تكون عالمًا أثريًا، وأن تكون هوايتك هى الأشياء القديمة فى باطن الأرض وألا تـمَلّ من تأمل مدى ما وصل إليه إيمان وعقيدة هذا الشعب البدائى. فالفن والعلم والحياة كلها مرجعها الدين، ذلك الذى يعدهم أثناء حياتهم الدنيا حتى يسعدوا بالخلود فى الجنة، لذلك لا نجد أثرًا واحدًا دنيويًا، ولا نقشًا سياسيًّا. فعندما كان يريد الملوك أنفسهم تخليد ذكراهم وفتوحاتهم كانوا يكتبون ذلك على جدران المعبد ويحرصون على تقديم الغنائم التى أعدوها للإله.

غير أن زيارة آثار الكاب تمثل تغيرًا طفيفًا فى هذا الخط من الانفعالات التى تنتاب من يزور صعيد مصر، وكانت تدعى قديمًا "إلوثيا" وقد لعبت هذه المدينة دورًا غاية فى الأهمية فى تاريخ مصر. وكانت إلوثيا محصنة بأسوار عالية

ما زالت باقية حتى اليوم، وهى تقع فى سهل واسع على الضفة الشرقية للنيل بالقرب من مضيق فى سلسلة الجبال الشرقية كان يسهل دخول الهيروشا أو البدو البشارية الذين كانوا يمثلون تهديدًا دائمًا للسكان إلى الأراضى المصرية. ولقد خرّبتها الحروب لكونها ميدانًا حقيقيًا للحرب فى العصور القديمة، فبقايا الأسوار ما زالت سليمة وتوجد بها كميات من القذائف التى استخدمت فى الهجوم عليها بين بقايا المبانى وأسوار المعابد المهدمة. ووجدت عند تفقدى لآثارها بعض الأحجار التى استخدمتها جحافل المحاربين القدامى وضُممتها إلى مجموعة مقتنياتى من التحف المصرية.

وما زالت جبانة إلوثيا سليمة وهى تقع فى جبل عال من السلسلة الشرقية. وترى فيها الكهوف التى استخدمت كمقاصير والآبار والمقابر. ولقد نهبت المقابر جميعها بسبب موقعها الواضح الذى أثار أطماع اللصوص والمخربين فى كل العصور. كما أن الموحدين فى طيبة اختاروا هذا المكان للانخراط فى عزلة الصحراء، وكانوا يُدفنون عندما تتوفاهم المنية فى تجويفات تصنع فى حوائط المقابر.

وأبرز المقابر المصرية فى الكاب هى مقبرة باصير التى تعد مصطبتها هى الأفضل فى مصر على الرغم من أعمال التخريب التى أحدثها الرحالة الذين يكتبون أسماءهم على التماثيل الحجرية فيها. ونرى على جدرانها أول ما نرى مناظر غريبة من حياة الحقل تسبقها أساطير هيروغليفية قصيرة تكون أحيانًا شروحًا للرسم وأحيانًا أخرى فى شكل حوارات على لسان الأشخاص المرسومين فى هذه اللوحات الشيقة. وعلى الحائط الأيسر فيما يلى باب الدخول نُقش نص لمحادثة بين عدة عمال:

- أريد أن أحفر وأحس أن لدى قوة عشرة رجال.

ويقول الآخر:

- إن حفر الأرض شيء ممتع.

ويقول آخر بيده محراث:

- إن الحقول خضراء.

ويجيبه من يأتى خلفه:

- نعم إن مياه النيل كانت أفضل من أى عام سبق.

أما صاحب المقبرة الذى رُسم بالقرب من هذا المنظر يتكئ على عصاه ويراقب العمال:

- انجزوا عملكم وأقلوا من الكلام.

وفى منظر يقع على يسار الداخل نجد مقطوعة غنائية تتحدث عن العامل الجيد وتقول:

- دعونا نعمل دون توقف فيجيبه الصانع:

- دعونا نعمل دون توقف وليكن الحَب لصاحب الأرض أما القش فلنا.. دعونا نعمل دون توقف.

وبجانب مناظر الحقل نجد موكب دفن مَن شيد هذه المقبرة. ونرى كل طقوس نقل المومياء مفصلة بإسهاب فنرى المراكب والعجلات الجنائزية والقرابين والجنازة وهى تتقدم فى الشوارع وفى النير متجهة ناحية الغرب.

إدفــــــــــو

وإذا عدنا إلى مجرى النيل نجد مدينة إدفو العربية. وهى ليست مبنية على ضفاف النير كالمدن السابقة. ويجب علينا عبور سيل ممتد بطول ثلاثة كيلو

مترات من المرسى حتى المدينة. وتعد إدفو مدينة صغيرة وفقيرة وقذرة، ويعمل سكانها بالزراعة، فلا يوجد بها مبنى يثير الاهتمام ولا آثار سوى معبدها المصرى الشهير الذى ما زال على حالة جيدة حتى الآن. ويكفى أن نقول فى هذا الصدد إن المعبد يُكنس كل يوم ولا ينقص جدرانه حجر واحد. ويمكننا القول إن كهنة أوزيريس هجروا ذلك المعبد بالأمس حاملين معهم تماثيل الآلهة تاركين مقاصير الآلهة فى مكانها خالية.

بنى معبد إدفو بالكامل فى العصر اليونانى فوق ما كان فى عصور سابقه مبنى دينى أزيل بالكامل لتشييد المبنى الذى نحن بصدده الآن. وقد بدأ بناءه بطليموس فيلوباتر وبنى قدس الأقداس والصالات المحيطة به ومقصورة الإله أثناء فترة حكمه. وأمر بطليموس فيلوباتر بتزيين بعض هذه الصالات ونقش اللوحات والنصوص على جدرانها. أما الفناء الكبير المحاط بالأعمدة فيرجع إلى عصر بطليموس يورجيتس الثانى. أما بهو المدخل فيرجع إلى بطليموس الإسكندر، وأخيرا يرجع بناء واجهة المعبد إلى بطليموس ديونيسس. ويلاحظ من تلك الأسماء أن المعبد بنى فى ١٧٠ عاما.

ولقد صعدتُ مرات عديدة إلى قمة الصرح كى أتأمل المبنى الذى يبهر الناظرين باتساعه وهناك أثارت فضولى أسماء فرنسية كثيرة نقشت على الأحجار. وهى أسماء الجنود من جيش بونابرت، وكانت كتيبة "بليارد" تعسكر فى إدفو مدة من الزمن، وأبحروا فى النيل حتى تخطوا الشلال الأول.

وكانت إدفو تدعى "دبو" فى مصر القديمة وسماها الإغريق "أبوللونوبوليس". وانتهى ماسبيرو من اكتشاف جبانتها حديثا. وترتفع ناحية الغرب مجموعة جبال تملؤها كهوف من صنع البشر حفرت كى تستخدم كمقابر، لكنها نهبت إلى حد أنه لم يبق منها أثر لنقش واحد أو لصورة آدمية. وفى السهل الممتد عند سفح الجبل ترى عظاما بشرية وعصيًا خشبية وأوانى من الطين متناثرة هنا وهناك، وتشير

كل الدلائل إلى وجود جبانة صغيرة من العصر اليونانى الرومانى. ولا نستطيع أن نجزم أن هذا المكان هو موضع جبانة إدفو الرئيسية التى ترقد فيها رفات كهنة حورس العظام وأمراء المدينة.

وبعد ثلاث سنوات من البحث انتهى ماسبيرو إلى العثور على جزء من هذه الجبانة منذ شهور قليلة بالقرب من قرية القصعة على بعد ساعتين جنوب إدفو، وتوجد بها ربوة ترتفع حتى عشرين مترًا تغطيها الرمال وتقطعها الممرات الرأسية والأفقية فى جميع الاتجاهات وتفصلها جدران رقيقة ومحطمة فى مواضع كثيرة منها بسبب ثقل الأحجار عليها. وجد بها بئر واحدة باتساع مترين وعمق ستة أقدام فى حالة جيدة، وباب منخفض مفتوح فى العمق يفضى إلى حجرة واسعة نعبر من خلالها إلى حجرة أخرى أكبر حجمًا. ووجدت كلتاهما مملوءة بالجثث، وهى ليست متراكمة فوق بعضها البعض كما نراها عادة فى المقابر الأخرى لكنها وضعت فى فتحات ضيقة مستطيلة ومقسمة إلى أجزاء مثل اللوكلى فى المقابر الرومانية. وكانت الجثث سوداء مهشمة يملؤها القار ويلفها زوج من اللفائف المربوطة بشدة حتى إن ملامح الوجه والصدر طُـبِـعَتْ على القماش. وتحتوى الحجرتان على أكثر من ٣٠٠ مومياء متشابهة، يرقد بعضها فى مكانه الأصلى والآخر ملقى على الأرض.

وفى الصالة الأولى عثر على اثنتين من رقائق الكرتون من العصر اليونانى الرومانى مذهبتان وتغطيهما الرسومات الجميلة لكنهما كانتا من الضعف بحيث إنهما تهشمتا عندما حاولت سحبهما من مكانيهما. كما وجد نصف شاهد قبر يونانى مكتوب بالشعر العامى. وبفضل النقوش الكثيرة لهذه اللوحة ورقـاقتى الكرتون كان من السهل علينا معرفة قصة تلك المقبرة. وهى تنتمى إلى فردين من عائلة إقطاعية كانت تحكم إدفو فى أواخر حكم البطالمة، وكانا يمارسان باسم الملك السلطتين المدنية والدينية، وبعد قرن أو اثنين من الزمان وفى عصر سبتميوس

سفيروس هُجـِـرت وحُولت إلى مقبرة جماعية حيث وضعت فيها مومياوات صغار عمال المعبد وذويهم. كل شىء فى هذا القبر يوحى بالبؤس والجيل، فلا يوجد به نقش واحد ولا رسم ولا تميمة ولا تمثال بائس لإله بجانب المومياوات، وبرغم ذلك لا تزال المومياوات مهمة، فهى تبين لنا مدى تدهور فن التحنيط والحفاظ على الطقوس الجنائزية فى واحد من أكثر المعابد شعبية فى صعيد مصر قبل مائة عام من ميلاد المسيح.

محاجر جبل السلسلة

وتفصل إدفو عن جبل السلسلة مسافة قصيرة، وهو مكان وعر ومعزول وقفر بدون حقول على ضفاف النيل ولا قرى ولا نجوع من حوله، ورغم ذلك فهو مكان عجيب ويستحق الزيارة. واجتمعت فى هذا المكان سلسلتا الجبال الليبية والآسيوية والتى تحد وادى النيل من الجانبين، وهما يمثلان عائقًا راسخًا فى طريق التيار شقـــه مجرى النيل الضيق. والحجر هنا جيرى صلد يميل لونه للبياض، ويمكن تشكيله بسهولة حسب نوع المبانى التى كان المصريون يشيدونها، لذا فقد اسْـتُـغِل جبل السلسلة منذ عصور سحيقة لفتح المحاجر الكبيرة التى كانت تـُشحن الحجارة منها بالمراكب بكل سهولة لأن المياه تجرى عند سفح الجبل.

كان الملوك الوثنيون كثيرًا ما يوفدون مندوبين ليشرفوا على استخراج الأحجار الخام، وقد تعود هؤلاء عند انتهاء مهمتهم على ترك ملحوظة بالعمل الذى أنجزوه منقوشة على لوحة حجرية، وكذلك اسم الملك الذى أمر بالعمل واسم الأثر الذى قطعت الأحجار من أجله. ومن المهم هنا ملاحظة الطريقة التى اتبعها المصريون فى تقطيع الأحجار بعد أن رأينا كيف أتقنوا بناء الأحجار فى مبانيهم. ففى المحاجر الأولى التى رأيناها فى طرة فى مواجهة الأهرامات كانوا يستخدمون

نظام الأنفاق أو الممرات التى كانوا يحفرونها على عمق كبير فى الجبال. وكانوا ينحتون بالإزميل والمطرقة فى الجوانب وخلف الكتلة التى يريدون انتزاعها، ولكى يفصلوها بالكامل كانوا يحفرون فتحات واسعة يغرسون فيها الأخشاب الجافة ثم يهيلون عليها الماء بكثرة. وعندما تتمدد الأخشاب ينكسر الحجر وتنفصل الكتلة.

وبالقرب من تلك الأنفاق كانوا يشقون الطرق المستوية تمامًا والتى يمتد أولها حتى مدخل هذه الأنفاق. وتبعًا لوزن الحجر كانوا يربطونه بالأحبال المناسبة ويسحبها العبيد بينما يحمل أحدهم جرّة على ظهره يسكب منها الماء على الطريق حتى ينزلج الحجر على الطين بكل سهولة.

ونلاحظ فى جبل السلسلة نظامًا آخر لاستخراج الأحجار. وكان ذلك النظام يتم بدون ضمان أو حماية، بمعنى أن الحجر يستخرج بقَطْعه من الأحجار الخارجية مع محاولة تدريج الأثر حتى يتم انتزاع الكتل الحجرية بسهولة. وقد سهّل قرب النهر كثيرًا انتقال الأحجار، فبعد أن تنتزع من المحجر كانت توضع فى مراكب تبحر فى اتجاه تيار النهر حتى تصل إلى المكان الذى سيتم استغلالها فيه.

كوم أمبو

ويبقى أمامنا الآن زيارة كوم أمبو. ففى أحد منعطفات النهر تندفع مياهه ناحية الضفة الشرقية فى هياج عنيف مما يجعل الشاطئ يتآكل شيئًا فشيئًا وباستمرار حيث لا يوجد ما يمنعه من ذلك. وفى هذا المكان بالضبط شُيِّدَ معبد كوم أمبو، وهو بناء بديع من العصر البطلمى لكنه مهدم جدًا وعلى وشك الاختفاء نهائيًا. ويقع أحد صروحه داخل مياه النيل، ولن يتأخر الصرح الآخر كثيرًا فى اللحاق بالأول، وبعد ذلك يلحق المعبد كاملاً بالصرحين، وهذا هو ما حدث تمامًا فى الإسكندرية مع قصر كليوباترا.

المسافة فى النيل من القاهرة إلى أسوان

ومن كوم أمبو ننتقل إلى أسوان حيث تنتهى رحلتنا وهناك تنتهى الأراضى المصرية. ويسير النهر هنا فى مجرى سريع بين الصخور شديدة الانحدار مكونا ما يسمى بالشلال الأول لإلفنتين وتمتد الحقول النوبية فى أعالى أسوان والتى يسكنها البدو البشارية. ودعونا نزورها بعضنا من الوقت حتى نرى جزيرة فيلة الشاعرية ثم نعود ثانية إلى البحر المتوسط عبر قناة السويس. وإليك جدول المسافة التى اجتزناها فى هذه الرحلة عبر النيل:

من القاهرة إلى البدرشين.................... ٢٣ كم

من البدرشين إلى ميدوم...................... ٩٢كم

من ميدوم إلى المنيا........................ ١٣٣كم

من المنيا إلى بنى حسن...................... ٢٣كم

من بنى حسن إلى ملـوى...................... ٢٧كم

من ملـوى إلى جبل أبو الفدا............... ٣٧ كم

من جبل أبو الفدا إلى أسيوط................ ٦٠ كم

من أسيوط إلى جرجا (أبيدوس)............ ٦٢ كم

من جرجا إلى قنا (دندرة).................. ٩٠ كم

من قنا إلى الأقصر (طيبة).................. ٦٠ كم

من الأقصر إلى أرمنت...................... ١٤ كم

من أرمنت إلى إسنا.....................٤٢ كم

من إسنا إلى الكاب.......................٢٨ كم

من الكاب إلى إدفو........................٢٢ كم

من إدفو إلى جبل السلسلة............... ٤٢ كم

من جبل السلسلة إلى كوم أمبو...............٢٤ كم

من كوم أمبو إلى أسوان...................٤٤ كم

من أسوان إلى فيلة........................٨ كم

المسافة الإجمالية من القاهرة إلى فيلة تبلغ ٩٢٩ كم، ولا بد من أن نتوقف هنا لأن أحداثا سياسية جعلت هذه المنطقة من مصر أخيرًا- والتى تمثل الحدود الطبيعية للبلاد - حذا للمنطقة التى تخص مصر قضائيًا.

أما على الخريطة فليس الأمر كذلك حيث نرى المملكة المصرية تتوغل ناحية وسط إفريقيا حتى تتصل بالبحر الأحمر من ناحية الشرق، وبالبحيرات العظمى من الجنوب وسهول الصحراء الشاسعة من ناحية الغروب. إلا أن تمرد الزنوج الهائل الذى وقع منذ ست سنوات فى أرجاء كردفان امتد على مجرى نهر النيل فى انتصار دائم حتى وصل إلى المنطقة التى تفصل بين الشلال الأول والثانى.

وسوف أتوقف هنا بعدما وفيت وعدى الذى قطعته على نفسى للقراء، والذين أهدى لهم هذا العمل. وفى صحبة القارئ الكريم قمنا برحلة كاملة "عبر الأراضى المصرية".

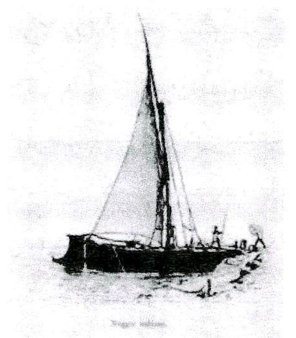
الفصل السابع والعشرون

أســـــــــــــــوان

ها قد وصلنا إلى نهاية رحلتنا. فعندما ندخل أسوان نرى أراضى مختلفة تمامًا. ويختلف أيضًا تكوين التربة وحتى مجرى النهر يختلف. ونلاحظ أن البلاد المصرية تتلاشى وأنه هنا تنتهى حدودها مع السهول النوبية الشاسعة.

ومدينة أسوان ذات منظر مبهج، وتغطى غابات النخيل حقولها الواسعة القريبة. وتحيط بها سلسلتا الجبال الليبية والآسيوية واللتان تشكلان قوسين كبيرين بديا وكأنها سيلتقيان على صفحة النيل. ووسط هذه المروج الخضراء ترتفع مدينة أسوان بمآذنها البهية وبيوتها التى يعج داخلها مختلف ألوان الفن العربى الأصيل وآثارها اليونانية والرومانية فى الخليج.

ولا يتعرف من زار أسوان منذ خمسة أعوام ويعود لزيارتها الآن على تلك المدينة إطلاقاَ. فمن قبل كانت شوارعها تعج دائمًا بالأشياء العجيبة. فلم تخل من اليهود واليونانيين ومحلاتهم المليئة بالأطعمة ودكاكين تغيير العملة ومحلات لعب القمار. وكان العرب والفلاحون والبدو والنوبون والبشارية والبلميون يحتشدون فى شوارعها الضيقة وميادينها الصغيرة مشكلين بذلك جموعًا ملونين بألون كثيرة غير متناسقة تقطن المدينة. وكانت ترى فى بازاراتها كل منتجات وسط أفريقيا من العاج والصمغ والراتينج وحتى العبيد الذين كانوا يجلبون مع قوافل الصحراء.



فلوكة نوبية

لكن أسوان تغيرت فى الأيام الحالية. فترى الخيام من الخيش الأبيض للمعسكرات الإنجليزية تحتمى بغابات النخيل الخضراء. وتشم رائحة الاستعمار الأجنبى فى كل مكان من البر والبحر. كان الميناء يمتلئ من قبل بمراكب التجار من كل نوع وبالمراكب العربية الخفيفة والدهبيات المخصصة للتنزه والمراكب النوبية العجيبة العالية التى تتميز بصارٍ ضخم وحيد يتوسطها، وعادة ما يكتظ قاعها بالكثير من البشر. أما الآن فقد اختفت كل أنواع الملاحة النهرية فى أسوان ولا يرى على ضفافها سوى رجال المدفعية من الإنجليز والمراكب التى تحمل المؤن والعتاد الحربى لقوات الحملة.

وثمة تغير موازٍ حدث داخل المدينة. فالبازارات مهجورة والمحلات خالية، حتى سكانها تقاعسوا بسبب ركود التجارة التى كانت الشريان الرئيسى لحياتهم. لقد قضى التمرد فى السودان تمامًا على هذا البلد وجعل منه أكثر البلدان فقرًا وبؤسًا.

وتتساوى ضواحى أسوان بها فى الفقر والعزلة، تلك المدينة التى شيدت حول الشلال الأول. ففى المنطقة الجبلية لا يوجد أى نوع من الزروع، ولا يرى فيها غير التباب المرتفعة من الرمال والتى تعلوها أحيانًا أطلال معبد قديم أو تزينها مآذن مسجد ما أو قباب الأضرحة العربية.

وما زالت أسوان رغم كل ذلك مركز جذب كبير للزوار. فعلى شاطئها الغربى نرى الجبال العالية التى كانت الجبانة القديمة للمدينة والتى يدعوها المصريون باسم "أبو" والتى تحدث فيها الاكتشافات المهمة باستمرار لأنها لم تستغل كثيرًا. ففى العام الماضى وعند وجودنا فى صعيد مصر وصل إلينا فى طيبة خبر العثور على أثر مصرى عجيب فى هذا الجبل. ووصلنا فى أيام قليلة

إلى أسوان، وكان همى الوحيد أن نزور موقع الاكتشاف الذى لم تتضح بعد ماهيته. فقد وصفه أحد الزوار القلائل الذين رأوه بأنه معبد، معللاً ذلك بوجود ثمانية أعمدة ضخمة ومرتفعة ومتراصة فى صفين يستند عليهما السقف. وأيقنت بعد نظرة أولية سريعة للمكان أنه كان مقبرة بطلمية بُنيت داخل مقبرة ضخمة تعود للدولة القديمة.

إن صعود الجبل مؤلم جدًا وتبعث شمس الصحراء الليبية حرارتها بكل قوة وتعكس أشعتها على صفحات رمال الصحراء البيضاء التى تكدسها رياح الجنوب على جانبى الجبل. وفى الثلث العلوى منه وجدت مدخل المقبرة يُفضى إليه سلم مائل نُحت فى الحجر كان بعض الجنود المصريين الذين يتجولون فى هذه المنطقة ذات يوم قد اكتشفوه بالمصادفة. وعند وصولى لم تكن الأحجار والأنقاض قد أُزيلت بعد أن وكانت تسُد الباب ولا تسمح بالدخول عبره إلا بصعوبة. وفى داخل المقبرة لم نـرَ إلا أكوامًا من الجثث البشرية المشوهة، وبعض اللوحات الحجرية نُقشت على أحد وجهيها نقوش جنائزية باللغة الهيروغليفية.

وعلى يسار المدخل وجدتُ نقشين منحوتين على الجدار الحجرى. ورغم كونهما فى حالة سيئة جدًا نجد أنها مناظر لحياة الريف فى حقول أعالو حيث يذهب المصريون الذين ترضى عنهم الآلهة طبقًا للمعتقدات القديمة. واستنتجتُ من طريقة نحت التماثيل ومن النقوش التى عليها أن تلك المقبرة تخص "سى رن بتو" وهو من كبار الموظفين الذين عاشوا إبان حكم الأسرة السادسة فى الفنتين منذ حوالى ٥٥٠٠عام(١).

ونستطيع أن نؤكد بالبرهان أن هذه المقبرة فُتحت فى حقبة تالية على بنائها وخُصصت لأغراض أخرى. ويغلق الجبل الوعر- الذى يمتد موازيًا للنهر بصورة طبيعية ممثلاً عائقًا لا يمكن تجاوزه- الطريق إلى الصحراء حيث اعتاد

(١) حكمت الأسرة الخامسة مصر منذ حوالى ٤٥٠٠ عام فقط (المترجم).

المصريون نحت مقابرهم. ولا بد أنهم افتقروا إلى المساحة اللازمة لتوسيع الجبانة لسكان أسوان، لذلك فمن المؤكد أن متعهدى المقابر قد أخرجوا فى مناسبات عدة الأشخاص الذين اندثرت أسرهم من المقابر القديمة الواسعة ووضعوهم فى مقابر أخرى مهجورة لم تسترعِ انتباه أحد لقدمها الشديد. ولذلك السبب فقط يمكن أن نفسر العثور على مومياوات العصر الصاوى والفارسى والبطلمى فى مقبرة ترجع إلى الدولة القديمة.

وفى مقبرة "سن رن بتو" كانت الجثامين ملقاة على الأرض دون أدنى ترتيب، وقد وضعت فوق بعضها البعض ممزقة مكونة كومة مساحتها أكثر من ٣٠٠م وارتفاعها حوالى ستة أقدام. واختلطت معها التوابيت المحطمة واللوحات الجدارية التى انتزعت من مقابرها الأصلية. واستطعت أن أحصل على اثنين من تلك الأحجار العجيبة التى تحتوى على نقوش باسم أصحابها، وأحضرتُـها إلى إسبانيا. وقد تحدثت من قبل عن واحد منها عند الحديث عن شواهد القبور التى اعتاد المصريون القدماء وضعها فى مقابر موتاهم. أما الآخر فهو حجر رملى أحمر وهو ناقص للأسف من الناحيتين العليا واليمنى. على أن النقوش ما زالت سليمة تقريبًا ونقرأ فى أربعة سطور منها:

قرابين جنائزية من الخبز والنبيذ واللحم والبخور

وكل الأشياء الطيبة الطاهرة.

إلى قرين أوزيريس المدعو تيس"

ابن سويتى إيريتس.

وهذا الحجر الحديث نسبيًا ينتمى إلى السنوات الأولى من العصر الرومانى. وهو موجود الآن فى متحفنا القومى للآثار.

وتم اكتشاف مقبرتين أخريين أثناء وجودى فى أسوان بجبانة المدينة. وزرت إحداهما يوم ١٥ فبراير سنة ١٨٨٦، وهى تقع على بعد ٢٠٠ متر من المقبرة التى فصلنا القول فيها. ووجدتها منهوبة منذ القدم وحُولت إلى مخزن للوحات الجدارية المنزوعة من مقابر أخرى. وبعد عبور الباب تجد ممرًا عاليًا وضيقًا ومنحدرًا، تعلو جدرانه على الجانبين الرسوم والنقوش. فعلى اليسار نرى صاحب القبر وهو أسود اللون عارى الجسد يزين رقبته عقد مميز كان الملوك يقلدونه أتباعهم المخلصين، وفى صحبته ولد. وكان الرجل موظفًا كبيرًا يمارس مهام حاكم"أبو" إبـَّان حكم الأسرة الطيبية. وعلى طول الممر ترى أربع مومياوات متحجرة تستند إلى الحائط كالتماثيل، ولم يسبق لى أن رأيت شيئًا كهذا فى أى من القبور.

وفى النهاية نجد حجرة الدفن وقد رسم فيها منظر جميل يمثل صاحب المقبرة وهو يقدم وعاء الشراب لأوزيريس إله الموتى، الذى يجلس على عرشه. وبفضل مصباح الماغنسيوم تمكنت من التقاط صورة جميلة لهذا الرسم الشيق.

وفى المقبرة الأخيرة غزت الرمال الحجرات والممرات وجعل الحطام المتهدل من الأحجار مهمة استكشاف المقبرة أمرًا خطيرًا. واستطعت فقط إدراك مساحة تلك المقبرة الشاسعة والتى تحتوى على ممرات عديدة وآبار عميقة، كما رأيت بداية نقوش عظيمة نحتت على أحد الجدران الخارجية. وحتى يتم إخراج الرمال والأحجار المتهدلة من السقف بطريقة مناسبة لن نستطيع دراسة هذا القبر الذى يبدو أنه خـُـرِّبَ منذ زمن بعيد.

وكانت منطقة "أبو" القديمة فى نفس المكان الذى تشغله مدينة أسوان الحالية على الضفة اليمنى للنيل. ولم يبق منها سوى أطلال قليلة. ونرى بجانب الميناء سورًا وبرجًا مهدمين تقريبًا، ويبدو أنهما بنيا فى العصر الرومانى. وعلى مسافة قصيرة من المدينة يوجد معبد بطلمى اكتشفه "مارييت" منذ عدة سنوات. وبالقرب منه توجد محاجر الجرانيت الأحمر التى استغلها المصريون القدماء.

محاجر الجرانيت

وعند زيارة الآثار المصرية الموجودة على ضفتى النيل من منطقة الدلتا وحتى حدود الفنتين نلاحظ الاستخدام المتنوع للجرانيت الأحمر من جانب المصريين في الحقب المختلفة للتاريخ المصرى. ففى عصر الدولة القديمة استخدم هذا النوع من الأحجار بوفرة في جميع المبانى، فيحتوى هرم خوفو على عدة كتل منه، وما زال هرم منقرع تزينه تلك الأحجار التى وضعت فى الكسوة الخارجية له. وفى معبد أبى الهول بالجيزة استخدم ليس فقط فى كتل الأحجار الضخمة التى يستند عليها سقفه ولكن أيضًا فى السلالم والأرضية وفى كسوة الجدران. واستخدم المصريون خلال الأسرات الأولى جرانيت "سينى" بوفرة، ومن المفترض أنهم نظموا أعمال قطع الأحجار من المحاجر ونقلها عبر النيل بإتقان كبير.

وفى عصر الدولة الوسطى، أى فى عصر الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة من العصر الوثنى بدأ الاقتصاد فى استخدام الجرانيت. فكان يستخدم أيضًا فى الأهرامات ولكن على هيئة كتل متفرقة كما رأينا فى سقارة كى يضمن بفضل صلابته ثبات الممرات المؤدية إلى حجرات الدفن. كما استخدم فى عمل تماثيل أبى الهول. وأخيرًا، وفى العصور التالية منذ العصر الطيبى وحتى العصر البطلمى استخدم الجرانيت مرات قليلة إذا ما قيس بعدد الآثار التى بنيت فى أنحاء البلاد. واقتصر استخدامه على المسلات وعقود بعض الأبواب وتماثيل الآلهة. لكن ثمة صعوبات ظهرت جلية أجهدت المعماريين والفنانين المصريين فى الحصول عليه، ويظهر ذلك فى الاستخدام القليل جدًا للحجر. وتستخدمه محاجر أسوان حتى الآن رغم أننا نرى فى أحد جوانبها مسلة ناقصة حتى يومنا هذا.

ومن العجيب أن نشرح فى هذا المقام النظام الذى استخدمه المصريون لاستخراج الجرانيت من سينى وكذلك الديوريت والبازلت والجرانيت الرمادى والأسود والألباستر وأحجار أخرى أقل شيوعًا استخدموها فى آثارهم. وتقع المحاجر التى توجد بها تلك الأحجار بعيدًا عن طريق الاتصال فيما عدا محاجر أسوان، وكان لزامًا عليهم إحضارها عبر الصحراء بالقرب من وادى غراوى وجنة والحمامات.

يذكر ماسبيرو فى كتابه الممتاز والذى نشر منذ قليل عن الآثار المصرية أن الآبار حفرت فى طريق المحاجر لتسهل مهمة العمال، كما حفرت البحيرات فى الأودية كى يجد العمال المياه اللازمة لإعاشتهم. وكان عمال المحاجر عبارة عن جماعات من العمال المتطوعين والعبيد والمجرمين والمدانين من العدالة، وكانوا يعيشون فى بؤس تحت نير سياط حفنة من رؤساء العمال ويشرف عليهم مجموعة من العساكر المرتزقة الليبيين والزنوج. وبمجرد حدوث أقل الثورات أو أهون الحروب أو الانتقال غير السلمى للسلطة الملكية يستتبع ذلك زوال هذه المنشآت فيهجرها العمال ويغير عليها البدو وينفد صبر رؤساء العمال فيعودون إلى وادى النيل ويتوقف العمل فى المحجر. وفى وسط الخليج الواسع الذى يشكله النيل عند أسوان توجد جزيرة صغيرة ما زالت تحتفظ باسمها اليونانى "إلفنتين". وتعد حقولها حدائق جميلة تظلها غابة من النخل العالى. وتمتد البيوت فيها ناحية الشمال فى قريتين صغيرتين يقطنهما النوبيون خاصة، وفى الجنوب نرى أطلال مبان قديمة من معابد وقبور وهى للأسف مهدمة فى أيامنا الحالية.

عندما وصلت البعثة العلمية المصاحبة لحملة نابليون الفرنسية إلى الشلال الأول فى نهاية القرن الماضى وجدت فى إلفنتين عدة آثار مهمة من بينها معبدان أطلق عليهما المعبد الشمالى والمعبد الجنوبى. وكان الأخير جميلاً بالإضافة إلى أنه يعد نوعًا مختلفًا عن النظام الذى اتبعه المصريون فى تلك المبانى. فكان شكله الخارجى يشبه معبدًا إغريقيًا. وقد دمر كلا المعبدين حاكم أسوان التركى عام ١٨٢٢.

بقى القليل من الآثار التى تسترعى الانتباه فى إلفنتين. وتوجد كتلة من الحجر الأبيض تمثل أوزيريس يستند على حائط أحد المنازل ويمكننا قراءة اسم مرنبتاح على القاعدة بصعوبة، وهو ابن رمسيس، وهو علامة على المكان الذى بنيت فيه واجهة معبد فى عصر أمنحتب الثالث، وغنى عن القول إنه لا يوجد أى أثر لذلك المبنى. وبالقرب من النهر على الجانب الشرقى توجد أسوار كبيرة ثابتة نجد بينها مقياس النيل الذى ما زال باقيًا، وكان يستخدم قديمًا لمعرفة كمية المياه فى وقت الفيضان. وبجانبه نجد نوعًا من القلاع أو أبراج المراقبة المنشأة على النيل، ويبدو على المبنى أنه يونانى أو رومانى، لكن ترى على أحجار أسواره الكبيرة نقوشًا ناقصة من عصر سابق مما يدعونا للاعتقاد بأن تلك الأحجار انتزعت من مبان أخرى.

وتعتبر الناحية الجنوبية من إلفنتين الأكثر تعرضًا للدمار. فتغطى أرضه أكوام الحطام العالية والبيوت المهدمة حتى الأساس ومقابر ما زالت تحتفظ حجراتها بالمومياوات السوداء المهمشة ولفائفها المقطعة إربًا إربًا، والجثث المكدسة فى أكوام تثير النفور. وعند المرور بهذا الركن من الجزيرة تحزن النفس لرؤية كيف أسفر الطمع البشرى عن كل هذا الدمار.

الشـــــلالات

وإلى الجنوب من إلفنتين نجد الشلال الأول، وتحده سكة حديد صغيرة من الضفة الشرقية تمتد لمسافة عشرة أميال. وقد بنيت فى عصر إسماعيل باشا لتسهيل الأحمال على المراكب التى لا تقدر على هبوط أو صعود تيار النيل فى هذا المكان. ولكى نرى الشلال هناك طريق أخرى شكلها قاع النهر القديم وهو جاف الآن ويمتلئ بالحصى الصغير المستدير.

يتغير فى هذه المنطقة المنظر الذى تعوّد عليه الزائر تمامًا، فتختفى السهول الفسيحة والحقول الخضراء وخطوط الرمال الناصعة كما لو كانت قد سحرت، وتضيق سلاسل الجبال حتى تتقابل الجبال فى حزمة ضيقة كما لو أن هذا التلاقى حدث بعد صدام عنيف، وترى أشكالاً من الأحجار الهائلة المحطمة، والحصى الضخم المصقول اللامع، والجبال المقطوعة بالإزميل والهاوية التى لا يرى لها أعماق. كما يتغير أيضا شكل الأحجار. فلم نعد نرى تلك الأحجار الجيرية البيضاء التى تحيطها الرمال مكونة كتلة متماسكة فى السلسلة التى تتماوج بتناسق معين على طول ضفاف النيل، بل نرى على عكس ذلك أحجار الجرانيت الأحمر الذى كسته الشمس بالسواد وهى عبارة عن كتل ضخمة متباعدة تتراكم فوق بعضها فى فوضى غريبة جدًا. ربما تعتقد عند رؤية المكان أنه كان ميدانا لتراجم فظيع دار بين جيشين من العمالقة.

وينطلق النيل من بين تلك الأحجار فى أوج ثورته ثم يتحول إلى زَبَد عندما يصطدم بالعوائق التى فى طريقه. وتنساب مياهه كالثعبان بين الأحجار التى تردعها مرة وتتخطاها الأمواج مرات أخرى مسرعة فى قنوات ضيقة وتنساب فى سرعة تصل إلى ثمانية أو عشرة أميال فى الساعة. وعندما تقل مياه النيل تزيد سرعة التيار، لكن عند زيادتها تنقص السرعة بسبب عرض النهر الذى يتسع أكثر. وفى الواقع فإن ما يسمى بشلال النيل ليس هو ذلك الشلال أو مسقط المياه لكنه ببساطة قطْع لمجرى النيل نتيجة لعــقَــبَة فى طريقه، وتتضاعف الصعوبة عند مرور المراكب لسرعة تياره وبسبب الصخور التى تحت السطح والتى تملأ مجرى النهر.

ولرغبتى فى تأمل النيل فى هذا المكان فقد عسكرت ليلة فى نجع الشلال البشارى، وفى الصباح التالى أخذت مركب أحد شيوخهم كى أهبط لمسافة صغيرة من أعلى جزء فى الشلال. ويثير المكان الإعجاب لوحشته. وعلى القاع الصخرى

الذى تبرز سنونه المدببة على سطح المياه كصخورتحتية خطيرة انطلق النهر دون شفقة حاملاً مركبى الذى استطاع ثمانية من البحارة البدو بالكاد أن يحافظوا عليه بعد جهد جهيد. وعندما بدأوا التجديف ارتجلوا أغنية مؤثرة كان إيقاعها بمثابة بوصلة تحدد اتجاههم، وكان تأثيرها مدهشا، وكانوا يغنون:

- آه وآه ، لـبسّـه لـبسّـه وى.

وتردد جوقة المجدفين :

- لـبسّـه وى

- آه ومانى الـسلى

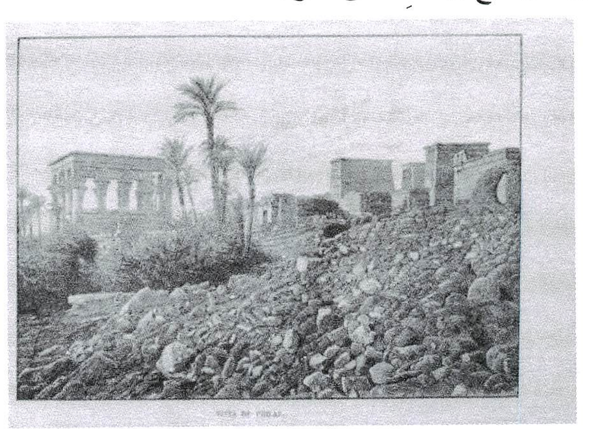
- لـبسّـه وى.

ونزلت على جزيرة سهيل الصغيرة الواقعة جنوبى الشلال وعلى أحجارها الضخمة وجدت مئات من النقوش المحفورة عليها فى قديم الزمان لإحياء ذكرى أولئك الذين نجوا من هذا الممر الخطير. وهى إما مصرية أو إغريقية. كان بعضها عبارة عن مجرد اسماء لأشخاص والبعض الآخر يحمل شكر المسافرين لإله الشلال على إنعامه عليهم بالعبور سالمين غانمين من أراضيه. كما توجد أسماء لملوك وقواد سجلوا عبورهم فى هذا المكان فى حملات عسكرية عديدة قامت ضد بلاد النوبة والسودان. وأذكر أنى رأيت خراطيش تحمل اسم رمسيس من بين أسماء أخرى، وقد كتبت مقترنة باسم والده أحيانًا ووحيدة أحيانًا أخرى.

جــــزيرة فيــلة

وأخيرًا نصل إلى فيلة الشهيرة، تلك الجزيرة المقدسة التى خبا فيها آخر بريق للديانة المصرية مذ ثلاثة عشر قرنًا فقط. ويكوّن النيل فى المنطقة الجنوبية

من الشلال بحيرة شاسعة تحدها الجبال العالية من حجر الجرانيت، وتبرز فى وسطها الجزيرة الصغيرة بمعابدها الرشيقة وجريد النخيل وزروعها الخضراء، وهى واحة حقيقية من الحياة النضرة وسط منطقه قفرة وملتهبة وخلو من الحياة. فتبدو كأنها زمردة رُصّع بها عِقد من الفولاذ.



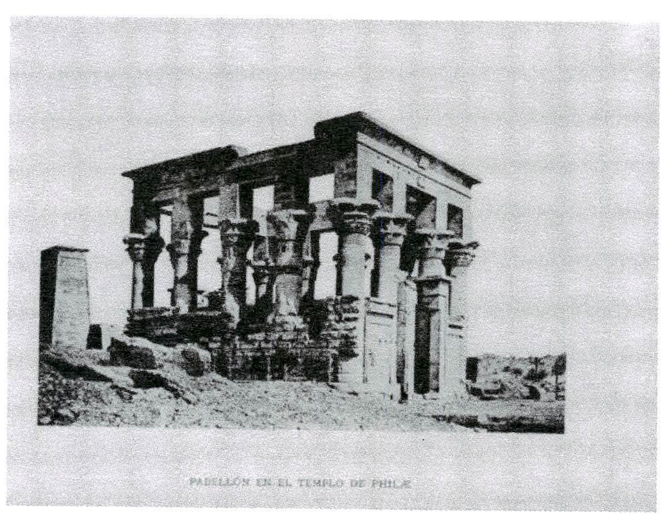
منظر عام لجزيرة فيلة

أما آثار فيلة فهى بديعة ليس فقط للمعجزات الفنية التى تحويها ولكن لموقعها العجيب الذى بنيت فيه. وتعد مبانيها أفضل ديكور مسرحى يمكن أن يحلم به أى رسام شهير للمناظر، وهذا هو السبب فى أن كثيرين أرادوا استخدامها للفصل الرابع من أوبرا عايدة. ورغم ذلك، فلا ألوان ولا أوصاف يمكن أن تعطى فكرة عن الجمال الشاعرى لهذا المكان الذى يطرب أى زائر وينتزع صيحة الإعجاب من أكثر الأشخاص برودًا وأقلهم تأثرًا.

معـــــــــابدها

وأول ما يرى من فيلة هو الصرح أو الكشك الحجرى الواقع فى الجزء الشرقى من الجزيرة، لأنه يبرز فى أفضل مكان للجزء البارز من الجزيرة. أما

المعابد فهى عظيمة أيضًا ويوجد بعضها فى حالة عادية وما زالت تزينها أعمدة اللوتس الرشيقة التى طليت تيجانها بالألوان المتألقة. كما ترى الصروح التى تغطيها النقوش الرقيقة ومسلة على طرف الأروقة المتصلة بين المرسى الجنوبى ومعابد الشمال.


PABELLON EN EL TEMPLO DE PHILÆ

جزء من معبد فيلة

الملاذ الأخير للديانة الأوزيرية

لكن الأفضل من وصف فيلة بالتفصيل هو تأملها فى مجمعها المهيب الذى ليس له مثيل فى مصر. كانت الجزيرة مكرسة لعبادة الإلهة إيزيس فى عصر الأسرة السابنية - نسبه إلى سابنى - حوالى عام ٣٥٠ ق.م. وبدأ آخر ملوك تلك الأسرة المدعو نختانبو الثانى تشييد المبانى الدينية المخصصة لعبادة الإلهة التى كانت أختًا لأوزيريس، والتى زاد تقديسها فى عصر البطالمة وحتى قرنين أو ثلاثة من حكم الرومان. ووصلت القوات الإمبراطورية حتى فيلة وجعلوها نقطة مهمة

وخطا حدوديا للهيمنة الرومانية، وأقاموا عليها بعض التحصينات التى ما زالت آثارها باقية حتى الآن، لكنهم ما انفكوا يحترمون ديانة المعبودة إيزيس التى انتشرت بقوة ليس فقط بين المصريين فى الشمال ولكن بين البلميين والنوبيين فى الجنوب. وكم كانت قوة إيمان أولئك الوثنيين حتى أن مراسيم تيودوسيو[١] لم تفلح معها فى عام٣٩١م، ولا اضطهاد المصريين الذين كانوا يعبدون آلهة أخرى لهم فى أودية النيل القريبة.

واضطر الأباطرة الرومان والملوك البيزنطيون إلى التصالح مع معتقدات سكان جزيرة فيلة ومن تبعهم كذلك من القبائل البدوية فى أعالى النيل. ولذا فعندما وصل ماكسمينو وهو أحد قواد مارسيانو عام ٤٥٢م، إلى أسوان على رأس جيشه فقد وقع معاهدة سلام مع البلميين تستمر لمدة مائة عام تعهد فيها باحترام عبادة إيزيس فى الجزيرة والسماح للنوبيين بمواصلة عاداتهم فى النزول بموكب عبر النيل وحمل الآلهة فى مراكبها الذهبية عندما يذهبون لأخذ مشورتها. أى أن إمبراطورية بيزنطة المتعصبة تنازلت عن قسوتها بل وسمحت بعبادة الآلهة الوثنية العلنية داخل أراضيها.

وهكذا استمرت فيلة حتى عام ٥٦٠م. وأراد جوستنيان القضاء على الديانة المصرية، ولذا بعث بالقائد "مارسيس دى برساميننيا" إلى الجزيرة كى يصلب تماثيل إيزيس الموجودة بالمعابد ويرسل بها إلى القسطنطينية. وتم تنفيذ الأوامر وحينئذ انتهت رسميًا ديانة أوزيريس فى مصر.

---

(١) تيوديسيو الأول، العظيم، إمبراطور رومانى (٣٧٩-٣٩٥). انتصرت بفضله المسيحية على الوثنية. وخضع لسلطة القديس إمبروزيو بعد مذبحة الثوار فى تيسالونيكا.هزم البربر مرات عديدة وحافظ على الإمبراطورية من الانقسام والتى انقسمت بعد وفاته بين ولديه أركاديو وهنوريو. لاروس- طبعة ١٩٨٨، ص ١٤٩٩ (المترجم).

ولكن هل محيت من الوجدان الشعبى؟ إن تأكيد ذلك ضرب من ضروب الطيش. فاسألوا البدوى القاطن بمنطقة الشلال عن سبب فيضان النيل فى حقبة معينة من العام، فسيقول لكم إن إيزيس تبكى فى السماوات غيابها عن الجزيرة الحالمة. وقولوا له؛ ما المصير الذى يعتقد أنه ينتظره ساعة الموت، سيجيبكم بأن محكمة العدالة سوف تسمح له بالإبحار فى مركب الشمس برحمة منها. فما زالت كل التقاليد حية، والذكريات الكثيرة باقية، وبعض معتقدات الديانات القديمة متأصلة. إن الديانة التى عاشت ٧٥٠٠عام لم تختف بسهولة.

الفصل الثامن والعشرون

الاحتلال الإنجليزى

ذكرت أن أسوان تعد حاليًا معسكرًا للإنجليز، لكنى لم أشرح بعد الأسباب التى أدت إلى احتلال قوة خارجية لمصر وإرسال جيوشها إلى منطقه الشلال الأول النائية التى تبعد حوالى ألف كيلو متر عن الساحل.

ومن المنطقى أن نفترض أنه عند اندلاع أحداث الإسكندرية التى سبق ذكرُها فى بداية هذا الكتاب، وصل صدى ثورة الجيش الوطنى إلى محافظات كردفان ودارفور والسودان والتى انضمت إلى المملكة المصرية فى أوائل هذا القرن، والتى لم تتصالح منذ ذلك الحين مع الحكام الجدد. كما أن الاتجاهات السياسية للخديو فى السنين الأخيرة تسببت فى تذمر كبير فى هذه المناطق، وعلى الأخص منذ أن قيد النفوذ الأوربى حجم تجارة العبيد السود التى كانت مصدر ثراء لزعماء وشيوخ القبائل السودانيين. لذا فكان من المنتظر أن ينتهز هؤلاء أول فرصة كى يتحرروا من نفوذ المحتلين.

تمرد محمد أحمد فى كردفان

ولم يكن تصرف الحكومات المصرية فى مناطق أفريقيا الوسطى عملى دائمًا ولا سليمًا. فبالغت فى تطبيق إجراءات تهدف إلى تغيير النظام الاجتماعى لهذه البلاد مما أسفر عن قلاقل وانقلابات خطيرة. ولذلك فعندما علم السودانيون بالتمرد فى القاهرة والقصف فى الإسكندرية ثاروا بأسلحتهم ضد الحكومة المصرية وتجمعت عصابات عديدة من الثوار السود فى محافظة كردفان ونادوا بعجوز أسود يدعى محمد أحمد رئيسًا وزعيمًا لهم، أطلق على نفسه لقب المهدى أو الولى المنتسب إلى علىّ – صِهر النبى محمد – وأنه مُنِح النبوة مثله تمامًا، وكانت دعوة



محمد أحمد "المهدى"

الحرب لتلك العصابات سياسية ودينية، فلم تكن موجهة فقط ضد المصريين ولكن ضد الأوربيين أيضًا الذين هددوهم بالهلاك إذا لم يغادروا الأراضى الأفريقية فى الحال. ووجدت هذه الثورة صدى فى الحال فى الأراضى النوبية المتاخمة للبحر الأحمر. واعتقدت الحكومة المصرية أنها تستطيع السيطرة على التمرد بقواتها فقط لأنها لم تعطِ فى البداية أهمية لذلك التمرد. فبعثت فى خريف عام ١٨٨٣م، جيشين عربيين تحت قيادة ضباط إنجليز أحدهما جيش كبير وصل إلى عشرة آلاف جندى ويقوده الجنرال هيكس والآخر مكون من ٣٥٠٠ جندى تحت قيادة بيكر باشا. وانهزم الجيشان أمام التفوق العددى للعدو وظروف الصحراء الصعبة فأبادهما الثوار ودحروهما ولم ينج من جيش هيكس سوى ثلاثة آلاف جندى مكثوا فى السودان.

الجنرال جوردون

وملأت هذه الكارثة المفجعة الحكومة المصرية بالذعر وكذلك القوات الإنجليزية التى كانت تحتل البلاد. ولم يكن يتخيل أحد هذه النهاية المشئومة التى

عرضت أمن الخرطوم وبربرة وكسلا ودنجلة للخطر كما هددت بالقضاء على أهم مصادر الثروة فى مصر بعرقلة التجارة فى النيل. وفى هذه اللحظة الحرجة وهزيمة الجيش المصرى وعدم إمكانية تنظيم حملة أوربية تستطيع احتواء غضب الثوار السودانيين سريعا تم اللجوء لاستخدام نفوذ الجنرال جوردون فى وسط أفريقيا والذى كان يحكم هذه المناطق باسم الخديو منذ عدة سنوات. وفى يوم ١٨ فبراير سنة ١٨٨٤، عبر جوردون بعدما عينه الإنجليز فى خدمة الحكومة المصرية صحراء البيوضة متجهًا إلى الخرطوم حيث لقى حتفه بعد ذلك.



الجنرال جوردون

ولم تكن تلك المرة الأولى التى يشترك فيها جوردون فى مغامرات غريبة بل على العكس، فمنذ وقت طويل كان يجوب العالم يحدوه نشاط لا يتوقف إلى خدمه كل القضايا الصعبة. فخدم فى تركيا التى كانت تناضل ضد النفوذ المسيحى. وهو مثقف إسكتلندى موال لمذهب المحافظين الذى نشأ عام ١٦١٦م، وهم الذين لا يقبلون أى حرية دينية ويساندون القيود الصارمة لما تسمى Low-Church [(١)]

(١) تعنى المقلل من شأن الكهنة والمؤكد على المبادئ الإنجيلية – قاموس المورد- منير البعلبكى ١٩٩٧ (المترجم).

الإنجليزية. كما حارب فى الصين ١٨٦٠م، فى خدمة التتار الإمبرياليين ضد شعب مظلوم ومستعمر كان يتوق إلى الاستقلال. وحارب أيضًا فى زولولاند ضد السيتى وايو، وفى رأس الرجاء الصالح ضد البويرس[١]. ومجمل القول إنه يمثل التناقض الأبدى بين أفكاره وأفعاله وقد ظهر ذلك جليًا مرة أخرى فى حملاته فى مصر. ووصل إلى مصر لأول مرة عام ١٨٧٤، وعهد إليه الخديو بمهام معينة على درجة من الأهمية دعته إحداها إلى ركوب النيل حتى الحدود الغربية لكردفان بهدف مطاردة تجارة العبيد فى آخر معاقلها.

ومن الأهمية بمكان أن نعرف أن المطاردة التى تقوم بها إنجلترا اليوم لتجارة العبيد فى مصر هى أفلاطونية خالصة. فبينما كان تجار العبيد يجوبون السواحل الشرقية لأفريقيا ويرسون فى الخلجان الخفية باحثين عن حمولة من اللحم البشرى، كانت المراكب البريطانية تطاردهم بلا هوادة. ويعلقون على صوارى مراكبهم من يضبطونهم فى حالة تلبس بالجريمة. وعندما علم فلاسفة لندن المدافعون عن حقوق الإنسان بعد ذلك عن طريق الحملة الحربية على الحبشة ومن رحلات ليفنجستون وسبيك وبيكر أن شعوب وسط أفريقيا لا تعيش إلا بتحطيم بعضها البعض فى الوقت الذى كان يحصل فيه رؤساؤهم على مكاسب من تلك التجارة عدلوا عن رأيهم. وغضت وزارة "سانت جيمس" الطرف عن الحقيقة المؤلمة وعن حكام عدن على ساحل شبه الجزيرة العربية أيضًا. وحتى اليوم تسمح لتجار العبيد أن يجوبوا بمراكبهم القارة الآسيوية عبر مضيق باب المندب. ومن آن لآخر يندون بتجارة العبيد تظاهرًا بالحفاظ على المبادئ ولتحسين صورتهم. ولكن ذلك لم يعد يحدث الآن، فهى لا تؤيد اعتراضها بالقوة لكنها اقتصرت على إرسال بعثات علمية متواضعة إلى أعالى النيل لإسداء النصح الجميل إلى السودانيين والبدو وأهالى دنقلة ثم تعود تلك البعثات معتقدين أنهم حققوا شيئًا. فإنجلترا هى بلد مُحسن إلى البشرية بالقدر الذى تتطلبه مصالحها.

---

(١) كلمة هولندية تعنى الفلاحين وهى مستعمرة فى إفريقيا الجنوبية من أصول هولندية هزمهم الإنجليز بعد عامين من الحرب عام ١٩٠٢-لاروس، ص ١٠٣٢ (المترجم).

وأكدت الحملة المبعوثة إلى أفريقيا الاستوائية عام ١٨٧٤م، بقيادة جوردون على السياسة البريطانية فى هذا الشأن. وتبرعت إنجلترا فقط بشخص الجنرال تاركة لمصر المشاركة بالرجال وتكاليف الحملة. وعندئذ يظهر جوردون بكل صفاته الحسنة وعيوبه. ولو كانت دروس الماضى تفيد بالنسبة للمستقبل لما تورط من جديد وبعد عشر سنوات فى مناطق كردفان التى لم يحالفه الحظ فيها فى حملته الأولى.

وتكونت هذه الحملة من جوردون والقادة لونج وكامبل ولينت وروسل والمهندس كمب والذين انضم إليهم بعض الضباط من الجيش المصرى. وخرج جوردون من القاهرة فى ٢١ فبراير لعام ١٨٧٤، وأبحر من السويس قاصدًا "سواكن". ومن هناك أخذ الجمال التى حملتهم بمشقة إلى بربر ثم أبحر فى النيل حتى الخرطوم. وكانت سلطة المبعوث الإنجليزى مطلقة، فقد حمل لقب الحاكم العام للسودان من قِبَل الخديو. وما لبث نشاطه وشخصيته المليئة بالطاقة أن ظهرت جلية فى الحال. فقد حارب بشجاعة فى أرض تعادى بطبيعتها الأوربيين فى جو تسممه المياه الراكدة بين تلك السلالات الوضيعة إلى حد الرذيلة(١). وظل جوردون ثابتًا، وبدا جسورًا دائمًا، وظهر أثر عبقريته فى كل مكان. وجاب المنطقة كليا فى أوج الصيف دون أن يثنى عزيمته الحر المدارى ولا عواصف الصحراء. وتوجه من الخرطوم إلى جوندكورو متبعًا ساحل النيل الأبيض، وعاد إلى بربر وصعد حتى منابع نهر السباط، واستكشف بحر الصراف، وأنشأ معسكرات راجف ولاردو وجاب هذه الأراضى المجهولة كلها تقريبًا ولاحظ كل ما فيها خلال حملة استمرت تسعة أشهر. حارب بيأس ضد التيار بدون كلل وهو يرى كيف أن الأمراض والموت يقضيان على كل أقرانه تقريبًا واحدًا تلو الآخر.

---

(١) نظرة استعمارية جلية من جانب الكاتب تبين نظرة المستعمر للبلاد المستعمرة (المترجم).

على أنه لم يستطع أن يفعل شيئا للقضاء على أسواق العبيد العديدة المنتشرة في سهول المناطق المدارية الخصبة. واستطاع فقط بمجهوده الذى لا ينفد أن يقبض على ثلاث قوافل للعبيد. ولكن المصائب المتوالية تسببت فى خوار عزيمته حتى إنه ضم إلى حملته أحد تجار العبيد الرئيسيين فى النيل الأبيض ويدعى أبو سعود.

والمدهش فى هذا الوقت والذى يبين عجز الجنرال الإنجليزى وتغير المبادئ الأزلية لحقوق الإنسان فى وجدانه هو؛ أن قوافل السود التى انتزعت من أصحابها لم يتم تسريحها ولا تم تحرير عبيدها كى يعودوا لأوطانهم. فبدا لجوردون أن هؤلاء القوم كانوا يستمتعون ببقائهم فى محطة سوباط العسكرية، وأنهم يفضلون العمل لحساب الحكومة المصرية على الرجوع إلى أوطانهم والتى دمرتها الحروب. أى أنه استبدل أسيادًا بأسياد ولم يقض على العبودية نفسها.

بل أكثر من ذلك، فقد درس جوردون عن قرب العبيد الذين احتجزهم فى سوباط تحت أمر الخديو، ولا بد أنه اقتنع بعدم جدوى مطلبه من أجل هؤلاء القوم، فماذا كان ينتظر منهم؟ ربما أن يجد من بينهم ميكانيكيين مهرة أو عمالاً أذكياء أو فنانين موهوبين أو ذوى خبرة عملية. ومن يدرى فربما فكر جوردون بحسن نية أن يجد من بين هذه المئات من البشر أحد العباقرة المغمورين فى أكثر طبقات المجتمع تواضعًا. كلا، فلم يكتشف الجنرال الإنجليزى من بين هؤلاء الأغبياء ذوى الشعر الذى يبدو كالصوف والشفاه التى تشبه الخراطيم والعيون المنطفئة شيئًا. ونتركه هو يقص علينا ما رأى من واقع يومياته التى وجهها إلى رئيس مجلس الوزراء فى القاهرة:

"إن هؤلاء السود الشلوك الذين رأيتهم لا يظهرون أى حنين إلى أسرهم. فالأبناء يهجرون آباءهم وأمهاتهم دون أدنى تحفظ. وتترك الأم طفلها الذى بلغ ستة أشهر فقط لساعات وسط

الماء والطين رغم أن لها بيتًا يمكنها أن تأوى إليه بسهولة. وعندما تعاملهم بإحسان وعدل يمكن أن تسودهم بسهولة وهم على استعداد دائم للعمل من أجلنا، لكن ليس عندهم تلك الروابط الاجتماعية التى عندنا. وأعتقد أنهم يحبون أبقارهم أكثر من أولادهم عامة".

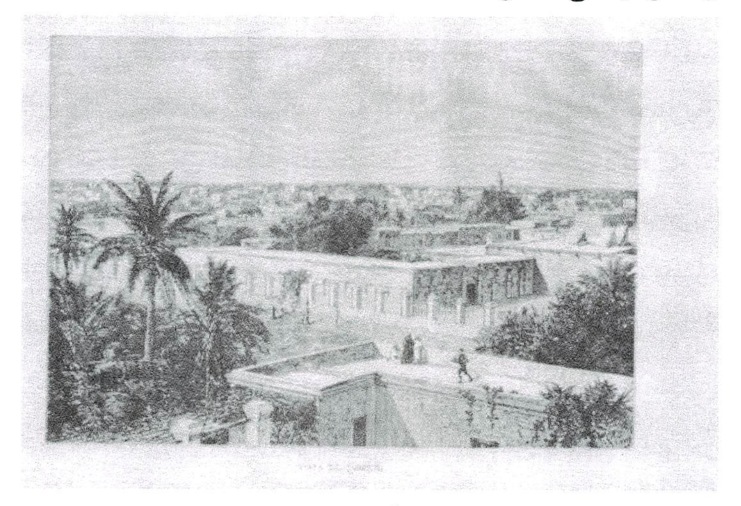
وكان العلاج بسيطًا وهو الاحتفاظ بالسود طالما يؤدون عملهم حتى ولو كانوا يحبون الحيوانات أكثر من أولادهم. إن أى مُدافع عن الأخلاق كان سيتحدث بالضرورة عن التعاليم والمثل العليا وعن واجبات الإنسان المتحضر والتقدم الحديث، إلا الإنجليز منهم حتى ولو كان الجنرال جوردون نفسه. وأطرف ما فى الموضوع أن غرض هذه الحملة الرئيسى كان هو القضاء على العبودية.

وترك الجنرال جوردون السودان فى عام ١٨٧٤، معتقدًا بحسن نيته أنه وجه للعبودية فى أفريقيا ضربة قاضية، وأنه لم يبق فى الأراضى الشاسعة التى بين النيل الأبيض والأزرق سوى رجال أحرار يعيشون فى رخاء نسبى وأنهم سيذكرونه بالخير. وعندما عاد عام ١٨٨٤م، لفرض السلام فى هذه المناطق الثائرة خلف المهدى أو النبى المزيف، كان من أوائل تصريحاته ذلك التصريح الشهير الذى أعلن فيه أنه ليس من أهدافه القضاء على العبودية. معنى ذلك أنه تقدم حتى الخرطوم خاضعًا للعادات الأفريقية الكريهة التى طالما جرحت المشاعر الإنسانية لإنجلترا عندما كانت تتعلق بمصالح بلاد أخرى، لكن اتفاقهم مع رؤساء القبائل والنفوذ الذى اكتسبته من قبل والإجراءات الحكيمة التى اتخذتها، كل ذلك لم يُجدِ لتجنب الصراع المحتوم.

وعندما فقد جوردون الأمل فى نجاح حملته وأحس بخطى العدو من ورائه استطاع فى قليل من الوقت تجميع بقايا الحامية المصرية وتحصن فى العاصمة السودانية منتظرًا أن ترسل إنجلترا جيشًا لتحريره. وتلاشى فى الميدان المحاصر

الفيلسوف الأفلاطونى والمتدين العظيم ورجل المشاريع المجنونة والأفكار الغريبة. وعندما واجه الأعداء الذين يحيطون بأسوار المدينة استل المحارب سيفه وظهر الضابط الذى انقض فى ميادين تركيا والصين كأسد صحراوى وجهًا لوجه مع جميع أعدائه.

وكان جوردون فى السودان عجيبًا. فاستغل استعدادات أصدقائه من قبيلة قريبة وأخرج كل السكان الذين كانوا يعيقون أعمال الدفاع عن طريق النيل ولم يُبق فى المدينة سوى أربعة آلاف شخصًا. وركز فى نفس الوقت بالمدينة كل الجنود المصريين الذين كانوا فى المدن المجاورة حتى وصلوا إلى ستة آلاف جندى تحت إمرته. وبنظرة واحدة أدرك الصعوبات الجمّة فى طريق الخروج من الميدان حتى ينضم إلى الجيش الذى جاء لإنقاذه، ولما أيقن أن تحصنه بالداخل سوف يستمر وقتًا طويلاً قام بتخزين كميات كبيرة من الغذاء والحبوب والمواشى حتى حولَ المدينة إلى مخزن كبير من المؤن. ولم تنقصه المياه أبدًا فبالقرب منه يجرى النيل وهو مصدر المياه الوحيد فى مصر.



مدينة الخرطوم

وكان بذلك مؤمنًا نفسه بالاحتياجات الأساسية للحياة وكان عليه تأمين دفاع المدينة وأن يحترس من الخيانة المحتملة لجنوده. واحتاط لكل شيء ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. فأقام معسكرًا وحفر خندقًا غرب النيل الأزرق واستطاع من خلاله توجيه المدافع ناحية معسكر الأعداء وصوب مدينة الخرطوم نفسها. وقام بتسليح كل القرى المجاورة مكونًا بذلك ميليشيا محلية تقاتل إلى جوار قواته وحوّل قصره إلى قلعة تحيطها الخنادق وتحميها الجنود الذين يثق بهم بغرض الاحتماء هناك إذا ما وجد نفسه في مأزق. ومجمل القول إن همّ جوردون في هذه الأيام كان جمع كل ما هو مهم للأفراد حتى يؤمّن العاصمة السودانية لمدة عام على الأقل.

ولم يخب ظن جوردون في أن إنجلترا سوف تهب لإنقاذ جنرالها الذى يحاصره البربر. صوّت البرلمان لصالح تخصيص أموال جمّة للصرف على الحملة الموجهة إلى السودان رغبة منهم في أن تثمر عن نتائج حاسمة. فتم حشد جيش قوامه عشرة آلاف جندى بقيادة الجنرال ويلسلى، وتقدم جزء منه بريًّا والجزء الآخر عن طريق نهر النيل. وبنيت ثمانمائة مركب خصصت لهذا الغرض، وتم تجهيزها لأغراض الهجوم والدفاع. ولم يسبق أن تم تجهيز جيش بالمعدات بمثل هذه العناية أبدًا. ولم تنظر إنجلترا إلى النفقات في هذا الصدد رغم كونها نفقات هائلة. غير أنها أضافتها بعد ذلك إلى الديون المصرية.

وخرجت الحملة الشهيرة من القاهرة، ولم تلق عوائق حتى وصلت إلى المناطق التى يحتلها السودانيون الذين كانوا في انتظارها داخل خنادقهم المحصنة. ومنذ أن تلاقى الجيشان يمكن أن نقول إن الحرب لم تتوقف. ولم يكتف السودانيون بعرقلة سير الغزاة لكنهم هجموا عليهم بتلك الشجاعة المتهورة المجنونة المقترنة بالتعصب والبربرية. وكان الإنجليز دائما ما يخرجون منتصرين في هذه المعارك. فتغلب التنظيم والتفوق في العتاد على العدد والاندفاع الشرس للخصم، ورغم ذلك فقد مُنِى الجيش البريطانى بخسائر بالغة.

وتلقت البعثة فى منتصف يناير أخبارًا عن الجنرال جوردون عن طريق أعرابى خرج من الخرطوم وأبلغ ويلسلى بلاغًا مقتضبًا مفاده أن كل شىء على ما يرام، وأنه كان يمتلك مؤنًا تكفيه لمدة عام كامل. فتشجع أفراد الحملة وعبروا صحراء بيوضة وخاضوا معارك دامية فى أبو قليع وأم دُرْمَان وقتل فيها الجنرال ستيوارت. واستطاع الكولونيل ويلسون أخيرًا مع فرقتين من الجنود الاسكتلنديين أن يصل إلى هذه النقطة الأخيرة. وأصبحت الخرطوم على مرمى بصره دون أى مناوشات تقريبًا.

وبالقرب من الميدان لاحظت الفرقة الصغيرة التى كان ويلسون على رأسها أنه لا توجد بالميدان أعلام مرفوعة فاقتربت أكثر فاستقبلتها نيران المدفعية والبنادق الكثيفة التى اضطرتها للانسحاب فى الحال. وغرقت إحدى المركبتين اللتين تقدمتا ونجى الأفراد، وارتطم الآخر بشاطئ إحدى الجزر بالنيل. ومكث فيه بعض الأفراد لعدة أيام وقاوموا النيران السودانية حتى بعثت لهم كتيبة أم درمان مركبًا أخرى استطاعوا الإبحار عليها.



الجنرال ويلسى

وبالتزامن مع وصول كتيبة ويلسون وصل إلى المعسكر الإنجليزى نبأ سقوط الخرطوم. جاء جماعة من السكان المحليين بالخبر مبهمًا بعض الشيء ثم أفصحوا بعد ذلك عنه، وتمت معرفة الحقيقة فى آخر الأمر. وكانت تلك الحقيقة هى أن جوردون المغوار وقع ضحية للخيانة. فقد سلّم الميدان كولونيل مصرى يُدعى فرّاش. وكان ذلك البائس على علاقة سرية مع المهدى منذ مدّة. وبرغم أن الاستيلاء على الخرطوم كان أسهل قبل ذلك فإن الثوار فضلوا ذلك عندما تكون القوات الإنجليزية قريبة من المدينة. واعتقدوا أنهم سيصلون منهكى القوى بعد السير المضنى عبر الصحراء، وأن حالتهم المعنوية ستكون سيئة من ناحية أخرى بعدما يعرفون بوقوع الخرطوم فى أيدى السودانيين.

وفاة جوردون

لكن كيف هلك البطل جوردون؟ كان الخائن فرّاس يتولى حراسة بوابات المدينة فى يوم ٢٩ يناير، وفتحها بسهولة للقوات المحاصرة. فدخلوا بدون ضوضاء واستولوا على النقاط الإستراتيجية المهمة بدون مقاومة. فلما علم جوردون بذلك نزل من القلعة التى كان يتحصن بها فى صحبة بعض القواد الذين لم يشك فى إخلاصهم له. وعندما رآهم فصيل من السودانيين أطلقوا عليهم نيران بنادقهم فسقط جوردون صريعًا. ثم شفى الثوار غليلهم فى حامية المدينة، فذبحوهم بالسكاكين كما قتلوا بعض السكان. وتركوا الجثث فى الشوارع حيث ظلت عدة أيام دون دفن، وظلت الرائحة النتنة تنبعث من الأجسام لدرجة أن المهدى اضطر إلى جمع رجاله والتوجه بهم إلى أم درمان حتى يتجنب انتشار الوباء بينهم.

انسحاب الإنجليز عن الشلال الأول

ولم يعد أمام الجيش الإنجليزى ما يفعله فى السودان، فأعطى ويلسلى أوامره بالانسحاب لكل الكتائب والتجمع فى كورتى بالقرب من دنقلة. لكن الإنجليز لم

يستطيعوا البقاء هناك كثيرًا. فلم تكن الحرارة محتملة هناك بالنسبة للأوربيين ابتداء من شهر مارس، إضافة إلى أن الاتصال بصعيد مصر كان صعبًا ويستغرق وقتًا طويلاً ويمكن اعتراضه بسهولة. لذا فقد بدأت سلسلة من أعمال الانسحاب للقوات الإنجليزية انتهت عند كورسكو فى وسط المسافة بين الشلالين الأول والثانى. وهذا يعنى أن السودان كله ونصف النوبة تركتا للثوار. وعاد معظم المبعوثين الإنجليز إلى بلدهم ولكن ما زال فى مصر طابوران فى منطقة الشلال الأول وطابوران آخران فى القاهرة وطابور فى الإسكندرية وآخر فى سواكن. وتعد هذه القوات هى قوام قوة الاحتلال البريطانى فى مصر، وليس من السهل التنبؤ متى ستتوقف أو ما إذا كانت ستوطد بطريقة نهائية. وتظهر الأطماع الإنجليزية جليَّة فى أرض الفراعنة، ليس لأنها تعنى مستعمرات أخرى فى الإمبراطورية الكبيرة ولكن لأهمية قناة السويس الخطيرة بالنسبة لها، وبذلك فلن تتخلى إنجلترا عن مصر إلا بضغوط خارجية لا تقبل المقاومة.

فهل ستمارس تلك الضغوط ؟ وهل تستطيع الأمم المختلفة أن تصل لاتفاق ضد إنجلترا، إن تحقق ذلك يعد مهمة صعبة جدًا. وقد عقد مؤتمرا زوريس فى عامى ١٨٨٥، ١٨٨٦، لتصفية القضية المصرية لكنهما فشلا بطريقة محزنة. إن كل دولة من الدول تذهب إلى تلك المؤتمرات بوجهة نظرها الخاصة ومصالحها الجشعة وتحاول هباءً تغليبها وتتصارع القرائح ويعارض النفوذ النفوذ وتكتب الحجج المطولة وينتهى المؤتمر دون الوصول إلى شيء.

ومن غير المحتمل أن يحدث شيء آخر غير ذلك، فالنوايا الأنانية لا تُفضى أبدًا إلى قرارات نبيلة وليس ما تكنه القوى الأوربية فى وطن رمسيس التعيس إلا نوايا مثل ذلك.

وللقضية المصرية وجهان خارجى وداخلى، بمعنى أن هناك وجه حرية قناة السويس التى تضمنها إنجلترا بجدية، والآخر هو التسلط الخارجى على إدارة البلاد.

وربما كان هذا المظهر الأخير للقضية أكثر أهمية من الأمل، لذا فيمكننا التأكيد على أنه موضوع حساس وصعب التسوية، فلم تبق فى مصر جهة رسمية سياسية كانت أو إدارية أو اقتصادية أو قانونية إلا وكانت فى يد الأوربيين الإيطاليين أو الفرنسيين أو الإنجليز فى أغلب الأحيان.

وزعوا المقدرات كما لو كانت وظائف مرغوبًا فيها، وعند شغل كل وظيفة يحدث نزاع دبلوماسى لتوفير التمويل اللازم لها، إذ يتواطأ أصحاب النفوذ لتزكية صديق لهم على حساب الخزانة المصرية المجنى عليها والتى أصبحت لقمة سائغة للبيروقراط من الأوربيين. على أننا يمكننا التأكيد على أن النفوذ الإنجليزى يسير ببطء لكن بخطى ثابتة، يغزو كل شيء وسوف تحل محل منافسيها بالخداع، ومن المنطقى أن يحدث ذلك إذا ضحت بريطانيا العظمى بمئات من أبنائها فى أعمال العنف المصرية الأخيرة، والذين سقطوا ضحايا للطقس أو للاعتداء، وهم الآن يناموا النومة الأبدية تحت صليب بائس فى مقابر الصحراء.

الفصل التاسع والعشرون

مغامرة إسبانية فى البحر الأحمر

إن مشروع ضم بلاد البحر الأحمر وبلاد أعالى النيل إلى التاج الإسبانى ليس معروفًا فى تاريخ القرن الثامن عشر، والذى وافق عليه فيليب الخامس، وأن الجزء الذى كان يخص حكومة ذلك الملك وُضع موضع التنفيذ. وتوجد الوثائق الأصلية المتعلقة بتنفيذ هذا المشروع فى أرشيف المملكة المركزى العام والموجود فى قلعة هينارس، فى ملف الأوراق رقم ٣٠١٣ من وثائق الدولة. وأظن أن الموضوع يتعلق بهدف هذا الكتاب وسوف أتناوله من الجانب الذى يهم القراء.

مشروعات الغزو فى القرن الثامن عشر

والوثيقة الأولى الرسمية التى تشير إلى ذلك المشروع هى، مذكرة السيد بارتولومى بانكوربو وهو تاجر إسبانى مقيم فى نابولى، وقد بعث بها فى الخامس من سبتمبر لعام ١٧٤١م، لمعالى السيد ماركيز دى فيارياس وزير الدولة فى عهد فيليب الخامس. ويستهليها قائلاً: إن إمبراطور إثيوبيا وملك الحبشة رغبة منه فى جلب إرساليات كاثوليكية إلى بلاده والتأكيد على أواصر الوحدة مع الأمير المسيحى فقد كتب خطابات عديدة لروما والتى تحتفظ بها فى جمعية نشر الدين. ثم يؤكد أن الأب فرانسيسكو دى ريفارول رئيس البعثة المتجهة لمصر وصل حتى جوندور وهى مقر إقامة ذلك الملك وقبض مبلغ ٥٠٠ ألف بيسو من الذهب والألماظ والماس والتى سرقها منه بعض البحارة للأسف عند ساحل جاوه. وعندما عاد أحد قادة الأب ريفارول بأوراقه إلى روما شرع فى التعرف على الكونت دى إسنيبال أحد قادة ملك الدنمارك وحرضه على القيام بالتبشير فى إثيوبيا بأمر من قداسة كليمنت الثانى عشر. ولنترك الآن الوثيقة الأصلية تتحدث عن نفسها:

"ذهب الكونت إسنيبال إلى موكا[١] مع الأب ريفارول ولم يستطع المرور من هناك خوفًا من الأسْر فى مساوا. وهذه الجزيرة يحرسها ثلاثون من الانكشارية وباشا نصبه السلطان التركى هناك كى يمنع مرور الأوربيين وكى يمنع الإثيوبيين من معرفة قيمة الكنوز الغنية التى تحويها الحبشة ومن تحصينها للحفاظ عليها ومنع استغلالها، ومن ذلك سرقة من ١٤ إلى١٥ ألف نسمة فى زهرة العمر يحملونهم كعبيد كل عام للقسطنطينية، بالإضافة إلى أنه إذا دافعت الحبشة عن نفسها فإن السيد العظيم سيفقد صيد اللآلئ التى ينهبها وقيمتها التى تربو على ١٢ ألف قنطار من بودرة الذهب التى يجمعونها من ضفاف النيل بعد انتهاء الفيضانات المعتادة ثم يجبر العبيد البؤساء على حملها فوق الجمال إلى القاهرة العظيمة وفى مقابل ذلك يحصلون على بضائع معينة ذات قيمة زهيدة"

"وفى موكا اجتمع بالأب جوزيف أغسطس وهو إيطالى من بلده كريمونا عليم بشئون البلاد وأعطاه المشروع الذى بموجبه يستطعون تأمين الدخول إلى إثيوبيا بالاستيلاء على *مساوا* والملايين الكثيرة التى تمتلكها باستخدام ثلاثين أو أربعين مدفعًا وخمسمائة من الرجال بسفنهم".

"وفى الوقت الذى ذهب فيه الكونت إلى كوبنهاجن وصل الأب ريفارول إلى إشبيلية وعندما علم السيد جوزيف باتينيوا بهذا المشروع أمر سموه باستقدام الكونت المذكور إلى إسبانيا وعلى أثر ذلك أصدر مرسومًا من جلالة الملك بتوريد ٣ آلاف بيسو منها ألفان توضع تحت أمر الإرساليات".

وبدلاً من أن يأتى الكونت إسنيبال إلى إسبانيا ذهب إلى روما وخرج مع بعض المبشرين إلى إثيوبيا مرورًا بالقاهرة ثم أعالى النيل والشلال الثانى، ولما وجد السفر صعبًا وأنه لن يجرؤ على السفر عن طريق البر عاد إلى رومـــا.

(١) موكا، هى ميناء يمنى على البحر الأحمر يشتهر بتصدير البن- لاروس- ص ١٣٣٧ (المترجم).

عندئذ حث البابا رئيس رهبانية مالطة الحربية على إمداد الحملة بالمراكب لكنه رفض بسبب علاقاته الجيدة مع الأتراك. فذهب الكونت إسنيبال إلى نابولى واقترح على الملك تنفيذ الفكرة لكنه رفضها.

مذكرات بارتالوميه بانكوربو

لهذا السبب قدّم مشروعه فى إسبانيا مستفيدًا من علاقته ببانكوربو الذى كتب المذكرة التى أوردناها من قبل والتى تنتهى بالجمل الآتية:

"إن الأوضاع فى إثيوبيا على أحسن ما يُرام ، لأننا إذا أخذنا الجزء المطل على البحر الأحمر وقمنا بتحصين جزيرة مساجوا ومدينة هيرشيكو والجزء المتاخم للمنطقة العربية من النيل فإنه يستحيل فى رأيى أن نفقدها مرة أخرى، أو أن يبعث التركى قوات كافية لإنقاذ تلك المناطق وما أسهل الاستيلاء عليها وهى على تلك الحال من الإهمال والجهل بفنون الحرب واستخدام البارود أو القذائف. فلنفتح الباب للاستقرار هنا فى هدوء، وهذه هى أول خطوة فى تلك الصفقة. وبحماية إثيوبيا بالقوات الإسبانية فإن السلطة الملكية لن تكون مطلقة على التجارة فى هذه الإمبراطورية وعلى الذهب والماس واللؤلؤ التى تنتجها فحسب ولكنها ستكون أيضًا على كل ما هو موجود بالبحر الأحمر عامة. وبمرور الوقت على هذا البحر الذى تبحر فيه مراكب قليلة بدون حراسة، ولأن الأيدى العاملة رخيصة هنا يمكننا نقل بضائع الصين وبلاد فارس حتى السويس بسفينتين جيدتين، ومن هناك للقاهرة ومنها إلى إسبانيا عبر البحر المتوسط فى وقت قليل ومخاطر محدودة وربح وفير. ولتحقيق

ذلك لا بد من الانتباه إلى أن النيل ينبع من الحبشة حيث ترسل العناية الإلهية فى وقت معين من السنة أمطارًا غزيرة تؤدى إلى فيضانات مصر وبعد انحسارها تزرع الحقول التى تحتفظ فى تربتها بالرطوبة وتنتج محاصيل وفيرة لا تكفى هذا البلد فقط ولكنها تكفى أورشليم ومكة والقسطنطينية أيضًا. وعلى ذلك فإننا إذا قمنا بتحصين النقاط السالفة الذكر وبشق قناة من أحد روافد النيل تبدأ عند هيرشيكو وتنتهى عند البحر، ونظرًا لانخفاض المنطقة فإنها ستجذب إليها مياه هذا النهر وتخزنه عند هاويس نقوم ببنائه حتى نستطيع أن نفتحه ونغلقه. وحتى لا تهلك مصر والشعوب التى تعتمد عليها فإنهم سيخضعون وسيتركون المراكب تمر مجانًا من النيل ومن البحر الأحمر دون أن يعترضها أحد، ولن تستعصى حتى الأماكن المقدسة على الدخول تحت سلطان جلالته فى غضون سنوات".

وينهى رسالته طالبًا من الملك أن يجتمع الكونت إسنيبال مع المطران ميجيل أنخل دى فستينا والأب جوزيف أوجستو والمبشرين الذين عينهم البابا من المهندسين الإسبان فى قادش وبلباو

"وإذا لم يُـرِدْ جلالته أن يزج بسمه فى الحملة فيكفيه أن يزودنا عن طريق شخص أمين فى أى من البلاد المذكورة بمبلغ ثلاثين ألف بيسو لدفعها إلى جماعة من مجهزى السفن ونشرع بعدها فى العملية".

الكونت إسنيبال

وهكذا يظهر الكونت إسنيبال على مسرح الأحداث، ولكن من هو هذا الكونت؟... ربما لم يكن شخصًا مهمًا، أقصد أنه واحد من هؤلاء الذين استطاعوا

أن يشقوا طريقهم إلى البلاط منذ مائتى عام تمامًا كما يحدث الآن فى بلاد الشرق الأقصى. وأذكر أنى تعرفت إلى أحد طباخى مركب حربية فرنسية كان قد هجر المركب على ساحل ماليزيا ودخل بانكوك حيث وصل إلى تقلد منصب رئيس أركان الجيش ووزير لملك سيام. وكان إسنيبال فرنسيًا يدعى روكسى، قد هجر وطنه فى مرحلة الشباب وخاض عدة مغامرات فى شمال أوربا والبرتغال وإيطاليا وفى الشرق وفى إسبانيا، وحصل على عمولات كثيرة أهلته لنيل الألقاب التالية:

"السيد بدرو جوزيف لى روكسى، كونت إسنيبال، مساعد أمير البحار لجلالة ملك الدنمارك، المفتش التجارى والمفوض لدى حكومات الشرق. ومبعوث قداسة البابا إلى بلاط مالطه وإثيوبيا، وسفير جلالته الكاثوليكية إلى بلاط إمبراطور إثيوبيا وحامل رسائل التفويض والعمولات وجوازات السفر وتجهيزات السفن اللازمة لنقله، ونائب رئيس القوات فى البحر تحت الراية الملكية".

معلومات تاريخية حول هذه المغامرة

إن الأوراق المحفوظة فى الأرشيف المركزى العام التابع لنا ليست واضحة تمامًا فيما يتعلق بشخصية هذا المغامر. ونعرف منها؛ أن إسنيبال وصل إلى إسبانيا أول مرة عام ١٧٣٧م، حاملاً رسالة توصية من روما من الكاردينال بيلوجا إلى أسقف ملقا. وعندما قدمها إلى مستشار الملك قدم معها مشروعًا للحصول على محافظتى "بانكى بازار وإيستبور" فى الهند واللتين قال عنهما إنهما كانتا ملكًا للأب أوجستو، وطلب إنشاء فرقة تجارية فى قادش. ولذلك يتحدث عن الهند كبلد

"يكثر فيها الذهب، فالمناجم لم تستغل قط، وأن هذا المعدن يوجد على جانبى الأودية التى تغمرها السيول التى تهبط

من الجبال ثم تجف. ورأى الكونت إسنيبال فى رحلته الأخيرة ألفا وستمائة قنطار من الذهب تصل إلى المدينة التى كان بها. كما توجد مناجم الفضة والمعادن الأخرى. إن أوقية الذهب الخالص لا تساوى أكثر من ستة قروش فضة فى داخل الإمبراطورية الهندية".

ولم تجد مشروعات إسنيبال فى هذه المرة آذانًا صاغية فتوجه لمملكة البرتغال المجاورة حيث حصل على وظيفة لبعض الوقت فى دار لصناعة المدافع بالقرب من لشبونة. ولأن طموحه لم يقنع بهذه الوظيفة المستقرة أو لأنه ارتكب بعض المخالفات التى اتهمه بها البرتغاليون فقد سافر إلى روما بعد ذلك بشهور، وقام بمهمة إلى مالطة ومصر باسم بلاطها، والتى كان يحكى عنها بارتلومى بانكوربو فى كتابه.

ولما لم يحالف النجاح تلك المهمة قامت عداوة بين إسنيبال وبين بلاط البابا. لذا فكر أن يجرب حظه مرة أخرى فى إسبانيا فلجأ لبانكوربو لطلب العون. وجاء لمدريد بصحبة سيدة شابة وجميلة ستظهر فيما بعد بإستمرار فى معرض الحديث عن المغامرات التالية، واستطاع أن يدخل فى حماية وزير الدولة فى عهد فيليب الخامس وهو السيد خوسيه دل كامبيلو، وبفضل ذلك حصل على إذن ببناء مراكب والإبحار بعلم إسبانى عليها، كما حصل على وثيقة تفويض من الملك إلى إمبراطور إثيوبيا، يعطيه فيها ضمنيا صفة سفير. وكتب التفويض بالصيغة التالية:

فيليبى الخامس يصرح له بتسليح سفينتين

"السيد فيليب، بحمد اللـــه وعونه...إلخ ، فإن الكونت دى إسنيبال مساعد أمير البحار لكتائب ملك الدنمارك عقد العزم على المرور برأس الرجاء الصالح وحتى ميناء بطير وموانئ

أخرى تقع تحت سيطرة ملك الأحباش المعروف باسم النجاشى لنشر الدين المسيحى، وقد طلب منى أن أمنحه حمايتى الملكية فى إبحاره، ونظرًا لنبل مقصده - يعينه على ذلك إصرار صاحب القداسة - ولما كان تفضلى عليه سيفرحه فقد قررت إسداء هذا المعروف له. وعليه فقد سمحت له بوضع العلم الإسبانى على أى مركب يستخدمها وأن يتمتع بكل المزايا المترتبة على ذلك كما لو كانت سفينته إسبانية، عدا الاستفادة من تلك الميزة فى شن الحروب أو المتاجرة فى أى من الموانىء التى تخصنا على الشاطئ الأمريكى أو الآسيوى أو الأفريقى، أو فى أى من الموانئ التى تتردد عليها أى من القوى الأوربية ولا الاقتراب منها تحت أى مسمى. وآمر قواد البحرية...إلخ.

صدرت فى قصر البرادو فى السادس عشر من مارس لسنة١٧٤٣ باسم جلالتى- السيد جوزيف دل كامبلو- وزير الدولة وشئون المكتب الدولى لأعالى البحار".

وكانت وثيقة التفويض إلى العاهل الإثيوبى موقعة فى "آران خويث" فى التاسع من مايو ١٧٤٣، وكتبت باللاتينية بالصيغة التالية:

"الأمير المبجل والملك الصديق. إن الكونت دى إسنيبال الذى جاء إلى هذه المناطق النائية تحت رايتنا تحمله غيرته الدينية التى تلهبُ حماسته قد التحق بخدمتنا، وهو موضع إعجابنا ويستحق أن تستمعوا له وأن تضعوا ثقتكم الكاملة فيه، وهو جدير بكل عبارات الود التى أنقلها لكم. لذا نـوَدّ من فخامتكم بحق الصداقة القديمة التى ربطت بين مملكتينا، والتى تكررت بينهما مظاهر الود عن طريق الرسائل المتبادلة، وإنى لا آلو جهدًا فى إرضاء جلالتكم ، حريصًا على كل ما يسعدكم".

وشرع إسنيبال فى الحال فى تنظيم حملته التى لاقت صعوبات كثيرة حتى اكتملت فصرف أمواله التى لم تكن وفيرة مثل عبقريته. فلجأ إلى فرنسى يدعى أندريه دى جبير – وكان تاجرًا فى شارع كاريتاس – حتى يدفع الأموال اللازمة لبناء مركبين فى ملقا. واشترى سفينتين حربيتين، إحداهما فرقاطة تحمل عشرين مدفعًا وعشرة مدافع للقناديل، والأخرى تحمل ثلاثين مدفعًا. وكانت مجهزة للانضمام إلى الخدمة العسكرية، عندما أُسِرَ إسنيبال واحتجز فى سجن فى ملقا بأمر كاردينال مولينا. ويرجع سبب سجن إسنيبال إلى عداواته مع هيئة القضايا الرومانية. فبعد أيام قلائل من إنعام الملك عليه بتمثيله وتخويله حق استخدام العلم القومى على مراكب حملته توجه القاصد الرسولى مطران أوديسا فى مدريد إلى ماركيز فيـاريّاس ليعترض على المهمة الموكلة إلى الكونت. وكتب ذلك القاصد الرسولى فى الثالث من سبتمبر لعام ١٧٤٣، بلاغًا رسميًا محفوظًا أيضًا فى أرشيف قلعة إينارس، ورد فى نصه:

"لما نما إلى علمى أن كونت إسنيبال نائب أمير البحار لكتائب الدنمارك موجود فى قادش ومعه أسرة كبيرة يستعد للإبحار بغرض نشر الدين المسيحى فى بلاد الأحباش، وأنه لذلك حصل على مذكرات توصية من جلالة الملك، لم أستطع إلا أن أبرئ ذمتكم وأثبت لكم أن مطلب هذا الكونت لم يرق لقداسة البابا، وأنه لم يعر انتباهًا أبدًا لأفكاره، ولم يكن ليتخذه مبعوثًا لمهمة كهذه قط".

ولم يكن الكونت دى إسنيبال فى قادش كما قال القاصد الرسولى لكنه كان فى ملقا حيث صدر ضده حكم بالسجن كما قلنا من قبل. وبادر الكونت باستئناف الحكم، ويقول فى مذكرة غير مؤرخة موجهة إلى الماركيز دى لا إنسينادا بالنص:

"لقد حكم علىّ القضاء المدنى فى ملقا بالسجن فى محبس وضيع لم أستطع فيه الكلام أو الكتابة لأحد ولا حتى لزوجتى التى وضعها الألم فى حال لم تستطع معها القيام بالرحلة".

وتجاهل إنسينادا هذا الموضوع بالكامل، لكنه نقله إلى الماركيز دى فيـاّ ريـاس فى العشرين من نوفمبر لعام ١٧٤٣، وأطلق سراح إسنيبال من جديد حتى يواصل حملته.

وصدر أمر آخر فى مدريد بالقبض على تاجر وبناء السفن جيبرز وهو زميل إسنيبال. ويتضح ذلك من نص خطاب كتبته زوجة جيبرز فى التاسع والعشرين من أكتوبر ١٧٤٣، لشخص لم يذكر اسمه فى الخطاب. ونص الخطاب غريب رغم أن أمر الاعتقال الصادر ضد الفرنسى لم يصدر بسبب الحملة التى كان طرفا فيها ولكن لأسباب شخصية عند المدعو سيلفستر والتى نجهلها تماما.

ويقول الخطاب حرفيا:

"سيدى، حال وصول هذا المسجل "جواب بعلم الوصول" ابعثوا برسالة لزوجى كى يأخذ فى الحسبان أن مستشارية الحرب قد اتخذت قرارا بخصوص مسألة سلفستر بالقبض على زوجى بأى مكان، وعلى كل الجهات المختصه بالعداله فى منطقة الأندلس تنفيذ هذا الأمر. إبحثوا إن كان فى الإمكان أن تجبروا مرجريت على تسليم أوراق المنزل والقبض على زوجى "يبدو أنها ذات صلة بالموضوع". إن الخوف من الخطر هو شىء معتاد فى هذا البلد، وإن لم يفتكم الوقت للاعتراف به. أعتمد عليكم فى تنفيذ هذه الخدمة، فقد بلغ منى الحزن أيـما مبلغ، وأرجـو أن تصدقونـى يا سيدى. خادمتكم المتواضعة ديجيلييه".

خروجه من ميناء قادش

وتمّ تجهيز الحملة فى ملقا واتجهت ناحية قادش، لكن عاصفة قوية هبت على المراكب مما جعل معظمها يتجه إلى حصباء أويلبا. واضطر إسنيبال إلى الخروج ببارجة واحدة تدعى السيدة مريم سيدة النصر، وكان ذلك يوم ٢ مايو ١٧٤٤. وكشف الكونت عن شخصيته ذلك اليوم لطاقم السفينة. فلم تمضِ على إبحار السفينة ساعتان، ولم تكن الأراضى الإسبانية قد اختفت فى ضباب الأفق بعد حتى جمع إسنيبال كل أفراد الطاقم فى غرفة وطلب منهم الحلف على الصليب والأناجيل أن يكونوا أوفياء له دون أن يفصح لهم عن المهمة التى ينوى القيام بها. ورفض شخص واحد فقط على ما يبدو من أفراد الطاقم القسم. لذا رُبِط بالأغلال بعد أن أوسعوه ضربًا.

القرصنة فى الرأس الأخضر

وأبحر إسنيبال متجهًا للجنوب حتى يوم ٢٠ مايو، وفيه وصل إلى جزيرة مايو من مجموعة جزر الرأس الأخضر. وهناك رفع علم القراصنة عن قصد وقبض على أربع مراكب تجارية إنجليزية واحدة تلو الأخرى. وقام بحرق اثنتين منها وأبحر بالأخريين إلى سانتياجو، ولما وصل فى أوائل يونيو هاجمته كتيبة القائد البحرى "*بارنيت*" وأخذته أسيرًا. ولا أعرف لماذا لم يشنقه القائد الإنجليزى على أحد صوارى سفينته، بل على العكس تركه فى سانتياجو من جزر الرأس الأخضر. وبعدما نزل أفراد الحملة الشهيرة فى المستعمرة البرتغالية، وبعد ثلاثة عشر شهرًا من العمليات ومن التأجيل بعث بهم إلى لشبونة حيث وصلوا فى سبتمبر لعام ١٧٤٥. وكان طبيعيًا أن يقوم قواد الحملة باتهام بعضهم البعض، فادعى إسنيبال أن "جييرز" وآخرين لم يحترموه ولم يطيعوا أوامره، واتهمه أولئك بأنه لم يكن سوى قرصانٍ، لأنه يريد فقط الاستيلاء على المراكب فى أعالى البحار لمصلحته الشخصية.

وتلقى الماركيز دى لاكانديا - سفير إسبانيا فى البرتغال - تلك الشكاوى، ولأنه كان يجهل أمر الحملة فقد حوّل الأوراق إلى مدريد، وكان فيها أسماء الأفراد الذين وصلوا إلى لشبونة، وكانوا:

- السيد أندرس دى جبيرز - الأمين ومساعد المتطوعين.
- السيد فرانثيسكو باديراجى - نائب المتطوعين.
- السيد فرانثيسكو بروسارت - فارس المتطوعين.
- السيد أندرس ريكاردو دى جبيرز - مسئول التموين.
- السيد بارتلومى جالابرت - كبير جراحين.
- فرانثيسكو مارتينث - متطوع.
- خوان باوتيستا ديهى - متطوع.
- دومينجو منديونو - متطوع.
- نيكولاس أوليفيير - متطوع.
- جوزيب توريس - متطوع.
- خوان باوتيستا دوران - بحار.
- دومينجو بوراثيا - بحار.
- مانويل مونتانيا - بحار.
- أوجستين إسترادا - بحار.
- دومينجو - حلاق السفينة.

ويحمل خطاب إسنيبال إلى الماركيز دى لا كانديا أول اتهام لبعض الضباط، يقول فيه:

"لأننا يجب أن نقضى بعض الأيام فى الحجر الصحى فإنى أعلم سعادتكم كتابيًا لاستحالة حضورى شخصيًا، ومعى تسعة عشر من الضباط وأفراد الطاقم الإسبان الذين استطعت إحضارهم من تلك الجزيرة من الرأس الأخضر التى أخذنى فيها الإنجليز أسير حرب ومعى زوجتى. وكان معى أربعة ضباط تابعين لى وكانوا مع خادمى يبحرون على متن مراكبى الأسيرة وهم مكبلون... ويجب أن ينقلوا من هذه المراكب إلى أى قلعة أو سجن حتى... تتخذ الإجراءات اللازمة بشأنهم، لأنهم يجب أن يقدموا لمجلس حرب لما أجرموا، أو كما يرى سموكم".

أما وثيقة اتهام إسنيبال فهى أكثر وضوحًا وكتبها جيبرز إلى الماركيز دى لا كانديا، وهى كسابقتها مؤرخة على متن سفينة سان أنتونيو البرتغالى يوم ١٥ سبتمبر ١٧٤٥، ويقول فيها:

"مقدمه أندرس دى جيبرز، تاجر من مدريد، أقطن شارع لاس كاريتاس...وصل المدعو الكونت دى إسنيبال بصحبة زوجته إلى مدريد سنة ١٧٤٤، ومعه مشروع بعينه. وبعد أن خدعا معالى الماركيز دى سكوتى فَـعَـلا مثل ذلك مع السيد جوزيف دى كامبيلو...كما خُـدِع أيضًا مقدم هذا الالتماس من قِـبَل هذا المغامر وأجبر على تجهيز المركبين والخروج معهما فى حملة، وفقدت إحدى المركبين أمام سواحل البرتغال، وخرجنا بالأخرى فى الأول من مايو عام ١٧٤٤، وبمجرد خروجنا من مياه قادش قال ذلك المغامر أمام كل أفراد الطاقم إنه كان يسخر

من ملك إسبانيا ومن سلطانه، وأنه لا يريد العودة إلى إسبانيا مرة أخرى ثم أجبر كل الطاقم على حلف يمين الولاء له. ووصلنا إلى جزر الرأس الأخضر فى العشرين من الشهر المذكور، وهناك استولينا على أربع مراكب دون وجه حق، فعلى العكس من ذلك كانت جوازات السفر التى معنا من البلاط الإسبانى لا تسمح لنا بدخول أى من الموانئ الصديقة.

وفى الأيام الأولى من يونيو وصل إلى جزيرة سان جوجانا كتيبة إنجليزية من أربع سفن وبارجة حربية. فقبضوا علينا وسلبونا جميعًا، ويكفى هذا الكونت أنه كان مبشرًا ماسونيًا وكان قائد الكتيبة الإنجليزية كذلك أيضًا، فكانا أخوين فى جماعة دينية إنجليزية، وهذا ما لا أفهمه. فتركوا له علاوة على ممتلكاته أشياءً كثيرة من الغنائم الإنجليزية ومن التى تخصنا نحن. وبعد رحيل الإنجليز اتهمتُه أمام قاضى جزر الرأس الأخضر بالقرصنة، فسجن لمدة تسعة شهور وبعثت الدعوة إلى لشبونة وهى الآن منظورة أمام محكمة أعالى البحار. ولما طُلِبَ رأى الملك فى القضية أجاب ملك البرتغال أنه عندما تسنح الفرصة سيدفع بالكونت دى إسنيبال خارج حدود مملكته.

لقد أتينا سويًا فى هذه المراكب، ولكى يتجنب ذلك المقامر العقاب القانونى الذى يستحقه بالفعل فقد بذل قصارى جهده كى يجعلنى أرسو على ثالث الجزر. ولما لم يحقق ما أراد اتفق مع مالك تلك المركب على سجنى على متن المركب حتى يستطيع الهرب.

لذا فإنى أتوسل إلى سموكم بإحضارى وإياه ووضعنا بالسجن حتى يبلغ سموكم البلاط الإسبانى بوصولنا، وحتى تتلقوا الأوامر من البلاط، راجيًا سموكم إبلاغ السيد فرانثيسكو ميجل دى جوينتشى، أمين خزانة جلالة الملكة الذى أقرضنى الأموال التى صرفت منها على تجهيز هذه المركب.

توقيع: أندرس دى جيبرز "

وكما هو متوقع فقد أعرضت الحكومة الإسبانية عن الجميع ولم ترد مقاضاة إسنيبال بالتأكيد لكونه أجنبيًا، ولكنها أمرت كانديا بسحب الامتيازات من الكونت ومصادرة كل الأوراق التى توجد فى معيته باسم جلالة الملك، بالحيلة أو كما يبدو له. ولم يستطع كانديا إتمام المهمة لأن وثائق الحملة الرسمية كان بارنيت قد استولى عليها فى الرأس الأخضر، لكنه حصل على عدة خطابات خاصة من المغامرين، وهى ذات أسلوب شيق لأنها تمدنا بتفاصيل كثيرة عن تلك الرحلة الشهيرة.

نهـــــــاية الحملة

بعد عدة سنوات اختفى إسنيبال تمامًا ثم ظهر عام ١٧٤٧م، فى البرتغال وطلب من بلاطها توصية إلى البلاط الإسبانى لكن طلبه رُفِض. ثم اقترح تنظيم حملة أخرى إلى البحر الأحمر من الحكومة النمساوية لكنه فشل. وكتب فى الثالث من يناير من هامبورج إلى وزارة خارجية إسبانيا قائلاً: إنه رفع قضية فى لندن ضد بارنيت لما قام به معه فى الرأس الأخضر، وأن الوزير دوق نيوكاسل وعَــدَه بتحريك القضية. وأضاف أنه طالَــبَ الإنجليز بتعويضات عن الخسائر التى تسببوا فيها، والتى سيستغلها فى تمويل حملة جديدة إلى إثيوبيا، وأنه يبذل قصارى جهده

للقيام بها. وكدليل على ذلك المشروع يبعث إسنيبال بشكوى كتبت بالفرنسية وموجهة إلى ملك إنجلترا. وأخيرًا وفى جواب مؤرخ فى روما بتاريخ ١٣ مايو سنة ١٧٥٥، يحذر الكاردينال بورتو كاريرو، وزير الدولة الإسبانى السيد ريكاردو وال بأنه "وصل الكونت إسنيبال إلى هنا هذه الأيام، ولا أعرف عنه شيئًا سوى أنى رأيته قبل ذلك فى البلاط وبحوزته عدة مشاريع إلى إثيوبيا".

وفى خطاب آخر مؤرخ فى ٨ مايو من نفس العام يضيف " *إننى قلت لذلك الرجل ناصحًا أن يذهب إلى إسبانيا فأجابنى أنه لا يستطيع إطلاقًا وأنه يفكر فقط فى اللجوء إلى البرتغال. لذا فعندما أود التخلص منه سوف أمنحه جواز السفر* ".

واختفى إسنيبال تمامًا منذ ذلك الحين، ولم تتحدث عنه الوثائق الإسبانية بعد ذلك.

وأود هنا إنهاء موضوع إسنيبال وحملته بكلمة:

فقد تحدث هذا الرجل مرارًا عن زوجته فى مذكراته وبلاغاته قائلاً إنها تنتمى إلى أسرة رولنجين، وعليه فهى ذات قرابة مع نبلاء ألمانيا. وعندما وصل إسنيبال إلى لشبونة وأعلم الماركيز دى لا كانديا بفشل مهمته كتب فى آخر الخطاب:

"أبلغكم وافر تحيات قرينتى الكونتيسة" مما أثار ريبة سفيرنا، فعندما نقل الرسالة إلى مدريد أضاف: "وأنا لا أعرف هذا الكونت ولا قرينته مما يجعلنى أرتاب فى طريقة الخطاب الموجه إلينا فى هذا الصدد". وأخيرًا يقول أحد أصدقاء جيبرز فى خطاب وجهه له من مدريد:

> **"أنتم سعداء لأن الإنجليز لم يدققوا فى الأمر أكثر من ذلك، فقد كان معارضًا. وصحيح أنه حين يشنق مع عشيقته وقائده قصير القامة فلن نتألم لذلك كثيرًا".**

وهكذا انتهت المهمة التى كانت ستهدى إلى ملك إسبانيا كل أراضى البحر الأحمر وكمية كبيرة من تبر الذهب التى يجلبها النيل ليتركها على ضفافه عندما تنحسر مياه فيضانه.

الفصل الثلاثون

قنـــاة الســـويس

أنهى هذا الكتاب بوصف الملامح الرئيسية لتاريخ قناة السويس وأحداثها، ذلك العمل المعجز الذى قصّر المسافة التى كانت تفصل أوربا عن الشرق إلى حد كبير.

ومن المعروف أن مشروع دليسبس لم يكن جديدًا عندما قدمه إلى خديو مصر سعيد باشا سنة ١٨٥٤، ولم يكن تنفيذه مستحيلاً. فالتاريخ يذكر أن قدماء المصريين كانوا يبحرون بسفنهم من الإسكندرية إلى البحر الأحمر. على أن ذلك لا يقلل من قيمة تلك المبادرة المسلم بها، أو قيمة العمل الذى تم فى أيامنا الحالية، بالتغلب على العقبات والصعوبات التى لم يستطع القضاء عليها سوى عبقرية وإصرار ذلك الفرنسى الذى نبغ فى مجالات عديدة.

أول قناة فى مصر

وترجع أول قناة شُقت فى الأراضى المصرية لتربط بين بحور القارتين إلى عصر الأسرة الثامنة عشرة الطيبية، فتظهر نقوش على جدران معبد الكرنك نص يتحدث عن عودة سيتى الأول من آسيا ويتحدث عن " تا تنات" أو قناة محفورة عبـَرها الملك فى طريق عودته لمصر. وقد أعطى رمسيس دفعة لأعمال الحفر، واستطاع أن يوصل سفن البحر الأحمر حتى أسوار طيبة فى عهده.

وصف هيرودوت لها

ولا بد أن تلك القناة اختفت أثناء أزمة تقسيم الإمبراطورية المصرية بنهاية الأسرة العشرين. فكان إهمال تنظيف القناة والعناية بها كافيين لأن تردمها الرمال

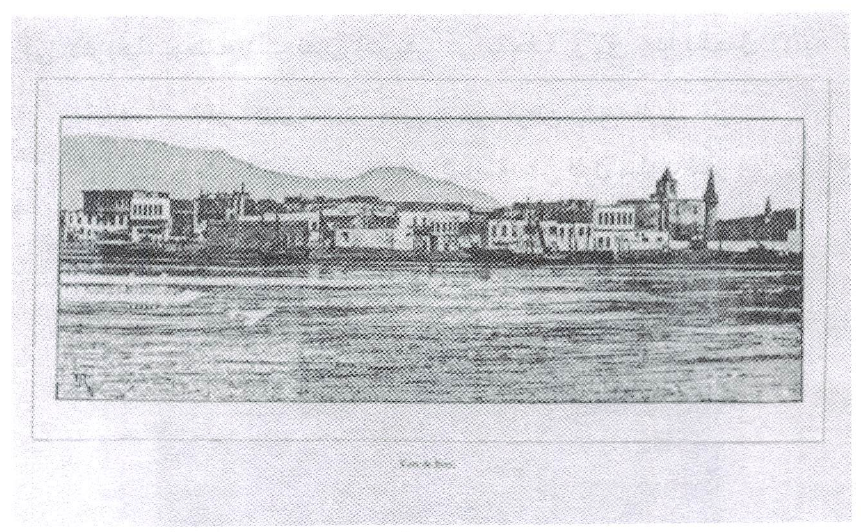
وتسد مجراها. وأراد نخاو الذى ولى عرش مصر سنة ٦١١ ق.م، أن يعيد حفر القناة، وبلغت أعمال الحفر من الأهمية ما جعل المؤرخين ينسبون إلى ذلك الملك إنشاء القناة. ويتحدث هيرودوت عنها قائلا:

"وخلف نخاو أباه بسماتيك على عرش مصر. وكان أول من قام بعمل القناة، وأكملها من بعده دارا الفارسى. وكانت تربط النيل بالبحر الإريترى، ووصل طولها إلى أربعة أيام من الإبحار، وكانت تتسع لمركبين بمجاديفهما يبحران سويًا. وكانت مياه القناة تأتى من النيل بالقرب من مدينه تل بسطا وتنساب فى القناة حتى تصب فى البحر الإريترى بالقرب من "باتومو" وهى مدينة عربية. وقد بدء الحفر فى سهول مصر المتاخمة لشبه جزيرة العرب ويحدها من جابنها العلوى الجبل الذى يمتد حتى قرب منف، وتحتوى تلك السهول على المحاجر المذكورة آنفا. وبمرور القناة عند سفح ذلك الجبل تمتد من الغرب إلى الشرق وعند الوصول إلى مضايق السلسلة تحيد ناحية" نوتو" أو الجنوب. ثم تصب فى الخليج العربى. ولكى نصل من البحر المتوسط إلى البحر الجنوبى- وهو نفس البحر الذى يدعى الإريترى- فأقصر طريق يمكن إتباعه هو الذى يبدأ من جبل كاسيو الذى يفصل مصر عن سوريا ويبعد عن الخليج العربى بمقدار ألف إستاديا[1]، وأكرر أن هذا هو أقصر طريق، لأن طريق القناة أطول بكثير لما فيه من الالتواءات. وقد هلك فى إنشائه مائة وعشرون ألف رجل خلال حكم نخاو، رغم أنه لم يكمله بسبب نبوءة عرّاف أخبره أنه يعمل بنشاط كى يوفر التعب على البربرى أى الأجنبى، لأن المصريين كانوا ينعتون كل من لا يتحدث لغتهم بهذا الوصف".

---

(١) مقياس إغريقى يبلغ ٦٠٠ قدم أو ١٤٧ مترًا. لاروس (المترجم).

وكما يشير هيرودوت، فنجد " دارا" بعد ذلك يعيد العمل ويكمل القناة التى وصلت النيل بخليج السويس. رغم أنه أمر بعد ذلك بردمها فى أكثر من موضع من أول "بيرا" وحتى البحر، ومن المؤكد أنه كان يخشى تحقق نبوءة عرّاف الملك نخاو عندما قال إن القناة سوف تسهل للأعداء غزو المملكة.



منظر عام لمدينة السويس

القنوات البطلمية

وقد أولى البطالمة الأوائل القنوات عناية كبرى. فلم يكتفوا بفتح القناة الموصلة من النيل إلى البحر الأحمر من جديد لكنهم قسّموها إلى ذراعين تبدأ إحداهما عند فاقوس وتنتهى عند بحيرات بيلوزا، والأخرى تصل بين "البلح" والبحيرات المُرة. غير أنها أهملت مع اضمحلال حكم البطالمة وربما هجرت أيضًا، إذ إن كليوباترا أرادت التوجه إلى المنطقة العربية عند هروبها من أسطول أوكتافيو ومعها كنوزها وسفنها إلا أنها فوجئت بأن السفن لا تستطيع الإبحار فى تلك القناة لقلة المياه بها.

وشُقت قناة أخرى فى العصر الرومانى وكانت تبدأ عند ضواحى القاهرة وتتجه إلى السويس، ويعتقد أن الخليج الحالى هو جزء من تلك القناة. وقد سميت "أمنيس تراجانوس" لكونها حفرت فى عصر ذلك الإمبراطور. وقام هادريان بشق قنوات اتصال أخرى بين النيل والسويس وأصلح النقاط الرومانية على الساحل الشرقى لأفريقيا، يوضح ذلك نصٌ إغريقى فى متحف بولاق يبدأ بالجمل الآتية :

"أمر النائب العام هادريان أبو الوطن بشق طريق من أنتينوى إلى برنيس يمر بالأماكن المؤمَّنة على طول ساحل البحر الأحمر، وتكون به عيون الماء والمحطات الحربية والقلاع".



عيون موسى

غير أن المراكب التى غامرت بالمرور عبر تلك القنوات من البحر الأحمر وحتى المتوسط كانت قليلة سواء فى العصر الرومانى أم فى العصور اللاحقة وكانت المراكب ترسو عادة فى موانئ برنيس والقصير وتـنقل حمولتها عن طريق قوافل الجمال التى تعبر الصحراء حتى قفط أو قِنا، وهناك كانت تحمل على مراكب أخرى فى النيل تبحر حتى الإسكندرية ومنها تنقل البضائع إلى مراكب أخرى كانت تصل بها إلى الموانئ المختلفة للمتوسط.

دمـــارها وإهمال العرب لها

ولما وقعت مصر تحت الحكم الإسلامى أراد عمرو الإبقاء على القنوات الرومانية القديمة، والتى كانت تسهل نقل القمح إلى الجزيرة العربية. لكن الخليفة المنصور أمر بردمها فى القرن الثامن الميلادى. ومنذ ذلك الوقت لم يفعل حكام مصر الجدد شيئا لإعادة الاتصال بين البحرين المتوسط والأحمر. وليس ذلك غريبا إذا ما أخذنا فى الاعتبار أن العرب لم يكونوا بحارة قط. كما أن روح التعصب عندهم جعلتهم يعارضون استخدام الشعوب الأخرى مزايا ذلك النوع من النقل، لذلك فعندما رأت جمهورية البندقية أن مصالحها التجارية كانت مهددة فى أواخر القرن السادس عشر بسبب اكتشافات "فاسكو دى جاما"، وأرادت شق قناة السويس حتى تسهل الملاحة لأسطولها، عارض سلاطين مصر من المماليك بشدة ذلك المشروع.

مشروع نابليون الأول

وأثناء الحملة الفرنسية على مصر رأى القنصل بونابرت الفائدة العظمى التى يمكن أن تجلبها قناة تربط بين البحرين، ليس فقط بالنسبه لتنمية التجارة مع بلاد الشرق ولكن أيضا بالنسبة لمشاريعه التوسعية فى الهند. فعهد إلى أحد أعضاء اللجنة العلمية التى كانت برفقته بدراسة الموضوع وهو السيد "ليبير"، الذى قدم بعد ذلك بعامين أى فى سنة ١٨٠٣م، إلى القنصل الأول "مذكرته حول وصل بحر الهند مع المتوسط عن طريق البحر الأحمر وقناة السويس" وكان مشروعه يحدد مجرى القناة من السويس مرورًا بالبحيرات المرة ثم تل بسطة ثم الإسكندرية قاطعًا النيل وقنوات الرى الأخرى. وكانت تكلفته تربو على ثلاثين مليونًا من الفرانكات.

ولما رأى نابليون عظـمَ المشروع أسف كثيرا لعدم إمكانية تحقيقه. ويُحكى أنه قال وهو يعيد المذكرات التى سُــلمت إليه:

"إن المشروع ليس بالهين ولذلك لن أستطيع تنفيذه بنفسى، فسوف تجد الحكومة التركية يوما ما بقاءها ومجدها فى تنفيذ ذلك المشروع".

شركة فردناند دليسبس

واستمرت الدراسات حول القناة، قام بها العديد من المهندسين حتى عام ١٨٥٤، عندما سنحت الفرصة لقنصل فرنسا فردناند دليسبس ليتحدث مع الخديو سعيد باشا عن المشروع: يقول دليسبس إنه أثناء رحلة إلى القاهرة مع أمير الإسكندرية عن طريق الصحراء الغربية "*تحدثنا لأول مرة عن شق قناة السويس*".

وتفهّم ولىّ العهد النتائج العظيمة المرجوة من ذلك العمل وطلب من القنصل كتابة مذكرة، سُلمت إليه فى الخامس عشر من نوفمبر سنة١٨٥٤. وبعد خمسة عشر يومًا صدر الفرمان الموجه "إلى صديقه الوفى، ذى الأصل الشريف والمقام العالى السيد فردناند دليسبس" مانحًا إياه حق استغلال الأراضى الضرورية لشق القناة.

وأكدت لجنة دولية كان من بين أعضائها إسبانى هو السيد *مونتى سينوس* إمكانية تنفيذ الأعمال، وأنه لا توجد معوقات كبيرة بالنسبة لحالة الأرض ولا بالنسبة لفارق المستوى بين البحرين الذى كان يُعتقد قديمًا أنه يصل إلى ثمانية أمتار. ولما ثبت عدم صحة هذا الاعتقاد نودى باكتتاب عام فى أوربا. وبدأ العمل فى الخامس والعشرين من أبريل لعام ١٨٥٩م، وانتهى فى السادس عشر من نوفمبر لعام ١٨٦٩م، وهو اليوم الذى افتتحت فيه قناة السويس رسميًا.



فردناند دليسبس

وأثناء سير العمل تم التغلب على عقبات خطيرة وضعها الإنجليز والأتراك. وبسبب خطأ شائع جدًا بين الحكومات يعتقد أن من يضع عقبات أكثر فى طريق العمل هو الذى يستفيد أكثر. فادّعَت إنجلترا أن مشروع القناة ليس عمليًا، ولذلك أعلنت حربًا مفتوحة على الشركة الفرنسية التى قادت العمل فى القناة. وكانت على وشك تحقيق أغراضها فى بعض الأوقات، فحرضت فى عام ١٨٦٣م، الحكومة التركية على مطالبة الحكومة المصرية بإلغاء العمل القهرى الذى كان- تبعًا للعادة- يلزمها بتقديم الفلاحين للعمل، وترك قناة المياه العذبة التى حفرت لإعاشة العمال، واسترجاع الأراضى الممنوحة للشركة. واضطرت الشركة إلى إلغاء الأعمال، ولكن سريعًا ما تم تفادى العاصفة، ورجع العمل طبيعيًا حتى إنهاء القناة.

وصـــف القنـــاة

ولنتحدث عن القناة نفسها التى يصل طولها إلى ١٦٠ كم. وأقيمت على ضفافها ثلاث مدن مهمة هى بورسعيد من ناحية أوربا، وهى مدينة جديدة بنيت

لسد حاجة التجار، والإسماعيلية التى تقع فى منتصف الطريق، والسويس من ناحية الجنوب غرب القناة، وهى تبعد ٤كم عن الميناء.

وتبدأ القناة من بورسعيد وتتوغل لمسافة قصيرة فى الصحراء ثم تلتقى ببحيرة المنزلة التى تستمر فى خط مستقيم لمسافة ٤٩كم. ثم تتجه بعد ذلك ناحية برزخ الجير الذى يتكون من ثلاثة التواءات يصعب المرور فيها حيث تصل أنصاف أقطارها إلى ١٧٠٠، ٢٠٠٠، ١١٠٠ متر فقط وتصب فى بحيرة التمساح التى تقوم على ضفافها مدينة الإسماعيلية، وهنا تصب قناة المياه العذبة التى تروى هذه المنطقة من البلاد فى قناة الملاحة.

وعندما تجتاز القناة بحيرة التمساح تمر على طوسوم والسرابيوم ثم تعبر إلى ما يسمى بالبحيرات المرة وهى عبارة عن منخفض صحراوى بعمق١٢ مترًا وبعرض١٠ كم وامتداد ٢٠ كم. وقد وضع فى تلك البحيرات صفٌ من الشمندورات التى تشير إلى الطريق التى يجب على السفن اتباعها. ثم تتوالى البحيرات الصغيرة والتى تدخل القناة بعدها إلى القسم الأخير منها. وتوجد أربع عشرة محطة على طول القناة تبعد كل واحدة عن الأخرى مسافه١١ كم، وهذه المسافات تعمل كمحطات تتقابل فيها قوافل المراكب التى تبحر فى اتجاهات متقابلة.

ولا يستوى مجرى القناة على طول مجراها. ويبلغ متوسط العمق ٩ أمتار والاتساع ٢٢ مترًا، والشاطئان عبارة عن ثلاثة أو أربعة مدرجات فوق بعضها. ولا تخلو القناة دائمًا من العراقيل كما ينبغى لها أن تكون، فبسبب عدم ثبات الأراضى على الجانبين تسقط انهيارات كبيرة من الرمال على الجانبين. نظرًا لذلك ولصعوبات أخرى وضعت الشركة المسئلة قواعد لسير السفن وأمرت بألا تتجاوز سرعتها ١٠كم/س، وألا تبحر ليلاً إلا فى ظروف استثنائية. لذا فإن المسافة التى تقطعها المركب فى الظروف العادية فى ثمانى ساعات تصل الآن إلى يومين فى حالة عدم وجود عوائق أخرى. غير أن التجهيزات الحديثة أدخلت استخدام الكهرباء فى الملاحة بالقناة، ولذلك فهى تسمح بمرور المراكب بين المحطات خلال ساعات معينة من الليل.

وتزيد العقبات فى القناة حيث ترتطم المراكب بالشط عادة. كما أن المراكب المخصصة للملاحة إلى الشرق الأقصى لها قدرة عالية وماكيناتها ذات قوة كبيرة لدرجة أنها تبحر عادة بسرعة ١٤ إلى ١٥ ميلا فى الساعة. ولا يمكن أن تسير أكثر من خمس أو ست منها معًا، وكثيرًا ما تخرج دفة السفينة عن السيطرة وخاصة عند المرور بالمنحنيات فتميل وترتطم بالشاطئ عند مقدمتها. وعندئذ يتعطل الإبحار فى القناة، وتجبر السفن أحيانا على تفريغ حمولتها حتى تطفو مرة أخرى على السطح.

وقد نوقشت كل هذه المعوقات منذ عدة سنوات فى إتفاق القسطنطينية سنة ١٨٧٦، وتعهدت شركة القناة بإنفاق ثلاثين مليون فرانك فى أعمال التحسين لمجرى القناة وللمرافئ، مثل إطالة خليج بورسعيد وتوسيع خليج القنطرة من ٥٠٠م إلى ٤٠٠٠ متر. وتوسيع خليج بحيرة التمساح وخليج الكيلو ١٣٣ بإزالة بعض المنحنيات. واستخدمت فى ذلك ثلاث كراكات ماركة جوين، وكراكة بحرية ورفاسًا بحريًا، وأربعة عشر لنشًا لجر المراكب، ذات ماكينات ضغط مضاعف. ومنذ ذلك التاريخ وحتى ١٨٨٦م، تم إنفاق خمسة ملايين فرانك فقط، وقد أنفقت لحفظ القناة وليس لتحسينها. وتم توسيع القناة إلى ٦٥ مترًا فى المسافة ما بين البحيرات المرة وبورسعيد، وتوسيعها إلى٧٥ مترًا عند المنحنيات الأكثر اتساعًا.

موقف إنجلترا

لخَّصنا هكذا فى السطور السابقة كل ما يتعلق بالقناة التى قامت الشركة الفرنسية بشقها. وبقى أن نتحدث عن موقف إنجلترا والمصالح التى يمثلها هذا المجرى الملاحى لها. فمن المعروف أن ديزائيلى رئيس الحكومة البريطانية اشترى ١٧٦ ألف سهم من الخديو إسماعيل، وطالب فى الحال من الشركة

بتخفيض ٢٠٪ من حمولة المراكب التى تمر بهذه القناة. ولم يتحقق شىء عن طريق المفاوضات الدبلوماسية، واستمرت سياسة الوضع الراهن سنوات كثيرة بسبب أحداث ثورة عرابى بك. وكان لا بد لتدخل إنجلترا من تعويض عن المصروفات الهائلة التى أنفقتها، وقد بحثت إنجلترا عنها فى قناة السويس. ولم تـجِد معهم اعتراضات دليسبس على تحويل ميناء الإسماعيلية إلى مركز عمليات ضد القوات الوطنية المصرية. فكان موقف الحكومة البريطانية ثابتًا وقاطعًا وأعطى ضربة قاضية للنفوذ الفرنسى فى مصر. ولا يعرف بالضبط مصير القناة حتى كتابة هذه السطور، والعمل جار لتحقيق عدم انحياز القناة لأى من الأطراف.

الســـــــــويس

وقد تطورت المدن الثلاث التى شيدت على ضفتى القناة. وعلى ضفة البحر الأحمر توجد مدينة السويس. ويبلغ عدد سكانها ١١ألف نسمة، وهى مدينة قذرة وتفتقد إلى العناية وتملأ أرجاءها الحارات الضيقة. وتملؤ محلاتها منتجات البحر الأحمر. وكانت قديمًا تسمى قلزما كما ذكرها لوتشياتو، وحـوِّلـت إلى قلعة فى عصر دارا، وكان يعيش فيها حامية عسكرية لحماية القناة التى أعاد شقها الملك الفارسى.

وسماها الجغرافى بطلميوس (Clisma Prasidium) غير أنه حدد مكانها جنوبى الخليج بعدة فراسخ. وعرفها العرب باسم "قُـلزِم" وعانت من التدهور خلال حكمهم حتى أن عبد الفدا يذكرها كنقطة انطلاق للقوافل المتجهة للطور فقط. وكان سكان المدينة ٢٥٠٠ نسمة فقط قبل بداية العمل فى القناة. أما الآن فالمدينة بائسة وفقيرة ويفصلها عن الخليج شاطئ منخفض، يصل عرضه إلى أكثر من أربعة أميال يغزوها أحيانًا مدّ البحر لبعض الوقت يوميًا. إن الحياة بها عبارة عن منفى حقيقى.

عيـــــــــون موسى

وعلى الجانب المقابل من الخليج وعلى مرأى من السويس نجد سلسلة جبل التيه، والتي تحتوى بداخلها على واحة صغيرة. تمتلئ بأشجار النخيل. إنها عيون موسى أو منطقة آبار موسى، وهو مكان يعتقد أن الإسرائيليين استراحوا فيه عند نزوحهم من مصر كما تروى الكتب المقدسة. وهناك جرت معجزة على يد موسى عندما انبجست المياه من الحجر حين ضرب الأرض بعصاه السحرية.

وتمتد الواحة الحالية ميلين أو ثلاثة عند سفح السلسلة باتجاه البحر. ويمثل لون الواحة الأخضر البهى تعارضًا كبيرًا مع قفر الصحراء المحيطة بها وعزلتها. وتكثر فيها أشجار النخيل والتمر هندى وشجر السنط، وتحت ظلالها تمتد أراضى الرى التى يزرعها العرب المقيميون بالواحة. وتفيض من الأرض أربع أو خمس عيون بالماء المندفع ويحيط إحداها سور من الحجر القديم، ومياهه صالحة للشرب رغم أنها مالحة بعض الشيء. أما العيون الأخرى فمياهها راكدة ويملؤها الكبريتوز.

الإســـــــماعيلية

تقع بحيرة التمساح فى وسط المسافة بين السويس وبورسعيد، وعلى شاطئها الغربى شيدت مدينة الإسماعيلية. ويبعث منظر المدينة البهجة فى النفس، وأول ما يلاحظ عليها - رغم كونها مدينة أفريقية - أن أحياءها ليست عربية وشوارعها ليست قذرة ومحلاتها نظيفة.

أشرفت شركة القناة على بناء الإسماعيلية، وبالتالى فهى مدينة أوربية، شوارعها واسعة وبهية تملؤها الأشجار والحدائق الممتدة والفنادق الجميلة، وحتى بيوت العمال تم تشيدها على نسق واحد. ربما يؤدى ذلك التوحيد لشكل المبانى إلى بعض الرتابة والملل. وقد أمر الخديو إسماعيل بتشييد أحد أفخم قصوره هناك وهو مهجور الآن ومحطم تقريبًا. وبلغت الإسماعيلية أوج عظمتها أثناء حفر قناة السويس، فكانت مركزًا للأعمال ومقرًا للعمال الكثيرين للشركة العظمى. لكنها سرعان ما تدهورت، وهى الآن مدينة خُلو من الحياة. فلا تتوقف السفن العابرة للقناة بمينائها، ويعيش بها بعض القباطنة وعمال الشركة. ولا تربو محلاتها المفتوحة فى شوارعها الفسيحة على العشرين.

وتوجد حول قناة المياه العذبة – التى تخرج من القاهرة إلى السويس مرورًا بالإسماعيلية – آثار مدينة "با رمسيس" والتى تعرف بين العرب باسم "تل المسخوطة". وقد أكتشفت فيها آثار مهمة منذ سنوات قلائل وهى الآن تزين حديقة صغيرة فى مدينة الإسماعيلية، ومنها على سبيل المثال ثالوث منحوت من الحجر يمثل رمسيس جالسًا بين المعبودين رع وتوم، ومعبد صغير أو مقصورة وتمثالان لأبى الهول وبعض التماثيل، والتى تحمل أيضًا اسم ذلك الملك المصرى جليًا فى أعمدة من النقوش الهيروغليفية البديعة.

بورسعيد

وأخيرًا، وعلى اللسان اليابس الضيق الذى يفصل البحر عن بحيرة المنزلة وعند التقائه بقناة السويس شيدت مدينة بورسعيد بشوارعها الفسيحة وحدائقها ومحلات الموضة والمقاهى والفنادق على الطريقة الأوربية. وهى تبدو كالحارس الذى أوفدته الحضارة الحديثة فى هذه المنطقة من أفريقيا كى يرحب بالزائرين العائدين من بلاد الشرق الأقصى.

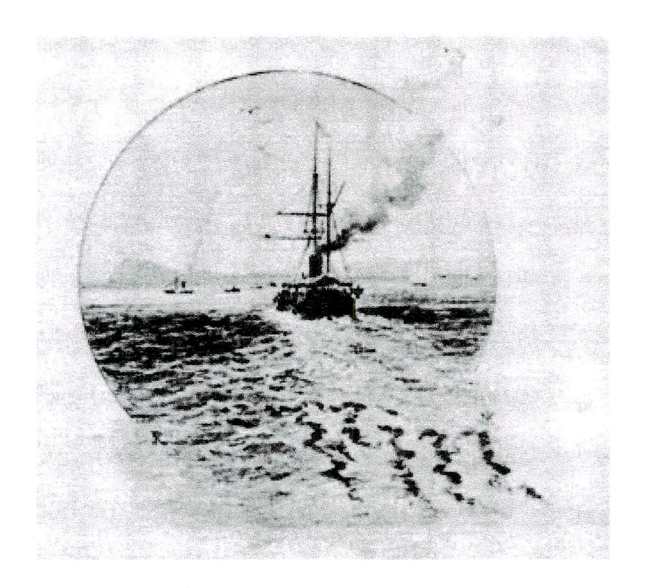
ولدت بورسعيد مع قناة السويس. فلم تكن تلك المدينة التى بلغ سكانها ١٧ألف نسمة إلا خلاء من الرمال قبل ذلك. ومن الواضح أن المدينة كانت ستتقدم بخطى واسعة لو لم تتعرض لمقارنات محلية بائسة تعوق تطورها. فقد نظرت الإسكندرية دائما إلى تشييد بورسعيد وتطورها بعين السوء، فهى تعتقد أنها ستخسر كل ما تكسبه بورسعيد فى مجال التجارة. والشعور السائد هو أن الحكام المصريين يتبنون هذا الفكر بأنفسهم. فباشاوات القاهرة هم أصحاب أملاك فى الإسكندرية ولحرصهم الأنانى على أن تحصد منازلهم ومحلاتهم أعلى الإيجارات فهم يضحون بحاجة بورسعيد إلى مقومات الحياة التى تحتاجها مدينة فى أهميتها. ولذلك السبب تحدث هناك أشياء قد تبدو غير معقولة بالنسبة لقرائى من الأوربيين. فمصر تبخل على بورسعيد بالمياه. ولم توجد حتى الآن وسيلة بشرية ولا نفوذ كاف لنيل إذن من الحكومة الخديوية لإيصال قناة المياه العذبة التى تخرج من القاهرة وتصل إلى الإسماعيلية والسويس حتى ساحل البحر المتوسط. ولا يوجد سوى طلمبة متحركة وضعتها الشركة الفرنسية عند الإسماعيلية لتضخ المياه عبر مواسير حديدية تمتد بمحاذاة الشاطئ الغربى للقناة وحتى بورسعيد. وعندما تتعطل تلك الآلة فى أى يوم لا تشرب بورسعيد المياه العذبة، وإذا ما عملت الآله بكفاءة فإن كمية المياه التى تغذى المدينة دائمًا ما تكون غير كافية لاستهلاك السكان واحتياجات المراكب الكثيرة التى تتوقف فى الميناء.

ما أتعس هذا البلد الذى نجد فيه فى كل شبر منه أمثلة مؤسفة كهذه.

نهـــــــاية الرحلة

وصلنا الآن إلى نهاية المطاف. وتمتد أمامنا صفحة مياه البحر المتوسط الزرقاء كمرآة ناصعة تنعكس عليها أشعة السماء الصافية التى تظل العالم اللاتينى.

هنا أترك قرائى، ورؤوسهم تمتلئ بالذكريات، وقلوبهم يجرحها الأسى جراء المصائب الحالية التى أصابت بلاد مصر الجميلة. وأصعد السفينة التى ستقلّنى إلى شواطئ شبه الجزيرة الأيبيرية الباسمة. وهناك تقع بارثينو[1]، بلد الكونت التى لم تغب عن ذهنى لحظة، بل تضاعف فى قلبى حبُها، ولسوف أتأملها بعد غياب طويل، وأبحث فى أحضانها عن الراحة اللازمة لجسمى، والتشجيع من جديد لروحى حتى أسلك سبلاً أخرى، وأنجز أهداف الحياة المنطقية بطريقة أفضل.



مركب الكاتب تغادر الإسكندرية

(١) هكذا كانت تدعى برشلونة قديمًا- لاروس، ص ١٠١٨ (المترجم).

المؤلف فى سطور:

إدواردو تودا

- ولد فى التاسع من يناير ١٨٥٥م فى مدينة ريوس عاصمة تاراجونا من أعمال إقليم قطالونيا الإسبانى.
- حصل على ليسانس القانون المدنى من جامعة مدريد عام ١٨٧٣م.
- التحق بالسلك الدبلوماسى الإسبانى عام ١٨٧٦م. وتنـــقل بين العديد من بلاد العالم للعمل بالخارجية الإسبانية.
- عمل قنصلاً عامًا لإسبانيا فى مصر بين عامى ١٨٨٤ و ١٨٨٦م.

المترجم فى سطور

السيد محمد واصل

- السيد محمد أبو العطا واصل.
- مواليد المنوفية فى ١٩٧٠/٢/١٨
- تخرج فى قسم اللغة الإسبانية – كلية الألسن – جامعة عين شمس.
- دبلوم الإرشاد السياحى. كلية سياحة وفنادق – جامعة حلوان.
- حاصل على الدبلوم الدولى فى اللغة الإسبانية DELE SUPERIOR من معهد ثربانتس بمدريد.
- حاصل على دبلوم الترجمة الفورية والتحريرية – كلية الألسن – جامعة عين شمس.
- عضو هيئة التدريس بالمعهد المصرى العالى للسياحة والفنادق.
- قام بالترجمة التحريرية والتتبعية والفورية فى عدة مؤتمرات سياحية وعلمية.
- مارس الإرشاد السياحى منذ تخرجه حتى تاريخه.

المراجع فى سطور

محمود السيد على

- أ.د محمود السيد على، أستاذ الأدب الإسبانى والنقد الأدبى، قسم اللغة الإسبانية وآدابها، كلية الآداب، جامعة القاهرة.
- مدير مركز دراسة الثقافات الإيبيروأمريكية.
- جائزة الدولة التشجيعية فى الأدب – الترجمة ١٩٩١
- المستشار الثقافى، مدير المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد يناير ١٩٩٩ – يوليو ٢٠٠٢
- عضو الجمعية الدولية للمترجمين الفوريين.
- أستاذ زائر: دراسات دكتوراه الثقافات المتوسطية، جامعة روفيرا إى بييرجيلى، تاراجونا – كومبلوتنسى مدريد إسبانيا.
- أستاذ زائر بجامعة قرطبة – إسبانيا، ماجستير الحلول السلمية للنزاعات.
- أستاذ زائر بكلية القانون، الدراسات العليا، جامعة ميسينا، إيطاليا.
- أستاذ زائر بالجامعة الوطنية، سانتياجو – شيلى، الاجتماعات وبوينس أيرس، الأرجنتين.

التصحيح اللغوى: وجيه فاروق

الإشراف الفـــنى: حسن كامل